جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

كشف المحجوب للهجويري

دراسة وترجمة وتعليق
دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل

راجع الترجمة :
دكتور أمين عبد المجيد بدوي

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة

الكتاب التسعون

جمادى الأولى ١٣٩٤
يونية ١٩٧٤

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

« مزار الهجويرى فى مدينة لاهور بالباكستان »

مزار حضرت داتا كنج بخش هجويرى

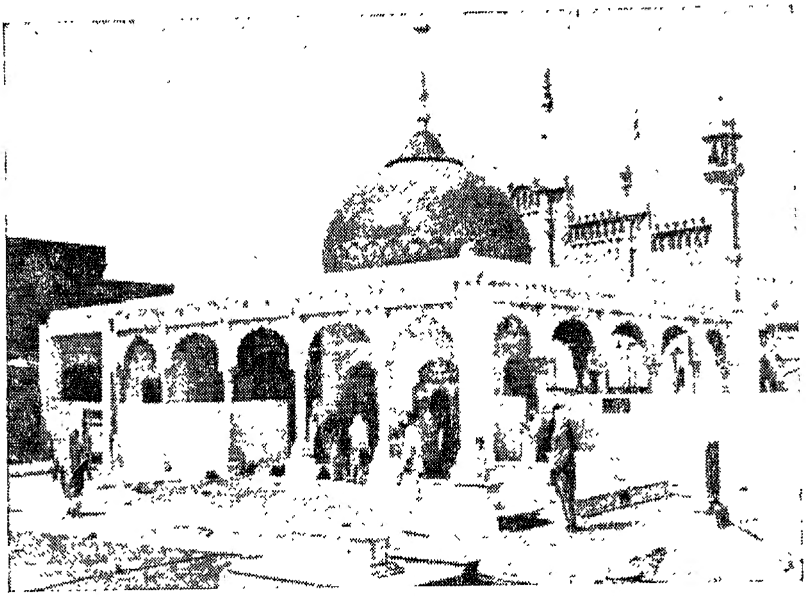

منظــر خارجى للمــزار يظهــر فيه المســجد
والضريح وبعض قبــور المريدين فى الفنــاء

كلمة وفاء

بدأت معرفتى بالهجويرى وكتابه « كشف المحجوب » فى عام ١٩٥٧ ، حين كنت ادرس التصوف فى ايران على أستاذى الجليل المغفور له الأستاذ الدكتور ابراهيم أمين الشواربى أستاذ اللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة عين شمس.وكان أستاذى رحمه الله كثير الاشارة الى الكتب الفارسية فى التصوف الاسلامى ، وكان يألم ويأمل من أجلها : يألم لأن المستشرقين سبقوا الى نشر بعضها ، وترجمة البعض الى لغاتهم ، ويأمل فى أن يقوم تلاميذه يوما بنقل هذا الجزء الهام من التراث الاسلامى الى اللغة العربية واثراء المكتبة العربية بهذا النتاج القيم للفكر الاسلامى .

وكان من بين الكتب التى عنى أستاذى بالحديث عنها كتابان طالما نبه الى قيمتهما فى دراسة التصوف ، وهما : كتاب « أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد » لمحمد بن المنور ، وكتاب « كشف المحجوب » لعلى بن عثمان الجلابى الهجويرى .

وعندما تهيأت للدراسات العليا وقع اختيارى على الكتاب الأول ليكون موضوع دراستى للماجستير ، وأتممت فى عام ١٩٦٤ اعداد بحث عن أبى سعيد بن أبى الخير مع ترجمة كتاب أسرار التوحيد . وفى نفس العام اخترت الكتاب الثانى ليكون موضوع دراستى للدكتوراه ، وعلى مدى خمس سنوات تمكنت بعون الله فى عام ١٩٦٩ من اعداد بحث عن « الهجويرى ومذهبه فى التصوف كما يبدو من كتابه كشف المحجوب » تحت اشراف الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين .

غير أن صحبتى لكشف المحجوب لم تنقطع بعد الدكتوراه ، فقد كنت أشعر فى قرار نفسى بأهمية نقل هذا الكتاب النفيس الى اللغة العربية حتى يفيد منه الدارسون للتصوف الاسلامى ممن لا يعرفون اللغة الفارسية ، فعكفت على ترجمة الكتاب ، واعداد حواش وافية وتعليقات على

الترجمة ، وتحقيق ما ورد فى الـكتاب من اقـوال وروايات وردها الى أصولها العربية .

وتم هذا العمل بعون الله ، وانى أرجو به أن أكون قد وفقت الى تحقيق شيء مما كان يأمل فيه أستاذى ، وأن يعمل غيرى لاكمال المسيرة ، فيتم نقل جميع الكتب الصوفية الفارسية الى لغتنا العربية الحبيبة .

والله ولى التوفيق ..

جمادى الأولى ١٣٩٣
يونيـه ١٩٧٣

د. اسعاد عبدالهادى قنديل

تقديم

مؤلف كشف المحجوب هو : أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى،كان عالما من علماء الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ، ومعاصرا للدولة الغزنوية (٣٨٧ — ٥٨٢ هـ) ، وتوفى فى عهد السلطان ابراهيم الغزنوى (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) .

والهجويرى ولد فى مدينة «غزنه» بالهضبة الأفغانية ، ومنها استمد لقبه « الغزنوى » ، كما يلقب بالجلابى والهجويرى نسبة الى « جلاب » و « هجوير » وهما محلتان من توابع غزنة . وتاريخ ميلاد الهجويرى غير معروف ، وان كان من المرجح أنه ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ولا نعرف عن حياة الهجويرى الخاصة الا القليل مما يشير اليه فى كتابه كشف المحجوب ، ونتبين منه أنه تتلمذ على أبى العباس الشقانى ، وسلك طريق الصوفية بارشاد أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى ، وتلقى بعض التعاليم الصوفية على أبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ) و (خواجه) المظفر أحمد بن حمدان ، والتقى بمعاصره أبى القاسم القشيرى (٤٦٥هـ) .

ويبدو أن الهجويرى تلقى علومه الأولى فى موطنه غزنة،ولما بلغ مبلغ الشباب سلك مسلك علماء عصره فى السفر والتجول ، وقام برحلات واسعة النطاق ، تنقل خلالها فى أرجاء العالم الاسلامى : من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهند ، فزار: العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان وفارس وآذربيجان وجرجان والهند ، وأمضى فى هذه المناطق فترات كانت تقصر حينا وتطول أحيانا ، واختلف خلالها الى عدد من شيوخ الصوفية المعروفين ، فكان يلازم بعضهم وينخرط فى سلك مريديهم ، ويتردد على البعض الآخر ويتلقى منهم تعاليمهم .

وقد امتدت رحلات الهجويرى حتى سنة ٤٣١ هـ ، وهى السنة التى زار فيها مدينة لاهور بالهند للمرة الأولى ، وكان لا يزال فى هذه المدينة

عندما وقعت بها الفتنة سنة ٤٣٥ هـ فى عهد السلطان مودود الغزنوى (٤٣٢ — ٤٤١ هـ) وأسر بين الأسرى . ومن المرجح أن الهجويرى ترك لاهور عائدا الى غزنه وخراسان فى الفترة ما بين ٤٣٥ ، ٤٤١ هـ ، غير أنه رجع الى الهند مرة أخرى ، واستقر به المقام نهائيا فى مدينة لاهور ، وظل بهـا الى أن توفى .

وقد هيأت هذه الرحلات الطويلة للهجويرى سبل الاتصال بعدد كبير من شيوخ الصوفية ، وأئمة المذاهب الدينية ، ورؤساء الفرق الاسلامية المختلفة ؛ ومكنته من الوقوف على جميع التيارات الدينية التى كانت تسود العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى ؛ ويسرت له فرص الاطلاع على العديد من المؤلفات الدينية والصوفية ، فاكتسب عن طريق هذا وذاك خبرات علمية واسعة ، ومارس التجربة الصوفية علما وعملا . كما أمدته هذه الرحلات بحصيلة وفيرة من المعلومات القيمة التى ضمنها كتابه واستخدمها فى مناقشاته للموضوعات التى تناولها .

وكان الهجويرى من أوائل الدعاة الى الاسلام فى شبه القارة الهندية ، وقد أسهم فى تحول عدد كبير من سكان لاهور الى الاسلام ، وكان فى مقدمتهم « راى راجو » نائب لاهور فى عهد السلطان مودود . وظل الهجويرى يعمل على نشر الدين الاسلامى والتعاليم الروحية فى مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها حوالى سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بهذه المدينة ، ولا يزال قبره بها داخل مزاره المعروف بمزار « داتا كنج بخش » وهو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهند وباكستان .

والهجويرى ألف كتبا كثيرة أشير الى أسمائها فى كشف المحجوب ، وبعض هذه الكتب فقد فى حياة المؤلف ، وبعضها فقد بعد وفاته . ولم يبق من مؤلفات الهجويرى سوى كتابه كشف المحجوب الذى يرتبط اسمه دائما باسم مؤلفه .

وكتاب كشف المحجوب يعتبر أقدم مؤلف فى التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم فى الأصول النظرية والعملية للتصوف . وقد نوه بقيمة هذا الكتاب الشرقيون والمستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامى ، سواء منهم من بحثوا فى هذا الموضوع ، أو من قصروا جهودهم على نشر كتب التصوف وترجمتها .

وتاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، وان كان من المرجح أن مؤلفه بدأه حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، وأتمه حوالى سنة ٤٤٢ هـ.

ويشتمل كشف المحجوب على خمسة وعشرين قسما تكلم فيها المؤلف فى الأصول النظرية والعملية للتصوف ، وتراجم الأئمة وشيوخ الصوفية ، وأقوال الصوفية ورموزهم ، والفرق الصوفية ، والعقائد الدينية والعبادات ، والمعاملات ، ورسوم الصوفية وتقاليدهم .

وموضوع كتاب كشف المحجوب جاء ردا على السؤال الذى وجهه الى الهجويرى أحد رفاقه فى غزنة وطلب اليه أن يبين له طريق الصوفية ومقاماتهم ومذاهبهم وأقوالهم ورموزهم ومعاملاتهم . وقد أجاب الهجويرى على هذا السؤال اجابة مطولة ، ذلك أنه وضع فى اعتباره أن يوضح لعامة الناس الطريقة والشريعة ، وأن يوائم بين تعاليم الصوفية والدين الاسلامى ، وهو ما حاوله قبله مؤلفو الصوفية كأبى نصر السراج الطوسى فى اللمع ، وأبى القاسم القشيرى فى الرسالة ، وما فعله بعده الامام الغزالى فى احياء علوم الدين .

وكتاب كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء فى المنهج العام ، أو المواد التى تناولها كل من مؤلفيهما ، مما يوضح أن الهجويرى اعتمد على اللمع . كما يتضمن كشف المحجوب ترجة فارسية لبعض فصول من الرسالة القشيرية ، مما يؤكد ان مؤلفه اطلع عليها وأفاد منها .

وبالاضافة الى اللمع والرسالة ، فقد اعتمد الهجويرى اعتمادا كبيرا على كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ونقل عنه كثيرا ؛ لاسيما فى الجزء الخاص بتراجم شيوخ الصوفية .

وقد أفاد مؤلفو الصوفية الفرس من كشف المحجوب ، وعلى الأخص « فريد الدين العطار » فى كتابه «تذكرة الأولياء» ، و «عبد الرحمن الجامى» فى كتابه « نفحات الأنس » . كما أفاد من كشف المحجوب ، على نطاق واسع ، اثنان ممن كتبوا فى التصوف فى العصر الحديث وهما : قاسم غنى ، وأبو العلا عفيفى ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسى لكشف المحجوب ، والثانى كتب باللغة العربية ونقل عن الترجمة الانجليزية للكتاب .

وكشف المحجوب طبع لأول مرة فى لينجراد سنة ١٩٢٦ م ، وطبع للمرة الثانية فى طهران سنة ١٣٣٦ هـ ش (ويقابلها ١٣٧٧ هـ ق — ١٩٥٧م) ؛ وقام بترجمته الى الانجليزية المستشرق الانجليزى نيكولسون ، ونشرت الترجمة فى لندن سنة ١٩١١ م .

ولما كان موضوع هذه الدراسة هو : كتاب كشف المحجوب ، فقد قسمتها الى بابين :

الباب الأول : فى التعريف بمؤلف الكتاب

ويشمل الحديث عن عصر الهجويرى من النواحى السياسية والثقافية والدينية والصوفية ، والتعريف بمدينة « غزنه » باعتبارها موطن الهجويرى ومسقط رأسه ، ومدينة « لاهور » باعتبارها الموطن الثانى للهجويرى ومثواه الأخير .

ويتبع ذلك التعريف بالهجويرى من حيث اسمه وألقابه ومولده ونشأته وزواجه والعلوم التى حصلها وأساتذته وشيوخه ورحلاته ووفاته ومؤلفاته .

والباب الثانى : فى التعريف بكتاب كشف المحجوب

ويشمل الحديث عن الكتاب وموضوعه وأقسامه ومصادره ومنزلته بين كتب التصوف العربية والفارسية السابقة عليه والمؤلفة بعده ، والقيمة العلمية للكتاب .

ويتبع ذلك تعريف بمخطوطات الكتاب وطبعاته والترجمة الانجليزية .

القسم الأول

دراسة حول

الهجويري وكتابه كشف المحجوب

الباب الأول

التعريف بالحويري

الفصل الأول

عصر الهجويري

من النواحي السياسية والثقافية والدينية

أولا : الناحية السياسية :

« على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى » مواطن غزنوى ينسب الى مدينة « غزنه » موطن الأسرة الغزنوية التى أسست فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى دولة كبيرة ، عرفت فى التاريخ الاسلامى باسم الدولة الغزنوية .

والهجويرى عاش حياته كلها فى ظل الدولة الغزنوية . وعلى الرغم من أننا لانعرف تاريخى ميلاده ووفاته على وجه التحديد ، الا انه من المرجح أنه عاش فى الفترة ما بين العقدين التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى والعقد السابع من القرن الخامس الهجرى ، وهذه الفترة تعاصر فى نصفها الأول فترة المجد الحقيقى للدولة الغزنوية التى حكم فيها أشهر سلاطينها الثلاثة الأول : « سبكتكين » وابنه « محمود » و « مسعود بن محمود » ، وتعاصر فى نصفها الثانى فترة أقل قوة فى تاريخ الدولة الغزنوية، حكم فيها سلاطين ثلاثة آخرون هم : « مودود بن مسعود » و « عبد الرشيد بن محمود » و « فرخزاد بن مسعود » . وتوفى الهجويرى فى عهد « ابراهيم بن مسعود » .

ويعتبر « سبكتكين » المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية التى قامت أول الأمر فى مدينة غزنة عندما أسسها مولى من الموالى الأتراك يدعى « البتكين » — وكان يلى قيادة الجيش السامانى من قبل عبد الملك السامانى ، فلما توفى عبد الملك انسحب البتكين الى غزنة — وكان أبوه حاكما عليها من قبل السامانيين ، فتولى حكمها بعده .

وكان لألبتكين عبد مملوك يدعى سبكتكين ، لم يلبث أن أصبح صهرا له ، ثم خلفه فى حكم غزنة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وضم اليها قصدار

والباميان وطخارستان(١) ، وشن حملتين موفقتين على ملك البنجاب « جيبال » وهزمه وأكرهه على أن يتخلى له عن اقليم كابل الذى يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندى الخصيب(٢) .

وعندما استنجد نوح بن منصور السامانى بسبكتكين على قواده ، أسرع اليه ومعه ابنه محمود ، وأحرزا له النصر ، فكافأ سبكتكين بولاية خراسان، وولى ابنه محمودا قيادة الجيش . وهكذا سيطر سبكتكين على خراسان وصفت له(٣) .

وبعد وفاة سبكتكين فى بلخ سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، خلفه فى الحكم ابنه الاصغر اسماعيل ، غير أن أخاه محمودا لم يلبث أن انتزع العرش منه .

ويعتبر « محمود الغزنوى » (٣٨٨ — ٤٢١ هـ / ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) اشهر حكام الغزنويين على الاطلاق ، وواحدا من الشخصيات العظيمة التى لعبت دورا كبيرا فى آسيا الوسطى(٤) . وهو أول شخص فى الاسلام خوطب بلقب السلطان من قبل الخليفة(٥) العباسى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م) .

وقد بلغت الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود أوج مجدها واتسعت ممتلكاتها حتى ضمت جميع بلاد العجم : من خراسان وخوارزم وطبرستان والعراق وفارس وجبال الغور وطخارستان،وانقاد له ملوك التركستان(٦) . وما لبث هذا الأمير المحارب ان ولى وجهه شطر الهند ، فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبعة وعشرين عاما(٧) فيما بين عامى ٣٩١ ، ٤١٧هـ (١٠٠٠، ١٠٢٦ م) فخضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ، ومن الهملايا الى الدكن ، واكسبته هذه الغزوات وحبه للاسلام لقب«محطم الاصنام» . وتوفى السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ(٨) .

واذا كان السلطان محمود قد استطاع عن طريق غزواته أن يرفع راية الاسلام فوق قلاع الهند ومعابدها ، وأن يخطط بأسنة سهامه وسيوفه تربة

---

(١) « طبقات ناصرى » منهاج السراج : كابل ١٣٤٢ هـ ش ص ٢٢٦
(٢) « تاريخ الشعوب الاسلامية » بروكلمان : ترجمة نبيه امين : بيروت ١٩٥٣ ج ٢ ص١١٩
(٣) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٧ .
(٤) «Sykes» : A History of Persia, London, 1961, V. 2, p. 26.
(٥) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٨ .
(٦) « السابق » ص ٢٣٠
(٧) « الكامل » ابن الاثير : القاهرة ١٣٤٨ هـ . (انظر حوادث سنة ٣٩١ — ٤١٧) .
(٨) « الكامل » أنظر حوادث ٤٢١ هـ .

تلك الديار ويمهدها لبذر بذور الدين الاسلامى ، فانه لم يمض وقت طويل حتى ذهب الى تلك البلاد غزنوى آخر ، فبذر تلك البذور بالخرقة والسجادة بدلا من السهام والسيوف ، وكان ذلك الرجل هو « على بن عثمان بن أبى على الهجويرى الغزنوى » (١) .

وقد تميز أواخر عهد السلطان محمود بظهور قوة ناشئة هى قوة السلاجقة التى بدأت تمارس نشاطها فى اقليم خراسان ، ولكن محمودا أوقفهم عند حدهم ، فلزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياته ، غير أن خطرهم لم يلبث ان تفاقم بعد وفاته ، فسيطرو على الولايات الغربية من الدولة الغزنوية ، واستطاعوا فى أقل من عشر سنوات أن ينتزعوا خراسان جميعها من ابنه مسعود .

وكان « مسعود » (٤٢١ — ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ — ١٠٤٠ م) قد استخلص الملك من أخيه الأصغر « محمد » — الذى أجلسه رجال الحاشية والأمراء على العرش فى غزنة بعد وفاة أبيه — وسجنه بقلعة « كوهتيز » وأرسل الى الخليفة القادر فى طلب اللواء والعهد ، فأقره الخليفة على ما دخل فى حوزته من ولايات : « الرى » و « الجبال » و « اصفهان » ، وأمره بأن يعجل بالسير الى خراسان كيلا يقع اضطراب فى ذلك الثغر العظيم(٢) .

غير أن ما كان يخشاه الخليفة قد حدث بالفعل ، فقد كانت قوة السلاجقة آخذة فى الازدياد ، وبدأوا يغيرون غارات منظمة على خراسان منذ عام ٤٢٥ هـ ، مما جعل مسعودا يذهب بنفسه الى نيسابور لقتالهم ، وتمكنت جيوشه من هزيمتهم بالقرب من « نسا » عام ٤٢٦ هـ . وعندما بلغ هذا الخبر مسامع داود السلجوقى استعان بجيش كبير وقاتل الغزنويين ، وتغلب عليهم (٣) وكانت هذه أول هزيمة جدية وقعت لمسعود ، واضطر معها الى أن يعقد صلحا مع السلاجقة لكى يتفرغ للذهاب الى الهند ، ولم يلبث أن سار اليها وفتح قلعة « هانسى » سنة ٤٢٨ هـ (٤) .

وعند عودة مسعود من الهند علم بارتفاع شأن السلاجقة فى خراسان وحاول أن يجليهم عنها ، وهاجمهم بالقرب من « سرخس » عام ٤٢٩ هـ ،

---

(١) مجلة « هلال » جلد بنجم شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ هـ ش : مقال بقلم «غلام سرور»
(٢) « تاريخ البيهقى » أبو الفضل البيهقى : ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م : ص ١٧ .
(٣) « زين الأخبار » الكرديزى : طهران ١٣١٥ هـ ش . ص ٨١
(٤) « السابق » ص ٨٣ ، « تاريخ البيهقى » ص ٥٨٠ .

غير أن السلاجقة تمكنوا من هزيمته ولم يلبث « طغرلبك » السلجوقى أن دخل نيسابور ، وجلس على عرش مسعود ، وأعلن نفسه سلطانا للسلاجقة(١) .

وازداد مسعود غضبا على السلاجقة ، وخرج من غزنة الى خراسان قاصدا الثأر ، ولكن جهوده باءت بالفشل ، فقد هزمه السلاجقة هزيمة نكراء عند « داندانقان » بالقرب من « مرو » عام ٤٣١هـ(٢) ، وكانت هذه الموقعة حدا فاصلا فى تاريخ الدولتين الغزنوية والسلجوقية ، فقد قضت نهائيا على نفوذ الغزنويين فى خراسان ، وأكدت نفوذ السلاجقة بها .

ورجع السلطان مسعود الى غزنة التى كان يسودها الاضطراب والمذابح والمعارك ، فقد حاصرها السلاجقة وسدوا الطريق اليها ، وقبض مسعود على بعض الفارين من رجاله وأرسلهم الى الهند ليسجنوا بها .

وخلال تلك الاضطرابات رحل الهجويرى عن غزنة على عجل ، بحيث لم يستطع أن يحمل معه كتبه ، فتركها هناك(٣) ، وتوجه الى بلاد الهند . وكان ذهابه اليها حوالى سنة ٤٣١ هـ(٤) .

ويبدو أن الهجويرى كان مرتبطا فى حياته بالدولة الغزنوية ، يعيش فى المناطق الخاضعة لنفوذها ، ويتنقل بينها . وقد عرفنا من كشف المحجوب أنه قضى فترة كبيرة من حياته فى السفر والتجول ، ومن خلال تتبعنا لرحلاته نعرف أنه قضى الجزء الأكبر من فترة التجول فى اقليم خراسان ، وزار عددا كبيرا من مدنه ، وأقام ببعضها فترات كانت تقصر حينا وتطول أحيانا(٥) . ومن الواضح أن الفترة التى قضاها متنقلا بين مدن خراسان تقابل الفترة التى كان فيها نفوذ الغزنويين يسيطر على هذه المنطقة فلما انحسر نفوذهم عنها رجع الى غزنة ، وواجه فيها تلك الاضطرابات . وربما أحس الهجويرى

---

(١) « تاريخ البيهقى » ص ٣٠٦ ، « الكامل » حوادث ٤٢٩ ، « راحة الصدور » الراوندى : ترجمة ابراهيم الشواربى وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد : القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٨ .

(٢) « تاريخ البيهقى » ص ٦٨٤ ، « راحة الصدور » ص ١٦٣ ، « طبقات ناصرى » ص ٢٣٣ .

(٣) « كشف المحجوب » لأبى الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى : طهران ١٣٣٦ هـ ش (انظر : ص ١١٠) .

(٤) « تذكرة حضرت على هجويرى » حكيم سيد أمين الدين دهلوى : لاهور ١٩٦٢ ص ٢٠
The Life and Teachings of Hazrat Data — Ganjbakhsh : Lahore 1967, p. 23.

(٥) « كشف المحجوب » أنظر ص ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ .

عقب هزيمة مسعود أن الأمر على وشـــك أن يخرج من أيدى الغزنويين فى غزنة ، كما خرج من أيديهم فى خراسان ، فترك غزنة الى الهند حيث بدأ يمارس نشاطه الدينى والروحى فى تلك البلاد تحت رعاية الغـــزنويين ، وقام بنشر تعاليم الدين الاسلامى ، وهداية الناس وارشادهم .

أما السلطان مسعود فقد فكر ، بعد هزيمته على أيدى السلاجقة،فى أن يذهب الى الهند ليجمع جيشا يحـــارب به السلاجقة من جديد ، وخرج من غزنة حاملا معه خزائنه.وعند « ماريكله » خرج عليه غلمانه،وقبضوا عليه ، وأرسلوه الى قلعة كسرى(١) ، وأجلسوا أخاه محمدا على العرش . ثم لم يلبث مسعود ان قتل على أيدى أبناء محمد سنة ٤٣٢ هـ(٢) .

وتولى مودود بن مسعود أمر الغزنويين فىغزنة عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م)، وكان أول عمل قام به أن اتجه لقتال عمه محمد ، انتقـــاما لمقتل أبيه ، فقبض على محمد وابنه والقواد وقتلهم(٣) .

وفى سنة ٤٣٥ هـ ، أراد مودود أن يسترد نفوذ الغزنويين فى خراسان ، فسير اليها حاجبه . وعلم بذلك داود السلجوقى فأرسل ابنه « ألب أرسلان » والتقى الطرفان واقتتلا ، وكان الظفر لألب أرسلان ، وعاد عسكر غزنة منهزما(٤)،واستولى السلاجقة على«بست» و «سيستان»، وبذلك انتهىحكم الغزنويين فى ايران ، واقتصر نفوذهم على غزنة وممتلكاتهم بالهند .

ومن أبرز الأحداث التى وقعت فى الهند فى عصر مودود : فتنة الراجات، فقد اجتمع ثلاثة من ملوك الهنـــد وحاصروا لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وعلم السلطان مودود بذلك ، فأرسل جيشا تمكن بالتعاون مع مقدم العساكر الاسلامية فى تلك الديار من هزيمتهم(٥) وتسلم قواد مودود جميع القلاع ، وغنم المسلمون الأموال ، واطلقوا ما فى الحصـــون من أسرى المسلمين ، وكانوا خمسة آلاف رجل(٦) . ومن المرجح أن الهجويرى كان بينالأسرى، فقد أشار فى كشف المحجوب الى أنه وقع أسيرا فى لاهـــور حيث شـــغل بتأليف كتابه (٧) .

---

(١) « زين الأخبار » ص ٨٧
(٢) الكامل : حوادث سنة ٤٣٢ ، « زين الأخبار » ص ٨٧ ، « طبقات ناصرى » ص ٢٣٤
(٣) « زين الأخبار » ص ٨٨ — ٨٩ ، « الكامل » حوادث ٤٣٢ .
(٤) « الكامل » : حوادث ٤٣٥ .
(٥) « جامع التواريخ » رشيد الدين فضل الله : أنقره ١٩٥٧ ، المجلد الثانى ج ٤ ص٢١٧
(٦) « الكامل » أنظر حوادث ٤٣٥ .
(٧) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

وتوفى السلطان مودود سنة ٤٤١ هـ(١) .

وتوالى على عرش غزنة بعد مودود : « محمود بن مودود » و « على ابن مسعود » . ولما لم تكن لهما دراية بأمور الحكم فقد خلعا وسجنا ، وجلس على العرش بعدهما عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين (٤٤١ — ٤٤٤ هـ)(١) .

ثم تولى عرش غزنة من بعده : « فرخزاد بن مسعود » (٤٤٤—٤٥١هـ ١٠٥٢ — ١٠٥٩ م) الذى استطاع هزيمة السلاجقة وأسر قائدهم فى احدى المعارك التى دارت بين الدولتين ، فلم يفكر السلاجقة فى مهاجمة غزنة طوال فترة حكم فرخزاد . وتوفى فرخزاد عام ٤٥١ هـ(٣) ، وتولى بعده : « ابراهيم بن مسعود » (٤٥١ — ٤٩٢ هـ / ١٠٥٩ — ١٠٩٨ م) ، فأحسن السيرة واستعد لجهاد الهند ، وفتح حصونا امتنعت على أبيه وجده ، منها قلعة آجود(٤) . وقلعة يقال لها روبال(٥) .

وتميز عصر ابراهيم بالمهادنة مع السلاجقة ، وسعى « داود » السلجوقى لعقد صلح معه ، ووقع بذلك عهدا ، وثبت عليه ابنه ألب أرسلان الذى تولى بعده(٦) . وزوج ابراهيم ابنه من ابنة ملكشاه السلجوقى ، وبهذه المصاهرة أمن جانب السلاجقة . وطالت مدة حكمه ، وأعاد لدولة محمود رونقها ، وعمر كثيرا من الأماكن ، وحكم ٤٢ سنة .

وفى خلال فترة حكم السلطان ابراهيم توفى الهجويرى حوالى سنة ٤٦٥ هـ ، وقام السلطان ببناء ضريح له(٧) .

وتوالى على عرش غزنة بعد وفاة السلطان ابراهيم سنة ٤٩٢ هـ : « مسعود بن ابراهيم » و « أرسلان نشاه بن مسعود » و « بهرامشاه ابن مسعود » الذى دعا للسلاجقة على منابر غزنة ، ولذلك يعتبر يوم جلوس بهرامشاه تاريخا لسقوط غزنة فى أيدى السلاجقة(٨) .

---

(١) « الكامل » أنظر حوادث ٤٤١ .
(٢) « طبقات ناصرى » ص ٢٣٥ .
(٣) « الكامل » أنظر حوادث سنة ٤٥١ .
(٤) « جامع التواريخ » جـ ٤ ص ٢١٨
(٥) « الكامل » أنظر حوادث سنة ٤٧٢ ، سلطنت غزنويان : خليلى : كابل ١٣٣٣ ص ٢٤٨
(٦) طبقات ناصرى ص : ٢٣٩ .
(٧) تذكرة على هجويرى ص ٤٩ .
(٨) سلطنت غزنويان . ص ٢٥٤ .

ويتميز عصر بهرامشاه بالنزاع مع ملوك الغور الذين ازداد خطرهم ، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على غزنة واقليم كابل ، بل انهم تعقبوا خسروشاه بن بهرامشاه الغزنوى وابنه بهرامشاه الثانى آخر سلاطين الدولة الغزنوية وطاردوهما حتى قتلوهما ، وبذلك انتهت سيرة دولة الغزنويين التى عمرت قرنين من الزمان ، ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند .

ثانيا : الناحية الثقافية :

يعتبر العصر الغزنوى من أزهى العصور التى ازدهرت فيها الحضارة الشرقية الاسلامية . وقد أجمع المؤرخون والنقاد على أن النهضة العلمية والأدبية برزت فى ذلك العصر على نحو لم يسبق له مثيل ، وتركزت هذه النهضة بصفة خاصة فى بلاط السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١هـ) الذى استطاع أن يجعل من قصره فى غزنة مركزا للنشاط العلمى والأدبى، كانت ترنوا اليه الأنظار ، وتشخص اليه الأبصار(١) .

وكانت هناك فى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى مراكز أربعة تجتذب اليها رجال العلم والأدب وهى :

قصر « الصاحب بن عباد(٢) » فى اصفهان والرى .

قصر « السامانيين » فى بخارى .

قصر « قابوس بن وشمكير » فى طبرستان .

قصر « المأمونيين » فى خيوه .

ولكن حدث فى الفترة ما بين ٣٨٧ : ٤٠٨ هـ،أن توفى الصاحب بن عباد ، وزالت الدولة السامانية من الوجود ، وقتل قابوس بن وشمكير ومأمون الثانى ، واستطاع السلطان محمود بواسطة ذلك ، وبواسطة الفتح والغزو أن يضم اليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون هؤلاء الأمراء(٣) .

---

(١) تاريخ الادب فى ايران : ادوارد براون . ترجمة ابراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) « الصاحب اسماعيل بن عباد » وزير البويهيين المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ، يرد عنه أنه كان يملك من كتب العلم ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر وكان فهرس كتبه يقع فى عشر مجلدات (انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » أدم ميتز : ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤٧ جـ ١ ص ٣) .

(٣) « تاريخ الادب فى ايران » براون ص ١١٧ — ١١٨ .

ومن المشهور عن بلاط السلطان محمود فى غزنة أنه كان يجتمع فيه من اهل الأدب زهاء اربعمائة(١) ، من بينهم مجموعة من الشعراء الكبار ، أمثال « عنصرى » و « فردوسى » و « أسدى » و « عسجدى » وغضائرى ، وفرخى(٢) . وكان السلطان محمود يصطحب معه فى غزواته بعض هؤلاء الشعراء فكانوا يصفون المعارك والأحداث ، ويسجلون الوقائع والغزوات .

وقد خلف هؤلاء الشعراء والأدباء دواوين رائعة تزخر بالمدائح لهذا السلطان ، والفوا المؤلفات العديدة فى محامده ومآثره ، نظما ونثرا ، باللغتين العربية والفارسية ، فألف أبو منصور محمد بن عبد الجبار العتبى تاريخه المعروف بتاريخ العتبى(٣) وأتم الفردوسى شاهنامته التى تعد أروع دليل على روح الأسلوب الملحمى الفارسى فى قمة اكتماله .

لم تكن عناية السلطان محمود بالعلوم أقل من عنايته بالأدب ، فكان يحرص على أن يضم الى بلاطه فى غزنة النابهين من العلماء ، ولم يدخر وسعا فى استقدامهم اليه حتى أنه كا يلجأ الى الترغيب تارة والترهيب تارة(٤) . وقد نجح فى أن يضم اليه «العراق» و « الخمار » و «البيرونى» وكان كل من هؤلاء اماما فى فنه ، فقد كان أبو نصر العراق الثانى لبطليموس فى العلوم الرياضية ، وابو الخير الخمار الثالث لبقراط وجالينوس فى الطب(٥) ، وأما أبو ريحان البيرونى فكان عالم عصره العظيم وأحد كبار العلماء فى العالم الاسلامى كله . وقد ألتحق ببلاط السلطان محمود بعد مقتل مأمون الثانى ، ومن غزنة قام البيرونى بعدة رحلات علمية فى الديار الهندية وتعلم اللغة السنسكريتية ، والف كتابه الشهير عن الهند(٦) الفريد فى الأدب العربى ، والذى أدى للدراسات الأوروبية خدمة جليلة أيضا(٧) .

وكان السلطان محمود يطمع فى أن يضم الى بلاطه « ابن سينا » ولكنه فر(٨) وظل محمود يأسف لفراره طويلا .

---

(١) « شعر العجم » شيلى نعمانى ترجمة : محمد تقى فخرداعى كيلانى طهران ١٣١٦ أنظر ج : ١ ص ٣٦
(٢) السابق « ص ٣٨ » .
(٣) تاريخ العتبى : قام بشرحه أحمد المنينى ويعرف بتاريخ يمينى .
(٤) جهار مقاله « نظامى عروضى سمرقندى ليدن » ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م ص : ٧٧
(٥) نفس المرجع السابق ص ٧٦
(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى القول أو مرذولة » أنظر « سبك شناسى » بهار : طهران ١٣٢١ هـ ش ج ٢ ص ٢٨ حاشية ٢١
(٧) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢١
(٨) جهار مقاله ، ص ٧٧

ومما يدل أيضا على عناية السلطان محمود بالعلوم والآداب ، تلك المدرسة التى ألحقها بجامع غزنة وكانت تعرف بدار العلم ، وأسس فيها مكتبة جمع فيها جميع المؤلفات القديمة والنادرة التى لم يتوفر وجودها الا فى غزنة(١) .

ولم تكن العناية بالعلوم والآداب مقصورة على السلطان محمود وحده ، فقد كان ابنه السلطان مسعود يهتم بالشعراء والأدباء ، ويصلهم بصلات كبيرة ، قال عنه ابن الأثير انه كان محبا للعلماء ، كثير الاحسان اليهم والتقرب لهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة فى فنون العلم ، وأجاز الشعراء جوائز عظيمة ، أعطى شاعرا على قصيدة الف دينار ، وأعطى آخر لكل بيت الف درهم(٢) .

ثالثا : الناحية الدينية :

كان المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى مقسما من الناحية الدينية الى كتلتين : أهل السنة ، والشيعة ، فالخلفاء العباسيون فى بغداد ومن تبعهم من الملوك والحكام سنيون يتعصبون للسنة ، والفاطميون فى مصر والشام والمغرب ، وبنو بويه فى العراق شيعيون يتعصبون للشيعة ، وكان الخلاف قائما على أشده بين الكتلتين .

وفى القرن الخامس الهجرى كثرت الفرق الاسلامية واشتد النزاع بينها ، ولم يعد الخلاف مقصورا على أهل السنة والشيعة ، بل تعدى ذلك الى اهل السنة فيما بينهم ، فظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة كالشافعية والحنفية ، وتنازع الفقهاء بعضهم مع البعض ، وبلغت الخلافات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة والأشعرية والمعتزلة والاسماعيلية ، وأيضا النزاع والجدل بين المذاهب السنية ، الى حد أن مجادلات العلماء ومناظراتهم كانت تنتهى أحيانا بالعراك والقتل والنهب والحرق(٣) .

ولم تكن الدولة الغزنوية بمعزل عما يجرى فى العالم الاسلامى ، فقد كان الغزنويون يعتنقون مذهب أهل السنة ، ويدينون بالولاء للعباسيين أصحاب هذا المذهب ، ويشاركون فيما يجرى حولهم من أحداث .

---

(١) شعر العجم جـ ١ ص : ٣٥
(٢) « الكامل » : حوادث ٤٣٢ .
(٣) « تاريخ تصوف در اسلام » قاسم غنى : طهران ١٣٢٢ هـ ش ، ص ٤٦٨ .

وعلى الرغم من أن الدولة التى سبقت الغزنويين فى ايران ، وهى الدولة السامانية ، كانت أيضا تنتمى الى المذهب السنى ، وتدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، الا أنها كانت تهادن المخالفين لمذهبها ، حتى أن الاسماعيلية بلغوا شيئا من النفوذ فى عهد نصر بن أحمد الساماني . وربما كان هناك أثر للتعصب المذهبى فى بعض نواحى ايران ، مثل نيسابور ، الا أن الحكومات لم تكن تتدخل فى هذه الأمور(١) . غير أن هذا الوضع لم يلبث أن تغير فى القرن الخامس ، وأخذ الملوك والحكام يتدخلون بالتدريج فى هذا الصراع . وكان السلطان محمود الغزنوى أول ملك من ملوك ايران نكل بالمخالفين لمذهبه(٢) . وقد بلغ من تعصبه للمذهب السنى الذى كان يعتنقه ، أن امتثل لأمر الخليفة العباسى « القادر » ، وشن حربا لا هوادة فيها على المعتزلة والفلاسفة والاسماعيلية والقرامطة وأعمل فيهم القتل والصلب ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم . وجعل كثيرا من كتب الحكمة والفلسفة والنجوم ورسائل المعتزلة طعمة للنيران(٣) . واعترف هو نفسه بهذا ، فقال أنه أدخل أصبعه ، من أجل العباسيين ، فى كل جهات العالم يبحث عن القرامطة ويشنق كل من يجده وتثبت عليه القرمطة(٤) .

وفى ذلك الوقت كانت مذاهب أهل السنة بعضها يتجه الى الضعف وبعضها يتجه الى الانتشار والرواج . وكان المقبول من المذاهب الأصلية فى جميع الممالك الاسلامية : « المالكى » و « الحنفى » و « الشافعى » ، وكان رواج المذهبين الشافعى والحنفى أكثر من غيرهما فى ايران . وقد ورد عن السلطان محمود أنه كان يعتنق المذهب الحنفى ، ولم يلبث أن تحول عنه الى المذهب الشافعى ، يقول ابن خلكان : « وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث فوجد أكثرها موافقا لمذهب الشافعى فوقع فى خلده حكمه »(٥) .

وكان الشيوخ والأئمة والحكماء يجتمعون فى بلاط غزنة ويتجادلون حول

---

(١) « تاريخ أدبيات در ايران » ذبيح الله صفا : طهران ١٣٤٢ هـ ش ج ١ ص ٢٠٢
(٢) « السابق » ص ١٣٧ .
(٣) « لما أغار السلطان محمود على الرى » سنة ٤٢٠ هـ استخراج من بيت كتب « الصاحب » كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه (« متز » ج ١ ص ٢٤٦). وخلع « مجد الدولة » وأمر بنفيه فى خراسان ، وأتبع ذلك بصلب جماعة من الباطنية وتشريد المعتزلة وحرق كتبهم وكتب الفلاسفة والمنجمين . أنظر « الكامل » حوادث ٤٢٠
(٤) « تاريخ البيهقى » ص ١٩٤ .
(٥) « وفيات الاعيان » : ابن خلكان ج ٢ ص ٨٦

المذاهب بين يدى السلطان . ويبدو أن الهجويرى كان يشارك فى هذه المجادلات ، فقد ورد فى « رسالة ابداليه » انه تجادل مرة مع واحد من حكماء الهنود فى مجلس السلطان محمود وأفحمه تماما(١) .

وأشار الهجويرى فى كشف المحجوب الى مجادلة وقعت فى بلاط غزنة بينه وبين واحد ممن كانوا يدعون الامامة والعلم فى مسألة تتعلق بالتصوف(٢) .

وعلى الرغم من أن الصوفية كانوا خصوما الداء للفقهاء ، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه تعبيرا قاسيا فكانوا يسمونه عام الدنيا(٣) ، الا أن شيوخ القرنين الرابع والخامس الهجريين ، نظرا لمعاصرتهم للحكام السنيين المتعصبين ، أخذوا يسعون لتحصيل علوم الظاهر(٤) واتجهوا لتاليف الكتب ، فبدأ فى القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فى مقامات الصوفية وشرح أسس التصوف ، بحيث وجدت فى أواخر هذا القرن كتب قيمة مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » ، وجميعها مؤلفة باللغة العربية .

---

(١) «Bulletin of the School of Oriental Studies» London, 1926.
نقلا عن : « رسالة آيدالية » يعقوب بن عثمان جرخى

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ١١٥ .

(٣) « الحضارة الاسلامية » : ميتز ج ١ ص ٢٦٦

(٤) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٢

الفصل الثـــانى

« التصوف فى عصر الهجويرى »

تمهيـــــد :

اتجه كثير من المستشرقين والباحثين فى أصل التصوف الى رده لعوامل خارجية بعيدة عن البيئة الاسلامية ، فمنهم من أرجعه الى أصل هندى ، ومنهم من رده الى الرهبنة المسيحية ، ومنهم من قال انه رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاه المسلمون على أهل فارس فرضا ، ومنهم من زعم أنه وليد الفلسفة اليونانية . وهناك من خالف هؤلاء وقال ان التصوف الاسلامى نابع من البيئة الاسلامية والدين الاسلامى . والصوفية أنفسهم يعتقدون أن طريقتهم مشيدة بالكتاب والسنة ، وأنها مبنية على سلوك اخلاق الأنبياء والأصفياء(١) .

والتصوف نزعة روحية تميل بالانسان عن العالم المادى وترتفع به الى العالم الروحى ، وهو بهذا المفهوم ظاهرة انسانية تنشأ فى كل بيئة دينية ، وتنمو نتيجة لعوامل داخلية موجودة فى تلك البيئة ، فمما لا شك فيه أن التصوف الاسلامى جزء من الأجزاء التى يتألف منها التراث الدينى والعقلى والنفسى للاسلام ، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الاســـلامية لعوامل النشوء والارتقاء ، وأن تاريخ التصوف فى الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الاسلام نفسه ، ومظهر من مظاهر هذا الدين ، وما أحاط به من ظروف ، وما دخل فيه من شعوب ، وليس شيئا اجتلب من الخارج دون أن تكون له صلة بالدين الاسلامى وروحه وتعاليمه .

على أننا يجب الا ننكر وجود مؤثرات خارجية ساعدت على نموالتصوف الاسلامى وتطوره ، فقد تعاونت العنـــاصر الروحية الوافدة على البيئة الاسلامية مع العوامل الدينية التى كانت موجودة فى تلك البيئة ، وعملت

---

(١) « الطبقات الكبرى » : الشعرانى القاهرة ١٣١٦ هـ جـ ١ ص ٣

معها على تطوير التصوف وبلوغه النضج والكمال ، وان كان هذا فيما بعد نشأته الأولى .

(أ) نشأة التصوف الاسلامى والمراحل التى مر بها حتى عصر الهجويرى :

نشأ التصوف الاسلامى نشأة اسلامية ، فقد ظهرت بذوره الأولى فى نزعات الزهد التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى ، وكان قوامه الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والعناية بأمور الدين ، ومراعاة أوامر الشريعة ، وكانت غايته التى يتطلع اليها العباد والزهاد هى الظفر برضوان الله والنجاة من عقابه .

وكان زهد الزهاد والعباد فى صدر الاسلام معتدلا ، بمعنى أنهم كانوا يشاركون فى الحياة الاجتماعية ، ويسعون لكسب معاشهم ، ويرعون أوامر الدين والشرع بكل طاقتهم ، ويحافظون عليها بأرواحهم .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ظهر من بين الزهاد أفراد يحيون حياة تخالف حياة الآخرين ، من حيث المبالغة فى الزهد ، وترك متاع الدنيا، ورياضة النفس ، فكان لا بد أن يتسموا باسم خاص ، فأطلق عليهم اسم الصوفية . وكان تصوف هؤلاء امتدادا لزهد ومسلك زهاد القرن الأول مع شىء من المبالغة ، فقد قطعوا فى طريق الزهد مراحل أبعد من زهاد القرن الأول ، الا أن المتأمل فى أقوالهم لا يجد فيها شيئا من العناصر الأساسية للتصوف مثل المحبة والفناء ووحدة الوجود ، والشخص الوحيد الذى تحدث من بينهم عن المحبة الالهية هو « رابعة العدوية »(١) المتوفاه سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وبظهور رابعة تطور مفهوم التصوف ، فقد أصبح الزهد وسيلة من الوسائل التى يستعان بها على مطالعة وجه الله ومشاهدة جماله الأزلى .

وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين وصل التصوف الى مرحلة النضج ، وأخذت المسائل الصوفية التى ظهرت أول الأمر غامضة ساذجة تتضح وتدق ، ذلك أن العناصر الغريبة التى بدأت تتسرب الى الاسلام منذ القرن الثالث الهجرى أخذت تنفذ الى التصوف وتتفاعل معه . وكان من نتيجة هذا التفاعل أن تطور مفهوم التصوف وأصبح شيئا جديدا لا يقف عند حد الرياضة والمجاهدة ، ولا يقنع فيه الانسان بالمشاهدة ، وانما تجاوز هذا

---

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٣١

كله الى غاية أسمى هى فناء الانسان عن نفسه ، وبقاؤه بربه ، واتحاده به .

والمتأمل فى أقوال صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين يلمس تحولا فكريا طرأ على مفهوم التصوف ، فقد ظهرت فى أقوالهم أفكار جديدة ، واصطلاحات وتعبيرات خاصة ، بعضها يتعلق بالجانب النظرى للتصوف : من تحديد لمعالم الطريق ، وترتيب للمقامات والأحوال . وكان من الرواد الأوائل فى هذا المجال « ذو النون المصرى » (٢٤٥ هـ .) و « سرى السقطى » (٢٥١ هـ) ، فيعزى الى ذى النون أنه أول من تكلم فى مصر فى الأحوال والمقامات(١) ، والى سرى أنه أول من تكلم فى بغداد فى ترتيب المقامات وبسط الأحوال(٢) . وبعضها يتعلق بالجانب النفسى والوجدانى الذى يرمى الى الفناء فى الله ، واتحاد المحب والمحبوب ، ومحو الوجود المجازى فى الوجود المطلق الحقيقى . ونشأ عن هذا ، القول بوحدة الوجود ، وأن الموجود الحقيقى هو الله ، وأن ما سواه عدم محض .

وكما كان الحب طابعا للزهد الذى عرف عند رابعة فى القرن الثانى الهجرى فقد أصبح هذا الحب من أخص خصائص التصوف عند صوفية القرن الثالث ، فأقوال « معروف » و « الجنيد » و « ذى النون » تشتمل على هذه الكلمة ، وظهر فى القرنين الثالث والرابع رجال عرفوا بنظريات فى المحبة ، منهم « المحاسبى » و « التسترى » و« سمنون » و« الشبلى » وغيرهم ، وبلغت فكرة الحب الالهى ذروتها عند أصحاب وحدة الوجود أمثال أبى يزيد البسطامى والحسين بن منصور الحلاج .

ومن الموضوعات التى تطرقت الى التصوف فى هذه الفترة أن روح أحكام الشريعة وباطنها أهم من شكلها وصورتها الظاهرية ، وأن النية مقدمة على العمل ، وأن السنة خير من الفرض ، وأن الطاعة خير من العبادة . وقد اثارت هذه الأقوال انتباه الناس فى ذلك الوقت واسترعت أنظارهم ، وخصوصا طبقةالفقهاء الذين عدوا هذه الأقوالخطرا على المجتمع الاسلامى ، واتهموا الصوفية باختلاق البدع تارة ، وبالكفر والالحاد تارة(٣) . كما جرت عليهم أقوالهم فى المحبة والاتحاد والحلول سخط الفرق الاسلامية الأخرى .

---

(١) « فى التصوف وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبو العلا عفيفى ص ٧
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٣٧
(٣) « تاريخ تصوف » ص ٥٣

وبالنسبة للفقهاء ومواقفهم من الصوفية،قد شهد القرن الثالث الهجرى بداية الصراع بين هاتين الطائفتين . ويرجع النزاع بينهما الى أن أحكام الشريعة فى أول عهد الاسلام كانت تؤخذ بالرواية ، لا فرق بين عبادات واعتقادات أو معاملات ، ثم لم يلبث المسلمون أن بدأوا يناقشون مسائل الدين ويتدارسونها ، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمى ، ويدونون ما يتناقشون فيه . وهنا نشأ علم الفقه وأقبل الناس عليه يتناقشون فى تدارسه والعمل بأحكامه ، حتى أن كثيرا من المسلمين كانوا يظنون الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين(١) .

ثم ظهر أمر الصوفية ، وكان لهم رأيهم الخاص فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأحكام الشرعية ، فقد كانوا يرون أن الدين أصبح فى عرف الفقهاء جملة من رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها ، وأن الكمال الدينى يكمن فى البحث فى المعانى الباطنية للأحكام بالاضافة الى معانيها الظاهرية : ومن هنا ظهر علم التصوف ، أو بمعنى آخر ، انقسم علم الشريعة الى قسمين : ظاهر وباطن ، واختص الفقهاء بالاهتمام بالظاهر ، وعنى الصوفية بالباطن ، وأصبح لكل من الطائفتين وجهة نظرهم الخاصة فى ماهية الدين(٢) .

وكان من الطبيعى أن يقع الصدام بين الطائفتين لاختلاف وجهتى نظرهما وما لبث الفقهاء أن أعلنوا عن عدائهم للصوفية،فتصدوا لبعضهم بالمعارضة، واتهموا البعض الآخر بالكفر والزندقة . وقد حفظت لنا الكتب المتقدمة أخبار سلسلة من الاضطهادات التى لاقاها الصوفية على أيدى الفقهاء ، حتى أن مجموعات كبيرة من شيوخ الصوفية سيقوا الى المحاكمات وحكم عليهم بالموت ، واستطاع بعضهم أن يفلت من العقوبة ، وراح البعض الآخر ضحية لهذا التعصب .

وقد ظهر اضطهاد الفقهاء للصوفية على أشده فيما عرف بمحنة الصوفية ببغداد ، أو محنة غلام الخليل(٣) ، وهى المحنة التى فر على أثرها أبو سعيد الخراز الى مصر ، واتهم فيها نحو سبعين صوفيا

---

(١) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١١ — ١١٢

(٢) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١٣

(٣) « هو أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس » . ولد بالبصرة وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ولكنه كان مكروها من اهل عصره الذين رموه بالرياء . وقد وصفه الهجويرى بالمكر والشعوذة والحقد على الصوفية (انظر كشف المحجوب ص ١٧٢ وما بعدها)

بالزندقة ، من بينهم الجنيد والنورى ، وحكم عليهم بالموت ، وكاد الحكم ينفذ فى بعضهم ، ثم أفرج عنهم(١) . الا أن هـذا الاضطهاد بلغ ذروته فى المأساة التى ذهب ضحيتها الحسين بن منصور الحلاج ، فسجن وعذب وقتل ، وكان مقتله بافتاء من الفقهاء وان بدا بأمر الخليفة .

وبالنسبة للفرق الاسلامية الأخرى التى أظهرت عداءها للصوفية ، فمنها : « الامامية » فى القرن الثالث ، الذين أنكروا كل نزوع الى التصوف لأنه يستحدث بين المؤمنين ضربا من الحياة الشاذة . ومنها « الحشوية » ، الذين أخذوا على التصوف أنه يغذى الفكر ، ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة ، ويحملهم على طلب الخلة مع الله ، فيستبيحون اغفال الفرائض . و « المعتزلة » ، الذين كانوا يستنكرون العشق الالهى لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والحلول(٢) .

وقد كان من نتيجة هذا التعصب أن أخذ كبار الصوفية يتشبثون أكثر من ذى قبل بالقرآن والحديث والأدلة العقلية ، وانشغلوا بالتأليف والتصنيف ، ونهضوا للدفاع عن أنفسهم بسلاح الكتاب(٣) . ولعل علم التصوف أصبح علما مدونا فى هذه الفترة ، فقد بدأ فى القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فى مقامات الصوفية ، وبيان أنواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الأذواق والمواجيد ، وألفت فى هذه الفترة كتب قيمة مثل « اللمع » لأبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) ، « والتعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذى (٣٨٠ هـ) ، « وقوت القلوب » لأبى طالب المكى (٣٨٦ هـ) .

وقد أنتشر الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وأخذوا ينظمون أنفسهم فى جماعات وفرق لها طرقها الخاصة وشيوخها وسالكوها . وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف(٤) فى هذه الفترة ، لكل منها طابع معين . وقد عدد لنا الهجويرى الفرق الصوفية أو — المدارس الصوفية بالتعبير الحديث — التى وجدت فى هذه الفترة باثنى عشرة فرقة ، ونسب كل واحدة منها الى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين .

---

(١) (أنظر : الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٠٣)
(٢) « دائرة المعارف الاسلامية » مادة : « تصوف » .
(٣) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٥٤
(٤) « التصوف الثورة الروحية » : أنظر ص ٩٤ وما بعدها .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع قد حفلا بكثير من الشخصيات الصوفية الفذة والمذاهب الروحية النظرية والعملية التى سوف نتعرف عليها من خلال الباب الممتع الذى أفرده الهجويرى فى كشف المحجوب للحديث عن الفرق الصوفية(١) .

وقصارى القول ، ان الصرح المتكامل للتصوف الاسلامى الذى خلد على مر الزمان وبدا متين الأساس شامخ البنيان ، قد أرسى أسسه وقواعده رجال عاشوا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ووضع كل منهم لبنة فى هيكله حتى اكتمل البناء . واذا كانت هناك تغييرات طرأت على التصوف بعد ذلك فان أكثر هـذه التغييرات يرجع الى التعبيرات والاصطلاحات والظواهر والأشكال ، أما الأسس فقد ظلت ثابتة حتى الآن .

(ب) التصوف فى عهد الهجويرى (التصوف فى القرن الخامس الهجرى) :

كان العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى تسوده الاضطرابات والمنازعات فى النـواحى السياسية والدينية والعلميـة ، ففى النـاحية السياسية كانت الخلافات مستمرة بين الخلفاء العباسيين فى بغداد ومن يوالونهم من الحـكام السنيين كالغزنويين والسلاجقة فى ايران ، وبين الفاطميين فى مصر وأتباعهم من الشيعة والباطنية الذين انتشروا فى أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى ، وخصوصا فى ايران . وفى الناحية الدينية كانت الخلافات المذهبية على أشدها ، وكثر النزاع المذهبى بين الفرق الاسلامية ولم يكن هذا النزاع مقصورا على السنة والشيعة بل تعـدى ذلك الى المذاهب السنية فيما بينها . أما الناحية العلمية فلم تكن أحسن حالا ، فقد سرت العـداوة والبغضاء بين أهل العلم ، واستحكم الخـلاف بين الفقهاء والفلاسفة بحيث انقرض البحث الحر ، وركد كل ما كان مخالفا للدين والسياسة(٢) .

وعلى الرغم مما أوجدته هذه الاضطرابات والقلاقل والمنازعات من اثر سيىء فى شتى المجالات ، الا أنها أحدثت نتائج عكسية فى مجالين ، هما : المجال الصوفى ، والمجال العلمى .

ففى المجال الصوفى ، ساعدت هذه الاضطرابات على انتشار التصوف انتشارا كبيرا ، وليس تعليل ذلك بالأمر الصعب ، فان اضطراب الحيـاة السياسية ، وتفرق الناس فى مذاهبهم شيعا وأحزابا ، وجنوح كل فريق

---

(١) « أنظر : الباب الرابع عشر من كشف المحجوب » .
(٢) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٤٧٠

الى التعصب ، أشاع فى الناس اليأس والقنوط ، وملأ نفوسهم بالخوف والقلق ، فلم يجدوا لهم ملجأ غير التصوف .

ومن ناحية أخرى فان الانشغال بالاضطرابات السياسية والمنازعات الدينية هيأ الفرصة للصوفية لترويج مبادئهم ونشر تعاليمهم . وكان لبعدهم عن المجادلات المذهبية أثر كبير فى احترام الناس والأمر والسلاطين لهم ، مما أدى الى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة(١) . وقد ظهرت فى هذا القرن جماعة من كبار شيوخ الصوفية فى العالم الاسلامى عامة ، وفى ايران خاصة ، فكان هناك فى النصف الأول من القرن الخامس أمثال السلمى والخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى القاسم الجرجانى والقشيرى وغيرهم ممن يرجع اليهم الفضل فى تربية جيل من التلاميذ والمريدين الذين صاروا أعلاما فى تاريخ الحياة الروحية فى القرون التالية .

على أن انتشار التصوف فى هذه الفترة ساعد على أن اندس بين الصوفية كثير من الأدعياء والصوفية المزيفين الذين انضموا الى صفوف الصوفية اما لحماية أنفسهم ، واما طمعا فيما كان يتمتع به هؤلاء من احترام وتقدير . وقد قام هؤلاء الأدعياء بترويج البدع والخرافات ، ودعا بعضهم الى التحرر من التقاليد الاسلامية ، واسقاط التكاليف الشرعية ، وروج بعضهم العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية ، الأمر الذى اساء الى الصوفية وألقى ظلالا قاتمة على التصوف .

أما المجال العلمى ، فانه بالرغم مما أحدثته هذه الاضطرابات من ظهور الفرقة بين الطوائف المختلفة ، قد كان لها أثر كبير فى ايجاد نهضة علمية واسعة ، اذ نشطت كل فرقة للدفاع عن نفسها بسلاح القلم ، وظهرت كثير من المؤلفات التى ألفها المعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة(٢) .

وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا ، فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك الوقت ، وتركزت هذه الحركة بصفة خاصة فى خراسان التى أصبحت أكبر مركز للتصوف فى العالم الاسلامى .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى أن اقليم خراسان الفارسى كان مهد الكتابات الصوفية ، وموطن كبار العلماء الذين ألفوا فى التصوف الاسلامى مثل أبى

---

(١) « سلاجقة ايران والعراق » عبد المنعم حسنين : القاهرة ١٩٥٩ ص ١٨١
(٢) « سلاجقة ايران » ص ١٩٢

نصر السراج الطوسى ، وأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، وأبى القاسم القشيرى النيسابورى ، وحجة الاسلام الامام الغزالى الطوسى .

ومن أهم الكتب الصوفية التى ألفت فى القرن الخامس الهجرى كتابان ألفا فى النصف الأول منه ، وهما : « الرسالة » و « كشف المحجوب » .

والرسالة ألفها بالعربية « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى » وشرح فيها الأسس الصوفية وأحوال المتصوفة . وآراؤه فيها مثل للتوسط والاعتدال(١) .

وكشف المحجوب ألفه بالفارسية «أبو الحسن على بن عثمان الهجويرى» وسلك فيه مسلك معاصره القشيرى فى الاعتدال ، فهو يربط فى كتابه بين الشريعة والحقيقة ، ويبين أن الشريعة بدون الحقيقة ليست الا رياء ، وأن الحقيقة بدون الشريعة ليست الا نفاقا(٢) .

والواقع أن القشيرى والهجويرى كانا من الرواد الأوائل وكانت لهما جهودهما التى لا تنكر فى سبيل اعادة التصوف الى سيرته الأولى وتنقيته مما علق به من شوائب ، فقد ألفا كتابيهما فى وقت كان التصوف فيه قد بلغ حدا جعل الكثيرين يأخذون أنفسهم بالازورار عنه ، والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن اليه ، والقاء الشبهات على تعاليمه ، فقد كان ينظر الى التصوف وقتئذ على أنه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو اليه بعض الصوفية من التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد ، واسقاط التكاليف فحسب، وانما كانت ناشئة أيضا عما كان هنالك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين بعض العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية(٣) .

وقد كان لهذه الحال أثرها العميق فى نفوس المخلصين من مفكرى الصوفية أمثال القشيرى والهجويرى ، وان من يقرأ مقدمتى « الرسالة » و « كشف المحجوب » يقف على مدى أسف مؤلفيهما لانهيار التصوف فى عصرهما ، ولهفتهما على العودة به الى سابق عهده ، ويلمس الحرارة والاخلاص فيما كتبه كل منهما، والأمل الذى راودهما فى زوال النكسة التى حلت بالتصوف ، هذا الأمل الذى دعاهما الى تأليف كتابيهما . كما يقف فى نفس الوقت على مدى العلاقة الوثيقة بين هاتين المقدمتين ، فقد عالج المؤلفان بعمق ،

---

(١) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٦
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٩٩
(٣) « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٤٥ : أنظر ص ١٢١

نفس الموضوع ، واتفقا على التفاصيل ، بل وفى استخدام نفس التعبيرات ، وان كانت المعالجة على أساس مختلف :

فالقشيرى يعالج الموضــوع على أساس انقراض الممثلين الحقيقيين للتصوف ، وان كان لا ينكر وجود التصوف ، فهو يقول :

« اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانها كخيــامهم ❊ وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء »(١) .

ويذكر القشيرى أن هذا هو السبب الذى دعاه لأن يؤلف رســالته ويضمنها ســير الشيوخ الســابقين ، مبينا آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم ومواجيدهم ، لتكون نبراسا لجيل جديد من المريدين الصادقين .

يقول : « فعلقت هذه الرسالة اليكم ، أكرمكم الله ، وذكرت فيهــا بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم ، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة »(٢) .

وأما الهجويرى ، فيعالج نفس الموضوع على أساس الاختفاء التام لعلم التصوف فى زمنه ، وخصوصا فى المنطقة التى يعيش فيها ، وأنه لم يبق منه الا صورة مشوهة مخالفة للأصل .

يقول : « اعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زمننا ، وبخاصة فى هذه الديار حيث انشغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهــذه الطريقة على خلاف أصلها ، فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدى أهل هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد أهل الارادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة

---

(١) « الرســالة » جـ ١ ص ٢٠
(٢) « السابق » ص ٢٢

الحق ، ورضى خاصة الخلق وعامتهم من ذلك بالعبارة ، واشتروا حجابهم عنه بالروح والقلب ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد »(١) .

فهذه الصورة المشوهة للتصوف هى التى دفعت الهجويرى لأن يرسم فى كتابه صورة واضحة للتصوف يبين فيها أصوله النظرية والعملية ، ويؤيد كل أصل منها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويقرن فيها بين الشريعة والحقيقة ، ويوائم بين التكاليف الشرعية والمعانى الصوفية التى تنطوى عليها ، ويتصدى لآراء المنحرفين والأدعياء الذين أساءوا الى التصوف والصوفية .

وقد كان لهاتين المحاولتين من القشيرى والهجويرى أثرهما فى تنبيه الأذهان الى الخطر الذى حاق بالتصوف ، والدعوى الى تنقيته وتصفيته مما لحق به من شوائب . وقد قيض لهاتين المحاولتين الصادقتين أن تؤتيا أكلهما على يد الامام الغزالى الذى جاء بعدهما وبذل جهده لادخال التصوف فى صلب الاسلام السنى ، وأصبح كتابه « احياء علوم الدين » الذى ألفه فى أواخر القرن الخامس مصدرا للتصوف السنى بغير جدال(٢) .

واذا كان الفضل يرجع للغزالى فى اقامة التصوف الذى يعتبر أبلغ تعبير وأوضح تحديد للمذهب السنى(٣) ، فقد كانت للقشيرى والهجويرى جهودهما التى لا تنكر فى الدعوة الى هذا الاصلاح وتهيئة الجو له .

ومن المميزات التى تميز بها التصوف فى هذه الفترة أن نفوذ التصوف بدأ يظهر فى الشعر الفارسى وأخذ هذا النفوذ يزداد قوة على مر الأيام ، وأصبح للشعراء الصوفية فى القرن الخامس لسان مرموز ، فعلى الرغم من أنهم استعملوا نفس ألفاظ ومصطلحات القرن الرابع ، الا أنهم استعملوها على سبيل الكنايات والاستعارات ، فالله عندهم هو « الحبيب » و « المعشوق » و « المحبوب » ، والوجد الحاصل من التفكير فيه : هو « الخمر » و « الخمار » ، والظاهر والباطن منه عبارة عن « طلعته المنيرة » أو « طرته السوداء القاتمة » ، وما الى ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة(٤) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٧
(٢) « تاريخ الفلسفة العربية » حنا الفاخورى : بيروت ١٩٥٧ . ص ٣٤٨
(٣) « تاريخ الادب فى ايران » ج ٢ ص ٣٦٨
(٤) « تاريخ الادب فى ايران » براون ج ٢ ص ٣٣٤

وكان أبو سعيد بن أبى الخير أول من استعمل هذا اللسان المرموز من شعراء الصوفية فى ايران . ويعزى اليه أنه أول ما ابتدع الشعر الصوفى ، ويعتبر فى ذلك اماما لمن جاء بعده من شعراء الصوفية الكبار فى ايران أمثال « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى » .

وقد استقر صوفية القرن الخامس فى الخانقاهات التى بدأت فى الانتشار منذ القرن الرابع الهجرى ، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ فى أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أنحاء العالم الاسلامى . وكان هناك عدد كبير من هذه الخانقاهات فى خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من ايران(١)، ووضعوا نظاما معينا للحياة فيها ا وكان يقوم بادارة كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين فى هذه الفترة . ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبى الخير الذى يعتبر أول من شرع نظام الحياة فى الخانقاهات ، وأدار عددا منها ، واعتلى المنبر فى نيسابور ، وعقد المجالس ، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمة المذاهب وجادلهم وحاورهم مما عرض حياته للخطر فى بعض الأحيان(٢) . وقد ظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية فى خراسان ، مستقرا فى نيسابور وموطنه « ميهنه » تارة ، ومتنقلا ما بين « طوس » و « خرقان » و « مرو » تارة أخرى ، وتجمع حوله المريدون من كل مكان ، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة .

والواقع أن أبا سعيد قاد حركة صوفية واسعة النطاق فى أقليم خراسان فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وخصوصا بعد انقضاء فترة الغزنويين الكبار وظهور أمر السلاجقة فى ايران ، فقد فتح الميدان أمام المتصوفة فى هذه الفترة وراجت سوقهم فى العصر السلجوقى .

ونجد فى « راحة الصدور » و « أسرار التوحيد » اشارات الى زيارات(٣) ولقاءات(٤) بين أمراء السلاجقة وشيوخ الصوفية فى عصرهم .

وقد تعاصر مع أبى سعيد عدد من شيوخ الصوفية المعروفين أمثال أبى عبد الرحمن السلمى (٤١٢ هـ) ، وأبى حسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) ، وأبى العباس الشقانى ، وأبى الفضل الختلى ، وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠هـ) ، وأبى القاسم القشيرى (٤٦٥ هـ) . وقام كل من هؤلاء بنشاط

---

(١) « أسرار التوحيد » تأليف محمد بن المنور : ترجمة اسعاد عبد الهادى ، القاهرة ١٩٦٦ : أنظر ص ٤١ ، ٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٢ وغيرها .
(٢) « السابق » أنظر ص ٨٩ — ٩٥ .
(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة : أنظر ص ١٤٠ ، ١٨٢
(٤) « راحة الصدور » الترجمة : أنظر ص ١٦٠ — ١٦١

كبير فى نشر التعاليم الصوفية فى خراسان وأجزاء أخرى من ايران ، وانشغل كل منهم بتربية عدد من المريدين الذين برزت منهم مجموعة بلغوا بدورهم مرتبة الشيوخ ، وقاموا بتربية جيل آخر من المريدين ، وأداروا الخانقاهات ، وقاموا برحلات واسعة النطاق لنشر التعاليم الصوفية . ومن هؤلاء :

« أبو على الفارمدى » (٤٧٧ هـ) شيخ حجة الاسلام الغزالى ، فقد كان تلميذا ومريدا لكل من أبى القاسم القشيرى وأبى القاسم الجرجانى ، وتلقى الخرقة على يد هذا الأخير وخلفه بعد وفاته ، وأصبح شيخ شيوخ خراسان(١) .

و « أبو الفتح بن سالبة » (٤٧٣ هـ) ابن شيخ الشيوخ أبى الحسن ابن سالبة البيضاوى ، وكان تلميذا ومريدا لأبى مسلم الفارسى وخواجه على بن حسن الكرمانى ، وصحب الشيخ أبا على الداستانى ، واتخذ بباب كوار خانقاها خدم فيها ثلاثين سنة ، وجاور عنده كثير من العلماء والصالحين . وتوفى سنة ٤٧٣ هـ ودفن فى خانقاهه(٢) .

و « أبو الحسن على بن عثمان الهجويرى » (٤٦٥ هـ) الذى تتلمذ على يد أبى العباس الشقانى ، وكان مريدا لكل من أبى الفضل الختلى وأبى القاسم الجرجاوى ، والتقى بمعاصره القشيرى ، وقام برحلات واسعة النطاق فى أنحاء العالم الاسلامى التقى خلالها بعدد كبير من شيوخ الصوفية الكبار والأئمة ورؤساء المذاهب ، وجمع معلومات قيمة ضمنها كتابه كشف المحجوب ..

---

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .
(٢) « شد الازار » ص ١٨٠ — ١٨١

الفصل الثالث

التعريف بالهجويري

موطنه - أسرته - اسمه وألقابه - مولده - زواجه

موطنه :

الحديث عن موطن الهجويرى لا يقتصر على التعريف بمنطقة واحدة ، فحياته مقسمة الى ثلاث فترات ، أمضى كل فترة منها فى بقعة ، فقد ولد فى مدينة « غزنه » وأمضى بها الفترة الأولى من حياته ، ولما بلغ مبلغ الشباب تجول فى أرجاء العالم الاسلامى وزار عددا كبيرا من مدنه وأقاليمه ، ثم استقر به المقام فى مدينة « لاهور » بالهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته . ومن هنا يشمل حديثنا عن موطن الهجويرى :

١ — التعريف بمدينة غزنه باعتبارها مسقط رأس الهجويرى ، والمدينة التى أمضى بها فترة طفولته وصباه .

٢ — التعريف بمدينة لاهور باعتبارها المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته ، ومثواه الأخير .

أما الفترة التى تتوسط هاتين فيصعب أن نحدد له فيها موطنا ، لأنه لم يكن مستقرا فى بقعة معينة .

التعريف بغزنة :

عرفت « غزنه » فى التاريخ الاسلامى بأنها موطن سلاطين الغزنويين وعاصمتهم الأولى التى أصبحت فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من أشهر المدن الاسلامية والمدينة الثانية بعد بغداد ، التى ترنو اليها أنظار المسلمين فى جميع العالم الاسلامى وتهفو اليها أفئدتهم ، وتحتل من تاريخهم مركزا مرموقا ، فمنها خرجت جيوشهم الى حيث لم تبلغه فى الاسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية(١) .

---

(١) « وفيات الاعيان » ج ٢ ص ٨٥

و « غزنه »(١) التى تعرف بهذا الاسم تارة ، وعرفت باسم « غزنه » و « غزنين »(٢) تارة أخرى : هى مدينة تقع فى وسط الهضبات الأفغانية المرتفعة . وهذه المدينة توجد الآن على الطريق بين كابل وقندهار(٣) فى أفغانستان .

وغزنة مدينة قديمة ، ورد ذكرها فى كتب التاريخ والجغرافيا قبل الغزنويين . وقد ذهب اليها السائح الصينى « هيوان تسانج » حوالى سنة ٦٤٤ م ، وسماها عاصمة « تساوكيوتو » أى « زابلستان » ، وسجل اسمها على هذا النحو : « هوسى نا » أى « غزنه »(٤) .

وقد ضبط ياقوت اسمها فقال : « غزنه » بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون ، هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء « غزنين » ويعربونها فيقولون « جزنه » ويقال لمجموع بلادها زابلستان ، وغزنه قصبتها ، وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان ، وهى الحد بين خراسان والهند(٥) .

وكان الجغرافيون العرب يسمون الاقليم الجبلى فى أعالى نهر هيلمند ونهر قندهار « زابلستان » وهى البلاد التى حول غزنه ، أما المنطقة التى بين غزنه وكابل فكانت تعرف بكابلستان(٦) .

ويعرف ياقوت زابلستان بأنها كورة واسعة قايمة برأسها جنوبى بلخ وطخارستان وهى منسوبة الى زابل جد رستم بن دستان ، ويقول ان العجم يزيدون السين وما بعدها فى أسماء البلدين(٧) .

وكانت غزنه تضم فى أطرافها عددا من المحلات والقرى من توابعها ، من بينها محلتين باسم « جلاب »(٨) و « هجوير »(٩) ، استوطنتهما أسرة الهجويرى فانتقلت من احداهما الى الأخرى(١٠) ، ومنها استمد لقبه ، فهو

---

(١) هكذا يسميها « ابن الاثير » و « النسوى » و « رشيد الدين فضل الله »
(٢) تسمى غزنين فى : « زين الاخبار » و « تاريخ بيهقى » و « راحة الصدور » و « طبقات ناصرى » .
(٣) « سلطنت غزنويان » : أنظر مقدمة المؤلف :
(٤) « السابق » .
(٥) « معجم البلدان » ياقوت الحموى : طهران ١٩٦٥ ج ٦ ص ٢٨٩
(٦) « بلدان الخلافة الشرقية » ص ٣٨٨
(٧) معجم البلدان ج ٢ ص ٩٠٤
(٨) « جلاب » ضاحية من ضواحى غزنة اشتهرت بنوع من المرمر النفيس
(٩) « هجوير » بضم الهاء وسكون الجيم : من مضافات غزنين (انظر « هدبة العارفين » اسماعيل البغدادى استانبول ١٩٥١ ج ١ عمود ٦٩١
(١٠) « سفينة الاولياء » : دارا شكوه : لكهنو ١٢٩٥ هـ — ١٨٧٨ م ص ١٦٤

يلقب بالجلابى تارة ، وبالهجويرى تارة أخرى ، وكثيرا ما يضاف كلاهما الى اسمه فيقال له : الجلابى الهجويرى(١) .

ولا يوجد فى مدينة غزنه حاليا أو على مقربة منها موضع باسم جلاب أو هجوير ، وقد قام السيد « حبيبى » منذ سنوات بزيارة ضريح الشيخ عثمان والد الهجويرى ، وذكر أن هذا الضريح يوجد الآن فى قرية تسمى « أربابها » على بعد ميل من غزنه ، وأنه ربما كانت واحدة من المحلتين السابقتين تقع فى موضع أربابها غير أن دورة الأيام محت اسمها أو بدلته(٢) .

ويبدو أن الهجويرى كان يحب موطنه غزنه حبا جما ، وظل برغم رحلاته العديدة مرتبطا بمسقط رأسه يحمل له الاعزاز والتقدير ، فهو لا يذكر اسم غزتين الا بقوله : « غزنين حرسها الله »(٣) . وقد أبدى أسفه لأنه عندما كان يؤلف كتاب كشف المحجوب ، فى مدينة لاهور ، لم يكن فى متناول يده كتبه ومراجعه التى كان قد تركها فى غزنين(٤) .

التعريف بلاهور :

تعتبر « لاهور » الموطن الثانى للهجويرى ، فهى المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته وتوفى بها ، ولا يزال قبره فيها .

و « لاهور » مدينة هندية قديمة يرجع تاريخها الى ألفى عام ، وتدخل الآن ضمن نطاق الأراضى الباكستانية .

ويرد اسم لاهور فى التفاسير الهندية القديمة على أنه مأخوذ من الكلمة السنسكريتية « لوه أور » التى تعنى : قلعة « لوه » أحد توأمى الاله الهندى العظيم « راما » بطل الملحمة الهندية الشهيرة « رامايانا » . وقد أشار السائح الصينى « هيوان تسانج » الى لاهور فى سجله عام ٦٣٠ م .

وتذكر لاهور فى بعض المصادر على أنها : « لهاوور »(٥) أو « لوهور » أو « لهانور »(٦) أو « لاهوور » . وضبط ياقوت اسمها فقال : « لوهور » بفتح أوله وسكون ثانيه والهاء وآخره راء ، والمشهور من اسم هذا البلد « لهاوور » وهى مدينة عظيمة ومشهورة فى بلاد الهند(٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١
(٢) « هلال » جلد بنجم شماره ١ ـ خرداد ١٣٢٦ (مقال بقلم غلام سرور) .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ ، ١١٥
(٤) « السابق » ص ١١٠
(٥) أنظر : « الكامل » حوادث ٤٣٥ ، جامع التواريخ المجلد الثانى ج ٤ ص ٢١٧
(٦) « كشف المحجوب » ص ١١٠ حاشية ٣٥
(٧) « معجم البلدان » ج ٤ ص ٣٧١

ولاهور عاصمة اقليم البنجاب ، وهو واحد من الأقاليم الأربعة التى يشتمل عليهـا وادى السـند ، وهى : « البنجاب » و « راجبوتانا » و « والكجرات » و « والسند » ، ويسمى هذا الوادى بالهند الاسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ، ولمـا احتواه من المبانى التى أسفرت عنها الحضارة الاسلامية(١) .

ويقع اقليم البنجاب فى أسفل جبال الهملايا . وكلمة البنجاب مكونة من كلمتين « بنج » و « آب » ومعناهما بالفارسية : الأنهار الخمسة ، اذ تجرى فى البنجاب الأنهار « ستلج » و « جنـاب » و « بياس » (الاندوس) و « جهلم » و « راوى » وجميعها روافد لنهر السند ، تنبع من جبـال هماالايا الغربية ، وتجرى حاليا فى أرض الباكستان وتتخلل البنجاب سلسلة من التلال ، وبها منطقتان من الغابات فى مقاطعتى : مولتان ولاهور(٢) .

ويرد ذكر لاهور فى كشف المحجوب على انها من توابع المولتان(٣) ، بينما يذكرها القزوينى على أنها من المدن الكبرى فى السند شأنها فى ذلك شأن المولتان ، يقول : « السند مملكة كبيرة من الاقليم الثانى ، ومدنها الكبرى هى : المنصورة ، ملتان ، لهاور ، هياطيه (بهاطيه) ، فرشاور (بشاور) . . . والأهالى هناك يتحدثون ، غالبا بالفارسية »(٤) .

و « لاهور » تقع قرب الشاطىء الأيسر لنهر راوى ، وتشغل موقعها منذ أزمنة مبكرة ، ومعظم مناطقها اكثر علوا من المناطق المحيطة بها ، وقد أقيمت المدينة الحالية على بقايا المساكن القديمة التى كانت فى تلك المنطقة(٥) ، ولا تزال بعض المناطق القديمة باقية على حالها حيث كانت تقوم المدينة القديمة ، ويوجد بها مزار الهجويرى(٦) .

وتمتاز لاهور بأنها أكبر مركز للثقافة الاسلامية فى شبه القارة الهندية ، وهى مقر جامعة البنجاب أقدم اكاديمية للآداب والعلوم فى الهند .

نسب الهجويرى وأسرته :

لا نكاد نعرف شيئا عن أسرة الهجويرى ، فهو لم يشر قط فى كتابه الى أسرته أو أبويه . وكل ما لدينا من معلومات فى هذا الصدد هو مجرد اشارة

---

(١) « حضارة الهند » جوستاف لوبون : ترجمة عادل زعيتر — القـاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م ص ٦٩ .

(٢) السابق « باكستان المعاصرة » حافظ حمدى ومحمود الشرقاوى : القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠

(٤) « نزهة القلوب » ص ٢٥٩ .

(٥) Encyclopaedia - Britannica : Vol. 13 : «Lahore» p. 595.

(٦) « تذكرة حضرت على هجويرى » أنظر : ص ٨٧ .

طفيفة وردت فى سفينة الأولياء ، لا تتعدى أنه كان من أسرة تتصف بالتقوى والزهد ، استوطنت مدينة غزنه(١) .

وهنـــاك شجرة لنسب الهجويرى ، لم يرد ذكرها الا فى « خـــزينة الأصفياء » ، وهذه الشجرة توصل نسبه الى الامام على بن أبى طالب . وذكر مؤلف الخزينة أن هذه الشجرة مدرجة فى تواريخ السابقين ، ولكنه لم يذكر أسماء هذه التوايرخ .

يقول : « شجره نسبى حضرت ممدوح بدين نوع درج تواريخ متقدمين است كه حضرت مخدوم على بن عثمان بن سيد على بن عبد الرحمن بن شاه شجاع بن أبو الحسن على بن حسين أصغر بن سيد زيد شهيد بن حضرت امام حسن رضى الله عنه بن على كرم الله وجهه »(٢) .

وترجمته : « شجرة نسب حضرة الممدوح مدرجة فى تواريخ المتقدمين على هذا النحو : أن حضرة المخدوم على بن عثمان بن السيد على بن عبد الرحمن ، بن شاه شجاع بن أبى الحسن على بن الحسين الأصغر ، ابن السيد الشهيد زيد ، ابن حضرة الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، ابن على كرم الله وجهه » .

وقد أشير الى هذا النسب فى هدية العارفين ، فأضاف البغدادى لقب « الحسينى » الى اسم الهجويرى(٣) . وورد ذكره ايضا فى مقالين فى مجلة (هلال) ، فذكر الكاتب فى المقال الأول أن نسب الهجويرى يتصل من ناحية أبيه بالامام الحسن(٤) ، وذكر فى الثانى أن الشيخ عثمان والد الهجويرى يتصل نسبه فى الظهر الثامن بالامام على المرتضى(٥) . ويبدو من هذه العبارات أن الهجويرى كان من أصل عربى .

والـــده :

والد الهجويرى هو الشيخ عثمان بن أبى على ، وكان ـــ كما وصفه غلام سرور ـــ رجلا متدينا جدا ، على قدر كاف من التصوف والعرفان .

---

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .
(٢) « خزينة الاصفياء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر : ج ٢ ص ٢٣٣) .
(٣) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
(٤) « هلال » شماره سوم ارديبهشت ١٣٣٢ .
(٥) « هلال »جلد بنجم ـــ شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

ويبدو أن الشيخ عثمان كان على قيد الحياة حتى عصر السلطان محمود الغزنوى ، وأدرك فترة ازدهار غزنه فى ذلك العصر . يقول غلام سرور ما ترجمته :

« وفى تلك الفترة كان العلماء والفضلاء وأرباب المعرفة والشعراء والصوفية يتوجهون الى مدينة غزنه من جميع أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث أصبحت تلك المدينة والقرى التابعة لها مركزا للعلوم الدينية والآداب الاسلامية . وكان الشيخ عثمان من بين الوافدين على غزنه ، فاتخذ مسكنه فى ضواحيها ، وصار موضع احترام الأهالى ، ومحل ثقتهم واعتقادهم » .

وتوفى الشيخ عثمان فى غزنه ، ولا يزال قبره بها ، فى قرية تسمى « اربابها » على بعد ميل من غزنه الحالية(١) .

والدته :

أما عن والدة الهجويرى ، فقد كانت هى أيضا من بيت متدين . وقد أشار « داراشكوه » الى واحد من اخوتهاباسم الشيخ « تاج الأولياء » ، ويبدو أنه كان من الرجال الصالحين المعروفين فىغزنه وتوفى ودفن بها ، ولا يزال ضريحه معروفا باسمه هناك . وقد زار « دارا شكوه » هذا الضريح الذى يقع بالقرب من ضريح والد الهجويرى ، ويتصل به قبر والدته(٢) .

اسمه وألقابه :

« الهجويرى » اسمه : « على بن عثمان » . وقد اثبت هذا الاسم فى مقدمة كشف المحجوب(٣) ، وكرره كثيرا فى ثنايا الكتاب ، فقد كان فى كل مرة يتحدث فيها عن نفسه ، يصر على أن يقول :

« ومن كه على بن عثمان الجلابى ام » .

أى : « وانا على بن عثمان الجلابى » .

حتى أن هذه العبارة وردت ثمان وعشرين مرة فى كتاب كشف المحجوب(٤)

---

(١) « هلال » جلد بنجم — شماره ١ ، خرداد ماه ١٣٣٦

(٢) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥

(٣) « كشف المحجوب » ص ١

(٤) « السابق » (انظر الصفحات رقم : ١ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٣٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦) .

والاسم الكامل الذى يرد للهجويرى ، مضافا اليه كنيته وألقابه ، هو :

« أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى » ، ويعرف فى بعض المصادر باسم : « داتا كنج بخشى لا هورى »(١) . كما أنه يسمى أحيانا فى اختصار : « الغزنوى » أو « الهجويرى » أو « الجلابى »

واذا تأملنا هذا الاسم الطويل ، نجد أنه ينقسم الى ثلاثة أقسام :

كنية ، اسم ثلاثى ، ألقاب .

فالكنية : أبو الحسن(٢) .

والاسم : على بن عثمان بن أبى على(٣) .

والألقاب : الجلابى والهجويرى والغزنوى .

ولا يوجد فى أى من المصادر التى تحدثت عن الهجويرى خلاف حول كنيته ، أو اسمه أو اسم أبيه ، وان كان هناك خلاف يسير حول اسم جده ، فقد ذكرته بعض المصادر على أنه « على »(٤) وذكرته بعضها الآخر على أنه « أبو على » . ويبدو أن الأخير هو الأصح لأنه المذكور فى مقدمة كشف المحجوب .

أما عن الألقاب التى يلقب بها الهجويرى ، فقد ارتبطت كلها بموطنه والأماكن التى عاش فيها :

فهو يلقب بالجلابى نسبة الى « جلاب » .

ويلقب بالهجويرى نسبة الى « هجوير »(٥) .

---

(١) « خزينة الاصفياء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر ج ٢ ص ٢٣٤) ، « سلطنت غزنويان » ص ٣٣٨ ، « فهرست كتابهاى جابى فارسى » خنبابا مشار : تهران ١٣٣٧ (أنظر ج ١ عمود ١٢٦٥) ، تذكره حضرت على هجويرى » ص ١٧ ، وكلمة « داتا » تطلق على رجل الدين فى مقابل الكلمة العربية ، و « كنج بخش » بمعنى : واهب الكنز ،

(٢) « نفحات الانس » عبد الرحمن بن أحمد جامى : طهران ١٣٣٦ هـ ش — ص ٣١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « هدية العارفين » ج ١ ص ٦٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١ ، « نفحات الانس » ص ٣١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤

(٤) أنظر : « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب ، «Ethe» : Catalogue of persian Manuscripts (Endia office Library) Vol. I.

(٥) يخطىء البعض فى ترجمة لقب الهجويرى عن الانجليزية فيترجمونه : « الحجويرى » أنظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » آدام ميتز : ج ٢ ص ١٧ وغيرها ، « مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى » فرانتز روزنتال : ترجمة أنيس فريحة : بيروت ١٩٦١ ص ١٢٨ » .

ويلقب بالغزنوى نسبة الى « غزنه » .

وجلاب وهجوير محلتان من محلات مدينة غزنه مسقط رأس الهجويرى .

يبقى بعد ذلك لقب : داتا كنج بخش لاهورى ، الذى تطلقه بعض المصادر على الهجويرى . وقد ذكر صاحب « خزينة الأصفياء » أن « معين الدين حسن السنجرى »(۱) هو الذى اطلق عليه هذا الاسم ، ذلك انه عندما تتلد خلعة قطب لاهور ، ذهب الى ضريح الهجويرى واختلى هناك ، وعندما هم بمغادرة المكان وقف فى مواجهة القبر وقال هذا البيت :

كنج بخلش هردو عالم مظهر نور خدا
كاملان رابير كامل ناقصان را راهنما

وترجمته :

انه واهب كنز كلا العالمين ومظهر نور الله ،
وشيخ كامل للكاملين ، وهــــاد للناقصين .

ومنذ ذلك اليوم اشتهر باسم : « كنج بخش »(۲) .

غير أنه ورد فى مقال فى مجلة « هلال » ان هذه الرواية موضة شك ، وذكر الكاتب أن هذا اللقب ورد على لسان الهجويرى فى كتابه « كشف الأسرار » حيث يقول ما ترجمته :

« يا على ، ان الناس يسمونك بالوهاب ، وأنت لا تملك فلسا واحدا . فلا تدع لهذا الادعاء سبيل الى قلبك ، والا كان هــــذا محض غرور . فالوهاب هو الله وحده ، فلا تكن شريكا له والا هلكت . وهو بلا شك اله واحد ، وليس له شريك »(۳) .

ويبدو من هذه العبارة أن الهجويرى كان يلقب بداتا كنج بخش اثناء حياته ، وأنه لم يكن يستحسن هذا اللقب .

« وداتا كنج بخش » هو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهنــد وباكستان ، منذ قرون طويلة . وقد لا يعرف عامة الناس هناك اسم « على الغزنوى » ، ولكن لا يوجد من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا كنج بخش » .

---

(۱) « معين الدين حسن السنجرى ، من سلسلة شيوخ الجشتية . كان مريدا للشيخ عثمان الهارونى وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (أنظر ترجمته فى : « سفينة الاولياء » ص ۹۳ — ۹٤ ، « خزينة الاصفياء » جـ ۱ ص ٢٥٦ وما بعدها » .
ص ۹۳ — ۹٤ ، « خزينة الاصفياء » جـ ۱ ص ٢٥٦ وما بعدها) » ..

(۲) « خزينة الاصفياء » جـ ۲ ص ۲۳٤

(۳) انظر : مجلة « هلال » شمارة سوم : ارديبهست ۱۳۳۲ .

أما لقب « لاهورى »(١) فقــد اكتسبه الهجويرى من اقامته فى مدينة لاهور خلال الفترة الأخيرة من حياته .

مولده ونشــأته :

تاريخ ميلاد الهجويرى مجهول تماما ، فكتاب كشف المحجوب خال من الاشـارة الى هذا الأمر ، كما أنه لم يرد ذكر هذا التاريخ فى أى من المصادر التى تحدثت عن الهجويرى ، حتى أقربها اليه عهدا .

والواقع أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة تاريخ ميلاده ، على وجه التقريب الا بالرجوع الى بعض الاشـارات ، غير المباشرة ، التى وردت فى كشف المحجوب ، والتى يشير فيها الهجويرى الى معاصريه من الصوفية .

ومن المعروف ، فى كثير من المصــادر ، أن الهجويرى عاصر كلا من أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ — ٤٤٠ هـ) ، وأبى القــاسم القشيرى (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) .

وبالنسبة لأبى سعيد ، فقد ذكرت بعض المصادر أنه والهجويرى كانا مريدين لشيخ واحد هو « أبو الفضل حسن السرخسى »(٢) ومن هنا أطلقت عليه لقب « شقيق أبى سعيد »(٣) . ولكننا بالرجوع الى كشف المحجــوب تضع أيدينا على الحقائق التالية :

أولا : أن الهجويرى كان مريدا لأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى(٤) ، لا أبى الفضــل حسن السرخسى ، وهو لم ير هذا الأخير وانما حدثه عنه (خواجه) الامام الحزامى(٥) .

---

(١) أنظر : « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٢
« سلطنت غزنوبان » ص ٣٣٨
« بزم شوق » نشريه ماهيانه أدبى وفرهنكى : أكادمى فارسى كراجى نوفمبر ١٩٦٣ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٢) أنظر :
مقدمة مخطوطة كشف المحجوب التابعة لمكتبة فينا ، والمحفوظة تحت رقم ٣٤٤ من مجموعة « هامر » ، « فصل الخطاب » محمد بارسا (نقلا عن « كشف المحجوب » مقدمة المصحح ص ٦١ — ٦٢) ، « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٧ .
« هلال » جلد سوم ارديبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « رسالة آبدالية » يعقوب بن عثمان الجرخى نقلا عن :
«Ethe», Cat. Vol. I.

(٤) « كشف الماحجوب » ص ٢٠٨ .

(٥) « السابق » ص ٢٨٧ .

ثانيا : لم يلتق الهجويرى بأبى سعيد بن أبى الخير أثناء حياته ، وانما قام بزيارة قبره فى ميهنه(١) بعد وفاته ، والتقى بابنه « المظفر » ، وخادم أبى سعيد الخاص « حسن بن المؤدب » . وسمع من هذا الأخير بعض أخبار أبى سعيد(٢) ، وسمع بعضها الآخر من أبى مسلم الفارسى أحد معاصرى أبى سعيد(٣) .

ثالثا : ترجم الهجويرى لأبى سعيد ضمن عدد من شيوخ الصوفية من معاصريه ، وذلك فى الباب الثانى عشر من كشف المحجوب المسمى « باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين »(٤) :

والمجموعة الأولى من هؤلاء الشيوخ لم يدركهم الهجويرى ، وهم بالنسبة لأبى سعيد أما شيوخه مثل : أبى العباس القصاب (٣٩٧ هـ)(٥) وأبى على الدقاق (٤٠٥ هـ)(٦) ، وأما رفاقه مثل : أبى عبد الله الداستانى (٤١٧ هـ) وأبى الحسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) .

والمجموعة الثانية : وان كانوا أيضا من طبقة أبى سعيد ، الا أن الهجويرى أدركهم وتتلمذ عليهم ، وهم يمثلون أساتذته وشيوخه ، مثل : أبى العباس الشقانى(٧) ، وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ)(٨) وأبى الفضل الختلى وخواجه مظفر بن حمدان(٩) .

ويتضح من هذا الموضع الذى ترجم فيه الهجويرى لأبى سعيد ، ومن لهجة التقدير والاحترام الكبير التى ترجم له بها ، أنه كان يعده فى مرتبة شيوخه وأساتذته الذين كانوا جميعا ينتمون الى جيله ، وبالتالى فان الهجويرى يمثل الجيل الذى تلا هؤلاء الشيوخ وهو جيل تلاميذهم ومريديهم .

وبالنسبة للقشيرى : فمن الواضح من كشف المحجوب أن الهجويرى التقى به وسمع منه بعض آرائه(٩) . ولكننا فى الوقت نفسه نستشف من الموضع الذى ترجم له فيه — وهو نفس الباب الذى ترجم فيه لأبى سعيد

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٠١
(٢) « السابق » ص ٢٠٥
(٣) السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١
(٤) السابق ص ٢٠٢ — ٢١٤
(٥) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٥٦ ، ٦٣
(٦) « السابق » أنظر ص ٧٠ — ٧١
(٧) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٢٤٦ — ٢٤٧
(٨) « السابق » أنظر ص ٨١
(٩) « السابق » ص ٢٢٠ — ٢٢١
(١٠) « كشف المحجوب » ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧

ولأساتذته وشيوخه ـ ومن اللهجة التى تحدث بها عنه ، أنه كان يعده هو الآخر فى عداد أساتذته . وليس هذا غريبا ، فالقشيرى كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير ، وقد تلازما مدة طويلة فى نيسابور(١) ، كما عاصر القشيرى أيضا أساتذة الهجويرى وشيوخه(٢) ، وكان على اتصال وثيق بهم .

وكان يوجد الى جوار هذه المجموعة من الشيوخ ، التى تضم أبا سعيد والقشيرى وأساتذة الهجويرى وشيوخه ، عدد من التلاميذ والمريدين الذين كانوا يتتلمذون على بعض هؤلاء الشيوخ ويلازمون بعضهم ، وهؤلاء التلاميذ عرفوا فيما بعد ، وبلغوا هم أيضا مرتبة الشيوخ ، ونذكر منهم « أبا الفتح ابن سالبه »(٣) و « أبا على الفارمدى » .

أما ((**أبو الفتح**)) فهو ابن شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبة البيضاوى(٤) ، كان تلميذا لعدد من الشيوخ من طبقة أبى سعيد(٥) ، وتوفى سنة ٤٧٣ هـ . وقد أشار اليه الهجويرى ، فى كشف المحجوب ، بما يدل على أنه كان من طبقته ، وصرح بأنه لم ير شيخ الشيوخ ولكنه رأى ابنه ، وذكر اسم أبى الفتح بين أسماء الصوفية المعاصرين له ، وقال انه سوف يصبح خلفا طيبا لأبيه ، ومرجوا فيه(٦) ..

وأما((**أبو على الفارمدى**))(٧) المتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، فقد كان مريدا

---

(١) « أسرار التوحيد » انظر : الفصل الاول من الباب الثانى .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ .

(٣) « أبو الفتح بن سالبة : عبد السلام بن أحمد ، « أبو الفتح الصوفى ويعرف بابن سالبة ، من أهل فارس . سافر الكثير ، وجال فى البلاد وسمع بها الحديث . ورد بغداد فى سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، فسمع بها من أبى القاسم بن بشران ، وأبى على ابن شادان . وتوفى ببيضاء فارس سنة ٤٧٣ هـ « انظر: « المنتظم فى تاريخ الملوك والامم » ابن الجوزى : حيدر أباد ١٣٥٨ هـ ـ ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٤) « شيخ الشيوخ أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر البيضاوى المعروف بابن سالبة ، وكان من كبار مشايخ الصوفية فى فارس فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس . من معاصرى أبى اسحاق بن شهريار الكازرونى (٤٢٦ هـ) وأبى حيان التوحيدى (٤٠١ هـ) . توفى سنة ٤١٥ هـ ، ودفن فى بيضاء فارس » . « شد الازار فى حط الاوزار عن زوار المزار » معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى . تصحيح : محمد قزوينى وعباس اقبال : طهران ١٣٢٨ هـ ـ انظر حواشى ص ٤٧٦ » .

(٥) تادب « أبو الفتح » بالشيخ أبى مسلم الفارسى ، ولقى الشيخ أبا الحسن على بن خواجه الكرمانى ، وصحب الشيخ أبا عبد الله الداستانى ـ وثلاثتهم من معاصرى أبى سعيد وزملائه » .

(انظر : « شد الازار » ص ١٨٠ ـ ١٨١) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٧) « أبو على الفارمدى » : شيخ حجة الاسلام الغزالى (انظر : نفحات الانس ص ٣٧٠) ، اسمه الفضل بن محمد بن على الفارمد ، وفارمد من قرى طوس (انظر : « معجم البلدان » ج ٣ ص ٨٣٩) ، وكان شيخ شيوخ خراسان وتلميذا للامام القشيرى ، ومريدا للشيخ أبى القاسم الجرجانى ، والتقى بالشيخ أبى سعيد بن أبى الخير . وتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، وقبره فى طوس (انظر : « سفينة الاولياء » ص ٧٥) .

لأبى الحسن الخرقانى(١) ، وتلميذا ومريدا لأبى القاسم القشيرى ، ثم انضم الى حلقة مريدى أبى القاسم الجرجانى(٢) . وفى خلال فترة تلمذته على الجرجانى ، بعث به الى أبى سعيد بن أبى الخير ، فأقام عنده فترة فى مدينة(٣) ، ثم رجع الى الجرجانى وتسلم منه الخرقة ، وأصبح خليفة له بعد وفاته .

وقد أشار الهجويرى الى الفارمدى خلال ترجمته لشيخه أبى القاسم الجرجانى ، ووصفه بأنه لسان الوقت ، وتنبأ له بأنه سوف يكون خير خلف للشيخ وخير قدوه للصوفية . ثم أشار الى نفسه فى الترجمة ذاتها بما يفيد أنه ، عند اتصاله بأبى القاسم الجرجانى وتعرفه على مريده الفارمدى ، كان لا يزال فى سن الشباب(٤) .

ويتضح من هاتين الاشارتين أن الهجويرى والفارمدى كانا مريدين لشيخ واحد ، هو « أبو القاسم الجرجانى » ، وكانا كلاهما ينتميان الى جيل التلامذة والمريدين ، مما يدل على أنهما متقاربان فى السن ، ومن طبقة واحدة ..

وبالاضافة الى هؤلاء ، أشار الهجويرى فى الباب الثالث عشر من كشف المحجوب (باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على حسب البلدان)(٥) الى عدد من الصوفية من بينهم مجموعة من الشبان من أبناء الشيوخ من طبقة أبى سعيد ، وهم :

المظفر بن أبى سعيد (٤٤٠ هـ) .

أحمد بن أبى الحسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) .

أبو الحسن على بن أبى على الأسود (سياه) (٤٢٤ هـ) .

وربما كان هؤلاء يمثلون الطبقة التالية لطبقة الهجويرى ..

وبعد هذا العرض لطبقات ثلاث من معاصرى الهجويرى ، نستنتج انه كان يمثل طبقة تتوسط طبقة الشيوخ من أقران أبى سعيد بى أبى الخير ، وطبقة أبناء هؤلاء الشيوخ . وبناء عليه يمكن أن نرجح انه ولد فيما بين العقدين

---

(١) « نفحات الانس » ص ٢٦٨ .
(٢) « أسرار التوحيد » انظر ص ١٤٢ — ١٤٤ .
(٣) « السابق » ص ٢٠٧
(٤) « كشف المحجوب » ص ٢١١ — ٢١٢ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ — ٢١٨ .

التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى . واذا افترضنا أنه ولد حوالى منتصف هذه الفترة ، فان ذلك لا يتعارض مع ما ورد فى بعض المصادر من انه عاصر السلطان « محمود الغزنوى »(١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وابنه السلطان مسعود(٢) (٤٣٢ هـ) .

أما عن نشأة الهجويرى ، فمن الواضح أنها كانت نشأة دينية خالصة ، فقد ولد فى بيئة متدينة عرفت بالزهد والتقوى(٣) ، بين أب على قدر كاف من التصوف والعرفان(٤) وأم من بيت متدين عرف أفراده بالصلاح والتقوى فتلقى التعاليم الأولية للدين الاسلامى على أفراد أسرته ، وصحب أباه خلال فترة طفولته ، فتعرف على مبادىء التصوف فى سن مبكرة ، وتشرب روحه منذ الصغر ، وكان لذلك أثره الكبير فى اتجاهه الى التصوف ، وسلوكه طريق الصوفية .

زواجه :

وردت فى كشف المحجوب اشارة عابرة أشار فيها الهجويرى الى زواجه، ويبدو منها أن تجربته فى الحياة الزوجية كانت قصيرة وغير سارة ، ذلك أن القدر أراد له أن يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها ، وأفسدت عليه هذه المرأة حياته لمدة عام ، انتقلت بعده الى رحمة الله .

يقول ما ترجمته : « وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق من آفة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هناك رؤية . وقد استغرقت فى ذلك عاما بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته . والحمد لله على جزيل نعمائه »(٥) .

وقد اختلف « زوكوفسكى » و « نيكولسون » فيما اذا كان الهجويرى قد مر بتجربة عاطفية خلال هذا العام ، أم أنه تزوج فعلا . ويبدو أن

---

(١) « سلطنت غزنويان » ص ٣٣٨ ، « رسالة آبدالية » (نقلا عن مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .
(٢) « تصوف » عباس مهرين : كابل ص ٣٢ .
(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .
(٤) « هلال » جلد بنجم — شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٤٧٦ .

زوكوفسكى فهم من العبارة السابقة أن الهجويرى لم يكن متزوجا(١) ، وأن التجربة التى مر بها كانت تجربة عاطفية(٢) ، بينما يرى نيكولسون أنه قد تزوج فعلا(٣) .

ولا شك أن الصواب فى جانب نيكولسون ، لأننا اذا رجعنا الى النص نجد الهجويرى يقول :

« من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاما ، فقد قدر أن وقعت فى الفتنة » ومعنى هذا أن تغييرا قد حدث من حالة الى حالة مغايرة ، أى من عدم الزواج الى الزواج ، واستمر هذا التغيير لمدة عام ..

وقد ذكر « محمد الدين » مؤلف كتاب : « حيات حضرت داتا كنج بخش » فى فصل من الكتاب عنوانه : « الزواج الأول والثانى لحضرة دانا كنج بخش » أن الهجويرى تزوج مرتين ، واستند فى ذلك الى النص الذى ورد فى كشف المحجوب .

وبدأ الكاتب هـذا الفصل بقوله أن حضرة داتا كنج بخش آثار الى زواجه الثـانى ولم يذكر شـيئا عن زواجه الأول ، عندما قال فى كشف المحجوب .

« وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاما ، فقد قدر أن وقعت فى الفتنة » .

واستنتج الكاتب من هذه العبارة أن الهجويرى تزوج مرتين :

المرة الأولى : عندما كان لا يزال صغيرا ، فتزوج بناء على رغبة والديه ، غير أن هذا الزواج لم يدم طويلا ، اذ توفيت الزوجة الأولى .

وظل الهجويرى بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، كما هو واضح من عبـارته .

والمرة الثانية : عندما قدر له أن يقع فى حب الأسرة والأولاد ، وكانت تسيطر عليه عندئذ عاطفة قوية جعلته يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها من

---

(١) « يشترك » ميتز مع زوكوفسكى فى هذا الرأى ، انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Bulletin of : Oriental Studies : A Translation of Zhukovsky's Intro duction.

(٣) انظر : نيكولسون : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب .

قبل ، فتزوج بها ، ولم يقدر له التوفيق فى زواجه الثانى ، ذلك أن المرأة التى تزوجها كادت أن تفسد عليه دينه . واستمرت هذه التجربة القاسية لمدة عام ، كما يدل عليه قوله :

« واستغرقت فى ذلك عاما ، حتى كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه ، عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته » .

فهذه العبارة تدل ، فى رأى الكاتب ، على أن الزوجة الثانية توفيت أيضا بعد عام من الزواج . ويضيف الكاتب أن الزواج الثانى للهجويرى تم أيضا استجابة لرغبة والديه ، ذلك أنه على الرغم من كراهيته للزواج — كما يتبين من أقواله فى كتابيه : كشف المحجوب وكشف الأسرار — اضطر امتثالا لأوامرهما أن يتزوج مرتين ، اذ لم تكن لديه المقدرة على رفض طلبهما ، احتراما لهما(١) .

والواقع أن الكاتب حلل النص الوارد فى كشف المحجوب تحليلا لا بأس به ، توصل عن طريقه الى ترجيح أن الهجويرى تزوج مرتين ، وهو ما نؤيده فيه ، الا أننا نأخذ عليه بعض التضارب فى أقواله ، فهو تارة يقول ان الهجويرى تزوج فى المرة الثانية استجابة للرغبة القوية التى تملكته حبا فى تكوين الأسرة والأولاد ، وتارة أخرى يقول انه كان كارها للزواج عازفا عنه ، وانما اضطر اليه ارضاء لوالديه .

وفى رأينا أن الهجويرى تزوج للمرة الأولى فى حياة أبويه ، وكان لا يزال شابا حديث السن . وربما كان زواجه استجابة لرغبة والديه ، كما يقول « محمد الدين » .

أما المرة الثانية فيبدو أنها كانت بعد وفاة أبويه . ومن المرجح أن زواجه الثانى تم خلال فترة الرحلات ، ذلك أن العبارة الواردة فى النص تشير الى أنه ظل بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، ومعنى هذا أنه كان قد تخطى الثلاثين من عمره . ومما لا شك فيه أن هذه الفترة من عمره تقابل فترة الرحلات .

وقد انعكست مرارة التجربة الثانية الفاشلة للهجويرى فى الزواج على أقواله ورأيه فى الزواج فى كتابه كشف المحجوب ، وجعلته يقسو على النساء فى حكمه ، حتى أنه صرح بأن المرأة سبب البلاء فى الدنيا والآخرة ، وأنها كانت كذلك منذ البداية ، وبقيت هكذا الى يومه(٢) .

---

(١) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٤٠ — ٤٢ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

الفصل الرابع

ثقافته - أساتذته وشيوخه الشخصيات التى تأثر بها

١ ــ ثقافته ونوع العلوم التى حصلها :

من الواضح من كشف المحجوب أن الهجويرى كان على درجة كبيرة من ثقافة عصره ، فكتابه مرآة لثقافة دينية واسعة النطاق ، ودرايةكاملة باللغتين الفارسية والعربية . ويبدو أنه بدأ دراسته فى موطنه غزنه فى سن مبكرة ، فاشتغل بما كان يشتغل به أترابه فى ذلك الوقت من دراسة العلوم المتعارفة على عهده : كقراءة القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب ، وكرس جهدا كبيرا لدراسة العلوم الدينية والشرعية كالتفسير والحديث والروايات والفقه . وقد توفرت له فى شبابه فرصة طيبة لتنمية معارفه عن طريق الرحلات المتعددة التى تجول خلالها فى أرجاء العالم الاسلامى(١) ، فتزود من أنواع الثقافة الاسلامية التى كانت منتشرة فى كل بقعة من العالم الاسلامى .

وبالاضافة الى هذا ، فقد أفادته تلك الرحلات فى الاطلاع على العديد من الكتب والمؤلفات الدينية عامة ، والصوفية خاصة ، مما وسع أفقه ، وعمق مفهومه للناحيتين الدينية والروحية .

واذا استعرضنا بعض الشواهد البارزة والواضحة فى كتاب كشف المحجوب ، فانه يمكننا عن طريق ذلك أن نتعرف فى وضوح على العلوم التى حصلها الهجويرى أثناء دراسته ، والمعارف التى اكتسبها من اطلاعاته وقراءاته .

وأول ما يستلفت نظرنا فى الكتاب ، كثرة الآيات القرآنية التى وردت فيه ، فالهجويرى استعمل ٢٣٦ آية قرآنية(٢) استعمالا دل على معرفته الكاملة بالقرآن الكريم ، واستيعابه للمعانى التى تهدف اليها آياته الكريمة ، والمغزى

---

(١) انظر تفصيل هذه الرحلات فى الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) « كشف المحجوب » انظر فهرست الآيات القرآنية ص ٥٧٦ ــ ٥٨٠ .

العميق الذى تنطوى عليه كل آية ، فكان يستشهد ببعض هذه الآيات لاثبات الآراء التى يذهب اليها ، ويرجع الى بعضها ليجلو معنى أساء البعض فهمه ، ويشرح بعضها ليطلع القارىء على المغزى الذى تنطوى عليه ، ويؤكد عن طريق عدد منها بعض الأسس والأصول الصوفية .

ولا شك أن هذا ان دل على شىء فانما يدل على أنه تعلم القرآن قراءة ، وتعمقه فهما وتفسيرا .

والى جوار الآيات القرآنية ، استعمل الهجويرى ١٣٨ حديثا(١) ، وشرح كثيرا منها شرحا وافيا ، ونقل معظمها الى اللغة الفارسية . وفى هذا أيضا ما يدل على المامه الكبير بعلم الحديث ، مما يؤكد أنه درس هذا العلم دراسة وافية . وقد صرح هو نفسه بأنه تتلمذ على بعض الشيوخ ممن كانوا أساتذة فى علوم الحديث(٢) والتفسير(٣) .

وبالاضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث ، فقد روى الهجويرى ما يقرب من خمسمائة قول لشيوخ الصوفية ، بعضها للسابقين عليه ، ابتداء من الرواد الأوائل للصوفية ، وبعضها لشيوخه والمعاصرين له .

وفى هذا دلالة على معرفته بالروايات التى كان شيخه الختلى من المبرزين فيها ، وكانت له مجموعة منها أشار الهجويرى اليها فى كتابه(٤) .

أما عن دراسة الهجويرى للفقه ، فقد بدا أثر تلك الدراسة واضحا فى الجزء الأخير من كشف المحجوب ، الذى تحدث فيه عن الأحكام الشرعية للطهارة(٥) والصلاة(٦) والزكاة(٧) والصيام(٨) والحج(٩) ، فالهجويرى فى هذه الأقسام يبين فى دقة الأحكام الشرعية لهذه العبادات من الناحية الفقهية — أى من ناحية ظاهرها وأحكامها التى تجرى على الجوارح — ثم يوائم بين هذه الأحكام الظاهرية وبين المعانى الباطنية التى تنطوى عليها ، والتى هى من أعمال القلوب لا الجوارح ، مما يدخل فى نطاق المفهوم الصوفى لهذه العبادات . كما تكلم فى المعاملات كالزواج والصحبة وغيرها .

---

(١) « كشف المحجوب » انظر فهرست الأحاديث ص ٥٨١ — ٥٨٨ .
(٢) « انظر : ترجمة خواجه » المظفر بن حمدان ضمن التعريف بأساتذة الهجويرى »
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٤) « السابق » ص ١١٠ .
(٥) « السابق » ص ٣٧٤ — ٣٨٦ .
(٦) السابق ص ٣٨٦ — ٤٠٤ .
(٧) « السابق » ص ٤٠٤ — ٤١٣ .
(٨) السابق ص ٤١١ — ٤٢٢ .
(٩) السابق ص ٤٢٢ — ٤٣٢ .

ويبدو أن الهجويرى درس الفقه على مذهب أبى حنيفة ، فقد صرح فى ترجمته له بأنه كان يميل اليه ويعتنق مذهبه(١) .

والى جوار العلوم الدينية ، فقد درس الهجويرى اللغتين الفارسية والعربية ، وأجادهما اجادة مكنته من أن يمسك بزمام اللغتين ، فينقل من احداهما الى الأخرى فى سهولة ويسر . وقد حرص دائما على ترجمة الأحاديث والأقوال المأثورة وأقوال شيوخ الصوفية ، فهو يثبت أصل الحديث أو القول باللغة العربية ، ثم يتبعه بترجمة له بالفارسية . وكثيرا ما يشرح هذه الأحاديث والأقوال بالفارسية بما يبين المعانى الواسعة لهما أو النواحى الغامضة فيها . والحق أن هذه الترجمات والشروح فيها الدليل الكافى على مدى اجادته للغتين ، والمامه بدقائق كل منهما ..

وفى الكتاب أيضا كثير من الأشعار والاشارات الأدبية الفارسية والعربية، التى استعملها الهجويرى فى مواضعها الصحيحة مما ينبىء عن فهم عميق وذوق أدبى سليم مدعم بدراسة واعية للأدب واطلاع على الآثار الأدبية ، حقيقة أن الذوق الأدبى موهبة فطرية فى الانسان ، الا أن الدراسة تصقل هذه الموهبة وتبرزها وتنميها . يضاف الى ذلك ما صرح به الهجويرى من أنه كان شاعرا ، وله ديوان من الشعر ، وان كان هذا الديوان مفقودا(٢) .

٢ ــ أساتذته وشيوخه :

ذكر الهجويرى فى كتابه عددا من الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأفاد منهم واقتدى بهم . وقد أدرك صحبة بعض هؤلاء الشيوخ ورافقهم لمدة طويلة ، وكان يتردد على البعض الآخر وينخرط فى سلك مريديهم ، ويتلقى عنهم تعاليمهم الصوفية . وجميع هؤلاء الشيوخ كانوا من الأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين الذين عاشوا فى الفترة ما بين النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، وهى الفترة التى تعد من أزهى الفترات فى تاريخ التصوف ، فقد برزت فيها معالم الحياة الصوفية فى أجلى صورها ، واتخذت شكل الفرق المنظمة ، وكان لكل فرقة منها نظمها وتقاليدها ورسومها الخاصة بها ، وان التقت جميعها حول هدف واحد ينشده كل صوفى .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١١٦ .
(٢) « السابق » ص ٢ .

وكانت كل فرقة من هذه الفرق تقوم على مجموعة من التلاميذ والمريدين يلتفون حول شيخ يشرف على تربيتهم واعدادهم ، ويلقنهم تعاليمه ومبادئه ، فانتشرت الزوايا والخانقاهات فى كل مكان ، وكانت كل واحدة منها يديرها شيخ من الشيوخ الكبار له نظامه الخاص فى تربية تلاميذه ومريديه ، ويخلفه فى رئاستها أشهر هؤلاء التلاميذ والمريدين .

ونعرف من المعلومات الواردة فى كشف المحجوب أن الهجويرى تتلمذ فى بعض العلوم على ((**أبى العباس أحمد بن محمد الشقانى**)) ، **وقد** وصفه بأنه كان اماما فى فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا فى جميع المعانى ، رأى كثيرا من الشيوخ ، وكان من كبار أهل التصوف وأجلهم .

والشقانى كان من شيوخ الصوفية الذين يتمسكون بالشريعة ، فقد ذكر الهجويرى أنه لم ير طيلة حياته رجلا من أى صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

ويبدو أنه كانت هناك روابط من المودة والعطف المتبادل تربط بين الهجويرى وأستاذه ، على نحو ما يظهر من قوله عنه : « وكان لى معه أنس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقه »(١) .

ولا ندرى متى توفى أبو العباس الشقانى على وجه التحديد ، وان كنا نعرف من كتابى « كشف المحجوب » و « أسرار التوحيد »(٢) أنه كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

وكان الشقانى من القائلين بالفناء ، وله فيه عبارات غامضة اختص بها . وكان يصيح قائلا : « أشتهى عدما لا عود فيه »(٣) .

***

أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى :

صرح الهجويرى بأنه سلك الطريق بارشاد أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى ، وترجم له فى كتابه فقال :

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .
(٢) انظر : كشف المحجوب ص ١٨٩ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٢٤٧ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .

« ومنهم زين الأوتاد وشيخ العباد : أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى رضى الله عنه ، وبه قدوتى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب مذهب الجنيد فى التصوف ، وكان مريدا للحصرى »(١)

ونتبين من هذه العبارة أن الختلى كان جنيدى المذهب ، فهو مريد أبى الحسن الحصرى (٣٧١ هـ) . وكان الحصرى مريدا للشبلى (٣٣٤ هـ)، والشبلى مريدا للجنيد البغدادى (٢٩٧ هـ) .

وطريق الجنيد مبنى على الصحو على عكس أبى يزيد البسطامى فطريقه مبنى على السكر ، ومن ثم قال الختلى : « السكر ملعب الصغار ، والصحو مفنى الرجال »(٢) .

وعن الختلى اعتنق الهجويرى مذهب الجنيد وأشاد به .

وقد خلطت بعض المصادر بين أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى مرشد الهجويرى وقدوته ، وبين أبى الفضل حسن السرخسى مرشد أبى سعيد ابن أبى الخير ، وذكرت أن الهجويرى وأبا سعيد كانا مريدين لشيخ واحد(٣) . وعلى الرغم من أن سلسلة شيوخ أبى الفضل حسن السرخسى تنتهى أيضا الى الجنيد(٤) ، الا أنه — كما يدل عليه اسمه — سرخسى — منسوب الى مدينة « سرخس » فى اقليم خراسان ، وقد عاش فى هذه المدينة وتوفى بها فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقبره هناك(٥) . أما أبو الفضل الختلى فقد عاش معظم حياته فى سوريا ، وتوفى فى قرية تسمى « بيت الجن » تقع بين « بانيار » و « دمشق » (٦) .

ولا نعرف متى توفى الختلى ، فلم يرد ذكر تاريخ وفاته فى « نفحات الأنس » أو « سفينة الأولياء » ، وان كان صاحب « خزينة الأصفياء » يحدد لوفاته سنة ٤٥٣ هـ ويذكر أنه حصل على هذا التاريخ من حاشية لنفحات الأنس(٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٢) « السابق ص ٢٣٢ .
(٣) سبك شناسى جـ ٢ ص ١٨٧ ، « فصل الخطاب » (نقلا عن « كشف المحجوب » ص ٦١ ، ٦٢ من مقدمة زوكوفسكى) ، « هلال شمارة سوم — ارديبهشت ١٣٣٢ انظر : مقال بتلم غلام سرور .
(٤) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٤٣ .
(٥) « السابق » ص ٦٠ ، « نفحات الانس » ص ٢٨٤ ، « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسى : طهران ١٣٣٤ هـ ش (انظر ص ٣ من المقدمة) .
(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٧) « خزينة الاصفيا » جـ ٢ ص ٢٣١ .

ولكن يبدو أن هذا التاريخ ليس صحيحا تماما ، ومن المرجح أنه توفى قبل هذا التاريخ وذلك للأسباب التالية :

أولا : أن الهجويرى ذكر أنه رافق شيخه الختلى لفترة طويلة ، وظل على صلة به الى أن توفى فى بيت الجن ، واستمع الى آخر كلماته ، وهى الوصية التى أوصاه بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة(١) .

ثانيا : وردت فى كشف المحجوب فقرة تفيد أن الهجويرى بدأ تأليف الكتاب فى بلاد الهند حيث كان أسيرا فى مدينة لاهور بين أناس ليسوا من جنسه . وتضمنت الفقرة نفسها اشارة من الهجويرى الى مجموعة الروايات التى جمعها الختلى ، وأبدى الهجويرى أسفه لأنه ترك هذه المجموعة فى موطنه غزنين(٢) .

ثالثا : بالنسبة لفترة الأسر المذكورة ، فقد كانت فى عام ٤٣٥ هـ ، وهو العـــام الذى وقعت فيه فتنة الراجات الهنود فى لاهور ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين(٣) . ومن المرجح أن الهجويرى كان من بين الأسرى .

رابعا : ذكر صـــاحب « تذكرة على هجويرى » أن الهجويرى ذهب الى لاهور بعد هزيمة السلطان مسعود الغزنوى على أيدى السلاجقة ووقوع الاضطرابات والقلاقل فى غزنه وكان ذلك حوالى سنة ٤٣١ هـ(٤) .

واستنادا الى ما تقدم نستنتج أن الختلى توفى قبل عام ٤٣١ هـ . وهذا لا يتعارض مع ماذكره الهجويرى من أن شيخه الختلى كان من أقران شيخ الشـــيوخ أبى الحسن بن ســـالبه(٥) المتوفى ســـنة ٤١٥ هـ ، وأبى عمر القزوينى ،(٦) المتوفى سنة ٤٤٢ هـ(٧) .

***

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٢) « السابق » ص ١١٠ .

(٣) « الكامل » حوادث سنة ٤٣٥ ، « سلطنيت غزنويان » ص ٢٣٧ .

(٤) « تدكرة على هجويرى » ص ٢٠ .

(٥) « خلط جامى بين شيخ الشيوخ ابى الحسن بن ســـالبة المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وبين ابنه أبى الفتح المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، فالترجمة النى وردت فى النفحات لشيخ الشيوخ هى ترجمة ابنه أبىالفتح التى وردت فى شد الازار (قابل بين « شد الازار » ص ١٢٨ — ١٢٩ ، و « نفحات الانس » ص ٢٧٩) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٧) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، «صفو الصفوة» أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجويرى وأفاد منهم :

« **أبو القاسم على الجرجانى الطوسى** » : من شيوخ الصوفية المعروفين من طبقة أبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠هـ) ، ومريد أبى عثمان المغربى (٣٧٣ هـ) .

تحدث الهجويرى عن الجرجانى فوصفه بأنه : « لا نظير له فى عصره ، ولا بديل منه فى زمانه ، وقام بأسفار شاقة فى المعاملة »(١) .

وقد لجأ الهجويرى الى الجرجانى لحل مشاكله ، ووضع فيه ثقته ، ومنحه أسراره ، ففى الوقت الذى كان لا يزال فيه الهجويرى شابا مغرورا ، كان الجرجانى يمثل القطب الذى يدور حوله أهل زمانه ، وتتجه اليه قلوب الصوفية فى كل مكان ، ويعتمد عليه المريدون ، فقد كان آية فى كشف وقائع المريدين ، وعالمـــا بفنون العلم(٢) .

وكانت للجرجانى كرامات وصف لنا الهجويرى واحدة منها حدثت معه شخصيا(٣) ، ويبدو أنه كان يتردد عليه كثيرا فى طوس ويسأله فى كل ما يعن له من أمور ، فقد سأله عن الشروط التى ينبغى توفرها فى الدرويش لكى يكون جديرا بأن يلقب بالفقير(٤) . كما سأله عن شروط الصحبة(٥) .

وفى حديث للهجويرى عن الأحوال والرؤى التى ظهرت له ، والرياضات التى مارسها : قال له الجرجانى ، عندما رأى نخوة الصبى وجذوة الشباب تقوده الى الزهو والغرور :

« يا بنى ، ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهوه العبـــارة . والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو »(٦) .

وكان الجرجانى جنيدى المذهب ، ترتبط سلسلة شيوخه بالجنيد بثلاث وسائط(٧) ، فهو مريد أبى عثمان المغربى (٣٧٣ هـ) ، وكان المغربى مريدا لأبى على الكاتب (٣٤٠هـ) ، والكاتب مريدا لأبى على الروذبارى (٣٢٢هـ) ، والروذبارى مريدا للجنيد البغدادى (٢٩٧هـ) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١١ .
(٢) « السابق » ص ٢١١ .
(٣) « السابق » ص ٣٠٠ — ٣٠١ .
(٤) « السابق » ص ٥٥ .
(٥) « السابق » ص ٤٤١ .
(٦) « السابق » ص ٢١٢ .
(٧) « نفحات الانس » ص ٣٠٧ .

ولكن « دارا شـــكوه » خلط بين الجرجـــانى وتلميذه ومريده أبى على الفـــارمدى ، فذكر أن الجرجـــانى كان يجمع بين مذهب الجنيد ، ومذهب أبى يزيد البسطامى عن طريق أبى الحسن الخرقانى(١) . والصحيح أن الفارمدى هو الذى كان مريدا للخرقانى من ناحية ، وللجرجانى من ناحية أخرى(٢) . أما الجرجانى فقد كان معاصرا لأبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى العباس الشقانى وأبى القاسم القشيرى .

وكانت هناك علاقات ودية ، تقوم على أســـاس من التقـــدير والاحترام المتبادل ، تربط بين الجرجانى وأبى سعيد والقشيرى ، فقد كان الجرجانى يرسل مريديه الى أبى سعيد ليتم لهم تعليمهم(٣) ، وكان أبو سعيد يعـــد الجرجانى مساويا له فى الدرجة(٤) . أما القشيرى فقد اعترف بأن الجرجانى يتفوق عليه فى مجال التصوف(٥) .

كذلك خلط « العطار » فى تذكرة الأوليـــاء بين أبى القاسم الجرجـــانى وأبى القاسم بشر ياسين ، فنقل عن « أسرار التوحيد » قصة لقاء أبى القاسم بشر ياسين بأبى سعيد بن أبى الخير عندما كان طفلا ونسبها الى أبى القاسم الجرجـــانى(٦) . ومن المعروف أن أبا القاسم بشر ياسين عاش فى ميهنه مواطن أبى سعيد ، وتوفى بها عام ٣٨٠ هـ(٧) .

وكان الجرجانى على قيد الحياة عندما ألف الهجويرى كشف المحجوب ، وتوفى عام ٤٥٠ هـ(٨) ، وان كان « ابن العماد الحنبلى » يذكر لوفاة الجرجانى تاريخا آخر هو عام ٤٦٩هـ(٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأصح ..

وقد تتلمذ على الجرجانى ، بالاضافة الى أبى على الفارمدى ، « أبو بكر

---

(١) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ .
(٢) « نفحات الانس » ص ٣٦٨ .
(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٢٠٧ .
(٤) « السابق » ص ٨١ .
(٥) « السابق » ص ١٤٤ .
(٦) « تذكرة الاولياء » فريد الدين العطار : نشر نيكلسون ليدن ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٥ م النصف الثانى ص ٢٥٣ .
(٧) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٣٣ — ٣٦ .
(٨) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » معصو معليشاة : طهران ١٣١٨ ، ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .
« شذرات الذهب فى اخبار من ذهب « لابى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى : القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ج ٣ ص ٢٣٤ .

النساج » أستاذ الشيخ أحمد الغزالى(١) شقيق الامام الغزالى . وغيره من المريدين ممن وصفهم الهجويرى بأن كلا منهم زينة لعالم(٢) .

***

والى جوار الشقانى والختلى والجرجانى ، توجد شخصية أخرى طالما تردد عليها الهجويرى وتلقى عنها بعض التعاليم الصوفية ، وهى شخصية : **(خواجه) أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان** (النوقانى)(٣) الملقب بالسيد الامام . كان من كبار الصوفية وأئمة أهل الحديث المعروفين(٤) ، ترجم له الهجويرى فقال :

« ومنهم رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء : أبو أحمد المظفر بن أحمد ابن حمدان رضى الله عنه ، كان متربعا فى الرياسة ، وقد فتح الله عز وجل له باب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامه »(٥) .

ولا نعرف متى توفى خواجه المظفر ، ولكن يبدو من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد أنه كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠ هـ) وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ) ، ومن المرجح أنه توفى قبل تأليف كتاب كشف المحجوب ، فقد وردت فى الترجمة التى كتبها له الهجويرى عبارة تدل على أنه لم يكن على قيد الحياة فى ذلك الوقت ، وأنه قد بقى منه خلف طيب هو ابنه السيد أحمد(٦) . ومعنى هذا أنه توفى قبل سنة ٤٣٥هـ .

والمظفر كان من الصوفية الذين ينتمون الى أسر عريقة ، قطع فى طريق التصوف مرحلة كبيرة ، وبلغ فيه مكانة مرموقة تبدو من قوله : « ان ما أدركه العظماء بقطع البوادى والمفازات أدركته وأنا جالس على الحشايا فى مكان الصدارة » .

وكان المظفر ممن يتكلمون فى الفناء والبقاء ، وله فيه بيان حسن وعبارة عالية(٧) .

وبالرغم من أن المظفر ألف كتابا فى اباحة السماع ، الا أنه حذر الهجويرى من التعود عليه ، وقال له عندما رأى نشوته به :

---

(١) « نفحات الانس » ص ٣٧٠ ، طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٥١ .
(٢) « كشف المحجوب » : ص ٢١١ .
(٣) « أسرار التوحيد » : الترجمه : ص ٣١٣ .
(٤) « كشف المحجوب » : ص ٥٢٤ .
(٥) « السابق » ص ٢١٢ .
(٦) « السابق » ص ٢١٣ .
(٧) « السابق » ص ٢١٣ .

« سوف يأتى وقت يتساوى فيه لديك هذا السماع ونعيق الغراب ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع »(١) .

٣ ــ الشخصيات التى تأثر بها الهجويرى :

بالاضافة الى الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجويرى ، هناك عالم من علماء الصوفية وشيخ من شيوخهم من المعاصرين للهجويرى ، كان له أثر واضح فى شخصيته وفى كتابه ، وهو :

« **أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى** » من شيوخ خراسان ، وامام نيسابور ، وصاحب الرسالة القشيرية .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم ينص على أنه تتلمذ على القشيرى ، الا أنه من الواضح أنه كان من الشخصيات التى تركت أثرا بارزا فيه ، فقد حذا حذوه فى كتابه(٢) ، ونقل من رسالته كثيرا من رؤوس الموضوعات التى تناولها ، وبعض الآراء المتعلقة بالأصول الصوفية ، بل أن هناك علاقة وثيقة بين مقدمة الرسالة للقشيرى ومقدمة كشف المحجوب ، فالقارىء للمقدمتين يدرك لأول وهلة مدى التشابه بينهما حتى فى استعمال نفس العبارات والألفاظ .

والقشيرى كان مريدا لأبى على الدقاق (م ٤٠٥ هـ)(٣) ، واستاذا لشيخ شيوخ خراسان أبى على الفارمدى (م ٤٧٣ هـ)(٤) .

وقد ترجم الهجويرى للقشيرى فى الباب الذى ترجم فيه لأساتذته وشيوخه(٥) . ، كما نقل عنه بعض الآراء التى سمعها منه شخصيا ، كرأيه فى مسألة الفقر والغنى(٦) ، ، ورأيه فى المحبة(٧) ، وموقفه من الحلاج(٨) ، وقصد زياراته لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان(٩) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ .
(٢) « السابق » ص ١٤١ .
(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ .
(٤) « نفحات الانس » ص ٣١٣ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٦) « السابق » ص ٢٨ .
(٧) « السابق » ص ٤٠١ .
(٨) « السابق » ص ١٠٩ .
(٩) « السابق » ص ٢٠٥ .

وكان القشيرى ينتمى الى حلقة أبى سعيد بن أبى الخير ، وكان أبو سعيد يبدى اعجابه الشديد بالقشيرى ويصفه بأنه أستاذ الأساتذة(١) . كما تحدث القشيرى عن أبى سعيد بعد وفاته فى احترام وتقدير عظيمين ، وقال فى حقه : « عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية ، ولو لم نره لقرأنا التصوف فى الكتب »(٢) .

***

وهناك عدد آخر من شيوخ الصوفية المعروفين تأثر بهم الهجويرى على الرغم من أنه لم يلتق بهم . ومن هؤلاء من كان معاصرا للهجويرى ولم تسنح له الفرصة للقائه مثل أبى سعيد بن أبى الخير ، ومنهم من كان سابقا عليه وتأثر به عن طريق اطلاعه على كتبه ومؤلفاته وجمع أخباره مثل الحسين بن منصور الحلاج ومحمد بن على الترمذى .

أما ((**أبو سعيد بن أبى الخير**)) فهو « أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير محمد بن أحمد الميهنى » ، من أكبر الشخصيات الصوفية التى عاشت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، والنصف الأول من القرن الخامس.

وقد ترجم الهجويرى لأبى سعيد فوصفه بأنه « سلطان سلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال . كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة وشأن عظيم فى درجة اشرافه على الأسرار ، وكان له آيات وبراهين كثيرة »(٣) .

وأبو سعيد ولد فى مدينة « ميهنه » من أعمال « خاوران » باقليم « خراسان » سنة ٣٥٧ هـ ، وتلقى علومه الأولى فيها ، ثم انتقل الى مدينة « مرو » لدراسة الفقه ، فقرأ على أبى عبد الله الخضرى خمس سنوات ، وبعد وفاته تحول الى أبى بكر القفال المروزى فقرأ عليه خمس سنوات أخرى ،ترك بعدها مرو الى « سرخس » حيث درس التفسير وعلم الأصول وأخبار الرسول على الامام أبى على زاهر بن أحمد(٤) . ثم لم يلبث أبو سعيد أن ترك دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية ، واتخذ أبا الفضل حسن السرخسى مرشدا له وقدوة(٥) .

---

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .
(٢) « السابق » ص ٤١٣ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ .
(٤) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٤٠ .
(٥) « السابق » ص ٤١ — ٤٢ .

وقام أبو سعيد برياضات شاقة لمدة خمسة عشر عاما ، قضى سبعة أعوام منها معتكفا فى زاوية داره(١) ، ثم رجع الى سرخس فمارس الرياضة تحت اشراف ابن الفضل عاما(٢) ، بدأ بعده فترة أخرى من الرياضة امتدت لسبع سنوات قضاها متجولا فى صحراء خاوران(٣) . وفى خلال هذه الفترة الأخيرة توفى أبو الفضل ، فاتصل أبو سعيد بأبى عبد الرحمن السلمى فى نيسابور وتلقى منه الخرقة الأولى(٤) ، ثم اتصل بأبى العباس القصاب ونال على يديه الخرقة الثانية(٥) .

وكان أبو سعيد يعتنق مذهب أبى يزيد البسطامى ، الذى يقوم على فكرة وحدة الوجود ، وأصبح هو ومعاصره أبو الحسن الخرقانى من أكبر المروجين لهذه الفكرة(٦) .

ويعتبر أبو سعيد الرائد الأول لشعراء الصوفية من الايرانيين ، فقد كان أول من صاغ عقائده نظما بالفارسية ، فكان مثلا احتذاه فيما بعد شعراء الصوفية الكبار من الايرانيين أمثال « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى »(٧) ، بل أن أغلب المستشرقين اعتمدوا فى دراساتهم لتعاليم ابى سعيد وعلاقتها بالتطور التاريخى للصوفية على الرباعيات التى نسبت اليه(٨) .

وقد احتل أبو سعيد من التصوف الاسلامى مكانة مرموقة عندما اتخذ ، فى مطلع القرن الخامس الهجرى من مدينة نيسابورا لنشاطه(٩) ، وأخذ يعقد المجالس فيها لمدة طالت حتى قاربت الثلاثين عاما ، التف خلالها حوله كثير من المريدين ، وذاع صيته فى اقليم خراسان ، وتهافت الناس على مجالسه(١٠) ، واختلف اليها كثير من شيوخ الصوفية ورجال الدين وائمة المذاهب المختلفة ، من بينهم « أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » و « أبو محمد الجوينى »(١١) والد امام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، و « أبو القاسم القشيرى »(١٢) .

---

(١) « أسرار التوحيد » ص ٤٤ .
(٢) « السابق ص ٥٤ .
(٣) « السابق » ص ٤٥ ، ٥٦ .
(٤) « السابق » ص ٥٠ .
« السابق » ص ٦٤ .
(٦) Nicholson : Studies in Islamic Mysticism : London, 1921, p. 76.
(٧) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسى انظر ص ٦ من المقدمة .
(٨) Studies in Islamic Mysticism : p. 48.
(٩) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٧٧ .
(١٠) « السابق » ص ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٦ .
(١١) « السابق » ص ١٠٨ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ، ٢٣١ .
(١٢) « السابق » ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ .

ويعزى الى أبى سعيد انه أول من أسس نظام الخانقاهات فى الاسلام (١)، فقد كان يعيش بين مريديه فى عدد من هذه الخانقاهات ، ووضع لحياتهم بها القواعد والأسس(٢) .

وكان أبو سعيد يتميز بشخصية قوية ، ومقدرة فائقة على قراءة الأفكار ، وقد مكنت له هاتان الميزتان من أن يسيطر على أعدائه والمناوئين له ، فهابوه ، وتخلوا عن معارضتهم له(٣) .

وأثرت عن أبى سعيد كرامات كثيرة تحدث عنها حفيده « محمد بن المنور » باسهاب فى كتاب أسرار التوحيد . وتوفى أبو سعيد فى ميهنه عام ٤٤٠هـ(٤) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم يلتق بأبى سعيد فى حياته ، الا أنه تأثر ببعض أقواله وآرائه التى استمع اليهما من معاصريه ، وناقش رأى أبا سعيد فى الفقر والغنى(٥) واستشهد ببعض أشعاره وأقواله فى مواضع من كشف المحجوب . وقام بزيارة قبره بعد وفاته ، وأقام على القبر ثلاثة أيام ، رأى خلالها كرامة من كرامات أبى سعيد (٦) .

وأما « الحلاج »(٧) فيرجع اهتمام الهجويرى به الى بداية شبابه ، وقد خصه فى ذلك الوقت بكتاب مستقل شرح فيه أقواله ، وتحدث عن أحواله فى كتاب آخر له اسمه : « منهاج الدين »(٨) .

وكان الهجويرى قد قرأ معظم مؤلفات الحلاج التى وقعت فى يده ، وجمع اشعاره وأقواله وحكمه من مختلف الشيوخ ، واستخدامها فى مناقشاته وجدله فى كشف المحجوب(٩) . كما ضمن الكتاب ترجمة للحلاج ، وبين موقف شيوخ الصوفية منه ، وصرح بأن اثنين من شيوخه ، وهما : « أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » كانا من بين المعتقدين فى الحلاج ، والمعظمين لأمره »(١٠) .

---

(١) « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبى العلا عفيفى القاهرة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م ، ص ٥٨ .
(٢) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٣٦١ — ٣٦٣ .
(٣) « السابق » ص ٨٩ — ٩٤ .
(٤) « السابق » ص ٣٩٨ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٤ ، ٢٦ .
(٦) « السابق » ص ٣٠١ — ٣٠٢ .
(٧) « ترجم له السلمى فى الطبقات فذكر أن اسمه » : أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (انظر : طبقات الصوفية ص ٣٠٨) ويسميه ابن النديم : عبيد الله بن أحمد ابن أبى طاهر الحسين بن منصور الحلاج (انظر : الفهرست ص ٢٦٩) .
(٨) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .
(٩) « السابق » انظر : ص ٢٣٥ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٦١ وغيرها .
(١٠) « السابق » ص ١٨٩ .

وقد اختلف شيوخ الصوفية فى الحلاج ، فمنهم من قبله ، ومنهم من رده ، ومنهم من توقفوا فى أمره :

فالذين ردوه كثيرون . والذين قبلوه منهم : « ابن عطاء » و «ابن خفيف» و « النصرابادى » ، ومن المتأخرين « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد أشاد أبو سعيد بالحلاج ووصفه بأنه كان فريد عصره فى علوم التصوف فى المشرق والمغرب (١) .

وأما الذين توقفوا فى أمره فمنهم : « القشيرى »(٢) والشيخ « عبد الله الأنصارى »(٣) .

والحلاج صلب ببغداد سنة ٣٠٩ هـ ، ويرجع السبب فى قتله الى مقالته المشهورة : « أنا الحق » التى أعلن فيها اتحاده بالذات الالهية ، والى مجموعة أخرى من الأسباب . كما اتهم بالسحر والشعوذة وادعاء الكرامات .

وقد دافع الهجويرى عن الحلاج دفاعا حارا ، وحاول أن ينفى عنه ما نسبوه اليه من الاحتيال والسحر ، ظنا منهم أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الملحد البغدادى ، أستاذ محمد بن زكريا ورفيق أبى سعد القرمطى(٤) .

وكان الهجويرى أول من طرق هذه الفكرة بأنه كان هناك شخصان يدعى كل منهما الحلاج : أحدهما ذلك الملحد الذى ينسب الى بغداد ، والآخر الحلاج الحقيقى الفارسى المنسوب الى بيضاء فارس . وقد نقل كل من « العطار »(٥) و « محمد بارسا »(٦) هذه الفكرة عن الهجويرى .

ويذكر الهجويرى أن الحلاج الحقيقى الذى اختلف المشايخ فى أمره وهجروه ، لم يكن هجرهم له يعنى الطعن فى دينه ومذهبه ، بل فى حال دنياه ، والا لما قال عنه الشبلى : « أنا والحلاج شيء واحد » ، وقال محمد ابن خفيف « هو عالم ربانى » . وانما كان هجرهم له بسبب اغضابه لشيوخه ، فقد كان فى بداية أمره مريد سهل بن عبد الله ، وانصرف عنه دون

---

(١) « اسرار التوحيد » الترجمة ص ٩٤ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٣) « نفحات الانس » انظر : ص ١٥٠ .
(٤) « كشف المحجوب » ١٩٠ .
(٥) « تذكرة الاولياء » (انظر جـ ٢ ص ١٤٦) .
(٦) Bulletin of Oriental Studies: Zhukovsky's Introduction.
نقلا عن : فصل الخطاب .

استئذان واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق بالجنيد ، فلم يقبله . ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل(١) .

وساق الهجويرى الدليل على بطلان ما نسب الى الحلاج من السحر فذكر أن السحر فى أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، وأن اظهار السحر فى حال الكمال كفر واظهار الكرامة معرفة ، لأن الأول يكون نتيجة لسخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة على رضائه .

وأضاف الهجويرى أن أهل السنة والجماعة متفقون على أن المسلم لا يكون ساحرا ، وأن الكافر لا يكون مكرما ، لأن الاضداد لا تجتمع . والحسين بن منصور كان طوال عمره فى ثياب الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ، وصيامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونكات لطيفة فى التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . وعلى هذا فان ما نسب اليه كان من الكرامات . والكرامات لا تكون الا لولى محقق(٢) .

كذلك دافع الهجويرى عن الحلاج للمرة الثانية بشأن ما نسب اليه من الأقوال التى تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، فذكر أن ذلك كان مبالغة منه وتهويلا فى العبارة لا فى المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته فى غلبة الحال . وذكر أيضا أنه يجوز أن يكون معنى تلك العبارات صعبا فلا يستطيعون فهم مقصوده منها ، ويصور لهم وهمهم صورة عنها ينكرونها ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى(٣) .

ولا شك أن رأى الهجويرى هذا فى الحلاج يختلف كثيرا عن آراء غيره فيه . ويبدو هذا الاختلاف جليا اذا ما قارنا أقواله بقول واحد من معاصرى الحلاج ، وهو : « الاصطخرى » الذى أشار الى الحلاج وصور نظريته فى الحلول فقال : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ، وكان رجلا حلاجا ينتحل النسك ، فما زال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال الى أن زعم أن من هذب فى الطاعة نفسه ، واشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه فى منع الشهوات ارتقى به الى مقام المقربين . ثم لا يزال يتنزل فى درج المصافاة حتى يصفو

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ .
(٢) « السابق » ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

عن البشرية طبعه ، فاذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذى كان منه عيسى بن مريم ، فيصير مطاعا فلا يريد شيئا الا كان من كل ما ينفـذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعـله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله »(١) .

وعلى الرغم مما رأيناه من الدفاع المستميت للهجويرى عن الحـلاج ، الا أنه يصرح بأنه لم يكن يصلح لأن يكون قدوة ، وهو يوضح السبب فى ذلك فيه ذكر أنه كان مغلوبا فى حالة غير متمكن ، وينبغى للقدوة أن يكون متمكنا حتى يمكن الاقتداء به . وكذلك لم يمنعه تصريحه بأن الحلاج يحتل من قلبه مكانا عزيزا ، من أن ينقد طريقه ، فيصفه بأنه لم يكن مستقيما على أى أصل ، وأن حاله غير مستقرة على وجه ، وفى أحواله فتن كثيرة(٢) .

وذكر الهجويرى أنه رأى فى بغداد ونواحيها طائفة من الملاحدة يدعون توليهم للحلاج ، وقد اتخذوا من أقواله حجة لزندقتهم ، وأسموا أنفسهم الحلاجيين .

وتنسب الى الحلاج مؤلفات كثيرة ، رأى منها الهجويرى خمسين مؤلفا ، بعضها فى بغداد ، وبعضهـا فى خوزستان وفارس وخراسان(٣) . وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين مؤلفا من مؤلفات الحلاج(٤) .

والى جوار الحلاج كانت هناك شخصية أخرى تأثر بها الهجويرى وهى شخصية « أبى عبد الله محمد بن على الترمذى » المعروف بالحكيم . وهو متكلم سـنى من أهل خراسـان ، ومتحدث وفقيه حنفى ، توفى عام ٢٨٥هـ(٥) . ذكره السلمى فى طبقات الصوفية على أنه من كبار شيوخ خراسان(٦) ، وترجم له الهجويرى فوصفه بأنه كان كاملا واماما فى فنون العلم ، ومن المشايخ المحتشمين ، له تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة(٧) . وكانوا يطلقون عليه اسم « حكيم الأولياء »(٨) .

---

(١) انظر ص ١١٤ من : « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى حلمى : القاهرة ١٩٤٥ (نقلا عن الاصطخرى) .
(٢) (كشف المحجوب ص ١٩٢) .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩١ .
(٤) « الفهرست » ص ٢[illegible] — ٢٧٢ .
(٥) « التصوف الثورة الروحية » ص ٣٠٨ .
(٦) « طبقات الصوفية » ص ٢١٧ .
(٧) « كشف المحجوب » ص ١٧٧ .
(٨) « تذكرة الاولياء » ج ٢ ص ٩١ .

وكان الترمذى شيخا لأبى على الجوزجانى ، وأبى بكر الوراق الترمذى وروى عنه هذا الأخير أن الخضر عليه السلام كان يحضر اليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع(١) .

وقد حظى الترمذى بتعظيم الهجويرى وحبه عن طريق قراءته لكتبه التى أشار الى عدد منها فى كشف المحجوب ، لا سيما كتابه « ختم الولاية » الذى اعتمد عليه الهجويرى فى مناقشته لموضوع الولاية . كما نسب اليه فرقة الحكيمية(٢) من المتصوفة ، وذكر أن أساس مذهبها يقوم على الولاية .

ويعد الترمذى رائد « ابن عربى » الذى جاء بعده بثلاثة قرون ، فقد درسه وأعجب به ، ولا سيما بكتابه المفقود « ختم الولاية » .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٧٨ .
(٢) « السابق » ص ٢٦٥ وما بعدها .

الفصل الخامس

رحلات الهجويرى

بعد أن أتم الهجويرى دراسته الأولى فى موطنه غزنه ، وحصل قدرا كافيا من العلوم المعروفة على عهده ، سلك مسلك علماء عصره فى السفر والتجول طلبا للعلم والمعرفة ، فرحل الى بلاد متعددة ، وطوف طويلا فى العالم الاسلامى ، من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهنـــد ، فزار العراق وخوزستان وفارس والشام وآذربيجان وجرجان وخراسان وما وراء النهر والتركستان والهند . وقد أفادته هذه الرحلات فأمدته بحصيلة وفيرة من المعلومات والمعارف ، ومكنته من لقاء كثير من رجال العـــلم والأئمة وشيوخ الصوفية المعـــروفين فى عصره ، والمثلين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة . وحادث بعض هؤلاء ، وجادل بعضهم ، واستمع الى آراء كثير من الشيوخ وجمع أقوالهم ، وبهذا حصل على مادة متنوعة وحية استخدمها فى حكاياته عن الشيوخ الذين ترجم لهم ، وفى القائه الأضواء على مختلف الأمور التى عالجها فى كتابه .

ويبدو أن الهجويرى مر بفترة عاصفة من حياته قبل أن يتصوف ، وأنه بدأ رحلاته فى خلال تلك الفترة وهو لا يزال فى سن الشباب ، وكانت أولى رحلاته .

رحلته الى العراق : وقد صور لنا حياته فيها ، وكيف أنه انشغل بجمع الثروة وبعثرتها ، والتف حوله بعض الفضوليين واخوان السوء الذين أرهقوه بمطالبهم حتى عجز عن تحقيق رغباتهم ، وغرق فى الديون .

ويبدو أن الهجويرى كان على صلة ببعض رجال الدين والأئمة المعروفين فى ذلك العصر ، وربما كانوا من طبقة والده أو من أساتذته الذين تتلمذ عليهم ، وكان من بين هؤلاء شخص يتابع أخباره ، وعرف نوع الحيـــاة التى انغمس فيها ، فأشفق عليه منها ، وبعث اليه برسالة ينصحه فيها ويحذره من أن يشغل قلبه عن الله بالاهتمام بتحقيق رغبات أولئك الذين ملأ الهوى قلوبهم ، وطلب منه أن يكف عن ذلك(١) .

---

(١) كشف المحجوب ص ٤٤٩ .

وأحدثت رسالة ذلك السيد أثرها فى نفس الهجويرى فى الحال ، وأحس بالراحة ، ويبدو أنه اتجه بعدها الى التوبة .

وفى العراق زار الهجويرى « بغداد » ونواحيها ، ورأى هناك جماعة من الصوفية المزيفين ، سماهم « الملاحدة » ، وكانوا يدعون كذبا أنهم ينتسبون الى الحلاج ، واتخذوا من بعض أقواله حجة لزندقتهم ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « الحلاجيين »(١) . وكان الشيخ الكبير أبو جعفر محمد ابن المصباح الصيدلانى ومعه أربعة آلاف من اتباع الحلاج الحقيقيين المنتشرين فى العراق يصبون اللعنة على هؤلاء الحلوليين الذين ينسبون أنفسهم زورا الى الحلاج(٢) .

رحلته الى فرغانه : من المرجح أن تكون هذه الرحلة هى الرحلة الثانية من رحلات الهجويرى ، وأنه قام بها بعد أن أقلع عن حياة اللهو والعبث وانجه الى التوبة ، وأخذ يتقرب الى شيوخ الصوفية بزيارة بعض الأحياء منهم ، وزيارة قبور من ودعوا الحياة . ونجد فى مقدمة الأحياء الذين زارهم : « الباب الفرغانى »(٣) .

والباب هذا كان شيخا من الأوتاد يدعى « عمر » ، ويقيم فى قرية من قرى فرغانه اسمها « شلاتك » ، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم جريا على عادة أهل تلك الديار الذين كانوا يطلقون اسم « الباب » على الشيوخ الكبار(٤) .

ولما مثل الهجويرى بين يدى « الباب » سأله : لم جئت ؟ قال : لأرى الشيخ ، وليشملنى بعين رعايته . فقال له الباب : يابنى ؟ اننى أرعاك منذ اليوم (الفلانى) ، فلما أحصى الهجويرى السنين والأيام وجد أن اليوم المشار اليه هو اليوم الذى بدأ فيه توبته . ونصحه الباب أن يقلع عن السفر والتجول ، فالأمر ليس موقوفا على زيارة المشايخ ، وانما عليه بالهمة .

وفى هذه الزيارة رأى الهجويرى كرامة من كرامات الباب(٥) .

---

(١) كشف المحجوب ص ١٩٢ .
(٢) السابق ص ٣٣٤ .
(٣) ترجم له جامى فى نفحات الانس وقال ان شيخ الاسلام عبد الله الانصارى ذكر أن الشيخ « عمو » رآه (انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٢) ، والشيخ « عمو » : كنيته أبو اسماعيل ، واسمه أحمد بن محمد بن حمزة الصوفى ، توفى سنة ٤٤٢ هـ وقبره فى هراة (انظر : « سفينة الاولياء » ص ١٦٣) .
(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

رحلته الى الشام :

يبدو أن نصيحة الباب للهجويرى بالكف عن زيارة المشايخ قد لاقت منه اقتناعا وقبولا . وكان عليه بعد ذلك أن يختار لنفسه موجها روحيا ومرشدا يسلم اليه أمره ، ويسلك الطريق بارشاده .

ورحل الهجويرى الى بلاد الشام ، وهناك التقى بأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى فاتخذ منه مرشدا وقدوة (١) .

وكان الختلى يسكن « بيت الجن » وهى قرية تقع بين « بانيار » و « دمشق » . ولازم الهجويرى شيخه الختلى مدة طويلة ، وظل يصحبه الى أن توفى ، وكان يتردد على دمشق فى رفقته(٢) .

وفى بلاد الشام زار الهجويرى قبر « بلال » مؤذن الرسول عليه السلام ، وبات ليلة على القبر ، ورأى الرسول فى نومه(٣) .

كذلك ذهب الى الرملة لزيارة « ابن المعلا » وكان شيخا من كبار شيوخ الصوفية وسادة أهل زمانه . وقد وجده الهجويرى من المهتمين بالحسين ابن منصور الحلاج(٤) .

رحلته الى آذربيجان :

فى أثناء الفترة التى لازم فيها الهجويرى شيخه الختلى كان يتردد فى رفقته على ديار آذربيجان ، فرأى بضعة أفراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال مرقعاتهم ليضع فلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرأ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »(٥) فسأل شيخه : بأى خزى ابتلى هؤلاء وفضحوا على هذا النحو ؟ فأجابه الشيخ بأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين وهم يحرصون على جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص(٦) .

وفى جبال آذربيجان رأى الهجويرى درويشا كان يسير وهو يردد أبياتا من الشعر ، وبدا عليه الشحوب ، وجلس مسندا ظهره الى حجر ثم فارق الحياة (٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
(٢) « السابق » ص ٣٠٠ .
(٣) « السابق » ص ١١٦ .
(٤) « السابق » ص ٤٤٧ .
(٥) « سورة البقرة » آية ١٦ .
(٦) « كشف المحجوب » ص ٦٤ .
(٧) « السابق » ص ٥٣٥ .

رحلته الى خوزستان وفارس :

من بين الأقاليم التى أشـــار الهجويرى الى أنه قام بزيارتهـــا اقليما خوزسيتان وفارس . وقد رأى فيهما وفى بغداد وخراسان خمسين مؤلفا من مؤلفات الحلاج(١) .

رحلته الى جرجان :

كذلك زار الهجويرى اقليم جرجان ، وتردد كثيرا على « بسطام » حيث يوجد قبر أبى يزيد البسطامى ، فقد اعتاد كلما اعترضته مشكلة فى الطريق أن يذهب الى بسطام ويقيم فيها مجاورا على قبر أبى يزيد حتى تحل مشكلته . وفى احدى المرات امتدت اقامته على القبر لمدة ثلاثة أشهر(٢) .

رحلته الى خراسان :

وذهب الهجويرى الى اقليم خراسان ، ويبدو أنه أقام فيه طويلا ، وزار عددا من ولاياته ومدنه وقراه .

وقد وصف الهجويرى خراسان فى عصره بأنها موضع اقبال الحق ، وذكر أنه رأى فيها وحدها ثلاثمائة من الصوفية لكل منهم مشرب خاص ، ويكفى أن يكون فى العالم واحد منهم ، ذلك أن شمس المحبة واقبال الطريقة فى طالع خراسان(٣) .

ومن بين المناطق التى زارها الهجويرى فى خراسان ولاية « قومس » ، وكان فى ذلك الوقت يعانى مشكلة اعترضته فى الطريق ، وهناك نزل فى خانقاه للدراويش ، وأساء هؤلاء معاملته ، ولكن هذه المعاملة الخشنة أفادته من ناحية أخرى ، فقد أحس بعدها بالراحة ، وحلت واقعته(٤) .

وكان الهجويرى يتردد على « نيســـابور » لزيارة (خواجه) المظفـــر ابن حمدان وهناك سمع منه رأيه فى الفناء والبقاء (٥) .

كذلك التقى الهجويرى فى « نيسيابور » بأبى القاسم القشيرى ، وحدثه القشيرى بقصة ذهابه الى خرقان لزيارة أبى الحسن الخرقانى(٦) ، وسمع

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٠١ .
(٢) « السابق » ص ٧٧ .
(٣) « السابق » ص ٢١٦ .
(٤) « السابق » ص ٧٧ .
(٥) « السابق » ص ٢١٣ .
(٦) « السابق » ص ٢٠٥ .

الهجويرى فى نيسابور أيضا رأى القشيرى فى مسألة الفقر والغنى (١) .

أما مدينة « طوس » فيبدو أن الهجويرى أقام فيها فترة ، كان يتردد خلالها على شيخه أبى القاسم الجرجانى ويتلقى منه تعاليمه الروحية(٢) .

وقد التقى الهجويرى فى مدينة « سرخس » بالسيد الامام الحزامى الذى حدثه بقصة كرامة من كرامات الشيخ أبى الفضل حسن السرخسى(٣) .

وفى مدينة « مرو » رأى الهجويرى الرسائل المتبادلة بين أهل « مرو » وأهل« نسا » من اليسارية أتباع أبى العباس السيارى(٤) .

وفى مرو أيضا قال له واحد من أئمة الحديث المعروفين انه ألف كتابا فى اباحة السماع ، فقال له الهجويرى : انها لمصيبة كبرى حلت بالدين أن أحل السيد الامام لهوا هو أصل جميع الفساد(٥) .

كذلك زار الهجويرى مدينة « ميهنه » موطن أبى سعيد بن أبى الخير وأقام على قبره ثلاثة أيام ، ورأى كرامة من كراماته(٦) ، والتقى أثناء هذه الزيارة بالمظفر(٧) ابن الشيخ أبى سعيد . ورأى أيضا خادم أبى سعيد الخاص ومريده « حسن بن المؤدب » ، وقص عليه هذا الأخير قصة زيارة أبى سعيد لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان(٨) .

رحلته الى ما وراء النهر :

ذكر الهجويرى أنه كان لفترة طويلة ، فى ما وراء النهر ، صديقا لأحمد ابن حماد السرخسى(٩) ، ورأى منه عجائب كثيرة(١٠) . ومن الأشياء التى استمع اليها منه قصة توبته(١١) ، ورأيه فى الزواج (١٢) .

وفى ما وراء النهر أيضا رأى الهجويرى رجلا من أهل الملامة كان لا يأكل الا ما يعافه الناس ، كالكرات الذابل والقرع المر والجزر التالف . وكان

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٨ .
(٢) « السابق » ص ٥٥ ، ٣٠١ .
(٣) « السابق » ص ٢٨٧ .
(٤) « السابق » ص ٣٢٢ .
(٥) « السابق » ص ٤٦٧ .
(٦) « السابق » ص ٣٠١ — ٣٠٢ .
(٧) « السابق » ص ٢١٦ .
(٨) « السابق » ص ٢٠٥ .
(٩) « السابق » ص ٤٧٦ .
(١٠) « السابق » ص ٢١٦ .
(١١) « السابق » ص ٢٤٢ .
(١٢) « السابق » ص ٤٧٧ .

يصنع ملابسه من الخرق البالية التى يلقيها الناس فى الطريق ، فيجمعها ويغسلها ويصنع منها مرقعة(١) .

كذلك رأى فى مدينة بخارى الشيخ احمد السمرقندى ، ولم يكن قد نام الليل لمدة أربعين عاما ، وكان ينام قليلا أثناء النهار(٢) .

رحلته الى التركستان :

وذهب الهجويرى الى التركستان ، وصور لنا مشاهداته فى هذه الرحلة فقال انه رأى النار فى احدى المدن التى تقع على حدود البلاد الاسلامية ، وقد اندلعت فى جبل ، وكان النوشادر يفور من أحجاره ، وفى وسط تلك النار كان يوجد فأر حى فلما خرج من النار هلك(٣) .

رحلته الى الهند :

وفى نهاية المطاف رحل الهجويرى الى بلاد الهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته فى مدينة « لاهور » ، وظل بهذه المدينة الى أن توفى ، ولا يزال قبره بها .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٥٦ .
(٢) « السابق » ص ٤٦٠ .
(٣) « السابق » ص ٥٣١ — ٥٣٢ .

الفصل السادس

المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى

استقرار الهجويرى فى لاهور ووفاته فيها وقبره

ذكرنا من قبل أن الهجويرى أمضى الفترة الأخير من حياته فى بلاد الهند حيث استقر به المقام فى مدينة لاهور . وظل بها الى أن توفى ، ولا يزال قبره هنـــاك .

وقد أشارت بعض المصادر الى أن الهجويرى ذهب الى الهند بناء على أمر صدر اليه من شيخه أبى الفضل الختلى(١) . ورأينا فيما ورد فى كشف المحجـــوب عن الختلى أن الهجويرى لازمه الى أن توفى فى قرية « بيت الجن »(٢) بسوريا . فاذا صح التاريخ الذى أورده صاحب خزينة الأصفياء لوفاة الختلى ، وهو سنة ٤٥٣ هـ(٣) ، فان الهجويرى يكون قد ذهب الى الهند بعد هذا التاريخ ، أى بعد سنة ٤٥٣ هـ .

ومما لا شك فيه أن هذا التاريخ المذكور يبعد عن الصواب ، ذلك أن الهجويرى كان أسيرا فى لاهور أثناء الفتنة التى وقعت بها سنة ٤٣٥ هـ ، وقد أشار هو بنفسه الى أنه كان يؤلف أجزاء من كشف المحجوب خلال فترة الأسر(٤) ، وفى هـــذا ما يؤيد أنه رحل الى لاهور قبل سنة ٤٣٥ هـ ، ويرجح فى نفس الوقت ما ذكرته بعض المصادر من أن الهجويرى ذهب الى الهند سنة ٤٣١ هـ ، أثناء الاضطرابات التى وقعت فى غزنه فى أواخر عصر السلطان مسعود الغزنوى(٥) .

غير أن هناك اشارتين وردتا فى كشف المحجوب ، لهما دلالات معينة :
الأولى : أن الهجويرى أشار فى موضع من الكتاب الى أنه اطلع على الرسالة القشيرية واقتدى بنظامها فيما يتعلق بترتيب بعض الأشخاص

---

(١) « خزينة الاصفياء » جـ ٢ ص ٢٣٢ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٣) « خزينة الاصفياء » جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٤) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .
(٥) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٢٠ ، «The Life and Teachings» p. 23

فى القسم الخاص بالتراجم(١) . ومن المعروف أن الرسالة ألفت سنة ٤٣٧ هـ . فلا بد أنه اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

والثانية : صرح الهجويرى بأنه قام بزيارة قبر أبى سعيد بن أبى الخير فى « ميهنه » ، واقام على القبر ثلاثة أيام(٢) . ومن البديهى أن هذه الزيارة تمت بعد وفاة أبى سعيد سنة ٤٤٠ هـ .

واستنادا الى ما تقدم نرى أنه من المحتمل أن يكون الهجويرى قد ذهب الى بلاد الهند مرتين :

المرة الأولى : ضمن جولاته فى العالم الاسلامى ، فذهب الى بلاد الهند أيضا . وكان ذهابه اليها قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وليس هناك ما يمنع من أنه ذهب فى عام ٤٣١ هـ ، وكان لا يزال فى الهند عندما وقعت فتنة لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وأسر بين الأسرى .

والمرة الثانية : ذهب فيها الهجويرى الى بلاد الهند بعد وفاة أبى سعيد ابن أبى الخير سنة ٤٤٠ هـ . وفى هذه المرة استقر نهائيا فى مدينة لاهور حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته .

ومن المحتمل أن يكون قد أمضى الفترة ما بين الرحلتين ، أو جزءا منها ، فى غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ، واطلع على الرسالة القشيرية ، وقام بزيارة قبر أبى سعيد بعد وفاته سنة ٤٤٠ هـ . ثم رحل الى الهند واستقر بها .

اما عن حياة الهجويرى فى الهند ، وعلى وجه التحديد فى مدينة لاهور ، فيبدو أنها كانت حياة حافلة فى النواحى الدينية عامة والصوفية خاصة ، فقد أم الهجويرى لاهور بعد أن طوف طويلا فى العالم الاسلامى ، والتقى بكثير من رجال الدين والأئمة المعروفين على عهده ، وتتلمذ على عدد من شيوخ الصوفية المشهورين فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى . واطلع فى الوقت نفسه على كثير من المؤلفات الدينية والصوفية ، واستطاع عن طريق هذا وذاك أن يبلغ درجة تؤهله لالقاء الدروس الدينية ، وهداية الناس وارشادهم . فلما آنس من نفسه القدرة على الاسهام فى الدعوة الى الاسلام ، اتجه الى ذلك المجتمع الذى كان قد انضم حديثا الى العالم الاسلامى ، ليمارس نشاطه فى نشر تعاليم الدين ، والدعوة الى الحياة الروحية الخالصة ، داخل حدود الدين الاسلامى .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٢) « السابق » ص ٣٠١ .

وسواء كان انتقال الهجويرى الى الهند تلبية لأمر شيخه « الختلى » ، أو استجابة لرغبته الشخصية فى نشر الدين الاسلامى فى تلك البقاع ، فانه استطاع أن ينال ثقة الأهالى فى لاهور فتعلقوا به وأحاطوه بهالة من الاجلال والتعظيم .

وعندما بلغ الهجويرى لاهور : اختار لاقامته الجهة الغربية من المدينة ، قرب معبد للهندوس على نهر راوى(١) ، حيث يوجد مزاره الآن ، وبنى فى تلك البقعة مسجدا ، وجمع حوله عددا من الطلاب ، وأخذ يقوم بالتدريس لهم . ثم تخلى عن التعليم لأنه فى نظره يبرز نوعا من السمو والتعالى على الآخرين(٢) .

وقد أسهم الهجويرى فى تحول عدد كبير من سكان تلك المنطقة الى الاسلام ، وكان أولهم « راى راجو »(٣) نائب لاهور فى عهد السلطان مودود ، فأسلم على يديه واتخذ لنفسه اسم « الشيخ الهندى »(٤) .

وأقام الهجويرى فى مسجده خانقاها(٥) ، والتف حوله فيها المريدون من لاهور وجميع أنحاء البنجاب . ولم يكن تأثيره مقصورا على المسلمين ، بل كان يحضر مجلسه عدد كبير من غير المسلمين ، وأسلموا على يديه(٦) .

ويقال انه عندما بنى الهجويرى المسجد ، كان محرابه يميل قليلا الى الجنوب عن محاريب المساجد الأخرى ، فاعترض عليه العلماء والأئمة فى ذلك الوقت ، وصمت الهجويرى ، وذات يوم جمعهم وأمهم للصلاة فى المسجد، ولما قضيت الصلاة قال للحاضرين : انظروا فى أى اتجاه توجد الكعبة ؟ فارتفعت عنهم الحجب ، وظهرت لهم الكعبة محاذية للمسجد(٧) . وقد روت بعض المصادر هذه القصة على أنها كرامة من كرامات الهجويرى .

ويبدو أن الهجويرى لم ينقطع عن التأليف والتصنيف خلال الفترة التى قضاها فى لا هور ، واذا صحت نسبة كتابى : « ثواقب الأخبار » و « كشف الأسرار » اليه ، فانه يكون قد ألفهما فى هذه الفترة .

---

(١) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٧ .
(٢) «The Life and Teachings» p. 24.
(٣) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٨ .
(٤) «The Life and Teachings» p. 24.
(٥) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٦) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٧ .
(٧) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

وقد ظل الهجويرى يمارس نشاطه الروحى والدينى فى مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها ، وقام مريدوه والمعتقدون فيه بدفنه بالقرب من مسجده(۱).

وكان يرافق الهجويرى فى رحلته الى لاهور اثنان من رفاقه وهما « أحمد ابن حماد السرخسى »(۲) الذى رافقه لمدة طويلة فى ما وراء النهر ، و « أبو سعيد الهجويرى »(۳) الذى كتب كشف المحجوب ردا على سؤاله . وقد بقى هذان الصديقان فى صحبة الهجويرى طيلة اقامته فى مدينة لاهور ، وظلا بها بعد وفاته حتى وافاهما أجلهما فى هذه المدينة ، ودفنا الى جواره . ولا يزال قبراهما داخل ضريح الهجويرى(٤) .

تاريخ وفاته :

تاريخ وفاة الهجويرى مختلف فيه(٥) . وهناك تواريخ ثلاثة لوفاته ، يرد ذكرها أكثر من غيرها فى معظم الكتب التى تحدثت عن الهجويرى وعن كتابه كشف المحجوب ، وهذه التواريخ هى :

سنة ٤٥٦ هـ ، سنة ٤٦٥ هـ ، الفترة ما بين سنتى ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ .

ومما يؤسف له أن « جامى » ، على الرغم من اعتماده الكبير فى « نفحات الأنس » على كتاب كشف المحجوب ، وما يكنه لمؤلفه من الاعزاز والتقدير ، فانه عندما ترجم له اغفل تاريخ وفاته ، واكتفى بذكر مقتطفات قليلة من كشف المحجوب .

ولم يقطع « دارا شكوه » برأى فى هذا الموضوع ، وانما أورد تاريخين لوفاة الهجويرى فهو يقول : « وكانت وفاته فى سنة ٤٥٦ فى قول ، وفى سنة ٤٦٤ هـ فى قول آخر »(٦) .

أما صاحب « خزينة الأصفياء » فقد زاد على هذين التاريخين تاريخا

---

(۱) « هلال » جلد بنجم — شمارة ۱ خرداد ماه ۱۳۳٦ .
(۲) « كشف المحجوب » انظر ص ٤٧٦ .
(۳) « السابق » انظر : ص ۷ .
(٤) «The Life and Teachings» p. 26.
(٥) « لم يحاول » زوكوفسكى فى المقدمة القيمة التى كتبها لكشف المحجوب عندما طبعه لاول مرة أن يبحث هذه المسألة واكتفى بأن قال : « من سوء الحظ أننا لا نملك مصدرا واحدا يقدم لنا معلومات عن حياة الهجويرى بطريقة مفصلة ودقيقة ، بل اننا لا نعرف حتى تاريخ مولده ووفاته » انظر :
Zhukovsky's Introduction : Bulletin of Oriental Studies.
(٦) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ .

آخر هو : سنة ٤٦٥ هـ(١) ، وذكر أنه استقى هذا التاريخ من الأقوال الموثوقة لصاحبى « نفحات الانس »(٢) ، و « أخبار الأصفياء » . وأضاف أنه توجد قطعة من الشعر على بوابة ضريح الهجويرى تحمل تاريخ وفاته ومجموع هذه القطعة يساوى ، فى حساب الجمل : ٤٦٥(٣) . وورد ذكر هذا التاريخ أيضا فى كل من : « كشف الظنون »(٤) ، و « هدية العارفين »(٥) .

وقد تابع كتاب الفهارس الغربيون : « ايته » و « ريو » و « بلوشيه » ، دارا شكوه فى ذكر التاريخين اللذين وردا فى « سفينة الأولياء » وهما : ٤٥٦ ، ٤٦٤ هـ ، ونقلوا هذين التاريخين ، اما عن « رياض الأولياء »(٦) ، واما عن سفينة الأولياء ، وزاد عليهما « ايته » التاريخ : ٤٦٥ هـ ، نقلا عن « مآثر الكرام »(٧) .

غير أن « ريو » يستبعد صحة التاريخين : ٤٥٦ ، ٤٦٤ هـ ، ويستند فى ذلك الى أن الهجويرى كان معاصرا لأبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ ، وأن اسم القشيرى يرد فى بعض مواضع من كشف المحجوب وقد أضيف اليه عبارة (رحمة الله) ، أو (رحمة الله عليه)(٨) ، وبناء على هذه الملاحظة يقول « ريو » ان أيا من هذين التاريخين لا يتفق مع هذه الحقيقة ، ولذا فهو يرجح أن تكون وفاة الهجويرى بعد سنة ٤٦٥ هـ(٩) ، أى بعد وفاة القشيرى .

وفى رأينا أن ملاحظة « ريو » هذه ليست على جانب كبير من الصواب ، ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

أولا : ليس من المستبعد أن تكون هذه الاضافات من فعل الناسخ ، ومما يؤيد هذا أن اسم الهجويرى نفسه ورد فى موضع من كشف المحجوب وقد أضيف اليه عبارة (رحمه الله) (١٠) .

---

(١) « ورد هذا التاريخ فى كتابى » : سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « تاريخ ادبيات ايران » صفا ج ٢ ص ٨٩٢ .
(٢) « لم يرد فى ترجمة الهجويرى فى كتاب نفحات الانس ذكر تاريخ وفاته (انظر : ص ٣١٦ — ٣١٧) . واذا صح ما ذكره صاحب خزينة الاصفياء فربما كان هذا التاريخ فى حاشية من حواشى النفحات وليس فى النص .
(٣) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ .
(٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
(٦) Rieu : Catalogue of the Persian Manuscripts : Vol. I,
(٧) Ethé : Catalogue of Persien Library : Vol. I.
(٨) « كشف المحجوب » انظر ٤٠١ ، ٤٣٩ .
(٩) «Rieu : Cat» Vol. I.
(١٠) « كشف المحجوب » ص ٣٠٠ حاشية ٤٤ ، ص ٣١٦ .

ثانيا : اذا كانت عبارة (رحمه الله) أضيفت الى اسم القشيرى بواسطة الهجويرى ، فمعنى هذا أن كتاب « كشف المحجوب » قد تم تأليفه بعد وفاة القشيرى سنة ٤٦٥ هـ ، وهذا مخالف للحقيقة ، فمما لا شك فيه أن كشف المحجوب ألف قبل هذا التاريخ بفترة طويلة(١) .

ثالثا : ان القشيرى كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، والدليل المادى على هذه الحقيقة موجود فى الكتاب نفسه ، فبالرجوع الى الباب الثانى عشر (باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين) نجد أن الهجويرى ترجم للقشيرى ضمن عشرة من شيوخ الصوفية ، ومن بين هؤلاء يوجد اثنان فقط من الواضح أنهما كانا على قيد الحياة أثناء تأليف الكتاب ، وهما « أبو القاسم الجرجانى » و « القشيرى » وتتضح هذه الحقيقة من العبارة التى ترجم بها الهجويرى لهما ، فهو يستعمل فى ترجمتيهما الرابطة (است)(٢) وذلك على خلاف الفعل الماضى (بود)(٣) الذى يستعمله فى التراجم الثمانى الأخرى مما يدل على أن أصحابها لم يكونوا على قيد الحياة ، وتواريخ وفاة هؤلاء معروفة ، وترجع كلها الى ما قبل تأليف كشف المحجوب . كما وردت بالكتاب عبارة صريحة تشير الى أن الجرجانى كان حيا عند تأليفه ، وترجمتها : « والشيخ أبو القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه ، أبقاه الله »(٤) .

أما « نيكولسون » فيبدو أن ملاحظة « ريو » قد أثارت انتباهه ، فتقبل — فى مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب — فكرة وفاة الهجويرى بعد سنة ٤٦٥ ، وان كان قد استند الى دليل آخر غير الذى استند اليه ريو وهو : أنه من الواضح من كتاب كشف المحجوب أن أبا القاسم الجرجانى كان حيا عند تأليفه . ومن المعروف أن الجرجانى توفى سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن نيكولسون وجد تاريخا آخر لوفاة الجرجانى فى كتاب « شذرات الذهب » وهو سنة ٤٩٦ هـ(٥) وبناء عليه رجح أن الهجويرى توفى بعد عام ٤٦٩ هـ أو على الأقل فيما بين ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ(٦) .

واذا كنا نتفق مع نيكولسون فى أن الجرجانى كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، الا أننا نختلف معه فى أنه توفى سنة ٤٦٩ هـ ، حقيقة أن هذا

---

(١) (ارجع الى تاريخ تأليف الكتاب فى الباب الثانى : الفصل الاول) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢١١ ، ٢٠٩ « است » = يكون ، كائن .
(٣) « السابق » ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ « بود » = كان .
(٤) « السابق » ص ٢٥٩ .
(٥) « شذرات الذهب » جـ ٣ ص ٧٠ .
(٦) « نيكولسون » (انظر : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

التاريخ ورد فى شذرات الذهب ، ولكن من الواضح أن هناك خطأ ما ، فمن الثابت أن الجرجانى توفى سنة ٤٥٠ هـ(١) .

وترد فى بعض الكتب والمقالات اشارات تشير الى تواريخ متأخرة لوفاة الهجويرى ، منها ما يشير الى سنة ٤٧٠ هـ(٢) ، ومنها ما يشير الى أبعد من ذلك فيجعل وفاته فيما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ(٣) .

على أنه يبدو أن أصح هذه التواريخ وأقربها الى الصواب : التاريخ الذى ذكره صاحب خزينة الأصفياء وهو سنة ٤٦٥ هـ ، ذلك أن « مفتى غلام سرور » مؤلف الخزينة ، مواطن لاهورى نشأ وتربى فى البيئة التى توفى بها الهجويرى ، وقام بزيارة قبره عدة مرات ، وهو يصرح بأنه استقى هذا التاريخ من نفحات الأنس وأخبار الأصفياء ، وأن هناك قطعة من الشعر مكتوبة على البوابة الداخلية لضريح الهجويرى تشتمل على هذا التاريخ(٤) .

وقد تولى ذكر هذا التاريخ فى ثلاثة من الكتب والمقالات الحديثة ، مضافا اليه الشهر واليوم الذى توفى فيه الهجويرى ، فجاء تاريخ وفاته على هذا النحو :

التاسع من محرم سنة ٤٦٥ هـ(٥) .

التاسع عشر من صفر سنة ٤٦٥ هـ(٦) .

الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ(٧) .

واذا كنا نلاحظ اختلافا بين هذه التواريخ فى الشهر واليوم ، الا أنها جميعا تتفق على سنة ٤٦٥ هـ .

وهناك ثلاث قطع من الشعر الفارسى تنسب الى : (خواجه) معين الدين جشتى (٦٣٣ هـ) ، ومولانا جامى (٨٩٨ هـ) ، والشاعر الباكستانى محمد اقبال (١٩٣٨) ، وهذه القطع الثلاث مكتوبة على جدران مزار الهجويرى ، وتتضمن كل قطعة منها كلمة أو عبارة تشير الى تاريخ وفاة الهجويرى ومجموعها بحساب الجمل يساوى ٤٦٥ .

---

(١) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) « شد الازار » : انظر : ص ١٨٠ حاشية ٣ .

(٣) نقلا عن : The Life and Teachings : p. 24.
«Oriental College Magazin, Lahore (Volume 36. p. 27 - 43)

(٤) « خزينة الاصفياء » جـ ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٤٩ .

(٦) مجلة « هلال » شمارة سوم ارديبهشت ١٣٣٢ هـ ش .

(٧) The Life and Teachings : p. 24.

اما **القطعة الأولى** ، فهى مكتوبة على حائط الباب الى اليسار ، وتحمل اسم خواجه معين الدين ، وهى :

أين روضه كه بانيش شده فيض الست(١)
مخـــدوم على راست كه باحـق بيوست

در هســتى نيست شـد هستى يافت
زان سال وصالش أفضل آمداز (هست)(٢)

سنة ٤٦٥ هـ خواجه معين الدين جشتى

وترجمتها :

١ — هذه هى الروضة التى بنيت لفيض « الأزل » ، المخدوم « على » الذى اتصل بالحق .

٢ — فنى عن الوجود فأدرك البقاء ، ولذا فالأفضل أن جاءت سنة وصاله من كلمة (هست) .

والقطعة الثانية للجامى(٣) : موجودة على بوابة داخلية فى الطريق الى الضريح ، وهى :

خانقــاه على هجـويرى است
خــاك جـاروب از درش بردار

طوطيــاكن [illegible]به ديـدة حـق بين
تاشـــوى واقـف بر اسرار

جونكه سردار ملك معنى بود
سال وصلش برآيد ز (سردار)(٤)

سنة ٤٦٥ هـ مولانا جامى

وترجمتها :

— انها خانقاه على الهجويرى ، فارفع عن بابها مكنسة الغبار .

---

(١) كلمة « ألست » تأتى كثيرا فى الفارسية بمعنى : الازل ، وهى اشارة الى الآية الكريمة : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم » سورة الأعراف الاية ١٧٢ .

(٢) « هست » بمعنى : موجود ، كائن ، و « هست » بحساب الجمل = هـ (٥) + س (٦٠) + ت (٤٠٠) = ٤٦٥ .

(٣) من المرجح أن هذه القطعة المنسوبة الى الجامى هى التى أشار اليها مؤلف خزينة الاصفياء . (انظر جـ ٢ ص ٢٣٤) .

(٤) الكلمة « سردار » بمعنى « قائد » كانت مستعملة فى العربية ، ومجموعها بحساب الجمل : س (٦٠) + ر (٢٠٠) + د (٤) + ا (١) + ر (٢٠٠) = ٤٦٥

— أيها البيغاء ؟ انظر بعين مبصرة للحق ، لتقف على الأسرار .

— ولما كان سردار ملك المعنى ، فان سنة وصله تستخرج من كلمة (سردار) .

والقطعة الثالثة : لمحمد اقبال ، وتوجد على حائط البوابة الشرقية ، وهى :

سال بنائى حرم مومنان

خواه زجبريل ز هاتف مجو

جشم (به مسجد أقصى فكن)(١)

« الذى باركه » هم بكو

سنة ٤٦٥ هـ علامه اقبال(٢)

وترجمتها :

— سل جبريل عن تاريخ بناء حرم المؤمنين ، ولا تسل الهاتف عنه .

— وألق ببيصرك الى المسجد الأقصى ، وقل أيضا : « الذى باركه »(٣) .

وعلى الرغم من أن ضريح الهجويرى ومسجده قد أعيد بناء بعض أجزائهما ، وأدخلت عليهما تعديلات كثيرة ، وزيد فى مساحتهما مما يحتمل معه أن تكون بعض هذه الأشعار قد أعيد كتابتها فى وقت متأخر ، الا أنها تتفق فيما بينها على تاريخ واحد لوفاة الهجويرى وهو سنة ٤٦٥ هـ . وفى هذا ما يجعلنا نرجح هذا التاريخ على غيره من التواريخ الأخرى .

«قبر الهجويرى»

لا يزال قبر الهجويرى قائما فى مدينة لاهور ، داخل ضريحه ، فى المزار المعروف بمزار « داتا كنج بخش » ، ويوجد حاليا فى المنطقة القديمة من لاهور ، خارج بوابة « بهاتى » ، ويقع غربى القلعة(٤) .

---

(١) العبارة : «به مسجد أقصى فكن » بحساب الجمل :

به : ب (٢) + هـ (٥)	٧ =
مسجد : م (٤٠) + س (٦٠) + ج (٣) + د (٤)	١٠٧ =
اقصى : أ (١) + ق (١٠٠) + ص (٩٠) + ى (١٠)	٢٠١ =
فكن : ف (٨٠) + ك (٢٠) + ن (٥٠)	١٥٠ =
المجموع	٤٦٥

(٢) « تذكرة حضرت على هجويرى » انظر ص ٥٠ — ٥١

(٣) اشارة الى الاية الكريمة : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله » سورة « الاسراء » آية ١

(٤) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٨٧ .

وصف المزار من الخارج :

يتكون المزار من الضريح والمسجد . ويقع المسجد فى الجهة الغربية ، ويوازيه الضريح فى الجهة الشرقية . وجددت أبنيتهما وزيد فى مساحتيهما عدة مرات . وقد وصفه صاحب تذكرة « حضرت على هجويرى » بقوله : « ان أول ما تقع عليه عين الناظر : مبنى عال يقع فى الجهة الغربية منه مسجد فخم »(١) .

والضريح ، كما هو واضح فى الصورة ، يتكون من سياج خارجى يتوسطه المقام حيث يوجد القبر ، وتعلوه قبة كبيرة . وتبدو داخل السياج بعض الحجرات ، كما يفتح على بعض الأفنية الداخلية الصغيرة . أما الفناء الخارجى ، فمتسع وتظهر فيه قبور بعض المريدين والمعتقدين فى الهجويرى(٢)

وقد دفن الهجويرى عند وفاته بالقرب من المسجد الذى بناه فى حياته . وكان القبر يتألف أول الأمر من الصفة وبعض المبانى المحيطة بها ، والتى قام ببنائها السلطان ابراهيم الغزنوى (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) . وفى عهدالسلطان أكبر أضيف اليه بعض الأبنية التى أصلحت أو أعاد بناءها المهراجا « رنجيت سنغ »(٣) . ولم تكن هناك قبة فوق قبر الهجويرى فى البداية وفى سنة ١٢٧٨ هـ بنى « حاجى نور محمد سادو » سياجا حول الضريح تتوسطه قبة تعلو القبر(٤) وقام باصلاحها من بعده مولوى « فيروز الدين » وزين الجدران بالرخام وطلى القبة باللون الأخضر(٥) .

وكان « ميان غلام جيلانى » حفيد « مهرجهندو » قد شيد مسجدا الحقه بالضريح ، غير أن هذا المسجد هدم عند بناء المسجد الجديد المقام على أرض المسجد الذى كان قد شيده الهجويرى فى حياته ، بعد أن زيد فى مساحته . وقد جدد بناء هذا المسجد مرتين(٦) . ويوجد فى صحن المسجد الجديد لوح من الرخام طوله ثلاثة أقدام وعرضه تسع بوصات علامة على الموضع الذى كان يوجد فيه ضريح « مؤمن خان » نائب والى البنجاب فى عهد محمد شاه امبراطور الهند . ولوح آخر يشير الى محراب مسجد الهجويرى القديم(٧) .

---

(١) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٥٠ .
(٢) « السابق » ص ٥٢ .
(٣) «The Life and Teachings» p. 26.
(٤) «The Life and Teachings», p. 27.
« تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٥٢ .
(٥) « تذكرة حضرة على هجويرى » ص ٥٢ .
(٦) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٧) « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٥٢ .

مزار الهجويرى

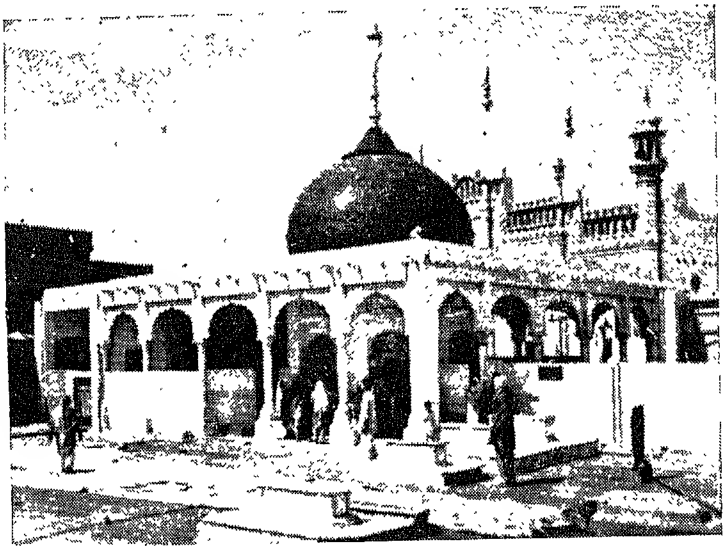

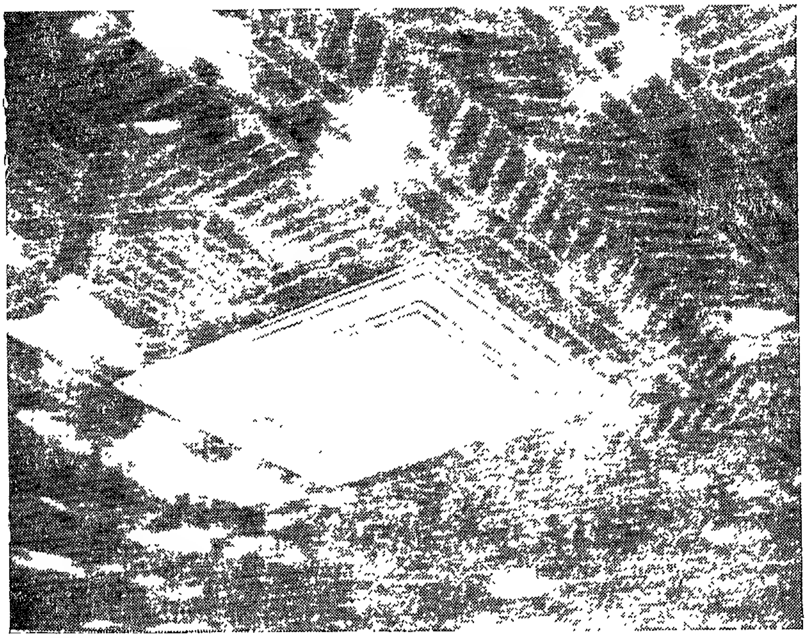

اللوح الرخامى فى المسجد الجديد : الذى يشير الى محراب المسجد القديم الذى بناه الهجويرى فى حياته .

وصف الضريح من الداخل :

يقع قبر الهجويرى داخل المقام الذى يتوسط الضريح . وقد بنى القبر على صفة من الرخام الأبيض ، بنى « ايواز خان » سياجها — وايواز خان هو حارس أفيال المهراجا رنجيت سنغ — ويقع قبر الهجويرى فى الوسط ويحيط به قبرا : الشيخ « أحمد السرخسى » والشيخ « أبو سعيد الهجويرى »(١) .

وتوجد عند راس القبر — كما يبدو فى الصورة — لوحة رخامية كبيرة تسد أحد أبواب المقام نقش عليها آيات من القرآن الكريم ، واسم الهجويرى وألقابه وتاريخ وفاته وبيت من الشعر لـ (خواجه) معين الدين الـ (جشتى) يشير فيه الى لقب داتا كنج بخش . ويبدو فى أسفل اللوحة اسم الشخص الذى أقامها على نفقته ، واسم الخطاط الذى نقشها .

وتفتح البوابة المواجهة للقبر على حجرة صغيرة ، وهى الحجرة التى اعتكف فيها خواجه معين الدين وأمضى بها فترة الجله(٢) ، وعندما هم بالعودة ، وقف أمام القبر ، وقال البيت المنقوش على اللوحة . وهناك حجرة أخرى خارج حرم الضريح كان يقضى فيها الشيخ « فريد الدين كنج شكر »(٣) مدة الجلة(٤) .

كما توجد داخل الضريح حجرة تسمى حجرة القرآن بها نسخ عديدة من القرآن الكريم من بينها نسخة بخط السعدى الشيرازى ، ونسخة تحمل اسم سلطان الاسلام عالمكير المغولى(٥) . ومن أبرز النسخ المهداة : مصحف أهدته « موران » خليلة المهراجان « رنجيت سنغ » ، ونسخة أهداها الى الضريح « محمد خان » ونسخة ثالثة « لنواب ناصر » كما أهدى رنجيت سنغ نسخة نفيسة الى الضريح عقب حملته المظفرة على الأفغان . وتوجد نسخة مكتوبة بالمسك أهداها متعبد غير معروف(٦) .

---

(١) «The Life and Teachings» p. 26.

(٢) « خزينة الاصفياء » انظر ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٣) « مسعود بن عز الدين محمود » ويعرف بفريد الدين كنج شكر . كان مريدا وخليفة لقطب الدين بختيار ، وأدرك صحبة خواجه معين الدين الجشتى . توفى سنة ٦٦٤ هـ وقبره بين مولتان ولاهور (انظر : سفينة الاولياء ص ٩٦) .
« خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٥) « تذكره على هجويرى » ص ٥٢ .

(٦) «The Life and Teachings», p. 27.

((قبر الهجويرى))
وتبدو اللوحة الرخامية الى اليمين -

((العبارات المكتوبة على اللوحة))
بسم الله الرحمن الرحيم
((ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون)) .
مركز تجليـــات
قدوة السالكين ، زبدة العارفين ، حجة الكاملين ، سند الواصلين ، مظهر العلوم الخفى والجلى المشهور مخدوم على الهجويرى المعروف بحضرت داتاكنج بخش لاهورى قدس الله روحه ولا زالت تجلياته وبركاته دائما أبدا .

كنج بخش فيض عالم مظهر نورخدا
ناقصان راپير كامل كاملان را رهنما
سال وصال ٤٦٥ هـ

بناكننده (البانى) ما شاء الله
جويدرى دين محمد بن جويدرى دين كتبه عبد الحميد
غلام رســـول

ومزار الهجويرى من الأماكن المقدسة التى يعتز بها المسلمون فى شبه القارة الهندية ، ويؤمه جمهور كبير من أبناء الهند وباكستان للزيارة والتبرك . وقد لا يعرف عامة الناس فى تلك البلاد اسم « على بن عثمـــان الجلابى الهجويرى » ، ولكن لا يوجد فى شبه القارة من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا كنج بخش » ، وعلى الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على وفاة صاحبه ، الا أن هذه القرون والأعوام لم تقلل من تعلق الناس به وحبهم له ، واعتقادهم فى ذلك الرجل العظيم الذى كان بسلوكه وأخلاقه وحبه لنشر الاسلام نموذجا للمسلم الحقيقى ، فقد أضاء منذ ذهابه الى الهند مشعل الاسلام ، وروج شرع الرسول فى تلك البقاع المترامية الأرجاء ، وأحكم غرس بذور الدين الاسلامى فى قلوب أهل تلك البلاد(١) .

وقد أثر مريدو الجهويرى فى لاهور فى التاريخ الدينى والاجتماعى والسياسى لشبه القارة تأثيرا عميقا ، فلم يكن من نتيجة حركة العلماء المسلمين الذين وفدوا على شبه القارة ، أن حملت معها دينا يدعو الى التوحيد فحسب ، بل حملت معها أيضا الأفكار الديمقراطية التى تنظم المجتمع الاسلامى ، الى الهنود الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة ويخضعون لنظام الطبقات المهين .

واذا كان مرور الأيام والأحداث ، والانقلابات السياسية والجغرافية قد استطاع أن ينال من بناء الدولة التى أقامها السلطان محمود الغزنوى فى بلاد الهند على الغزو والفتوحات ، فان بناء العشق والمحبة الذى شيده على الهجويرى الغزنوى على أساس من الايمان العميق والحياة الروحية الخالصة قد ظل صامدا مع الأيام ، بل ان اسم الهجويرى ليطغى على اسم ذلك السلطان الذى طالمـــا حطم معابد الأصنام ومعاقل الشرك والضلال .

يقول الشاعر محمد اقبال :

ســـيد « هجوير » مخدوم امم	مرقدأوبير « سنجر » را حـــرم
بندهاى كوهسار آسان كسيخت	در زمين هند تخم سجده ريخت
عهد فاروق از جمالش تازه شد	حق زحرف أو بلند آوازه شد
باســـبان عزت أم الكتـــاب	از نكاهش خانه باطل خـــراب
خاك بنجاب ازدم أو زنده كشت	صـــبح ما از مهراو تابنده كشت
عاشق وهم قاصد طيار عشـــق	از جبينش آشكار أسرار عشق(٢)

(١) « هلال » جلد بنجم شمارة ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .
(٢) «The Life and Teachings» : p. 3.

« البوابة الرئيسية للمقام »

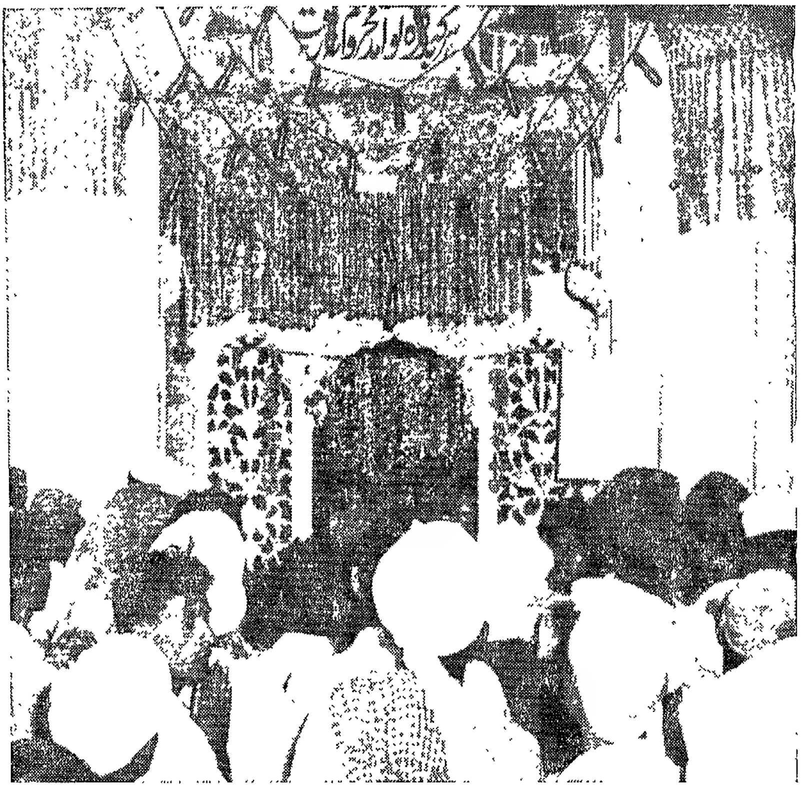

كتب فى أعلى البوابة العبارة :
هر كه بدروازه أو آمد محروم نه رفت
وترجمتها : من جاء الى بابه لم يذهب محروما

وترجمته :

ـ سيد « هجوير » مخدوم الأمم ، مرقده للشيخ « سنجر » حرم .
ـ حطم سلاسل الجبال فى يسر ، وبذر فى أرض الهند بذور الصلاة .
ـ تجدد عهد الفاروق بجماله ، وعلا صوت الحق وذاع بكلامه .
ـ انه الحارس لعزة أم الكتاب ، وبنظرته دار الباطل خراب .
ـ حيث أرض البنجاب بأنفاسه ، وأضاء صبحنا بشمسه .
ـ هو العاشق ورسول العشق الطيار ، وأسرار العشق تلوح من جبينه .

ولا يزال قبر الهجويرى مطافا لمئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، وموضعا لعبادة الأولياء ، وخلوة ورع للنساك ، يتجهون اليه ليعتكفوا فيه فترة الأربعينية ، ولا تزال به الأماكن التى اختلى فيها قطب الهند « معين الدين حسن السنجرى الجشتى » والشيخ « فريد الدين كنج شكر » .

وقد اشتهر عن قبر الهجويرى تحقيق حاجة كل ذى حاجة ان هو طاف بروضته المنورة أربعين ليلة جمعة ، أو اربعين يوما على التوالى(١) .

ويحتفل أهل الباكستان حكومة وشعبا بمولد داتا كنج بخش هجويرى كل عام ، ويمتد الاحتفال بالعرس سبع ليال .

---

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « خزينة الاصنياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .

صورة لحشد كبير من السيدات المعتقدات فى داتاكنج بخش
وقد تعودن زيارة ضريحه فى أيام الجمعة واصطحبن أولادهن
لينالوا بركة صاحب المزار ..

تفضل السيد الدكتور حسين مجيب المصرى باهدائى هذه المجموعة من الصور التى حصل عليها بمساعدة صديقه الباكستانى السيد محمد حسن الاعظمى ، فلهما جزيل الشكر .

الفصل السابع

مؤلفاته

عرف الهجويرى كرائد من الرواد الأوائل الذين ألفوا فى التصوف ، عن طريق كتابه « كشف المحجوب » ، الذى يعد باكورة المؤلفات الصوفية فى اللغة الفارسية ، وواحدا من أمهات الكتب الشرقية المؤلفة فى التصوف الاسلامى .

الدارس للتصوف الاسلامى يستطيع فى يسر أن يلمس المكانة الكبيرة التى يحتلها « كشف المحجوب » ككتاب قيم يقوم على أساس علمى ومنطقى ، ومنهج سليم ، فهو مرجع له أهميته ، وقلما توجد دراسة فى التصوف الاسلامى قام بها المستشرقون ، تخلو من الافادة من هذا الكتاب ، والاشادة به ، فهو لا يقل أهمية وشهرة عن أمهات الكتب الصوفية العربية المعروفة ، ونعنى بها « اللمع » و «طبقات الصوفية» و « الرسالة القشيرية » .

ومن المؤسف حقا أن تكون الافادة من هذا الكتاب ، فى أغلب الأحيان ، عن طريق الترجمة الانجليزية ، التى قام بها المستشرق الانجليزى « نيكولسون » لهذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن شهرة الهجويرى ترجع الى كتاب كشف المحجوب ، الذى يتصل اسمه دائما باسم مؤلفه ، الا أن الهجويرى كان مؤلفا مكثرا ، طرق موضوع التصوف فى عدد من الكتب قبل كشف المحجوب ، وهو فى هذا الأخير يشير الى هذه الكتب ، ويحيل القارىء اليها عندما يتعرض لمسألة سبق أن تناولها بالتفصيل فى واحد من هذه الكتب .

ومن خلال هذه الاشارات نتعرف على مؤلفات الهجويرى السابقة على كشف المحجوب ، والتى لم يقدر لها أن تبقى وتصل الى أيدينا .

والهجويرى كان شاعرا وناثرا ، بدأ نشاطه الأدبى فى فترة مبكرة من حياته ، بل انه ذكر فى كتابه « كشف الأسرار » أنه بدأ التأليف وهو

لا يزال فى الثانية عشر من عمره(١) !!! وقد اجتمع له انتاج وفير ، فالكتب التى ورد ذكرها فى كشف المحجوب تبلغ ثمانية ، واذا أضفنا اليهـا كشف المحجوب يكون انتاجه من النثر تسعة كتب ، علاوة على ديوان من الشعر .

وليس هـذا فحسب ، فهنـاك كتابان آخران ينسبهما البعض الى الهجويرى ، وان لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب ..

وفيما يلى قائمة بأسماء مؤلفات الهجويرى :

١ — الديوان .

٢ — منهاج الدين .

٣ — كتاب الفناء والبقاء .

٤ — كتاب فى شرح كلام الحلاج .

٥ — البيان لأهل العيان .

٦ — بحر القلوب .

٧ — أسرار الخرق والملونات .

٨ — كتاب الايمان .

٩ — الرعاية بحقوق الله تعالى .

١٠ — كشف المحجوب .

١١ — ثواقب الأخبار .

١٢ — كشف الأسرار .

ولا نعرف بأى لغة كتبت هذه المؤلفات ، باستثناء كشف المحجوب ، وكشف الأسرار ، ذلك أن هـذه المؤلفات فقد بعضـها أثناء حيـاة الهجويرى ، والبعض الآخر بعد وفاته . ولم يصل الينا من هذه المجموعة سوى كشف المحجوب الذى يعد آخر مؤلفات الهجويرى ..

يقول زوكوفسكى : « من العسير على المرء أن لا يشعر بالأسى لفقد أوليات كتابات الهجويرى وبخاصة أنه ، على الرغم من ذلك ، يحيـل القارىء اليها دائما(٢) .

ونعرف بهذه المؤلفات ، ونبدأ بالجزء الذى فقد فى حياة المؤلف .

---

(١) نقلا عن : « تذكرة حضرت على هجويرى » ص ٩١ .

(٢) «Bulletin of Oriental Studies» : Zhukovsky's Introduction, p. 487.

أشار الهجويرى فى مقدمة كشف المحجوب الى أن اثنين من مؤلفاته فقدا وشوها أثناء حياته ، وهمـا : « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » .

أما الديوان : فقد روى الهجويرى عن فقده قصة بسيطة مؤداها أن شخصا طلبه منه ، ولم يكن لديه سوى النسخة الأصل لذلك الديوان ، فأعطاها له . وغير ذلك الرجل فيها وأسقط اسم الهجويرى من أولها ، وعرض الديوان على الناس على أنه من نظمه(١) .

وهذه القصة على بساطتها تثير تساؤلات عـديدة تدور حول الأمور التالية :

١ ـ متى نظم الهجويرى ذلك الديوان ، وبأى لغة نظمه ؟

٢ ـ اذا كانت للهجويرى المقـدرة على النظم ، فلم لم يطرق هـذا السبيل مرة أخرى ؟

٣ ـ لماذا لم يستشهد الهجويرى فى كشف المحجوب بشواهد من شعره مع أنه استشهد فى مواضع كثيرة من الكتاب بأشعار غيره ؟

بالنسبة للتساؤل الأول : يبدو أن الهجويرى نظم الديوان فى بداية شبابه ، وكانت انطباعاته فيه انطباعات شخصية لشاب حديث السن ، ولم يكن قد اتجه بعد الى التصوف . ومما يرجح هذا أن الشخص الذى استولى على الديوان استغل حداثة سن الهجويرى فسلبه الجهد الذى بذله فى نظم الديوان ونسبه الى نفسه فى اطمئنان ، لأن الهجويرى لم يكن قد عرف كشاعر أو كاتب . أما اللغة التى نظم بها الديوان ، فمن المرجح أنها كانت اللغة الفارسية ، اذ أن الهجويرى على الرغم من ثقافته العربية واجادته للغة العربية ، كتب باللغة الفارسية ، وان كانت اللغة العربية تمثل عنصرا هاما فى كتاباته ..

وبالنسبة للتساؤلين الثانى والثالث ، فمن المحتمل جدا أن الهجويرى كان ينظم الشعر ، وربما باللغتين الفارسية والعربية . وهناك مثل واحد ورد فى كشف المحجوب لشعره العربى ، فقد استشهد ببيت واحد ونص على أنه قائله(٢) . أما شعره الفارسى فهناك أمثلة منه وردت فى كتاب

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٢ .
(٢) « السابق » ص ٣١٣ .

« كشــف الأسرار » ، وربمــا كان السبب فى احجــام الهجويرى عن الاستشهاد بأمثلة من شعره يرجع الى أن الأشعار التى كانت متداولة فى ذلك الوقت ، كانت فى معظمها أشعارا غزلية يؤولونها تأويلا صوفيا ، والهجويرى وان أباح سماع الشعر الا أنه كان من المعارضين للتأويل ، وقد عاب على الذين يقضون أوقاتهم فى سماع أوصاف المحبوب ومحاسنه، كالعين والطرة والخال وما شــابه ذلك ، وتأويلها على أنها للحق جــل جلاله(١) .

وأما كتاب « منهاج الدين » : فهو المؤلف الثانى الذى فقد فى حيــاة الهجويرى . وقد وردت فى كشف المحجوب اشارات تدل على أنه كان من أوائل الكتب التى ألفها ، وان موضوعه كان يرتبط بالتصوف . ويبدو أن منهاج الدين كان على هيئة تذكرة ، فقد ذكر الهجويرى أنه تحــدث فيه ، فى شىء من التفصيل ، عن مناقب أهل الصفة وشرح أحوالهم كل على حدة(٢) ، ولذلك فانه عندما تعرض لذكر هؤلاء فى الجزء الخاص بتراجم الحياة من كشف المحجوب اكتفى بذكر أسمائهم ..

وبالاضافة الى أهل الصفة ، فقد تحدث الهجويرى فى الــكتاب عن بعض الصوفية ، من بينهم الحــلاج ، ذلك أنه فى الترجمة التى كتبهــا للحلاج فى كشف المحجوب ، أشــار الى أنه تعرض فى منهــاج الدين لبداية الحلاج ونهايته(٣) .

وقد حدث للهجويرى مع منهاج الدين ما حدث له مع الديوان ، اذ أن مدع ركيك استولى على الكتاب ، ومحا اسم الهجويرى من عنوانه ، وعرضه على الجمهور على أنه من تأليفه ، وأظهر للعوام أنه مؤلفه ، بينما كان الخواص يضحكون منه على هذا القول .

ويبدو أن ظاهرة الانتحال كانت متفشية فى ذلك الوقت ، وعلى وجوه عدة ، فقد أشار « فرانتز روزنتال » الى ثلاثة أنواع من الانتحال :

النوع الأول : وكان يمارســه جماعة من المؤلفين الذين يسعون وراء الشهرة ، فيغفلون ذكر أسمائهم وينتحلون أسماء أدباء مشهورين يوقعون بها مؤلفاتهم(٤) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٥١٩ .
(٢) « السابق » أنظر : ص ٩٦ .
(٣) « السابق » انظر : ص ١٩٢ .
(٤) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٦ .

والنوع الثانى : وهو أن كتبا بجملتها كانت تنتحل ، وذلك بوضع اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقى . وضرب لهذا النوع مثلا بالهجويرى(١) .

والنوع الثالث من السرقات الأدبية : ما كان شائعا عند المسلمين ، ويكاد ينحصر فى السرقات الشعرية ، بعكس كتب الاغريق التى كانت تتناول الأدب جملة(٢) .

وقد كان لهاتين الحادثتين أثرهما على الهجويرى ، وحاول أن يتلافى حدوث ذلك تقبلا فعمد الى ادخال اسمه فى مؤلفاته حتى أن اسمه يتردد فى كشف المحجوب ثمان وعشرين مرة ..

أما المجموعة الثانية من مؤلفات الهجويرى ، والتى يبدو أنها فقدت بعد وفاته فتشتمل على الكتب التالية :

١ ــ كتاب الفناء والبقاء :

ناقش الهجويرى ، فى البـــاب الخامس من كشف المحجوب ، اختلاف الصوفية فى الفقر والصفوة ، وتطرق من ذلك الى مناقشة الفناء والبقاء من حيث المعنى والعبارة ، وأشار الى ترهات أرباب اللسان الذين يعبدون العبارة ، وأومأ الى أنه فى مرحلة طيش الشباب ألف كتابا فى « الفنـــاء والبقاء » وكانت له فيه أقوال من هذا النوع(٣) .

٢ ــ كتاب « فى شرح كلام الحلاج » :

هذا الكتاب أيضا من الكتب التى ألفها الهجويرى فى صدر شبابه ، فقد صرح بأنه كان فى شبابه مفتونا بالحلاج ، وقرأ كثيرا من كتبه . وقد دفعه اعجابه بالحلاج الى تأليف ذلك الكتاب فى شرح كلامه ، وأيد فيه بالدلائل والحجج علو أقوال الحلاج ، وصحة حالة(٤) .

٣ ــ كتاب « البيان لأهل العيان » :

ذكر الهجويرى أنه الف هذا الكتاب فى بداية تصوفه ، ويبدو أنه تعرض فيه لشرح بعض الرموز الصوفية :

---

(١) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٧ ــ ١٢٨ .
(٢) « السابق » ص ١٢٩ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٦٧ .
(٤) « السابق » ص ١٩٢ .

٤ — كتاب « بحر القلوب »(١) :

يبدو أن الهجويرى ألف هذا الكتاب بعد كتاب البيان لأهل العيان وطرق فيه نفس الموضوع فشرح الرموز والمصطلحات الصوفية ، وان كان قد سلك فى ذلك مسلكا أكثر تفصيلا واشباعا من كتاب البيان ..

٥ — « أسرار الخرق والملونات » :

أشار الهجويرى فى الباب الرابع من كشف المحجوب ، وهو الباب الخاص بلبس المرقعة ، الى أنه ألف فى هذا الموضوع كتابا مستقلا أسماه « أسرار الخرق والملونات » وذكر أنه يلزم لكل مريد نسخة منه(٢) .

٦ — كتاب « الايمان » :

من المسائل التى تناولها الهجويرى فى كشف المحجوب ، موضوع « الايمان » ، وقد أفرد له قسما مستقلا أطلق عليه : « كشف الحجاب الثالث فى الايمان » . وفى هذا القسم أشار الهجويرى اشارة مقتضبة الى مدلول « الايمان » فى الشريعة ، وعند المعتزلة والخوارج وغيرهم ، ثم أحال القارىء الى كتاب مستقل الفه فى هذا الموضوع(٣) واعتذر بأنه سيقتصر حديثه فى هذا الموضع على اثبات رأى الصوفية فى الايمان(٤) .

٧ — « الرعاية بحقوق الله تعالى » :

خص الهجويرى « التوحيد » بباب فى كشف المحجوب أطلق عليه « كشف الحجاب الثانى فى التوحيد» ، وشرح للقراء عامة مبدأ التوحيد عند الموحدين ، وأشار الى آراء المخالفين من الثنوية والوثنيين وغيرهم ، ثم أحال القارىء المتخصص فى هذا العلم ، الذى يهتم بدارسة هذه المسالة دراسة وافية ، الى كتاب من تأليفه أكثر تفصيلا ، اسمه : الرعاية بحقوق الله تعالى »(٥) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٢٣ .
(٢) « السابق » ص ٦٣ .
(٣) « السابق » ص ٣٦٨ .
(٤) « السابق » ص ٣٧٤ .
(٥) « السابق » ص ٣٦٠ .

وغنى عن التعريف أن هناك كتابين يحملان هذا الاسم ، وهما :

كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه(١) المتوفى سنة ٢٤٠ هـ(٢)
وكتاب « الرعاية لحقوق الله » للحارث بن أسد المحاسبى(٣) المتوفى سنة ٢٤٣ هـ(٤) .

وأما « كشف المحجوب » : فهو الكتاب الوحيد الذى بقى من مؤلفات الهجويرى ، وقدر له أن يصل الى أيدينا . ولما كان كشف المحجوب يمثل الشق الثانى من هذه الدراسة فقد أفردنا للتعريف به بابا مستقلا ، وهو الباب الثانى .

وبالاضافة الى الكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجويرى يوجد كتابان لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب :

أولهما **« ثواقب الأخبار »** : وقد أشار اليه البغدادى اشارة عابرة عند تأريخه لكشف المحجوب فذكر أن الهجويرى ألف « ثواقب الأخبار » وكشف حجب المحجوب لأرباب القلوب(٥) . ولا ندرى من أين استقى البغدادى اسم هذا الكتاب ، اذ لم يرد ذكره فى أى من المراجع التى رجعنا اليها .

والثانى **« كشف الأسرار »** : وهو كتيب صغير يحمل اسم الهجويرى ، طبع فى السنوات الأخيرة فى مدينة لاهور .

وقد تيسر لنا الاطلاع على بعض الاشارات التى تشير الى هذا الكتاب . وأولى هذه الاشارات وردت فى كتاب « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فقد نقل مؤلفه « آدم ميتز » رأيا للهجويرى فى طبقة الوعاظ ، وذكر اسم المرجع على أنه « كشف الاسرار » مخطوط بمكتبة فينا تحت رقم ١٥٤(٦) . وهذا يدل على أن الكتاب كان لا يزال مخطوطا عندما اطلع عليه « ميتز »

ووردت الاشارة الثانية فى مقال فى مجلة « هلال » التى تصدر بالفارسية فى « كراجى » وقد نقل « غلام سرور » كاتب المقال نصا عن كشف الاسرار

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩ .
(٢) « طبقات الصوفية » ص ١٠٣ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ١٣٤ .
(٤) « طبقات الصوفية » ص ٥٦ .
(٥) « هدية العارفين » جـ ١ عمود ٦٩١ .
(٦) « الحضارة الاسلامية » ميتز : جـ ٢ ص ٨٢ .

يتعلق بلقب « كنج بخش » الذى يطلق على الهجويرى ، وذكر أن هذا النص ورد على لسان الهجويرى فى الكتاب(١) . ويبدو من هذه الاشارة أن كتاب كشف الأسرار يضم بعض المعلومات التى تشير الى حياة الهجويرى الخاصة ، وهو العنصر الذى نفتقده تماما فى كشف المحجوب ..

أما الاشارة الثالثة ، فقد وردت فى كتيب عن الهجويرى كتب باللغة « الاردوية » ، وأطلق عليه مؤلفه اسم « تذكرة حضرت على هجويرى » . وقد نقل المؤلف عن كشف الأسرار نموذجين لشعر الهجويرى(٢) .

على أن هناك صورة أوضح لكشف الأسرار نستطيع أن نتبين ملامحها من خلال كتيب كتبه بالانجليزية أحد الأســاتذة السابقين فى جامعة عليكرة الاسلامية ، وأطلق عليه اسم :

The Life and Teachings of Hazrat Data Ganjbakhsh.

وذكر فيه أن كشف الأشرار طبع أخيرا فى لاهور ، ويبدو من حديثه عن الكتاب أنه أطلع عليه ..

وقد أشار المؤلف الى أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، فذكر أن الأسس والتعاليم التى يتضمنها هذا الكتيب تسير فى خط واحد مع التعاليم الواردة فى كشف المحجوب ، كما أن الطريقة التى تنقل بها هذه التعاليم مشابهة لتلك التى جاءت فى كشف المحجوب . ويتشابه الكتابان أيضا فى أن اسم المؤلف استخدم مرات عديدة خلال الكتاب(٣) .

ويضـــم كشف الأسرار الى جوار الأسس والتعاليم الصـــوفية بعض المعلومات الاضافية التى تتعلق بتواريخ الحياة . ويبدو أن بالكتاب قسما على هيئة تذكرة ، تحدث فيه الهجويرى عن بعض الأشخاص الذين قابلهم أثناء اقامته بالهند . وتأثر بهم(٤) .

وعلى الرغم من القرائن التى أوردها المؤلف وأيد بها أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، الا أنه يلقى ظلالا من الشك على نسبة كشف الأسرار الى الهجويرى ، فهو يقول انه من المحتمل أن يكون هذا

---

(١) « هلال » ارديبهشت ١٣٣٢ .
(٢) « تذكرة حضرت على هجويرى » انظر ص ٩٣ ، ٩٤ .
(٣) The Life and Teachings : p.29.
(٤) The Life and Teachings : p.25.

الكتاب منتحلا ، كتبه بعض تلاميذ الهجويرى الذين كانوا متعطشين لنشر تعاليم أستاذهم . غير أنه يعود فيقول : وحتى لو صح أن الكتاب ليس من تأليف الهجويرى فانه يعتبر ملخصا جيدا لتعاليمه(١) . وهكذا يتأرجح رأيه بين القبول والرفض .

والواقع أننا لا نستطيع أن نقطع أو نرجح ما اذا كان كشف الأسرار من تأليف الهجويرى أم من تأليف تلاميذه ، اذ لم يتيسر لنا الاطلاع عليه حتى يمكننا أن نصدر حكما سليما مستمدا من دراسة الكتاب . ونرجو أن تتاح لنا هذه الفرصة يوما ما .

والحقيقة الوحيدة التى يمكن أن نستخلصها مما سبق : أنه اذا صحت نسبة كشف الاسرار الى الهجويرى فانه يكون قد ألفه بعد كتاب كشف المحجوب ، وخلال الفترة الأخيرة من حياته التى قضاها فى مدينة لاهور . وهو ما ينطبق أيضا على « ثواقب الأخبار » اذا ثبت أن هناك كتابا بهذا الاسم ينسب الى الهجويرى ..

وبعد هذا العرض الموجز للكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجويرى — بالاضافة الى كشف المحجوب — والتى ورد ذكر الجزء الأكبر منها فى هذا الأخير بما يدل على أن الهجويرى ألفها قبله ، هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو :

هل ألف الهجويرى هذه الكتب فعلا ؟ واذا كان قد ألفها ، فأين هى ؟ ولماذا لم تصل الينا ؟ ..

حقيقة أن هناك اثنين من بينها ذكر الهجويرى أنهما فقدا أثناء حياته ، وهما « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » ، ولكن كيف أختفت الكتب الأخرى التى أشار اليها الهجويرى بما يدل على أنهـا كانت موجودة فى حيـاته ، ومتداولة فى الوقت نفسه ، فهو عند الاشارة الى بعضها يحيل القارىء اليها ، ويطلب منه أن يرجع اليها(٢) ، أو يصرح بأنه لابد له من الحصول على نسخة منها(٣) ، كيف اختفت هذه الكتب جميعها بعد وفاته ، ولم يبق منها

---

(١) The Life and Teachings : p.29.
(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٦٠ .
(٣) « السابق » ص ٦٣ .

الا كشف المحجوب فكان الكتاب الوحيد الذى وصل الينا ؟ ولماذا تخلو كتب الفهارس من ذكر أى منها ؟ .

والواقع أننا للاسف لا نجد اجابة لهذا السؤال ، وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد انه اذا كان الهجويرى قد ألف هذه الكتب فعلا ، فهذا لا يخرج عن أمرين : اما أن هذه الكتب قد ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الاسلامى ، واما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ، ولم يقدر لها بعد من يعثر عليها ، ويعنى بنشرها أو دراستها .

الباب الثانى

التعريف بكتاب كشف المحجوب

الفصل الأول

تعريف بالكتاب

اسمه ــ موضوعه ــ تاريخ تأليفه

كتاب كشف المحجوب أقدم مؤلف فى التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم فى الأصول النظرية والعملية للتصوف(١) . ويعد من المؤلفات القيمة فى التصوف الاسلامى ، الأمر الذى جعل الجميع يتحدثون عنه وعن مؤلفه بكثير من التقدير ..

يقول الجامى فى نفحات الأنس :

« على بن عثمان بن أبى على الجلابى الغزنوى ، صاحب كتاب كشف المحجوب ، الذى يعتبر من الكتب القيمة المشهورة فى هذا الفن »(٢) ..

ويقول دارا شكوه فى سفينة الأولياء :

« كشف المحجوب ، كتاب مشهور ، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه ولم يؤلف كتاب فى التصوف باللغة الفارسية كتابا قيما مثله »(٣) .

ويقول بهار فى سبك شناسى :

« كشف المحجوب : تأليف العالم العارف أبى الحسن على بن عثمان الغزنوى ، من الكتب القديمة القيمة »(٤) ..

وقد نوه بقيمة هذا الكتاب أيضا المستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامى ، سواء منهم من بحث فى هذا الموضوع ، أو من قصر جهوده على نشر كتب التصوف وترجمتها .

---

(١) «Ethé : Cat», Vol. I

(٢) « نفحات الانس » ص ٣١٦ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٧ .

« وكشف المحجوب » فى الفارسية بمكانة « اللمع » من العربية ، فكلاهما يعد أقوم المؤلفات الصوفية فى لغته ، وأكثرها قيمة وأوفرها مادة فى التصوف .

وقد اعتمد صاحب كشف المحجوب على الكتب العربية فى التصوف ، السابقة عليه مثل : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة القشيرية . وأفاد منه من جاء بعده من المؤلفين الفرس ، وكمل من له دراية بالتصوف الاسلامى ، وصلة بالمراجع الفارسية مثل : تذكرة الأولياء ونفحات الأنس وسفينة الأولياء وتاريخ تصوف در اسلام ، يستطيع أن يدرك الى أى مدى أفاد مؤلفو هذه الكتب من كشف المحجوب ، والى أى حد كان اعتمادهم عليه سواء صرحوا بذلك أو لم يصرحوا .

اسم الكتاب :

أطلق الهجويرى على كتابه اسم « كشف المحجوب(١) » ، وشرح الهدف من هذه التسمية فقال :

« أين كتاب راكشف المحجوب نام كردم مراد آن بودكة تانام كتاب ناطق باشد برآنجه اندر كتابست مر كروهى راكه بصيرت بود جون نام كتاب بشنوند دانند كه مراد ازان جه بودة است » .

وترجمته :

« أسميت هذا الكتاب كشف المحجوب ، والغرض من ذلك أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان الغرض منه » .

ويرى الهجويرى أن اسم كشف المحجوب أنسب الأسماء لكتابه ، لأنه يعبر تعبيرا صادقا عما يحتويه الكتاب .

يقول :

« وجون أين كتاب اندر بيان راه حق بود ، وكشف حجب بشريت جزاين نام ويرا اندرخور نبود »(٢) .

---

(١) « مما هو جدير بالذكر أن هناك كتابا يحمل اسمم « كشف المحجوب » فى المذهب الاسماعيلى ، كتبه بالفارسية : « أبو يعقوب السجزى » ، وكان معاصرا للهجويرى (انظر : « سبك شناسى » ج ٢ ص ٥٢) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤ .

وترجمته :

« ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية فانه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وهناك خلاف حول اسم « كشف المحجوب » . وقد ذكر زوكوفسكى أن اسم الكتاب فى النسخة الخطية الخاصة بمكتبة « فينا » ، وهى النسخة التى جعلها متنا لطبعته لكشف المحجوب ، وفى النسخ الأخرى التى اعتمد عليها فى تصحيح المتن ، هو : « كشف المحجوب »(١) .

وكذلك أثبت كتاب الفهارس : « ريو »(٢) و « ايته »(٣) و « بلوشيه » اسم الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » ، ولكن وردت فى كتاب كشف الظنون زيادة فى الاسم هى عبارة (لأرباب القلوب) ، فصار الاسم الكامل لكتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب »(٤) .

ويعتقد زوكوفسكى أن حاجى خليفه مؤلف كشف الظنون ربما التبس عليه الأمر ، بل انه يظن أن حاجى خليفة لم ير متن كتاب كشف المحجوب أصلا ، لأن من عادته عندما يؤرخ للكتب التى يثبتها فى كتابه ، والتى رآها رأى العين ، أن ينقل بداية النسخة ونهايتها ، ولكنه لم يفعل هذا مع كشف المحجوب ، ويبدو أنه نقل العنوان المذكور عن كتب أخرى(٥) .

وقد ذكر « محمد بارسا » فى كتابه « فصل الخطاب لوصل الأحباب » أن كشف المحجوب عنوان مختصر لكتاب الهجويرى ، وأن الاسم الكامل له هو : « كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب »(٦) .

وكذلك أضاف يعقوب بن عثمان بن محمد الجرخى فى رسالته المسماة « رسالة ابدالية » عبارة (لأرباب القلوب) الى عنوان الكتاب . ويقول زوكوفسكى انه من المحتمل أن يكون مرجع حاجى خليفة احد هذين الكتابين(٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

(٢) «Rieu» : Cat, Vol. I.

(٣) «Ethé» : Cat, Vol. I.

(٤) « كشف الظنون » جـ ٢ عمود ١٤٩٤ ، « نقل البغدادى الاسم على هذا النحو فى هدية العارفين » أنظر جـ ١ عمود ٦٩١ .

(٥) « كشف المحجوب » : انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

(٦) « السابق » : أنظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ ، (ذكر محمد عباسى أن كلمة (سر) أضيفت الى عنوان كشف المحجوب فى الفهرست المثبت فى أول كتاب « فصل الخطاب »فأصبح عنوان الكتاب : « كشف سر المحجوب لارباب القلوب » : انظر حاشية ٣ ص ٥٢ من مقدمة زوكوفسكى) .

(٧) « كشف المحجوب » انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٣ .

والواقع أننا نرجح مع زوكوفسكى أن الاسم الأصلى للكتاب هو « كشف المحجوب » فقط ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : أن هذا الاسم هو الذى ورد على لسان المؤلف فى النسخ التى أمكننا الاطلاع عليها .

ثانيا : أثبت كتاب الفهارس الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » وهو الاسم الذى ورد فى متون جميع المخطوطات التى اطلعوا عليها وأثبتوها فى فهارسهم .

ثالثا : اعتمد زوكوفسكى فى طبعته لكتاب كشف المحجوب على خمس مخطوطات جعل احداها متنا ، ورجع الى الأربع الأخرى لتصحيح المتن ، وهو يؤكد أن هذا الاسم هو الذى ورد فى جميع النسخ التى اعتمد عليها ، ومن غير المحتمل أن تكون بقية الاسم — اذا صح أن هناك بقية — قد سقطت من هذه النسخ جميعها .

رابعا : جاء هذا الاسم دون زيادة فى « نفحات الانس » ، وقد اعتمد الجامى على كشف المحجوب اعتمادا كبيرا ، ونقل عنه نص عبارته فى كثير من الموضوعات والتراجم ، ومن المستبعد أن يكون مخطئا فى اسم الكتاب .

خامسا : أكبر الظن أن بعض الذين أضافوا الى اسم كشف المحجوب عبارة (لأرباب القلوب) قد تواردت فى أذهانهم بعض المعانى التى رددها الهجويرى فى مقدمة الكتاب ، فهو يقول ان كتابه كشف للحجاب ، ويعرف الحجاب بأن هناك نوعين من الحجاب : أحدهما الحجاب « الرينى » الذى أشار اليه الله تعالى فى قوله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(١) » وهذا الحجاب لا يرتفع أبدا ، والثانى : الحجاب « الغينى » ويجوز أن يرتفع فى بعض الأحيان . ثم يذكر أنه وضع كتابه ليصقل القلوب الأسيرة فى الحجاب الغينى والتى يكمن فيها نور الحق حتى أنها ببركة قراءته يرتفع عنها الحجاب ، وتجد الطريق الى الحقيقة(٢) ، ومن هنا أضافوا عبارة (لأرباب القلوب) الى اسم الكتاب ، ثم نقلها عنهم غيرهم .

موضوع الكتاب :

موضوع كتاب « كشف المحجوب » جاء اجابة على السؤال الذى وجهه الى الهجويرى أحد مواطنيه ، ويدعى « أبو سعيد الهجويرى » ، وسأله فيه أن يبين له أصول الطريقة ومقامات الصوفية وأقوالهم ومعاملاتهم :

---

(١) سورة « المطففين » آية ١٤ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٥ — ٦ .

يقول الهجويرى :

« قال السايل وهو أبو سعيد الهجويرى : بيـــان كن مرا أندر تحقيق طريقت تصوف وكيفيت مقامات ايشان ، وبيان مذاهب ومقالات ايشان . واظهار كن مرا رموز واشارات ايشان وجكونكى محبت خداوند عز وجل ، وكيفيت اظهار آن برد لها ، وسبب حجاب عقول ازكته وماهيت آن ، ونفرت نفس ازحقيقت آن ، وآرام روح باصفوت آن وآنجه بدين تعلق دارد از معاملات آن »(١) .

وترجمته :

قال السائل وهو أبو سعيد الهجويرى : بين لى على التحقيق طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم واقوالهم ، وأظهر لى رموزهم واشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية اظهارها على القلوب وما السبب فى حجاب العقوب عن كنهها وماهيتها ، ونفرة النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها ، وما يتعلق بهذا من المعاملات .

وقبل الاجابة على هذا السؤال ، يرسم الهجويرى صورة قاتمة لعلم التصوف فى أيامه فيقول ما معناه :

« أعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى هذه الديار حيث انشـــغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على خلاف أصلها . فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدى أهل هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضره الحق ، وانقطع عنه مراد أهل الارادة ، وانعزلت عن وجوه معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق »(٢) .

ويمضى الهجويرى فى هذا الى أن ينتقل الى موضوع الكتاب ، ويبدأ بشرح المنهج الذى سيسير عليه ، فيقول ما ترجمته :

« والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضـــح مقصودك فى المقامات والحجب ، وأبسطها ببيان لطيف ، وأشرح عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا من أقوال الشيوخ ، وأمده بغرر الحكايات حتى يتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر فى هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم أن لطريق التصوف أصلا قويا ، وفرعا مثمرا »(٣) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٧ .
(٢) « السابق » ص ٧ .
(٣) « السابق » ص ١٠ .

ويتضح من العبارة السابقة أن الهجويرى أخذ على نفسه أن يقدم للمسائل منهجا كاملا لعلم التصوف : أصوله وفروعه وآدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون الصوفية بالجهل أن لعلم التصوف أصولا ثابتة تقوم على أسس علمية سليمة ، الى جانب استنادها الى الناحية الروحية .

وقد بدأ الهجويرى كتابه باثبات فضيلة العلم ، ثم تكلم فى الفقر والتصوف ولبس المرقعة ، والملامة ، وتراجم الشيوخ ، والفرق الصوفية ، والعقائد والعبادات ، والآداب والرموز والمعاملات .

وموضوع الكتاب على هذه الصورة متكامل وواف بالغرض الذى ألف من أجله ..

ويمكن أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى الأقسام الآتية :

أولا : أبواب تتناول الأصول الصوفية ، وهى :

باب الفقر .

باب التصوف .

باب اختلافهم فى الفقر والصفوة .

ثانيا : أبواب تعالج المسائل الفرعية ، وهى :

باب لبس المرقعة .

باب بيان الملامة .

ثالثا : قسم خاص بتراجم الشيوخ .

رابعا : قسم خاص بالفرق الصوفية .

خامسا : قسم خاص بالعقائد الدينية ، ويتحدث فى :

معرفة الله تعالى — التوحيد — الايمان .

سادسا : قسم خاص بالعبادات ويتكلم فى :

الطهارة — الصلاة — الزكاة — الصوم — الحج .

سابعا : أقسام تتحدث فى : آداب الصوفية ورموزهم ورسومهم .

ولنا ملاحظة صغيرة فيما يختص بالتسلسل المنطقى لأبواب الكتاب وترابطها من الناحية الموضوعية ، فالدارس للكتاب يفتقد عنصر الترابط بين بعض الأبواب من الناحية الموضوعية .

مثال ذلك : الأبواب من الثانى الى السادس ، والتى جاءت على هذا النحو :

٢ ـــ باب الفقر ، ٣ ـــ باب التصوف ، ٤ ـــ باب لبس المرقعة

٥ ـــ باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ، ٦ ـــ باب بيان الملامة .

فلو أن الوضع تغير بالنسبة للبابين الرابع والخامس وتقدم باب الاختلاف فى الفقر والصفوة لكان هناك ترابط تام بينه وبين البابين الثانى والثالث من الناحية الموضوعية .

وكذلك الحال بالنسبة للقسم الرابع والعشرين الخاص بالرموز والمصطلحات الصوفية ، فلو أنه جاء بعد الباب الرابع عشر الخاص بالفرق الصوفية لكان بينهما تناسق كبير من ناحية الموضوع ، اذ أن جزءا كبيرا من الرموز شرح خلال الحديث عن الفرق .

* * *

تاريخ تأليفه :

تاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، فالهجويرى لم يذكر فى الكتاب التاريخ الذى بدأ تأليفه فيه ، أو التاريخ الذى أنهى فيه هذا العمل . ومن الملاحظ أنه ابتعد دائما عن ذكر أى تاريخ مهما كانت أهميته ، وذلك على العكس مما فعله معاصرة القشيرى ، فقد ذكر القشيرى اسمه فى مقدمة الرسالة ، ونص على التاريخ الذى ألفها فيه(١) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى اطلع على الرسالة ، واقتفى أثر القشيرى فى بعض الأمور ونقل عنه كثيرا ، كما هو واضح من كشف المحجوب ، وما نلحظه أيضا من التشابه الكبير بين مقدمتى الرسالة وكشف المحجوب ، فانه يبدو أن هذه المسألة لم تستلفت نظره ، ولم يرها جديرة ببعض الاهتمام الذى أولاه لذكر اسمه ، فقد كان حريصا على اثباته فى مقدمة كشف المحجوب وكرر ذلك كثيرا فى ثناياه ، ولم يهتم بالاشارة الى تاريخ تأليفه .

والرأى السائد الذى تردد بالنسبة لكتاب كشف المحجوب والفترة التى ألف فيها ، يتلخص فى ثلاث نقاط :

الأولى : أن الكتاب آخر مؤلفات الهجويرى .

---

(١) « الرسالة » أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى : تحقيق عبد الحليم محمود : القاهرة ١٣٨٥ هـ ـــ ١٩٦٦ م (انظر مقدمة المؤلف ص ١٨) .

الثانية : أن الهجويرى الفه فى الفترة الأخيرة من حياته وخلال اقامته فى مدينة لاهور ..

الثالثة : أن الكتاب مؤلف حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى ، أو الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى ، وربما فى الربع الأخير من القرن الخامس ..

وبالنسبة للنقطة الأولى ، وهى أن كشف المحجوب آخر مؤلفات الهجويرى(١) ، فقد أصبحت هذه المسألة موضع شك بعد أن عرف أن هناك مؤلفات تنسب اليه ، لم يرد ذكرها فى كشف المحجوب ضمن مؤلفات الهجويرى السابقة على كشف المحجوب ، مما يرجح أنها الفت بعده(٢) .

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فهناك أمران :

الأول : أن الكتاب الف فى الهند خلال الفترة التى قضاها الهجويرى أسيرا فى مدينة لاهور . وقد أشار الهجويرى نفسه الى هذا فى موضع من الكتاب ، واعتذر بأنه ليس لديه معلومات أكثر لأنه كان قد ترك كتبه فى غزنه(٣) ..

والثانى : ويدور حول الاجابة على هذا السؤال :

هل كتب الهجويرى كتابه كله فى الهند خلال الفترة المشار اليها ، أم أنه كتب جزءا منه فقط ؟

وفى الاجابة على هذا السؤال يوجد رأيان :

أولهما : رأى من اعتمدوا فقط على اشارة الهجويرى ، السابقة ، فأخذوها قضية مسلمة ، وقطعوا بأن الكتاب كله قد الف فى الهند(٤) ..

وثانيهما : رأى من ترددوا فى قبول هذا الأمر ، ورجحوا أن فصولا من الكتاب فقط هى التى كتبت فى لاهور(٥) . وفسر بعضهم اشارته الى الكتب والمواد التى لم تكن فى متناول يده بأنها مجموعة الأحاديث المنقولة التى جمعها شيخة الختلى(٦) ..

---

(١) «Zhukovsky's Introduction» ، « تصوف » ص ٣٢ ، « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .

(٢) (انظر : مؤلفات الهجويرى) ص ٧٩ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٤) « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) ، « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٥) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ ص ١٣ (مقال بقلم مطيع الامام) .

(٦) «Zhukovsky's Introduction»

والواقع أننا نميل الى الاتفاق مع أصحاب الرأى الثانى وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ فيما يتعلق بتصريح الهجويرى أنه كان يؤلف كتابه فى الهند فى الوقت الذى كانت فيه كتبه فى غزنه ، فمن الواضح أنه كان يشير الى مجموعة الروايات التى جمعها شيخه الختلى ــ والتى نص عليها فى هذا الموضع ــ اذ مما لا يرقى اليه شك أنه كان فى متناول يده وهو يكتب أجزاء كثيرة من كتابه مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسميها ، وكثيرا ما ينقل أمثالا وقصصا بحرفيتها ، ويورد استشهادات مقتطفة يصعب على الانسان أن يحفظها عن ظهر قلب . ونظرة فى الفصل الخامس(١) من هذا الباب كافية لاثبات ذلك .

٢ ــ يتضح من المادة التى وردت فى كشف المحجوب أنه بالرغم من أن كثيرا من المعلومات التى ضمنها المؤلف كتابه قد أمكن له جمعها خلال فترة تجوله التى سبقت وقوعه فى الأسر ، الا أنه توجد معلومات أخرى ترجع الى ما بعد هذه الفترة ، مما يوضح أن بعض أجزاء من الكتاب كتبت بعدها ، مثال ذلك قصة زيارة الهجويرى لقبر أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ(٢) .

٣ ــ هناك دليل آخر ملموس مرتبط بالدليل السابق ، وهو أنه اذا صح أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور عام ٤٣٥ هـ ، وأن الهجويرى كان يمارس فى هذه الفترة كتابة مؤلفه ، على نحو ما صرح به فى ترجمته لحبيب الراعى(٣) ، فقد ذكر فى ترجمته لمعروف الكرخى أنه اقتفى أثر « السلمى » و « القشيرى » فى اختيار الموضع الذى ترجم له فيه(٤) ، وفى هذا اشارة الى أنه اطلع على رسالة القشيرى قبل أن يكتب هذا الجزء . ومن المعروف أن الرسالة ألفت عام ٤٣٧ هـ ، فلابد اذن أن الهجويرى اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

وخلاصة رأينا ، بالنسبة لهذه النقطة ، أنه يبدو أن الهجويرى بدأ كتابة أجزاء من كتابه خلال فترة الأسر ، أى حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، بعد أن تهيأت له مادة مناسبة لأن يبدأ الكتابة . وبعد اطلاق سراحه رجع الى غزنة وخراسان ، حيث استعاد كتبه ومراجعه ، وجمع كمية أخرى من المعلومات

---

(١) « انظر : مظاهر التأثير والتأثر » .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .
(٣) « السابق » ص ١١٠ .
(٤) « السابق » ص ١٤١ .

ضمها الى ما لديه ، وبذلك أتيحت له الفرصة أن يكمل الكتاب . وربما أتم هذا العمل فى غزنة أو خراسان ، وليس هناك ما يمنع أيضا من أن يكون قد أتمه فى الهند عندما رجع اليها فى المرة الثانية ليقيم نهائيا بمدينة لاهور ..

أما بالنسبة للنقطة الثالثة ، التى تتعلق بتاريخ تأليف الكتاب ، فهناك فترات ثلاث يشار اليها على أن الكتاب قد ألف فى احداها :

الأولى : حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى(١) .

والثانية : النصف الثانى من القرن الخامس ، أو بعبارة أخرى : الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى(٢) .

والثالثة : ما بين سنة ٤٨١ وسنة ٥٠٠ هـ(٣) .

وقد اعتمد من رجحوا الفترة الأولى على ما هو واضح فى ترجمة الهجويرى لشيخه أبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، من أنه كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ..

واستند من رجحوا الفترة الثانية الى أنـــه فى الجزء الأخير من كشف المحجوب ، يضاف الى اسم أبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، عبارة (رحمه الله) مما يدل على أن هذا الجزء كتب بعد وفاة القشيرى(٤) .

أما الفترة الأخيرة فقد أشير اليها فى مقال كتبه « يحيى حبيبى » وقوبل بكثير من المعارضة ، وان وجد من يميل الى تصديقه(٥) .

ونناقش الآن احتمالات هذه الفترات أو التواريخ الثلاثة :

أولا : فيما يتعلق بالتاريخ الأول فان الفترة المذكورة ، اذا أخذت بمعناها الواسع ، لا تبعد عن الحقيقة . والدليل الذى نستند اليه هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه من رجحوا هذه الفترة — من أن الكتاب ألف فى حياة أبى القاسم الجرجانى — وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجويرى(٦) .

---

(١) «Zhukovsky's Introduction»

(٢) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ ص ١٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) Oriental College Magazine (Volume 36 pp. 27-43) by: Mr. Yahya Hobibi.

(٤) Rieu Cat: Vol. I, Ethé Cat: Vol. I.

(٥) «THE LIFE AND TECHINGS», p. 25.

(٦) انظر : ص

ثانيا : بالنسبة للتاريخ الثانى ، ففى رأينا أن الفترة المحددة تبعد عن الصواب . والدليل الذى نستند اليه فى رفض تلك الفترة هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه البعض فى ترجيحها — وهو أن اسم القشيرى يعقبه أحيانا عبارة رحمه الله — وقد فسر ذلك أيضا عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجويرى(١) .

ثالثا : فيما يتعلق بالتاريخ الأخير — وهو الفترة ما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ — فربما كانت الفترة المحددة أبعد التواريخ الثلاثة عن الصواب بعد أن عرفنا أن الهجويرى نفسه قد توفى حوالى سنة ٤٦٥ هـ .

أما عن الفترة التى نرجحها لتأليف الكتاب وتاريخ الانتهاء منه ، فقد بات واضحا أن الهجويرى بدأ تأليف كتابه حوالى سنة ٤٣٥ هـ وهى السنة التى وقع فيها أسيرا فى مدينة لاهور ، على نحو ما صرح به الهجويرى نفسه فى الكتاب(٢) ، وما أثبتناه من أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور سنة ٤٣٥ هـ(٣) .

أما عن تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب ، فيبدو أن الهجويرى أتمه فيما بين سنتى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ . ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

١ — من المستبعد أن يكون الهجويرى قد أنهى كتابه قبل سنة ٤٤٠ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو سعيد بن أبى الخير ، لأنه ذكر فى الكتاب أنه زار قبر أبى سعيد(٤) .

٢ — وردت فى كشف المحجوب اشارتان فى الباب الثالث عشر — وهو الباب الذى ذكر فيه الهجويرى رجال الصوفية المتأخرين مرتبة على حسب بلدانهم وقال فى مقدمته انه سيذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا أحياء على عهده — وأولى هاتين الاشارتين أشير بها الى « خواجه على بن الحسين السيركانى » ، ونصها :

« أما ازاهل كرمان خواجه على بن الحسين السيركانى ، سياح وقت بود ، وأسفار نيكوداشت ، ويسرش حكيم مردى عزيز است »(٥) .

---

(١) انظر : ص
(٢) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .
(٣) انظر : ص
(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١
(٥) « السابق » ص ٢١٥ .

وترجمتها :

« أما من أهل كرمان : السيد على بن الحسين السيركانى ، وكان سياح الوقت ، وذا أسفار طيبة . وابنه حكيم رجل عزيز » .

وواضح من هذه الاشارة أن خواجه على لم يكن على قيد الحياة عند كتابتها ، فقد استعمل الهجويرى فى الحديث عنه الفعل الماضى (بود«أ») ، بينما استعمل فى الحديث عن ابنه الرابطة (است) (ب) ، وهذا يبين أن خواجه على وان كان حيا على عهد الهجويرى ، الا أنه كان قد توفى عند كتابة هذه النبذة ، بينما كان ابنه لا يزال على قيد الحياة . وتاريخ وفاة الأب محدد بعام ٤٤١ هـ(١) ، وتوفى الابن عام ٤٧٠ هـ(٢) ..

والاشارة الثانية أشير بها الى أبى جعفر « محمد بن الحسين الحرمى » ، ونصها :

« أما ازاهل ما وراء النهر : خواجه أمام مقبول خاص وعام أبوجعفر محمد بن الحسين الحرمى ، مردى مستمع وكرفتارست ، وهمتى عالى دارد وروزكارى صافى ، وشفقتى تمام بر طالبان دركاه حق »(٣) .

وترجمتها :

« أما من أهل ما وراء النهر : « خواجه » الامام ، مقبول الخاص والعام ، أبو جعفر محمدبن الحسين الحرمى ، وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صاف ، وشفقةكاملة على جميع طلاب حضرة الحق » .

ويتضح من هذه الاشارة أن محمد بن الحسين الحرمى كان على قيد الحياة عند كتابتها ، فالهجويرى يستعمل فى هذه النبذة الرابطة (است) والفعل المضارع (دارد) (جـ) . وقد توفى محمد بن الحسين الحرمى عام ٤٤٢ هـ (٤) ..

---

(١) ذكر « نفيسى » أن خواجه على بن حسن (حسين) الكرمانى السيركانى كان من شيوخ الصوفية فى كرمان ، ومن مريدى الشيخ « عمو » وتوفى سنة ٤٤١ هـ (انظر : شد الازار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٢) « هدية العارفين » جـ ١ عمود ٦٩٢ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٤) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، « صفوة الصفوة » جـ ٢ ص ٢٧٥ .

(أ) « بود » = كان . (ب) « است » = يكون ، كائن . (جـ) « دارد » = يملك .

ويمكن أن نستخلص من هاتين الاشــارتين أنــه من المرجح أن يكون الهجويرى قد أنهى كتابه فيما بين عامى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ ، أى بعد وفاة خواجه على بن الحسين السيركانى عام ٤٤١ هـ ، وقبيل وفاة محمد بن الحسين الحرمى عام ٤٤٢ هـ .

وبناء على ما تقدم يكون الهجويرى قد بدأ تأليف كتاب كشف المحجوب حوالى عام ٤٣٥ هـ . وأتمه حوالى عام ٤٤٢ هـ . وهذه الفترة التى نرجحها لا تتعارض مع ما ذكر من أن الهجويرى كتب مؤلفه حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وأثناء حياة أبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

* * *

الفصل الثانى
أقسام الكتاب

(تقسيم ايته ، تقسيم من **وجهة نظرنا** ، التعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها)

١ ــ أقسام الكتاب من الناحية الشكلية :

تقسيم ايته : تعرض « ايته » فى فهرسه لذكر خمس نسخ من كشف المحجوب ، أثبتها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، وذكر أن الكتاب ينقسم طبقا لجميع النسخ الى أربعين بابا(١) بينما نسختا « فينا » و « بودلين » تتكون كل منهما من أربعة وستين بابا(٢) تتضمن عدة فصول . وفيما يلى قائمة بأقسام الكتاب كما أثبتها « ايته » طبقا للنسخة تحت رقم ١٧٧٣ :

١ ــ باب اثبات العلم .
٢ ــ باب الفقر .
٣ ــ باب التصوف .
٤ ــ باب لبس المرقعة .
٥ ــ باب اختلافهم فى الفقر والتصوف .
٦ ــ باب فى الملامة .
٧ ــ باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة .
٨ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت .
٩ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أهل (أصحاب) الصفة .
١٠ ــ باب فى ذكر أئمتهم من التابعين .

---

(١) ورد هذا أيضا فى : « تاريخ أدبيات فارسى » هرمان آيته : ترجمة رضا زاده شفق ، طهران ١٣٣٧ ــ ١٩٥٨ م (انظر ص ٢٩٤) .
(٢) «Ethé» Cat. Vol. I.

١١ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين .

١٢ ــ باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين .

١٣ ــ باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .

١٤ ــ باب فى فرق فرقهم ومذاهبهم .

(ويقول ايته : وفى نهاية هذه القائمة توجد أربعة كشوف) :

كشف الحجاب الأول فى معرفة الله .

كشف الحجاب الثانى فى التوحيد .

كشف الحجاب الثالث فى الايمان .

كشف الحجاب الرابع فى الطهارة .

١٥ ــ باب التوبة وما يتعلق بها .

كشف الحجاب الخامس فى الصلاة .

١٦ ــ باب المحبة وما يتعلق بها .

كشف الحجاب السادس فى الزكاة .

١٧ ــ باب الجود والسخاء .

كشف الحجاب السابع فى الصيام .

١٨ ــ باب الجوع وما يتعلق به .

كشف الحجاب الثامن فى الحج .

١٩ ــ باب المجاهدة .

كشف الحجاب التاسع فى الصحبة وآدابها .

٢٠ ــ باب الصحبة وما يتعلق بها .

٢١ ــ باب آدابهم فى الصحبة .

٢٢ ــ باب فى آداب الصحبة فى الاقامة .

٢٣ ــ باب فى آدابهم فى السفر .

٢٤ ــ باب فى آدابهم فى الأكل .

٢٥ ــ باب فى آدابهم فى المشى .

٢٦ ــ باب فى نومهم فى السفر والحضر .

٢٧ ــ باب فى آدابهم فى الكلام والسكوت .

٢٨ ــ باب فى آدابهم فى السؤال وتركه .

٢٩ ــ باب فى آدابهم فى التزويج والتجريد .

٣٠ ــ كشف الحجاب العاشر فى بيان الفاظهم وحقائق معانيها .

كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع .

٣١ ــ باب فى السماع وما يتعلق به .

٣٢ ــ باب فى سماع الشعر .

٣٣ ــ باب فى سماع الأصوات والألحان .

٣٤ ــ باب فى كلام السماع .

٣٥ ــ باب فى اختلافهم فى السماع .

٣٦ ــ باب فى مراتبهم فى حقيقة السماع .

٣٧ ــ باب فى الوجد والوجود والتواجد ومراتبه .

٣٨ ــ باب فى الرقص وما يتعلق به .

٣٩ ــ باب فى الخرق .

٤٠ ــ باب فى آداب السماع .

ونلاحظ على هذا التقسيم الذى أورده « ايته » أمرين :

الأول : يبدو أن الرقم (٤٠) الذى أشار به الى عدد أبواب الكتاب قد حصل عليه بعد أن أحصى كلمة (باب) التى عنون بها المؤلف لمجموعة من الأمور والمسائل التى ذكرها أو ناقشها فى كتابه ، كأن يقول مثلا : باب اثبات العلم ، باب الفقر ، باب الجوع وهكذا .

وهنا نلاحظ أن الرقم الصحيح هو (٣٩) لا (٤٠) .

والثانى : لم يعط « ايته » رقما لأقسام الكتاب التى عنون لها المؤلف بكلمة (كشف الحجاب) باستثناء الحجاب العاشر الذى أعطاه رقم (٣٠) كما لو كان بابا من الأبواب التى ذكرها المؤلف ، وبذلك حصل على الرقم (٤٠) الذى ذكر انه مجموع عـــدد الأبواب التى ينقسم اليها الكتاب طبقا لهذه النسخة .

تقسيم من وجهة نظرنا :

الواقع اننا اذا أردنا أن نحدد أقسام الكتاب تحديدا أكثر دقة وتناسقا نجد أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما يمكن تقسيمها الى مجموعتين :

المجموعة الأولى : وتشمل أربعة عشر قسما أطلق على كل منها اسم (باب) ، وبعض هذه الأبواب يشتمل على فصول .

المجموعة الثانية : وتشمل أحد عشر قسما أطلق على كل منها اسم (كشف الحجاب) ، وبعض هذه الأقسام يشتمل على أبواب وفصول .

وفيما يلى قائمة بأقسام الكتاب كما نراها من وجهة نظرنا :

مقدمة المؤلف : وتشتمل على ثمانية فصول قصيرة .

أقسام الكتاب :

المجموعة الأولى :

١ ــ باب اثبات العلم : ويشتمل على أربعة فصول .

٢ ــ باب الفقر : ويشتمل على فصلين .

٣ ــ باب التصوف : ويشتمل على فصلين .

٤ ــ باب لبس المرقعة : ويشتمل على فصلين .

٥ ــ باب اختلافهم فى الفقر والصفوة .

٦ ــ باب بيان الملامة : ويشتمل على فصلين .

٧ ــ باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين .

٨ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت .

٩ ــ باب فى ذكر أهل الصفة .

١٠ ــ باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار .

١١ ــ باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى يومنا هذا . (أى الى عهد المؤلف) .

١٢ ــ باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين .

١٣ ــ باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .

١٤ ــ باب فى فرق فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم .

المجموعة الثانية :

١٥ ــ كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى : ويشتمل على فصلين .

١٦ ــ كشف الحجاب الثانى فى التوحيد : ويشتمل على فصل .

١٧ ــ كشف الحجاب الثالث فى الايمان : ويشتمل على فصل .

١٨ ــ كشف الحجاب الرابع فى الطهارة : ويشتمل على باب وفصلين .

١٩ ــ كشف الحجاب الخامس فى الصلاة : ويشتمل على باب وأربعة فصــول .

٢٠ ــ كشف الحجاب السادس فى الزكاة : ويشتمل على فصل وباب .

٢١ ــ كشف الحجاب السابع فى الصوم : ويشتمل على باب .

٢٢ ــ كشف الحجاب الثامن فى الحج : ويشتمل على باب .

٢٣ ــ كشف الحجاب التاسع فى الصحبة مع آدابها وأحكامها : ويشتمل على عشرة أبواب .

٢٤ ــ كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم .

٢٥ ــ كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع : ويشتمل على عشرة أبواب .

٢ ــ تعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها :

ذكرنا أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما ونعرف فى اختصار بهذه الأقسام ونبين الموضوعات التى يشتمل عليها كل قسم منها :

مقدمة الكتاب(١)

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة طويلة نوعا استغرقت حوالى عشر صفحات . استهلها باسم الله والحمد له ، والصلاة والسلام على رسوله ، وأثبت فيها اسمه واسم الكتاب ، ثم عقد ثمانية فصول قصيرة :

الفصل الأول : تحدث فيه عن السبب الذى من أجله أثبت اسمه فى بداية الكتاب .

الفصل الثانى : ذكر فيه أنه سلك طريق الاستخارة ، وبين فضائل ذلك .

الفصل الثالث : فى أنه محا عن قلبه الأغراض النفسية قبل أن يبدأ العمل .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١ ــ ١١ . (ملاحظة : هذا التقسيم وأرقام الصفحات وفقا للطبعة الحديثة لكشف المحجوب طهران ١٣٣٦ هـ . ش ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث) .

الفصل الرابع : فى « النية » عملا بقول الرسول عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » .

الفصل الخامس : شرح فيه الغرض من تسمية الكتاب باسم « كشف المحجوب » .

الفصل السادس : صرح فيه بأنه عرف مقصود السائل وأنه يجد فى نفسه القدرة على اجابته على سؤاله اجابة مفصلة .

الفصل السابع : فى طلب التوفيق والعون من الله على اتمام مهمته .

الفصل الثامن : تحدث فيه عن أن هذا العالم موضع لأسرار الله وأن الجواهر والأعراض والطبائع انما هى حجاب لتلك الأسرار ، وأن الانسان محجوب بوجوده عن الأسرار الربانية ، وقد أصبح هذا الحجاب مزاجا له ، فلا جرم أن اكتفى بالجهل واشترى بالروح حجابه عن الحق لأنه يجهل جمال الكشف .

واستطرد من هذا الى أن جميع المشايخ حثوا المريدين على تعلم العلم والمداومة عليه فمهد بذلك للباب الأول من الكتاب .

أقســـام الكتاب

القسم الأول :

« باب اثبات العلم » (ص ١١ — ٢١) .

ويقع فى حوالى احدى عشرة صفحة ، ويشتمل على أربعة فصول .

موضوعه :

(ا) تحدث المؤلف فى هذا الباب عن ضرورة العلم ، وذكر أن تعلم جميع العلوم ليس فريضة على كل الناس ، الا بالقدر الذى يتعلق بالشريعة ، وأنه ينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل .

ثم قسم العلم الى علمين :

علم الله تعالى ، وعلم الخلق .

(ب) الفصل الأول : علم الله .

(جـ) الفصل الثانى : علم الخلق .

(د) الفصل الثالث : عن السفسطائيين الذين ينكرون العلم ، والملاحدة من الصوفية الذين يقولون بترك العلم .

(هـ) الفصل الرابع : ذكر فيه طائفة من أقوال المشايخ فى العلم .

القسم الثانى :

باب الفقر (ص ٢١ — ٣٤) .

ويقع فى حوالى اثنتى عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين .

موضـوعه :

(ا) الفقر من الناحية الروحية ، ويتحدث فيه عن درجة الفقر فى الطريق ، وحقيقته ورسمه .

(ب) الفصل الأول : فى اختلاف المشايخ فى الفقر والغنى وأيهما أفضل .

(جـ) الفصل الثانى : فى أقوال شيوخ الصوفية فى الفقر وشرح رموزهم .

القسم الثالث :

باب التصوف (من ٣٤ — ٤٩) .

ويقع فى حوالى خمس عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضـوعه :

(ا) يتحدث فى هذا الباب عن لفظ (الصوفى) وهل هو مشتق من الصوف أم الصف أم الصفاء ؟ .. ويرفض هذه الاشتقاقات جميعها ويرجح أنه اسم من أسماء الأعلام لهذه الطائفة . ويقسم أهل التصوف الى : « صوفى » و « متصوف » و « مستصوف » .

(ب) الفصل الأول : فى أقوال المشايخ فى تعريف الصوفى والتصوف .

(جـ) الفصل الثانى : فيما قيل فى المعاملات .

القسم الرابع :

باب لبس المرقعة (ص ٤٩ — ٦٥) .

ويقع فى حوالى ست عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضـوعه :

(ا) المرقعة شعار للمتصوف ولكن بعض الأدعياء يرتدونها طلبا للجاه ، وهم بذلك يسيئون الى الصوفية الحقيقيين لأن الناس ينسبونهم اليهم ويظنونهم على شاكلتهم .

(ب) الفصل الأول : فى شرط المرقعات ، وحياكة الرقعة ، والشروط التى ينبغى توفرها فيمن يلبس المريد المرقعة .

(جـ) الفصل الثانى : فى ترك عادة لبس المرقعة ، والأصل فى تخريق الثياب .

القسم الخامس :

باب اختلافهم فى الفقر والصفوة (٦٥ — ٦٨) .
ويقع فى ثلاث صفحات .

موضـــوعه :

اختلاف علماء الصوفية فى تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة : والصفوة عند جماعة أتم من الفقر . وهذا الخلاف خلاف فى العبادات لأن الأولياء وصلوا الى حيث فنيت الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى .

القسم السادس :

باب بيان الملامة (ص ٦٨ — ٧٨) .
ويقع فى عشر صفحات ، ويشتمل على فصلين :

موضـــوعه :

(أ) الملامة وأثرها فى خلوص المحبة . وقد خص الحق أحباءه بالملامة غيرة عليهم حتى لا تقع عين الغير على جمال حالهم ، وحتى لا يعجبوا هم بأنفسهم فيقعوا فى آفة العجب والتكبر .

(ب) الفصل الأول : الملامة على ثلاثة أوجه :

ملامة استقامة السير .

ملامة القصد .

ملامة الترك .

(ج) الفصل الثانى : فى تعريف أبى حمدون القصار للملامة .

القسم السابع :

بباب فى ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين (ص ٧٨ — ٨٥) .
ويضم هذا الباب تراجم للخلفاء الأربعة :

١ — أبو بكر الصديق .

٢ — عمر بن الخطاب .

٣ — عثمان بن عفان .

٤ — على بن أبى طالب .

القسم الثامن :

باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت (ص ٨٥ ــ ٩٧) .

ويشتمل على خمس تراجم :

١ ــ الحسن بن على .

٢ ــ الحسين بن على .

٣ ــ على بن الحسين بن على زين العابدين .

٤ ــ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين (الباقر) .

٥ ــ أبو محمد جعفر بن على بن الحسين (الصادق) .

القسم التاسع :

باب فى ذكر أهل الصفة (ص ٩٧ ــ ٩٩) .

عرف المؤلف فى هذا الباب بأهل الصفة وذكر مجموعة من أسمائهم .

القسم العاشر :

باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار (ص ٩٩ ــ ١٠٧) .

ترجم فى هذا الباب لأربعة أشخاص هم :

١ ــ أويس القرنى .

٢ ــ هرم بن حيان .

٣ ــ الحسن البصرى .

٤ ــ سعيد بن المسيب .

القسم الحادى عشر :

باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين (ص ١٠٧ ــ ٢٠٢) .

ويشتمل على أربع وستين ترجمة للأشخاص التالية أسماؤهم :

١ ــ حبيب العجمى .

٢ ــ مالك بن دينار .

٣ ــ أبو حليم حبيب بن سليم الراعى .

٤ ــ أبو حازم المدنى .

٥ ــ محمد بن واسع .

٦ ــ أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخراز .

٧ ــ عبد الله بن المبارك المروزى .

٨ ــ أبو على الفضيل بن عياض .
٩ ــ أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى .
١٠ ــ أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور .
١١ ــ بشر بن الحارث الحافى .
١٢ ــ أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى .
١٣ ــ أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى .
١٤ ــ أبو سليمان داود بن نصير الطائى .
١٥ ــ أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى .
١٦ ــ أبو على شقيق بن ابراهيم الأزدى .
١٧ ــ أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى .
١٨ ــ أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى .
١٩ ــ أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم .
٢٠ ــ أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى .
٢١ ــ الامام أحمد بن حنبل .
٢٢ ــ أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى .
٢٣ ــ أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى .
٢٤ ــ أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبى .
٢٥ ــ أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى .
٢٦ ــ أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى الحداد .
٢٧ ــ أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار .
٢٨ ــ أبو سرى منصور بن عمار .
٢٩ ــ أبو عبد الله أحمد بن عاصم الانطاكى .
٣٠ ــ أبو محمد عبد الله أحمد بن خبيق الأنطاكى .
٣١ ــ أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى .
٣٢ ــ أبو الحسن أحمد بن محمد النورى .
٣٣ ــ أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى .
٣٤ ــ أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء .
٣٥ ــ أبو محمد رويم بن أحمد .
٣٦ ــ أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى .

٣٧ — أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص .
٣٨ — أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى .
٣٩ — عمرو بن عثمان المكى .
٤٠ — أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى .
٤١ — أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى .
٤٢ — أبو عبد الله محمد بن على الترمذى .
٤٣ — أبو بكر محمد بن عمر الوراق (الترمذى) .
٤٤ — أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .
٤٥ — أبو الحسن على بن محمد الاصفهانى .
٤٦ — أبو الحسن محمد بن اسماعيل (خير النساج) .
٤٧ — أبو حمزة الخراسانى .
٤٨ — أبو العباس احمد بن مسروق .
٤٩ — أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربى .
٥٠ — أبو على الحسن بن على الجوزجانى .
٥١ — أبو محمد أحمد بن الحسين الجريرى .
٥٢ — أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الآدمى .
٥٣ — أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج .
٥٤ — أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الخواص .
٥٥ — أبو حمزة البغدادى البزاز .
٥٦ — أبو بكر محمد بن موسى الواسطى .
٥٧ — أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى .
٥٨ — أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدى .
٥٩ — أبو على محمد بن القاسم الرودبارى .
٦٠ — أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدى السيارى .
٦١ — أبو عبد الله محمد بن خفيف .
٦٢ — أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى .
٦٣ — أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محموديه النصر ابادى .
٦٤ — أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى .

القسم الثانى عشر :

باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين (ص ٢٠٢ — ٢١٤) .

« يقول فى مقدمة هذا الباب : بعض الذين سأذكرهم فى هذا الباب توفوا وبعضهم أحياء » .

ثم يورد تراجم لعشرة من شيوخ الصوفية هم :

١ — أبو العباس أحمد بن محمد القصاب .

٢ — أبو على الحسن بن محمد الدقاق .

٣ — أبو الحسن على بن أحمد الخرقانى .

٤ — أبو عبد الله محمد بن على الداستانى .

٥ — أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهنى .

٦ — أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى .

٧ — أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى .

٨ — أبو العباس أحمد بن محمد الشقانى .

٩ — أبو القاسم على الجرجانى الطوسى .

١٠ — أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان النوقانى .

***

القسم الثالث عشر :

باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين من أهل البلدان (ص ٢١٤ — ٢١٨) :
يذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا لايزالون أحياء على عهده من زهاد الصوفية ومشايخهم من أرباب المعانى ، ويورد أسماءهم مرتبة على حسب البلدان :

١ — أهل الشام والعراق .

٢ — أهل فارس .

٣ — أهل قهستان وآذربايجان وطبرستان وقومس .

٤ — أهل كرمان .

٥ — أهل خراسان .

٦ — أهل ما وراء النهر .

٧ — أهل غزنين وسكانها .

***

القسم الرابع عشر :

باب فى الفرق بين فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم

(ص ٢١٨ — ٣٤١)

تناول المؤلف فى هذا الباب الفرق الصوفية ، وقسمها الى اثنتى عشرة فرقة ، وتحدث عن كل فرقة منها ونسبها الى مؤسسها ، وذكر الأسس الرئيسية فى مذهبها ، وبين أن هذه الفرق تتفق فيما بينها فى أصول الشرع وفروعه والتوحيد ، ولكنها تختلف فى بعض الجزئيات : كالمعاملات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، وفى تفسير بعض المصطلحات حيث يبدو هذا الاختلاف واضحا .

وهذه الفرق هى :

١ — المحاسبية :

وتنسب الى أبى عبد الله الحارس بن أسد المحاسبى ، وأساس مذهبه يقوم على الرضا .

وقد تكلم المؤلف فى الأمور الآتية :

(أ) الرضا وهل هو من المقامات أم الأحوال .

(ب) فصل : فيما قيل بشأن ذلك .

(ج) الفرق بين المقام والحال .

٢ — القصارية :

وتنسب الى أبى صالح حمدون بن أحمد بن عماره القصار ،وأساس مذهبه على الملامة .

تحدث المؤلفان فى ايجاز عن الملامة وأحال القارىء الى الباب السادس من الكتاب حيث تناول هذ هالمسألة بالتفصيل .

٣ — الطيفورية :

وتنسب الى أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، وأساس مذهبه يقوم على السكر .

وقد تكلم المؤلف عن السكر والصحو .

٤ ــ **الجنيدية :**

وتنسب الى أبى القاسم الجنيد بن محمد ، وأساس مذهبه يقوم على الصحو على عكس الطيفورية .

٥ ــ **النورية :**

وتنسب الى أبى الحسن أحمد بن محمد النورى ، وأساس مذهبه يقوم على الايثار .

٦ ــ **السهلية :**

وتنسب الى سهل بن عبد الله التسترى ، وأساس مذهبه يقوم على الرياضة والمجاهدة . وقد تناول المؤلف المسائل التالية :

(أ) الكلام فى حقيقة النفس .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى النفس .

(ج) الكلام فى مجاهدة النفس .

(د) الكلام فى حقيقة الهوى .

٧ ــ **الحكيمية :**

وتنسب الى أبى عبد الله بن على الحكيم الترمذى ، وأساس مذهبه يقوم على الولاية . وتحدث المؤلف فى :

(ا) اثبات الولاية .

(ب) فصل : فى الرد على المعتزلة والحشوية ممن ينكرون تخصيص الأولياء .

(ج) فصل : فى رموز المشايخ عن الولاية .

(د) الكلام فى اثبات الكرامات .

(هـ) الفرق بين المعجزات والكرامات .

(و) اظهار جنس المعجزة على يد من يدعى الألوهية .

(ز) تفضيل الأنبياء على الأولياء .

(ح) تفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة .

٨ ــ **الخرازية :**

وتنسب الى أبى سعيد الخراز ، وأساس مذهبه يقوم على الفناء والبقاء .

(ا) الكلام فى الفناء والبقاء .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ ورموزهم فيما يتعلق بالفناء والبقاء .

٩ ــ **الخفيفية :**

وتنسب الى أبى عبد الله محمد بن خفيف ، وأساس مذهبه يقوم على الغيبة والحضور

١٠ ــ **السيارية :**

وتنسب الى أبى العباس السيارى ، وأساس مذهبه يقوم على الجمع والتفرقة .

١١ ــ **الحلولية :**

وهم طائفتان :

الأولى : تنسب الى أبى حلمان الدمشقى .

والثانية : تنسب الى فارس .

(ا) الكلام فى الروح .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى الروح .

* * *

القسم الخامس عشر :

كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى (ص ٣٤١ ــ ٣٥٦) .
ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) المعرفة نوعان : معرفة علمية ، ومعرفة حالية . وقد سمى العلماء والفقهاء صحة العلم بالله معرفة ، بينما سمى شيوخ الصوفية صحة الحال مع الله معرفة .

(ب) الفصل الأول : المعتزلة يعتقدون أنه يمكن معرفة الحق عن طريق العقل . ويعتقد آخرون أن الاستدلال وسيلة صحيحة لكسب المعرفة .

(ج) الفصل الثاني : فى أقوال المشايخ فى المعرفة .

* * *

القسم السادس عشر :

كشف الحجاب الثانى فى التوحيد (ص ٣٥٦ — ٣٦٨)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(أ) حقيقة التوحيد الحكم على وحدانية شيء بصحة العلم بواحدانيته . ولما كان الله تعالى واحدا لا يقاسمه أحد فى ذاته وصفاته ، ولا قسيم ولا شريك له فى أفعاله ولما كان الموجدون يعرفونه على هذه الصفة ، فانهم يسمون هذا العلم توحيدا .

والتوحيد على ثلاثة أنواع :

توحيد الحق للحق
توحيد الحق للخلق
توحيد الخلق للحق

(ب) فصل فى أقوال المشايخ فى التوحيد .

* * *

القسم السابع عشر :

كشف الحجاب الثالث فى الايمان (ص ٣٦٨ — ٣٧٤)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(أ) الايمان من ناحية اللغة هو التصديق . وقد اختلف الناس فى اثبات حكمه ، فالمعتزلة يقولون ان جميع الطاعات العلمية والعملية ايمان ، والايمان عند غيرهم : المعرفة ، وعند المتكلمين من أهل السنة : التصديق المطلق . أما الصوفية فينقسمون فيه الى قسمين :

فريق يقول ان الايمان قول وتصديق وعمل ،
وفريق يقول انه قول وتصديق .

(ب) فصل : فى حقيقة الايمان .

* * *

القسم الثامن عشر :

كشف الحجاب الرابع فى الطهارة (ص ٣٧٤ ــ ٣٨٦)
يشتمل على باب وفصلين .

موضـــوعه :

(أ) الطهارة على نوعين : طهارة الظاهر ، وطهارة القلب .
وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة .

(ب) باب التوبة وما يتعلق بها : يشترط للتوبة ثلاثة أمور :
الأسف على المخالفة ، ترك الزلة فى الحـــال ، العزم على عدم العودة الى المعصـــية . والتائبون على ثلاث درجات : التائب ، والمنيب ، والأواب .

(جـ) فصل : فى الرجوع عن التوبة .

(د) فصل : فى أقوال المشايخ فى التوبة .

* * *

القسم التاسع عشر :

كشف الحجاب الخامس فى الصلاة (ص ٣٨٦ ــ ٤٠٤)
ويشتمل على باب وخمسة فصول .

موضـــوعه :

(أ) الصلاة فى عرف الفقهـــاء مجموعة من الأحكام الظـــاهرة ، ولكن الصوفية يربطون بين هذه الأحكام الظاهرة ومعانيها الباطنية ..

(ب) فصل فى رأى الصوفية فى الصلاة : فريق يعدون الصلاة وسيلة للحضور ، وفريق يعدونها وسيلة للغيبة . وطائفة من أرباب الأحوال يقولون انها تتم فى مقام الجمع ، وفريق يقول انها تتم فى مقام التفرقة ..

ومما يتعلق بالصلاة : المحبة .

(جـ) باب المحبة :

الفصل الأول : فى أنواع المحبة .

الفصل الثانى : المحبة أساس التصوف .

الفصل الثالث : رأى المشايخ فى العشق .

الفصل الرابع : فى أقوال المشايخ فى حقيقة المحبة .

* * *

القسم العشرون :

كشف الحجاب السادس فى الزكاة (ص ٤٠٤ — ٤١٣) .

ويشتمل على فصل وباب :

موضـــوعه :

(أ) الزكاة فريضة واجبة على تمام النعمة ، ولكل شىء زكاة من جنسه: فالمال نعمة وله زكاة من جنسه ، والأشـــياء العينية نعمة ولها زكاة من جنسها ، والصحة نعمة كبيرة ، ولكل عضو من أعضاء البدن زكاة .

(ب) فصل : فى رأى شيوخ الصوفية فيمن يعطى الزكاة ومن يأخذها.

(جـ) باب الجود والسخاء .

* * *

القسم الحادى والعشرون :

كشف الحجاب السابع فى الصوم (ص ٤١٣ — ٤٢٢) .

ويشتمل على باب .

(أ) الصوم عبادة سرية بين المخلوق والخالق وجزاؤها لا نهاية له . وأقل درجة فى الصوم هى الجوع .

(ب) باب الجوع .

* * *

القسم الثانى والعشرون :

كشف الحجاب الثامن فى الحج (ص ٤٢٢ — ٤٣٢)

ويشتمل على باب .

موضـــوعه :

(أ) الحج فريضة على العبد فى حال الصحة والعقل والبلوغ والاسلام وحصول الاستطاعة .

وليس الغرض من الحج مشاهدة الكعبة ، وانما كشف المشاهدة ، وعندما يكون العبد مكاشفا فان العالم كله يصبح حرما له ، وعندما يكون محجوبا يصبح الحرم بالنسبة له أظلم من أى مكان .

(ب) باب المشاهدة .

* * *

القسم الثالث والعشرون :

كشف الحجاب التاسع فى الصحبة وأدابها وأحكامها (ص ٤٧٢ — ٤٧٩)

ويشتمل على عشرة أبواب :

١ — باب الصحبة وما يتعلق بها .

٢ — باب آدابهم فى الصحبة ، ويشتمل على فصل .

٣ — باب آداب الاقامة فى الصحبة .

٤ — باب الصحبة فى السفر .

٥ — باب آدابهم فى الأكل .

٦ — باب آدابهم فى المشى .

٧ — باب آدابهم فى السفر والحضر .

٨ — باب آدابهم فى الكلام والسكوت .

٩ — باب آدابهم فى السؤال وتركه .

١٠ — باب آدابهم فى التزويج والتجريد .

* * *

القسم الرابع والعشرون :

كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم (ص ٤٧٩ — ٥٠٨)

موضوعه :

لأهل كل فن ، ولأرباب كل معاملة عبارات يستعملونها بعضهم مع البعض ولا يعرف معناها سواهم ، وللصوفية أيضا الفاظ خاصة ، منها :

الحال والوقت ، والمقام والتمكين ، والمحاضرة والمكاشفة ، والقبض والبسط ، والأنس والهيبة ، والقهر واللطف ، والنفى والاثبات ،

والمسامرة والمحادثة ، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، والعلم والمعرفة ، والشريعة والحقيقة ، وغير ذلك .

***

القسم الخامس والعشرون :

كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع (ص ٥٠٨ ـــ ٥٤٦)
ويشتمل على عشرة ابواب :

١ ـــ باب سماع القرآن .
٢ ـــ باب سماع الشعر .
٣ ـــ باب سماع الأصوات والألحان .
٤ ـــ باب أحكام السماع .
٥ ـــ باب اختلافهم فى السماع .
٦ ـــ باب مراتبهم فى حقيقة السماع ، ويشتمل على فصل .
٧ ـــ باب الوجد والتواجد .
٨ ـــ باب الرقص .
٩ ـــ باب الخرق .
١٠ـــ باب آداب السماع .

***

الفصل الثالث

مصادر الكتاب

الروايات الشفوية ، الكتب والرسائل المدونة

اعتمد الهجويرى فى كتابه على مصادر متعددة ، واستقى مادته من منابع مختلفة ، منها الروايات الشفوية ، ومنها الكتب والرسائل المدونة . وقد بدا من خلال كشف المحجوب أن الهجويرى كان على علم تام بأعمال أسلافه، وهو يعدد مصادره ويذكرها بالاسم تارة ، ويكتفى بأن يشير الى أسماء مؤلفيها تارة أخرى .

ويمكن أن نقسم مصادر كشف المحجوب الى قسمين :

أولا : الروايات الشفوية :

لا شك أن الروايات الشفوية كانت المصدر الأول الذى استمد منه الهجويرى مادة كتابه ، وقد لاحظنا أنه كثيرا مايردد فى الكتاب عبارات :

سمعت فلانا يقول كذا ... (١)

سألت فلانا عن كذا ، فقال (٢)

كنت عند فلان ، فقال واحد كذا ... (٣)

جرت لى مناظرة مع واحد ، فقال كذا ... (٤)

اتفق لى صحبة أحد الأدعياء ، فقال كذا ... (٥)

روى لى فلان عن فلان كذا ... (٦)

---

(١) « كشف المحجوب » انظر ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) السابق » انظر ص ٥٥ .
(٣) السابق » انظر ص ٢١٣ .
(٤) « السابق » انظر ص ٨ ، ١١٥
(٥) « السابق » انظر ص ٧٥ .
(٦) « السابق » انظر ص ٢٠٥ .

وقد تكونت حصيلة الهجويرى من هذه الروايات بالرحلات التى قام بها(١) ، فقد رحل كثيرا ، وزار أماكن متعددة من العالم الاسلامى ، وأمكنه عن طريق هذه الرحلات الاتصال بكثير منكبار رجال الدين والأئمة والصوفية فى عصره ، والمثلين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة ، وتجادل معهم فى المسائل التى كان يهتم بها . وجاهد فى الوقت نفسه لكى يستطلع آراءهم ويقف على مذاهبهم ، ويقدر مدى قربهم أو بعدهم عن أهل السنة ، ومدى تمسكهم بأحكام الشريعة أو مجافاتهم لها ، وبذلك حصل على معلومات قيمة ومتنوعة استخدمها فى حكاياته عمن التقى بهم ، وفى أحكامه الصادقة على آرائهم ومذاهبهم ومختلف المسائل التى أوردها فى كتابه أو تعرض لمناقشتها .

ثانيا : الكتب والرسائل المدونة :

رجع الهجويرى الى كثير من الكتب والرسائل التى كانت معروفة على عهده . ويمكن أن نقسم مصادره من هذا النوع الى ثلاث مجموعات .

المجموعة الأولى : الكتب التى رجع اليها وذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ونقل عنها فى كتابه ونص على ذلك صراحة ، وهى :

أولا : كتاب « اللمع » لأبى نصر السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ .

أشار الهجويرى الى هذا الكتاب فى باب آدابهم فى الصحبة، وذكر أنه ينقل عنه ، وأورد النص الذى نقله باللغة العربية(٢) .

غير أن اعتماد الهجويرى على اللمع لم يكن مقصورا على هذا ، فقد اعتمد عليه كثيرا ونقل عنه فى مواضع أخرى ، وان لم يصرح بهذا . والدارس لكتابى كشف المحجوب واللمع يمكنه فى سهولة ويسر أن يضع يده على المواضع التى ينقل فيها الهجويرى عن اللمع ، وقد أوردنا مثلا واحدا يبين هذه الحقيقة(٣) ، وان كان يوجد على غراره الكثير .

ثانيا : كتاب المحبة : لعمرو بن عثمان المكى المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

---

(١) ارجع الى تفصيل رحلات الهجويرى ص

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٤٤

(٣) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : (مظاهر التأثير والتأثر : بين اللمع وكشف المحجوب) .

وذكر الهجويرى هذا الكتاب فى باب المحبة ، ونقل عنه نصا ترجمه الى الفارسية وصرح بأنه ينقل عنه(١) .

ثالثا : كتب أبى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ

اعتمد الهجويرى على كتب ثلاثة من مؤلفات أبى عبد الرحمن السلمى ، وهى :

كتاب تاريخ أهل الصفة ، كتاب طبقات الصوفية ، كتاب السماع .

أما ((**تاريخ أهل الصفة**)) فقد أشار اليه فى قوله ما ترجمته :

« وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوى أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة ، وأورد فيه مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم »(٢) .

وأما ((**طبقات الصوفية**)) فقد ذكر الهجويرى أنه حذا حذوه فى ترتيبه لتراجم الشيوخ(٣) .

وأما ((**كتاب السماع**)) فقد ورد ذكره فى باب السماع حيث يقول الهجويرى ماترجمته :

« وقد روى الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا ، وجمعه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى كتاب السماع ، وقطع باباحته »(٤) .

رابعا : كتاب ((تاريخ المشايخ)) لمحمد بن على الترمذى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

أشار الهجويرى الى هذا الكتاب فى باب لبس المرقعة ، وأورد منه خبرا عن الامام أبى حنيفة النعمان(٥) . ويبدو أن الهجويرى اعتمد على هذا الكتاب فى ترجمته للأئمة والشيوخ الأوائل .

خامسا : ((الرسالة)) لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٩٩ — ٤٠٠
(٢) « السابق » ص ٩٨ — ٩٩
(٣) « السابق » ص ١٤١
(٤) « السابق » ص ٥٢٣ — ٥٢٤
(٥) « السابق » ص ٥٠

أشار الهجويرى الى الرسالة القشيرية اشارة غير مباشرة عند ترجمته لمعروف الكرخى ، حيث يقول ماترجمته :

« وكان من الواجب ذكره قبل هذا ، ولكنى ذكرته فى هذا الموضع موافقة لاثنين من الشيوخ : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : والأول هو الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله الذى كتابه على هذا الترتيب ، والثانى الأستاذ أبو القاسم القشيرى الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة »(١) .

وبالرغم من أن الهجويرى لم يذكر اسم الكتابين ، الا أنه من الواضح من عباراته أنه يعنى طبقات الصوفية والرسالة القشيرية .

غير أن افادة الهجويرى من الرسالة القشيرية لم تكن مقصورة على هذا ، فمن الثابت أنه ينقل عنها فى أماكن كثيرة من كتابه . ومعظم استشهاداته من الأقوال والحكايات مأخوذة عن الرسالة دون زيادة ، وان كان فى بعض الأحيان يضيف عبارة من عنده لتوضيح المعنى .

كما يتضمن كتاب كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من الرسالة القشيرية(٢) .

سادسا : « حكايات عراقيان » (حكايات العراقيين) :

وهى مجموعة من الحكايات عن شيوخ الصوفية من تصنيف بعض شيوخ العراق .

والهجويرى ينقل عن هذه المجموعة ويذكرها مرة باسم « حكايات عراقيان »(٣) ويكتفى مرة أخرى بأن يشير اليها باسم « حكايات »(٤) .

المجموعة الثانية :

وهى الكتب والرسائل التى ذكر الهجويرى أسماءها وأسماء مؤلفيها ، وصرح بأنه اطلع عليها وقرأها ، ولا شك أنه أفاد منها ، وان لم يشر الى أنه ينقل عنها ، مثل :

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١

(٢) « انظر على سبيل المثال : باب المحبة فى الرسالة : ج ٢ ص ٦١٠ وما بعدها ، وطابق بينه وبين كشف المحجوب ص ٣٩٢ وما بعدها » .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٥٦ وغيرها .

(٤) « السابق » ص ٧١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ وغيرها .

١ — تصانيف الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ :
وقد أشار الهجويرى الى هذه التصانيف فى ترجمته للحلاج حيث يقول :

« وله تصانيف زاهرة ، ورموز وكلام مهذب فى الأصول والفروع . وأنا على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفا فى بغداد ونواحيها ، وبعضها فى خوزستان وفارس وخراسان »(١) .

٢ — مؤلفات أبى جعفر بن المصباح الصيدلانى :
يقول الهجويرى عنه ماترجمته :

« وكان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان طيب فى التحقيق وميل عظيم الى الحسين بن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه »(٢) .

٣ — رسائل السيارية :

وهى الرسائل المتبادلة بين أهل « نسا » وأهل « مرو » من السيارية أتباع أبى العباس السيارى ، وقد اطلع الهجويرى على بعض منها فى مدينة مرو(٣) .

المجموعة الثالثة :

كتب أشار اليها الهجويرى ، وهى نوعان :
(أ) الكتب التى ذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ، مثل :
١ — مؤلفات الحكيم الترمذى ، وهى :
آداب المريدين ، ختم الولاية ، كتاب النهج ، كتاب نوادر الأصول(٤) .

٢ — كتاب « مرآة الحكماء » لشاه بن شجاع الكرمانى(٥) .

٣ — كتاب « غلط الواجدين » لأبى محمد رويم(٦) .

٤ — كتاب « تصحيح الارادة » للجنيد البغدادى(٧) .

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ — ١٩١
(٢) « السابق » ص ٢١٤ — ٢١٥
(٣) « السابق » ص ٣٢٣
(٤) « السابق » ص ٤٩٣ ، ١٧٨
(٥) « السابق » ص ١٧٤
(٦) « السابق » ص ١٧٠
(٧) « السابق » ص ٤٣٩

٥ — كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه(١) .

٦ — كتاب « المرقعة » لأبى معمر الأصفهانى(٢) .

٧ — كتاب « الرعاية » لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى(٣) .

٨ — كتاب فى « اباحة السماع » لمؤلف مجهول(٤) .

(ب) التصانيف والتآليف التى اكتفى بذكر أسماء مؤلفيها ومصنفيها ، وهى :

١ — تصانيف يحيى بن معاذ الرازى(٥) .

٢ — تآليف أبى بكر الوراق(٦) .

٣ — آثار سهل بن عبد الله (٧) .

٤ — تصانيف أحمد بن خضرويه(٨) .

٥ — تصانيف أبى سعيد الخراز(٩) .

وبالاضافة الى هذه المصادر ، فقد استند الهجويرى الى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار الصحاح والاقوال المأثورة عن شيوخ الصوفية الأوائل .

وعلى الرغم من تعدد المصادر التى اعتمد عليهـا الهجويرى ، رأيناه يشكو فى موضع من كشف المحجوب ، من الظروف غير المواتية التى كان عليه أن يعكف فيها على تأليف الكتاب ، فقد كان أسيرا فى بلاد الهند ، بينما كانت كتبه فى موطنه غزنة .

ويقول زوكوفسكى انه فيما يختص بالكتب والمواد التى لم تكن فى متناول يد الهجويرى ربما كان يعنى بذلك بعض المجموعات من الأحاديث المنقولة التى جمعها شيخه الختلى فى « الروايات »(١٠) ، اذ مما لا يرقى اليه أدنى

---

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩
(٢) « السابق » ص ٦٢
(٣) « السابق » ص ١٤٤
(٤) « السابق » ص ٥٢٤
(٥) « السابق » ص ١٥٣
(٦) « السابق » ص ٤٣٩ ، ١٧٩
(٧) « السابق » ص ٤٣٩
(٨) « السابق » ص ١٥١
(٩) « السابق » ص ٣١١
(١٠) « السابق » ص ١١٠

شك أنه كان فى متناول يده مواد أخرى ، فهو يعدد بوضـــوح مراجعه ويسميها ، وكثيرا ما ينقل قصصا بنصها ، ويورد استشهادات يصعب على الانسان أن يحفظها عن ظهر قلب(١) .

على أننا نرى الهجويرى فى بعض الأحيان يبدأ قولا منقولا بالعربية ويكمله بالفارسية(٢) أو يورد تفسيرا أو شرحا ما بالفارسية فى ثنايا تعبيرات عربية مبعثرة . وكذلك يسرد بعض أقوال الشيوخ بالفارسية(٣) على نحو يوحى بغياب أصـــولها العربية ، تلك الأصـــول التى كان يمكن أن يورد منهـــا استشهادات مضبوطة .

* * *

---

(١) (انظر « اللمع » ص ١٩٥ وقابل بينه وبين كشف المحجوب ص ٤٤٤) .
(٢) (انظر : معراج بايزيد فى اللمع ص ٤٦٤ وفى كشف المحجوب ص ٣٠٦) .
(٣) (انظر : الرجمة الفارسية لقول الحسن البصرى فى كشف المحجوب ص ٥٠ والاصل العربى فى « التعرف » ص ٢٣ ، حكاية الرسالة المتبادلة بين يحيى بن معاذ وأبى‌يزيد فى كشف المحجوب ص ٢٢٣ والاصل العربى فى الرسالة ج ٢ ص ٦٢٠) .

الفصل الرابع

مكانة الكتاب بين كتب التصوف

(كتب التصوف قبل كشف المحجوب ، والكتب المؤلفة بعده

يحتل كتاب كشف المحجوب مكانة مرموقة فى تاريخ التصوف الاسلامى ، فهو يمثل واسطة العقد بالنسبة لأمهات الكتب العربية فى التصوف ، والكتب الفارسية فى هذا الموضوع ..

وكشف المحجوب يعتبر باكورة المؤلفات الفارسية فى التصوف ، ولم تسبقه كتب فى موضوعه ، باستثناء الترجمة الفارسية لكتاب : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، وهى الترجمة التى قام بها « المستملى البخارى (٤٣٤ هـ) للأصل العربى لكتاب التعرف للكلاباذى « ٣٨٠ هـ »(١) ، وكل ما سبقه كان من الكتب العربية التى كانت ولا تزال تعتبرمن أهم المراجع فى التصوف الاسلامى ، مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وواضح من كتاب كشف المحجوب أن مؤلفه اعتمد على عدد غير قليل من الكتب العربية : ومن أهمها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة »، فقد رجع الى هذه الكتب واهتدى بمناهجها ، ونقل عنها كثيرا من مواد كتابه ، وصار هو أيضا مرجعا لمن جاء بعده ، ذلك أن مؤلفو الصوفية من الفرس الذين جاءوا بعد الهجويرى أفادوا من كشف المحجوب واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا فى مؤلفاتهم ، مثل : « تذكرة لأولياء » و « نفحات الأنس » و « سفينة الأولياء » و « طرائق الحقائق » و « تاريخ تصوف در اسلام » وغيرها .

ويجدر بنا قبل أن نقيم كتاب كشف المحجوب ، أن نعرف بالكتب التى سبقته وأفاد منها ، والكتب التى ألفت بعده وأفادت بدورها منه ..

---

(١) « كشف المحجوب » انظر مقدمة المصحح ص ١٩

كتب التصوف قبل كشف المحجوب :

ذكرنا أن الكتب الصوفية التى سبقت كشف المحجوب كانت كلهـــا باللغة العربية ، مثل : اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة . وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك كتب أخرى ، فمن الواضح أنه كانت هناك محاولات كثيرة سابقة على هذه الكتب ولكنها لم تصل الينـــا ، وهى اما أن تكون فى عداد ما ضاع من التراث الاسلامى ، واما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ولم يقدر لها بعد من ينشرها أو يتوفر على دراستها .

ويؤيد هذا القول ما نقرأه فى الكتب التى تحت أيدينا من أسماء لكتب ورسائل ليس لنا من العلم بها الا معرفة أسمائها أو أسماء مؤلفيهـــا . وان نظرة واحدة فى أبواب ثلاثة من كتـــاب « التعرف لمذهب أهل التصـــوف » للكلاباذى ، وهى الأبواب : الثانى والثالث والرابع(1) ، لدليل مادى على صحة هذا القول ، قد ذكر المؤلف فى هذه الأبواب أسماء من تعرضـــوا للتصوف وعلومه ، سواء عن طريق الكلمة المنطوقة أو المكتوبة . ويؤكد ذلك أيضا ما ورد فى كشف المحجوب من اشارات الى الكتب التى رجـــع اليها الهجويرى أو قرأها ، والتى رآها رأى العين(2) .

وقد كانت هناك مدرستان صوفيتان عبرتا عن التصوف ، وبينتا أسسه وقواعده وآدابه ومعاملاته :

أما المدرسة الأولى : فهى مدرسة أبى القاسم الجنيد (٢٠٧ هـ) ببغداد : وقد اعتمدت هذه المدرسة على الكلمة المنطوقة واتخذت من المساجد منابر لدعوتهـــا ..

وأما المدرسة الثـــانية : فهى مدرسة أبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) فى نيسابور : واعتمدت على الكلمة المكتوبة ، واتخذت من الكتب ميدانا لبيان دعوتها ، وشرح رسالتهـــا ، ونشر علومها وأذواقهـــا . كما حفظت لنـــا أيضا تراث المدرسة الأولى .

ونعرف الآن ببعض الكتب العربية التى لها ارتباط وثيق بكشف المحجوب والتى تعد من أهم المراجع التى اعتمد عليها مؤلفـــه .

---

(1) « التعرف لمذهب أهل التصوف » أبو بكر محمد الكلاباذى : القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠ (انظر : ص : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢) .

(2) انظر : الفصل الثالث من هذا الباب .

أولا : « اللمع »(١) :

مؤلف اللمع هو : « أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى » المتوفى فى رجب عام ٣٧٨هـ(٢) ، والملقب بطاووس الفقراء(٣) ، كان مريدا لأبى محمد المرتعش ، ورأى : « سرى السقطى » و « سهل التسترى »(٤) .

والسراج تجول فى أنحاء العالم الاسلامى ، واجتمع بأعلام التصوف فى عصره . ويروى عنه الهجويرى أنه لما بلغ بغداد ، كان ذلك فى شهر رمضان ، فأفردوا له خلوة فى مسجد « الشونيزيه » ، وأعطى رئاسة الدراويش ، فأمهم حتى يوم العيد ، وكان يختم القرآن فى صلاة التراوح خمس مرات . وكان الخادم يضع فى غرفته رغيفا كل ليلة ، وفى يوم العيد — وكان رضى الله عنه قد رحل — نظر الخادم فوجد الثلاثين رغيفا فى مكانها(٥) .

و « اللمع » يعد من أكبر المراجع وأوثقها وأغزرها مادة فى التصوف ، وهو بمثابة الكتاب الأم فى اللغة العربية ، منه اقتبس جميع من ألفوا فى التصوف ، واهتدوا بأبوابه ومنهجه ..

وممن أفادوا من هذا الكتاب الهجويرى ، فكتابه كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء فى المنهج العام ، أو المواد التى تناولها ، مما يوضح أن بعض تفاصيل كشف المحجوب مستمدة من اللمع ..

وقد استهدف السراج فى كتابه غاية قصد اليها ، وهى رسم المبادىء الصوفية التى تعبر عن روح القرآن وجوهر السنة ، وبيان الأخطار التى وقع فيها السالكون للطريق اما عن سوء نية أو عن حسن قصد ..

يقول : « قد استخرت الله تعالى ، وجمعت أبوابا فى معنى ما ذهب اليه أهل التصوف وتكلم مشايخهم المتقدمون ، فى معانى علومهم وعمدة أصولهم وأساس مذهبهم ، وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم ، وما انفردوا به من الاشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة ، والألفاظ المشكلة الصحيحة على أصولهم ، وحقائق مواجيدهم وفصولهم »(٦)

---

(١) يسمى الجامى هذا الكتاب : « لمعة » انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .
(٢) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٩١ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ ، « أسرار التوحيد » ص ٢٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٨٢ .
(٤) « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ .
(٦) « اللمع » ص ١٨ .

وقد قسم السراج كتابه الى قسمين :

القسم الأول : عدد من الأبواب القصيرة تحدث فيها عن علم التصوف ومذهب الصوفية ومنزلتهم ، وطبقات أهل الحديث والفقهاء وما ترسموا به من أنواع العلوم ، والكشف عن اسم الصوفية وصفتهم ، والتوحيد والموحد والعارف ، والفرق بين المؤمن والعـــارف ..

والقسم الثانى : مجموعة من الأقسام أطلق على كل قسم اسم « كتاب » ويشتمل كل كتاب منها على عدد من الأبواب القصيرة . وهذه الكتب هى :

كتاب الأحوال والمقامات .

كتاب أهل الصفوة فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل .

كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

كتاب المستنبطات .

كتاب الصحابة .

كتاب آداب المتصوفة .

كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل .

كتاب السماع .

كتاب الوجـــد .

كتاب اثبات الكرامات .

كتاب البيان عن المشكلات .

كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التى ظاهرها مستبشـــع وباطنهـــا صحيح مستقيم .

ومما لا شك فيه أن كتاب اللمع كتاب قيم ، واف ، متكامل الموضوع ، سليم المنهج الا أن شخصية المؤلف تبدو فيه باهتة ، فهو يعتمد ، فى معالجته للمواد التى يقدمها ، على أقوال من سبقه من الشيوخ والزعماء الأوائل للصوفية . وقلما يدلى برأيه الخـــاص فى الموضوع الذى يتناوله ..

ويلاحظ على الكتاب أيضا أنه تعبير عن التصوف من وجهة نظر أهل السنة ، فالسراج يحيل كل أصل من الأصول التى يتعرض لها فى كتابه الى القرآن والسنة ويدعمه بالآيات القرآنية والأحـــاديث ، ولذلك فان تحليله لمـــادة الموضوع يفتقر الى العنصر الفكرى ، والنظرة الفلسفية ..

ثانيا : « طبقات الصوفية » :

كتاب طبقات الصـــوفية يذكر على أنه من مؤلفات أوائل القرن الخامس الهجرى ، ولكن يبدو أنه مؤلف فى أواخر القرن الرابع الهجرى(١) ..

ومؤلف طبقات الصوفية هو : « محمد بن الحسين بن موسى بن خالد ابن سالم بن راوية بن سعد بن قبيصة بن سراقة »(٢) العربى الأصل ، المعروف بأبى عبد الرحمن السلمى ، والمتوفى سنة ٤١٢ هـ(٣) .

وقد اشتهر أبو عبد الرحمن بنسبه الى السلميين ، وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد لأبى عمرو بن نجيد السلمى (٣٦٦ هـ) .

وأبو عبد الرحمن تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقطنى ، وأبو نصر السراج الطوسى(٤) . وكان السلمى مريدا لأبى القاسم النصرابادى وتسلم منه الخرقـــة(٥) ..

وعلى السلمى تتلمذ عدد كبير من الصوفية المعروفين ، من بينهم الصوفى الفارسى المعروف « أبو سعيد بن أبى الخير » الذى نال على يديه الخرقة الأولى(٦) . ومنهم أيضا أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة .

وللسلمى مؤلفات كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، ولكن الذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف ، وهو الكتاب الذى نتحدث عنه ..

والسلمى لم يكن أول من ألف فى الطبقات ، فقد سبقه الى ذلك غيره واعتمد هو على تأليفهم ، وان كانت الأصول التى اعتمد عليها قد ضاعت كلها ، ولم يصل الى أيدينا سوى كتابه(٧) : طبقات الصوفية .

---

(١) « جاء فى ترجمة أبى العباس القصاب فى نفحات الانس أنهم قالوا لابى العبـــاس ان سلمى ألف كتابا فى الطبقات . فسألهم : هل ذكر فيه اسمى ؟ فقالوا : لا . فقال : لم يفعل شيئا (انظـــر : نفحات ص ٢٦٦) وطبقا لاسرار التوحيـــد فان أبا العباس القصاب توفى حوالى سنة ٣٩٧ هـ (انظر : أسرار التوحبد ص ٣٦) وعلى هذا يكون الطبقات قد ألف فى أواخر القرن الرابع » .

(٢) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٦ .

(٣) « المنتظم » جـ ٨ ص ٦ .

(٤) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٩ .

(٥) « نفحات الانس » ص ٣١١ .

(٦) « أسرار التوحيد » الترجمة العربة ص ٥٠

(٧) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ٥٠ .

وكما أفاد السلمى من كتب السابقين عليه ، فقد أفاد من كتابه من ألفوا بعده فى الطبقات سواء منهم من كتب بالعربية(١) أو بالفارسية . ومن هؤلاء الهجويرى ، فقد صرح فى كشف المحجوب بأنه حذا حذو السلمى فى ترتيبه للشيوخ الذين ترجم لهم(٢) .

وكتاب طبقات الصوفية هو الأصل لكتاب « نفحات الأنس » للجامى ، فقد ترجم الشيخ عبد الله الأنصارى الهروى (٤٨١ هـ) طبقات الصوفية الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة ، وزاد عليه ما أملاه فى مجالس الصحبة ومجامع الوعظ والتذكير ، وأقوالا أخرى لبعض الشيوخ الذين لم يرد ذكرهم فى الكتاب ، وبعض أذواقه ومواجيده التى جمعها وكتبها واحد من مريديه(٣) . ثم جاء « جامى » فنقل هذه الترجمة من اللهجة الهروية بعبارة بسيطة متعارف عليها بين أهل عصره ، وأضاف الى ذلك ذكر عبد الله الأنصارى ومعاصريه والمتأخرين عنه(٤) . وأطلق على هذه المجموعة اسم : « نفحات الأنس » .

ويشتمل كتاب طبقات الصوفية على تراجم لخمس طبقات من الشيوخ ، كل طبقة تتكون من عشرين فردا .

و « طبقات الصوفية » ليس أول كتاب للسلمى فى التراجم فقد ذكر أنه ترجم قبله للصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، فى كتاب له اسمه كتاب : « الزهد »(٥) .

وكتاب طبقات الصوفية مطبوع فى القاهرة ، فقد حققه ونشره « نورالدين شريبه » سنة ١٩٥٣ م ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها ..

ثالثا : « الرسالة » :

« الرسالة من مؤلفات القرن الخامس الهجرى . ومؤلفها : « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى »(٦) ، ولد فى بلدة « استو » ، وكان

---

(١) أفاد من الطبقات : « القشيرى » فى الرسالة ، « الاصفهانى » فى الحلية ، « البغدادى » فى تاريخ بغداد ، « الشعرانى » فى لواقح الانوار (انظر : مقدمة الطبقات ص ٥١) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٣) « نفحات الانس » ص ١ .
(٤) « السابق » ص ٢ .
(٥) « طبقات الصوفية » ص ٣ .
(٦) « فى كشف المحجوب » عبد الكريم أبو القاسم انظر : ص ٢٠٩ .

سكانها من العرب الذين قدموا خراسان ، فهو عربى من قبيلة قشير بن كعب(١) ..

وكان القشيرى تلميذا لأبى على الدقاق (٤٠٥ هـ) فى نيسابور . وزوجا لابنته(٢) . وتتلمذ أيضا على أبى عبد الرحمن السلمى «٤١٢هـ» ، وعاصر تلميذا من تلاميذ السلمى المشهورين هو « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد التقى كل منهما بالآخر فى نيسابور ، وتلازما فترة طويلة ، وكان أبو سعيد يعقد مجلسا فى زاوية القشيرى مرة كل أسبوع(٣) .

وقد عاصر الهجويرى القشيرى وترجم له فى كشف المحجوب ووصفه بأنه كان رفيع القدر فى زمانه ، عظيم المنزلة ، وله تصانيف نفيسة محققة(٤) .

والقشيرى كان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، فكان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى ، والفروع على مذهب الشافعى ، وانتهى به الامر الى أن صار أمام نيسابور الشهيرة(٥) .

وتوفى القشيرى فى نيسابور سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بها الى جوار شيخه أبى على الدقاق .

وللقشيرى مؤلفات كثيرة الا أن أشهرها رسالته هذه المعروفة بالرسالة القشيرية ، والتى كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام سنة سبع وثلاثين وأربعمائة(٦) ، وبين فيها جانبين :

الأول : سيرة رجال الصوفية وبعض أقوالهم .

والثانى : مبادىء السلوك ومناهجه .

يقول :

« وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم

---

(١) « الرسالة » (انظر مقدمة الناشر ص ١٣) .
(٢) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .
(٣) « السابق » ص ١٠٦ .
(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
(٥) « السابق » (انظر : مقدمة زوكوفسكى) .
(٦) « الرسالة » جـ ١ ص ١٨ .

ومعاملاتهم . وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم »(١) .

وقد أفاد القشيرى من كتابى « اللمع » و « طبقات الصوفية » وجمع فى رسالته بين موضوعيهما ، وتعد الرسالة من المراجع العربية المهمة فى التصوف . وهى تعتبر قيمة جدا كمجموعة من الأمثلة والحكايات والتعريفات ، ولكنها تتبع طريقة شكلية(٢) ، فالمؤلف لا يكاد يظهر رأيه فيها الا فى القليل النادر ع وتلك ظاهرة تتسم بها مدرسة نيسابور التى تنتمى اليها الكتب الثلاثة : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة .

والرسالة ترجمت الى الفارسية مرتين :

المرة الأولى : ترجمها فى زمن قريب من وفاة مؤلفها ، واحد من تلاميذه يدعى : « خواجه امام أبو على بن أحمد العثمانى ، وهى ترجمة سقيمة اذا قورنت بالأصل ، وفيها كثير من الأخطاء ، كما أن المترجم حذف منها أشياء كثيرة ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة فى مكتبة : « أيا صوفية » تحت رقم ٢٠٧٧ ، ونسخة أخرى فى المتحف البريطانى(٣) ..

والمرة الثانية : نظرا للأخطاء المشار اليها فى الترجمة الأولى ، فقد كانت الحاجة تستدعى اصلاح هذه الترجمة ، وتم هذا العمل على يد « أبى الفتوح عبد الرحمن بن محمد النيسابورى » بمدينة كرمان بعد عام ٥٥٠ هـ ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة المصححة فى مكتبة : « لالا اسماعيل » تحت رقم ١٢٠(٤) ..

وقد طبعت الرسالة فى القاهرة عدة مرات ، كان آخرها الطبعة المحققة والمفهرسة التى قام بها « عبد الحليم محمود » و « محمود بن الشريف »

---

(١) « الرسالة » ص ٢٢ .
(٢) « نيكولسون » (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .
(٣) « تاريخ أدبيات » صفا ج ٢ ص ٨٨٩ .
(٤) « جاء فى مقدمة هذه النسخة أن القشيرى كان يريد أن يعد كتابة الرسالةبالفارسية ولكنه لم يفعل ، وقام بهذا العمل تلميذه أبو على العثمانى ، ولكن هذه الترجمة سقيمة ولذا قام باصلاحها أبو الفتوح النيسابورى تلبية لطلب شيخ الشيوخ أحمد ابن ابراهيم بارسا » .
(انظر : صفا ج ٢ ص ٨٨٩) .

ونشرت فى القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م وتقع فى جزئين . وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

كتب التصوف بعد كشف المحجوب :

بالنسبة للكتب الصوفية المؤلفة بعد كشف المحجوب ، سنقصر حديثنا على الكتب الفارسية القريبة الى عهده ، والكتب التى تأثرت به ونقلت عنه ، مثل أسرار التوحيد وتذكرة الأولياء ونفحات الانس .

ويجدر بنا فى هذا الموضع أن نشير الى أنه توجد عشرات المؤلفات الصوفية المنظومة بعد كشف المحجوب ، مثل منظومات : « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى » وغيرهم ، الا أنه من العسير أن نقارن بين هذه المنظومات وبين كشف المحجوب لاختلاف وسيلتى التعبير ، من ناحية ، وآن الشعراء منهجهم الخاص فى ناول المسائل الصوفية .

ونعرف الآن بهذه الكتب .

أولا : كتاب « أسرار التوحيد » .

أسرار التوحيد هو أقرب الكتب الصوفية عهدا الى كشف المحجوب ، فهو من مؤلفات القرن السادس الهجرى . ومؤلفه واحد من أحفاد الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير يدعى : محمد بن المنور بن أبى سعيد بن ابى طاهر ابن أبى سعيد بن أبى الخير(١) .

وتاريخ تأليف أسرار التوحيد مختلف فيه ، الا أنه من المرجح أنه مؤلف حوالى سنة ٥٧٤ هـ(٢) .

وأسرار التوحيد مقسم الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول: فى بداية حياة الشيخ أبىسعيد ، ويشتمل على ذكر أحواله فى طفولته وشبابه ، والعلوم التى حصلها ، والرياضات التى قام بها ، وتفاصيل حياته حتى بلوغه سن الأربعين .

---

(١) « أسرار التوحيد » (انظر مقدمة ذبيح الله صفا) .
« ديوان أبو سعيد أبو الخير » .

(٢) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » ص ١ ، « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : مقدمة المترجم ص ٥ — ٦ .

الباب الثانى : فى أواسط حياة الشيخ أبى سعيد ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ .

الفصل الثانى : فى الحكايات المتضمنة للفوائد ، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والأقوال .

الفصل الثالث : فى بعض فوائد انفاس الشيخ ، وبعض الرسائل والأشعار التى جرت على لسانه .

الباب الثالث : فى انتهاء حياة الشيخ ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى وصاياه عند وفاته .

الفصل الثانى : فى وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : فى كراماته التى جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار اليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة .

و « أسرار التوحيد » أول كتاب مفصل ألف فى شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار ، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية لمؤلف قائم بذاته، موضوعه حياة واحد من الصوفية . وقد أعطيت فى الكتاب صورة لأبى سعيد وسط دائرة الصوفية والدراويش الذين عاش معهم فى تفاصيل واسعة ، ولذا يعد أسرار التوحيد من أوضح الكتب التى صورت لنا حياة الدراويش فى القرن الخامس الهجرى .

ويشتمل أسرار التوحيد على معلومات قيمة عن الرسوم والعادات والتقاليد الصوفية ، الى جانب كثير من المفاهيم الحقيقية لبعض مصطلحات تلك الفئة ، كما أنه يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته ، والشروط التى ينبغى توفرها فى الشيخ والمريد(١) . وطريقة تأديب الشيخ لمريديه ، ونوع العلاقة بينهما ، ونظام الحياة فى الخانقاهات(٢) .

---

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : ص ٣٦٠ — ٣٦١ .
(٢) « السابق » انظر ص ٣٦١ — ٣٦٣ .

وكتاب أسرار التوحيد طبع أكثر من مرة ، ومن بين طبعاته الطبعة التى نشرها ذبيح الله صفا فى طهران عام ١٣٣٢ هـ. ش. ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها .

وقد ترجمت أسرار التوحيد الى العربيــة ونشرت الترجمة فى القاهرة عام ١٩٦٦ م .

ثانيا : « تذكرة الاولياء » :

مؤلف هذا الكتاب هو « أبو طالب » محمد بن أبى بكر ابراهيم الملقب بفــريد الدين ، والمعروف بالعطار : من رجال القــرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع ، والمتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

والعطار واحد من ثلاثة من كبار الشعراء الصوفية فى ايران وهم : السنائى والعطار وجلال الدين الرومى .

وكان العطار يشتغل بالطب ويملك صيدلية يطب فيها الناس ، ويعمل فى الوقت نفسه فى تأليف الكتب ونظم الأشعار . وله مؤلفات كثيرة ، ذكر بعضهم أن عددها مساو لعدد سور القرآن(١) ، وان كان المعروف منهــا يقرب من ثلاثين مؤلفا ، كلها منظومة باستثناء تذكرة الأولياء .

وتذكرة الأولياء ، كما يدل عليه اسمه : كتاب فى تراجم الأولياء والصوفية وشيوخ الطريقة . ومعظم نسخه تشتمل على اثنتين وسبعين ترجمة(٢) ، وان كان هناك من يرفع هذا الرقم الى سبع وتسعين(٣) .

ويعتبر كتاب تذكرة الأولياء أقدم مؤلف فى التراجم باللغة الفارسية ، فبالرغم من وجود عدد كبير من الكتب العربية المؤلفة فى هذا الموضوع ، مثل : طبقات الصــوفية ، وحلية الأولياء ، ومناقب الأبرار ، وصـــفوة الصفوة ، الا أنه لم تكن هناك مؤلفاتمن هذا النوعقبل تذكرة الأولياء ، باستثناء الجزء الخاص بالتراجم فى كشف المحجوب ، والترجمة الفارسية لطبقات الصوفية .

---

(١) « تذكرة الاولياء » ج ١ (انظر مقدمة القزوينى ص أ) .
(٢) « السابق » (انظر مقدمة نيكولسون ص ٧) .
(٣) « فريد الدين وكتابه منطق الطير » أحمد ناجى القيسى ص ٢٨٥ .

وقد اعتمد العطار فى تذكرة الأوليــاء على كثير من الأصــول العربية السابقة عليه ، وصرح هو نفسه بأنها تمثل الجزء الأكبر من المؤلف الذى عمله ، وان كان لايذكر أسماء هذه الكتب فى المواضع التى ينقل فيها عنها.

وأفاد العطار أيضا من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد ، فهو ينقل عنهما كثيرا دون أن يشير اليهما(١) .

وتذكرة الأولياء طبع فى الهند ، وطبعه المستشرق الانجليزى نيكولسون فى ليدن ســنة ١٣٢٢ هـ ـــ ١٩٠٥ م ، فى مجلدين ، وهى الطبعــة التى اعتمدنا عليها .

ثالثا : نفحات الأنس :

كتاب نفحات الأانس مؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، فقد ذكر مؤلفه انه أتمه سنة ٨٨٣هـ(٢) . ومؤلف هذا الكتاب هو: « نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين أحمد بن محمــد الدشتى » : كان من الأدباء والشــعراء والعلماء والصوفية ، وزعيما لطائفة النقشبندية ، فهو مريد الشيخ سعد الدين الكاشغرى تلميذ الشيخ بهاء الدين النقشبندى(٣) . وتنتهى سلسلة شيوخ الجامى الى «خواجه» عبيدالله أحرار منكبار شيوخ النقشبندية .

وللجامى انتاج ضخم من الشعر والنثر ، ومؤلفاته تبلغ أربعة وأربعين مؤلفــا ، بعــدد لفظ « جــام »(٤) . وقــد ألف جامى باللغتين العــربية والفارسية(٥) .

ويعتبر نفحات الانس أهم مؤلفات الجامى ، بل أن دارا شــكوه يعده بمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات(٦) .

ونفحات الأنس : كما يبدو من مقدمة مؤلفه ، يعتمد أساسا على طبقات الصوفية للسلمى المؤلف باللغة العربية ، والذى نقله شيخ الاسلام عبدالله

---

(١) « سبك شناس » جـ ٢ ص ٢٠٩ وما بعدها . (انظر المقارنة التى عقدها « بهار » بين تذكرة الاولياء وكل من أسرار التوحيد وكشف المحجوب) .
(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .
(٣) « طرائق الحقائق » جـ ٢ ص ١٥٨ .
(٤) « سفينة الاولياء » ص ٨٣ .
(٥) بلغ عدد مؤلفات الجامى الموجودة بدار الكتب المصرية ٤٥ كتابا ورسالة فارسية، وسبع كتب عربية (انظر فهرست مؤلفات نــور الدين عبد الرحمن الجامى : اعداد نصر الله الطرازى) .
(٦) « سفينة الاولياء » ص ٨٣ .

الأنصارى الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة . وقد راودت الجامى فكرة نقل هذا الكتاب ، من اللهجة الهروية الى الفارسية البسيطة المتعارف عليها فى عصره ، عدة مرات ، الا أن بعض الموانع كانت تعوقه عن اتمام هذه الرغبة . وفى سنة ٨٨١ هـ طلب منه الأمير « عليشير » القيام بهذا العمل(١) ، فشرع فيه وأتمه سنة ٨٨٣ هـ(٢) .

ويشتمل نفحات الانس على مقدمة قصيرة للمؤلف ، وتسع مقولات فى الأصول الصوفية ، وتراجم لشيوخ الصوفية تتجاوز الستمائة ترجمة . .

ومع ما يحتله كتاب نفحات الانس من مكانة كبيرة بين كتب التصوف الفارسية ، الا أن مؤلفه اعتمد على مجهودات غيره . فبالاضافة الى ترجمة الأنصارى لطبقات الصوفية ، نقل الجامى عن كشف المحجوب وأسرار التوحيد جزءا كبيرا من مادته ،ويبدو ذلك جليا فى تراجم معاصرى الهجويرى وأبى سعيد بن أبى الخير . وقد صرح الجامى نفسه فى مقدمة النفحات أنه أحيا فى كتابه معلومات السابقين . .

فهو يقول ماترجمته : « وانى آمل من مكارم أخلاق القراء عندما تطيب أوقاتهم بين الأنفاس الطيبة لأولياء الله ، وفيض أرواحهم المقدسة ، أن لا ينسوا باعث هذه المجموعة ومؤلفها ، وأن يدعو له بالخير(٣) .

وكتاب « نفحات الأنس » طبع فى الهند على الحجر عدة مرات ، وتم طبعه حديثا لأول مرة فى طهران عام ١٣٣٦ هـ ش . وهى الطبعة التى قام بها « مهدى توحيدى بور » وقد اعتمدنا على هذه الطبعة . .

---

(١) « نفحات الانس » ص ٤ .
(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .
(٣) « السابق » ص ٥ .

الفصل الخامس

مظاهر التأثير والتأثر

أولا : بين اللمع وكشف المحجوب :

ذكرنا من قبل أن كشف المحجوب واللمع متشابهان فى الخطة العامة ، مما يدل على أن بعض تفاصيل الكتاب الأول مستمدة من الثانى .

ومن الغريب أنه على الرغم من تصريح الهجويرى فى موضع من كتابه بأنه ينقل عن السراج ، وذكره لاسمه واسم كتابه ، واستشهاده برأيه ، ونقله لنص عبارته(١) ، وايراده أيضا حكاية عن السراج فى كشف المحجوب(٢) الا أنه أغفله تماما فى الجزء الخاص بالتراجم ، فلا توجد للسراج ترجمة ضمن تراجم الشيوخ التى أوردها الهجويرى فى كتابه ، فى الوقت الذى أفرد فيه كل من « العطار »(٣) و « الجامى »(٤) مكانا للسراج فىكتابيهما ، وان كان ما ذكراه عنه لا يتعدى تلك الاشارات الواردة فى كشف المحجوب .

ويبدو من الدراسة الواسعة لكتابى اللمع وكشف المحجوب أن الهجويرى اعتمد على اللمع اعتمادا واضحا ، ونقل عن السراج كثيرا من مواده ، وان كان لا يصرح بأنه ينقل عنه .

ونضرب لذلك مثلا موضوع السماع ، فقد أفرد له كل منهما جزءا كبيرا من كتابه ، وأطلق السراج على هذا الجـــزء اسم : « كتاب السماع »(٥) ، وسماه الهجويرى : « كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع »(٦) .

ويبدو من الجدول التالى التشابه الكبير فى المـــادة التى وردت فى الكتابين ، مما يوضح أن الهجويرى نقل عن السراج .

---

(١) كشف المحجوب : أنظر ص ٤٤٤ .
(٢) « السابق » أنظر ص ٤١٧ .
(٣) « تذكرة الاولياء » جـ ٢ ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٤) « نفحات الانس » أنظر ص ٢٨٣ .
(٥) « اللمع » أنظر ص ٣٣٨ وما بعدها .
(٦) « كشف المحجوب » أنظر ص ٥٠٨ وما بعدها .

أولا ـــ من حيث التقسيم :

قسم السراج « كتاب السماع » الى الأبواب التالية :	وقسم الهجويرى « كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع » الى الأبواب التالية :
١ ـــ باب فى حسن الصوت والسماع وتفاوت المستمعين	١ ـــ باب سماع القرآن .
٢ ـــ باب فى السماع واختلاف أقاويلهم فى معناه .	٢ ـــ باب سماع الشعر .
٣ ـــ باب فى وصف سماع العامة	٣ ـــ باب سماع الأصوات والألحان .
٤ ـــ باب فى وصف سماع الخاصة	٤ ـــ باب أحكام السماع .
٥ ـــ باب فى ذكر طبقات المستمعين	٥ ـــ باب اختلافهم فى السماع .
٦ ـــ باب فى ذكر من اختار سماع القصائد والأبيات من الشعر	٦ ـــ باب مراتبهم فىحقيقة السماع
٧ ـــ باب فى وصف سماع المريدين والمبتدئين .	٧ ـــ باب الوجد والتواجد .
٨ ـــ باب فى وصف المشايخ فى السماع	٨ ـــ باب الرقص .
٩ ـــ باب فى وصف خواص الخواص فى السماع .	٩ ـــ باب الخرق .
١٠ـــ باب فى سماع الذكر والمواعظ والحكمة .	١٠ـــ باب آداب السماع .
١١ـــ باب فيمن كره السماع والذى كره الحضور فىالمواضع التى يقرءون فيها القرآن بالألحان ويقولون القصائد ويتواجدون ويرقصون .	

ثانيا : من حيث الآراء والعبارات واقوال المشايخ والقصص والاستشهادات :

١ ــ يبدو تأثر الهجويرى بالسراج ونقله عنه فيما يلى :

« اللمع »	« كشف المحجوب »
ص ٣٥٢ : واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقول النبى صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضى الله عنه : اقرأ ، فقال : أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال : أنا أحب أن أسمع من غيرى . وقوله عليه السلام : شيبتنى سورة هود وأخواتها . ص ٣٥٣ وأن النبى صلى الله عليه وسلم مر على عصابة من أهل الصفة يستر بعضهم بعضا من العرى وقارىء يقرأ لهم .	ص ٥٢٠ : قوله عليه السلام : « زينوا أصواتكم بالقرآن . ص ٥١٥ : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود اقرأ : فقال أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحب أن أسمع من غيرى .. ونيز كفت بيغمبر عم شيبتنى سورة هود . روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وان بعضهم يستر بعضا من العرى وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا فلما رآه القارىء سكت . قال : فسلم ، وقال : ماذا كنتم تصنعون .. الخ .
ص ٣٤٢ : قال الشيخ رحمه الله : بلغنى أنه سئل ذو النون ، رحمه الله ، عن السماع ، فقال : وارد حق يزعج القلوب الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بنفس تزندق .	ص ٥٢٧ : ذو النون كويد رح: السماع وارد الحق ، مزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفس تزندق . سماع وارد حقست كى دلها بدو بر انكيزد وبر طلب وى حريص كند . هركه آنرا بحق شنود بحق راه يابد ، وهركه بنفس شنود اندر زندقة افتد .

((اللمع))

وسئل الشبلى رحمه الله ، كما بلغنى ، عن السماع فقال : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية .

ص ٣٤٣ :

وسمعت الحصرى ، رحمه الله ، يقول فى بعض كلامه : ايش أعمل بالسماع ؟ ينقطع اذا انقطع من يسمع منه ، ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع .

ص ٣٤٠ :

ومن اللطيفة التى جعل الله فى الأصوات الطيبة أن الطفل فى المهد يبكى لوجود ألم ، فيسمع الصوت الطيب فيسكت وينام .

ص ٣٥٨ :

سمعت الدقى يقول : سمعت الدراج يقول : كنت أنا وابن الفوطى مارين على الدجلة بين البصرة والأبله واذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

((كشف المحجوب))

ص ٥٢٨ :

وشبلى كويد رض : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية ، ظاهر سماع فتنه است وباطنش عبرتست آنكه أهل أشارتست مراورا سماععبرت حلال باشد والا آن ديكر طلب فتنه است وتعلق ببلا .

ص ٥٢٩ :

وحصرى كويد رح : ايش اعمل بالسماع ينقطع اذا انقطع من نسمع منه . ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع . جكنم سماع راكى جون قارى خاموش شود آن منقطع شود . باید که سماع بسماع متصل باشد بيوسته كه هركز بريده نكردد .

ص ٥٢٣ :

ولنفر كودكان خرد اين حكم ظاهرست كى جون بكريند اندر كاهواره كسى نوائى بزند خاموش شوند ومر آنرا بشنوند .

ص ٥٣٣ :

دقى روايت كند ازدراج كه أوكفت : من با ابن الفوطى بر لب دجله ميرفتيم ، ميان بصره وابله بكوشكى فرا رسيديم ، نيك مردى بر آن در نشسته بود وكينزكى بدان در نشسته كه ويرامى غنا كرد وميكفت :

« اللمــع »

كل يــوم تتــلون
غير هذا بك أجمــل
فى ســبيل الله ود
كان منى لك يبــذل

قال : واذا شاب تحت المنظــر بيده ركوة وعليه مرقعة يتسمع ، فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك الا أعدت على هذا البيت . قال : فأقبلت الجارية عليه وهى تقول :

كل يوم تتــــلون
غير هذا بك أجمــل

وكان الشــاب يقول : هذا والله تلونى مع الحق فى حالى ، قال فشهق شهقة وحمد ، فتأملناه فاذا هو ميت، قال : فقلنا : قد استقبلنا فرض ، فوقفنــا ، فقــال صــاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى، قال ثم خــرج أهل البصرة وصلوا عليه ، فلمــا فرغوا من دفنه قام صاحب القصر وقال : أليس تعرفونى ؟ أنا فلان ابن فلان أشهدكم أن كل شىء لى فى سبيل الله تعالى ، وكل جوارى أحرار ، وهذا القصر للسبيل، قال : ثم رمى بثيابه واتزر بازار ، وارتدى بالآخــر ، ومر على وجهه والناس ينظرون اليه حتى غاب عن أعينهم وهم يبكون ، فما رآه أحد بعد ذلك ولا سمع له خبر .

ص ٣٥٨ :

قال الشيخ رحمه الله : سمعت أبا عمــرو وعبــد الواحــد بن علوان بالرحبة ، رحبة مالك بن طوق ، قال: كان شاب يصحب الجنيد رحمه الله فكان اذا ســمع شــيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى ،

« كشف المحجوب »

فى سبيل الله ود
كان منى لك يبــذل
كل يــوم تتــلون
غير هذا بك أجمــل

وجوانى را ديدم اندر زير ديوار كوشك ايستاده بامرقعــه وركوه ، كفت : اى كنيزك بخداى تو برتوكه اين بيت بازكوى كى از زندكانى من يك نفس بيش نمانده است تا بارى جان باســتماع اين بيت برآيد . كنيزك ديــكرباره بازكفــت ، آن جوان نعــره بزد ، جــان ازوى جــدا شد ، خداوند كوشــك مر كنيزك راكفت كى تو آزادى وخود فرود آمد وبجهاز وى مشغول شد ، وهمه أهل بصره بروى نماز كردند. بس آن مــرد بر باى خاســت وكفت : يا أهل بصره من كه فلان بن فلانم همه املاك خود سبيل كردم ومماليك آزاد كردم . هم از آنجــا برفت وكسى خبر آن مرد نيافت .

ص ٥٣٢ :

معروفست كه جنيــد را مريدى بوده است كى اندر سماع اضطراب بســيار كردى ، ودرويشان بدان مشغول شدندى ، بيش شيخ رض شكايت كردند ، ويراكفت : بعد ازين اكراندر سماع اضطراب كنى نيز من باتو صحبت نكنم . أبو محمد جريرى

« اللمــع »

قال : فربما كان الجنيد يتكلم رحمه الله فى شىء من العــلم ، فيتغير ، ويضـبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطـــرة من المـــاء . وحكى لى أبو عمرو أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه .

باب فيمن كره السماع ص ٣٧٢ :

فقد كره ذلك من جهات شتى .

❋ فقــوم كرهوا ذلك لأخبـــار رويت عن بعض الأئمة المتقــدمين والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك ، فكره من كره ذلك اقتداء بهم ومتابعة لهم ، اذ كانوا هم الأئمة فى أحكام الدين والمقـــدمين فى عصرهم على جماعة المسلمين .

❋ وقوم كرهوا ذلك للمـــريدين والقاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر ان اســـتلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحل عنـــد ذلك عقودهم وتنفســـخ عزيمتهـــم ويركنوا الى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة ويقعوا فى البلية .

❋ وطائفة أخــــرى كرهت ذلك وزعمت أن الذى يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من أحـــد وجهين : اما هم قوم متلهون من أهل

« كشف المحجوب »

كويد : در سماعى من اندروى نكاه ميكردم لب برهم نهاده بود وخاموش مى بود تا ازهر موئى از اندام مى جشمه بكشاد تاهوش از وى بشد ويك روز بيهوش بود . بس من ندانم تا وى انـــدر ســـماع درستر بود يا حرمت بير بر دلش قويتر .

« باب فى مراتبهم فى حقيقة السماع » ص ٥٣٥ :

كروهى از مشايخ خواندن قرآن بالحان وشنيدن قصايد وأشعار را جنانك حروف از حد آن تجاوز كرده است كراهيت داشته اند . وخود برهيز كرده واندر آن غلو نمود ، وايشان جند كروهند ، وهريكى را اندر آن علتى ديكرست .

❋ كروهى از آن آنند كه اندر تحريم آن روايات يافته اند واندر آن متابع سلف صالح شده ، وبدان تقليد كرده .

❋ ص ٥٣٧ :

وكـــروهى ديكرند كه از خـــوف وخطر مريدان كه اندر بلا وبطالت نيفتند ، وبديشان تقليد نكنند ، واز سر توبه باسر معصيت بازنيايند ، وهوا اندرايشان قوت نكيرد،وهوس مر عزيمت صلاح ايشان را فسخ نكند كه معرض بلا ومايه فتنة است سماع بردو فرقت اند يكى لاهىوديكر نه نشستند .

❋ كروهى ديكر كفتنـــد كه أهل سماع بردو فرقت انديكى لاهىوديكر الهى، لاهى درعين فتنه باشد وازان نترسد ، والهى برياضات ومجاهدات

« اللمــع »

الدعابة والفتنة أو هم قوم وصلوا الىالأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيـــا وراء ظهورهم وانقطعوا الى الله عز وجل فى جميع معانيهم ، قالوا : ولسنا من هـــؤلاء ولا من هؤلاء فـــلا معنى لاشتغالنا بذلك وترك ذلك أولى بنا .

ص ٣٧٣ :

❋ وكرهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف مقاصد القوم فيمـــا يسمعون فربمـــا غلطوا فى مقاصــــدهم وزلقوا ، فكـــرهوا ذلك شفقة على العامة وصيانة للخاصة وغيرة على الوقت الذى اذا فات لا يدرك .

ص ٣٧٣ :

وطائفة أخرى كرهت ذلك لقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أنه قال : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » فقالوا : هذا مالا يعنينا ، لأنا ما أمرنا بذلك ، وليس هو من زاد القبر ، ولا مما يطلب به النجاة فى الآخرة .

« كشف المحجوب »

وبانقطاع دل از مخلوقات واعراض سر از مكنونات فتنة از خود دور كرده باشد ، واز ان ايمن شده . جون ما نه ازين كروه باشيمنه ازان ترك آن مارا بهتر ومشغول شدن بجيزى كه موافق ماست أوليتر .

ص ٥٣٨ :

وكروهى ديكر كفتند : جون عوام اندر سماع فتنة است واز شنيدن ما اعتقاد مردمان مشوش ميشود واز درجت ما اندر ان محجـــوبند وبما مى بزه كار شوند بس برعامه شفقت كنيم ، ومر خاص را نصيحت كنيم ، وبر وقت غيرت دست ازان بداريم .

ص ٥٣٨ :

وكروهى كفته اند كه بيغمبر عم كفت : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » . دست از جيزى بداريم كه ازان كريز از انج بما لا يعنى مشغول شدن تضييع وقت باشد ، ووقت دوســـتان بادوستان عـــزيز باشد ، ضايع نبايد كرد .

❋ ❋ ❋

ثانيا ـ بين الرسالة وكشف المحجوب :

صرح الهجويرى فى ترجمته لمعروف الكرخى بأنه اقتفى أثر السلمى والقشيرى فى اثباته لترجمة معروف فى مكانها(١) . ولا شك أن هذه الاشارة تبين لنا أن الهجويرى اطلع على الرسالة القشيرية ، واهتدى بترتيبها فى هذا الموضع .

وقد ترجم الهجويرى للقشيرى فى كتابه ضمن عشرة من شيوخ الصوفية المتأخرين المعروفين على عهده من بينهم أساتذته وشيوخه . ويبدو من هذه الترجمة مدى التقدير والاحترام الذى كان يكنه الهجويرى للقشيرى(٢) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم يصرح بأنه نقل بعض مواده عن الرسالة، الا أن المتفحص لكتابى كشف المحجوب والرسالة يلمس مدى ما أفاده الهجويرى من رسالة القشيرى ، فهو فى بعض المواضع ينقل عنه عين عباراته ، وهوفى مواضع أخرى يهتدى بأمثلته وينقل عنه قصصا بعينها استشهد القشيرى بها فى موضعها . كما ينقل عنه أيضا كثيرا من أقوال الشيوخ ورموزهم بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، وان كان يزيد على هذه الأقوال ، فى كثير من الأحيان ، شرحا من عنده ، أو يبدى رأيه فيها .

كذلك بدا تأثر الهجويرى بالرسالة واضحا من المنهج العام للكتاب ، فقد ضمت الرسالة ، الى جانب الأصول الصوفية ، مجموعة كبيرة من تراجم شيوخ الصوفية جاءت على هيئة تذكرة داخل الكتاب ، وقد حذا الهجويرى حذو القشيرى فضمن كشف المحجوب سبعة أبواب فى تراجم الأئمة من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين وشيوخ الصوفية السابقين لعصره والمعاصرين له . ونورد هنا مثلا من أمثلة كثيرة يبين مدى افادة الهجويرى من الرسالة :

---

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

ص ٥٨١ :

« باب التوحيد »

قال الله عز وجل : « والهكم اله واحـــد » .

أخبرنا الامام أبو بكر بن الحسن ابن فورك ، قال : حدثنا أحمد بن محمود ... الخ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لأهله : اذا مت فاحـــرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذروا نصفى فى البر ونصفى فى البحـــر فى يوم ريح . ففعلوا .. فقال الله عز وجل للريح أدى ما أخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال :
استحياء منك . فغفر له » .

التوحيـــد : هو الحكم بأن الله واحد ، والعلم بأن الشىء واحد أيضا توحيـــد .

ص ٥٨٢ : والتوحيد ثلاثة :

توحيد الحق للحق : وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد .

والثانى : توحيد الحق ، سبحانه، للخلق : وهو حكمه ، سبحانه ، بأن العبد موحد ، وخلقه توحيد العبد .

والثالث : توحيد الخلق للحق ، سبحانه ، وهو علم العبد بأن الله ، عز وجل ، واحد وحكمه واخباره عنه بأنه واحد .

ص ٣٥٦ :

« كشف الحجاب الثانى فى التوحيد »

قوله تعالى : « والهكم اله واحد » وقوله تعالى : « قل هو الله أحد » الخ ..

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيـــد فقال لأهله اذا مت فاحـــرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى نصفى فى البر ونصفى فى البحـــر فى يوم رايح ففعلوا ، فقال الله عز وجل للريح اجمعى ما أخذت فاذا هو بين يديه فقال له ما حملك على ما صنعت فقال استحياء منك فغفر له » .

ص ٣٥٧ :

وحقيقت توحيـــد حكم كردن بود بريكانكى جيزى بصحت علم بيكانكى آن ، وجـــون حق تعالى يكيست بى قسيم اندر ذات وصفات خـــود ، وبى دليل وشريك اندر افعال خود، وموحدان ويرا بدين صفت دانند ، دانش ايشـــانرا بيكانكى توحيـــد خوانند . وتوحيد سه است يكى : توحيد حق مر حق را وآن علم أو بود بيكانكى خود . وديكر : توحيد حق مر خلق را وآن حكم وى بود بتوحيد بنده وآفرينش توحيد أندر دل وى . وسديكر : توحيد خلق باشد مر حق را وآن علم ايشان بوحدانية خداى عز وجل .

وقد أورد القشيرى مجموعة من أقوال الشيوخ فى معنى التوحيد(١) فنقل الهجويرى معظمها فى فصل خصصه لرموز المشايخ فى التوحيد ، واتبع كل قول بشرح من عنده .

ثالثا : بين طبقات الصوفية وكشف المحجوب :

اعتمد الهجويرى فى القسم الحادى عشر من كشف المحجوب على كتاب طبقات الصوفية وصرح هو نفسه بذلك عند ترجمته لمعروف الكرخى ، فذكر أنه ترجم له فى الموضع الذى أورد ذكره فيه ، موافقة لما فعله أبو عبد الرحمن السلمى فى كتابه(٢) .

والهجويرى أورد فى القسم الحادى عشر أربعا وستين ترجمة(٣) ،منهما :

ثلاث تراجم للأئمة : « أبو حنيفة النعمان » و « ومحمد بن ادريس الشافعى » و « أحمد بن حنبل » .

وسبع تراجم لشيوخ من الصوفية هم : حبيب العجمى ، مالك بن دينار ، حبيب بن سليم الراعى ، أبو حازم المدنى ، محمد بن واسع ، عبد الله ابن المبارك المروزى ، داود بن نصير الطائى . وهؤلاء لم يترجم لهم السلمى فى طبقات الصوفية .

أما التراجم الأربع والخمسون فهى لشيوخ وردت لهم تراجم فى كتاب طبقات الصوفية ، منهم :

عشرون : من شيوخ الطبقة الأولى .

ثمانية عشر : من شيوخ الطبقة الثانية .

ثمانية : من شيوخ الطبقة الثالثة .

شيخان : من شيوخ الطبقة الرابعة .

ستة : من شيوخ الطبقة الخامسة(٤) .

وقد اعتمد الهجويرى فى تعريفه بهذه المجموعة من الشيوخ على بعض ما ورد عنهم فى كتاب طبقات الصوفية ، فهو يضبط أسماءهم وكنياتهم كما

---

(١) قابل بين « الرسالة » ج ٢ ص ٥٨٢ — ٥٨٨ وكشف المحجوب ص ٣٦٠ — ٣٦٧ .
(٢) كشف المحجوب ص ١٤١ : الاصل الفارسى ، ص من الدراسة .
(٣) أنظر : ص
(٤) طابق بين فهرس أسماء شيوخ الطبقات الخمس فى طبقات الصوفية وأسماء الشيوخ فى الباب الحادى عشر من كشف المحجوب ص

جاءت فى هذا الكتاب ، ويذكر فى التعريف بهم نبذا مما ورد عنهم فيه . ويضيف فى تراجم بعض الشيوخ رواية أو حكاية تواترت عنهم ، وهو غالبا ما ينقلها عن مجموعة الروايات التى جمعها شيخه أبو الفضل الختلى ، أو مجموعة الحكايات التى يشير اليهـا باسم : الحكايات أو حـكايات العراقيين . ثم يذكر قولا باللغة العربية من الأقوال التى وردت عن صاحب الترجمة فى كتاب طبقات الصوفية ، ويتبعه بترجمة فارسية ، وشرح للمعنى الصوفى الذى ينطوى عليه .

كذلك يستخدم الهجويرى كثيرا من الأقوال التى وردت عن الشـيوخ فى طبقات الصوفية عند مناقشته للموضوعات التى يتعرض لها فى كتابه ، فهو يلحق بكل باب فصلا فى أقوال الشيوخ ورموزهم فى الموضوع الذى يتحدث عنه . ومعظم هذه الأقوال مما أثر عن هؤلاء الشيوخ وورد ذكره فى كتاب طبقات الصوفية .

وفيما يلى مثل للتطابق بين كشف المحجوب وطبقـات الصوفية(١) ، اخترته عفوا .

---

(١) أثبت فى حواشى الترجمة الاقوال التى ورد ذكرها فى طبقات الصوفية .

طبقات الصوفية

ص ٩١ :

ومنهم حاتم الأصم ، وهو حاتم ابن عنوان ويقال : حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن .

وهو من قدماء مشايخ خراسان ، ومن أهل بلخ .

صحب شقيق بن ابراهيم . وكان استاذ أحمد بن خضرويه .

ص ٩٦ :

قال حاتم : الشهوة ثلاثة :

شهوة فى الأكل ، وشهوة فى الكلام وشهوة فى النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة .

ص ١٩٢ :

شاه الكرمانى : ومنهم شاه الكرمانى ، وهو شاه بن شجاع ، أبو الفوارس . كان من أولاد الملوك

صحب أبا تراب النخشبى . وكان من اجلة الفتيان وعلماء هذه الطريقة وله رسالات مشهورة والمثلثة التى سماها مرآة الحكماء .

سمعت أبا الحسن الفارسى يقول ... سمعت ... يقول : سمعت شاه بن شجاعيقول : « لأهل الفضل فضل ما لم يروه ، فاذا رأوه فلا فضل لهم . ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم .

كشف المحجوب

ص ١٤٢ :

ومنهم زين عباد وجمال أوتاد أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم رض .

از محتشمان بلخ بود ، واز قدماء مشايخ خراسان .

مريد شقيق بود ، واستاد أحمد خضرويه .

از وى مى آيد كه كفت : الشهوات ثلاث شهوة فى الأكل وشهوة فى الكلام وشهوة فى النظر فاحفظ الأكل بالثقة واللسان بالصدق والنظر بالعبرة .

ص ١٧٤ :

ومنهم شاه شيوخ ، وتغير از روزكار او منسوخ أبو الفوارس شاه ابن شجاع الكرمانى از ابناء ملوك بود .

صحبت أبو تراب نخشبى يافته بود . ويرا رسالات مشهور اندر تصوف وكتابى كردست كه انرا مرآة الحكما خوانند .

اورا كلام عاليست . از وى مى آيد كه كفت : « لأهل الفضل فضل ما لم يروه فاذا رأوه فلا فضل لهم . ولأهل الولاية ولاية مالم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم » .

رابعا : بين كشف المحجوب وتذكرة الأولياء :

أفاد العطار على نطاق واسع من كتاب كشف المحجوب ، وهو كثيرا ما ينقل عنه عين عباراته ، أو يذكرها مع قليل من التصرف ينحصر فى استبدال بعض الكلمات والأفعال القديمة بأخرى حديثة ، وان كان لايشير الى الكتاب أو مؤلفه فى المواضع التى ينقل فيها عن كشف المحجوب ، باستثناء موضعين ذكر فيهما اسم الهجويرى(١) .

ومما لاشك فيه أن العطار فى تراجمه لشيوخ الصوفية يسلك مسلك التفصيل ، حتى أن كثيرا من تراجمه تستغرق الواحدة منها عددا غير قليل من الصفحات ، وهو يعتمد فى هذا على ما ورد فى كتب التراجم العربية ، الا أنه يعتمد أيضا على كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد .

وبالرجوع الى الموازنة التى عقدها بهار(٢) بين تذكرة الأولياء وكشف المحجوب ، وبما أورده أيضا « محمد عباسى » فى مقدمته لكتاب كشف المحجوب(٣) . يمكن الاطلاع على نموذجين لاعتماد العطار على كشف المحجوب ، وان كان يوجد على غرارهما نماذج كثيرة ، يستطيع الدارس للكتابين أن يلمسهما فى يسر .

خامسا : بين كشف المحجوب ونفحات الانس :

ذكرنا من قبل أن نفحات الأنس يقوم أساسا على الترجمة الفارسية لكتاب طبقات الصوفية التى قام بها الشيخ عبد الله الأنصارى ، وأن الجامى قدم لكتابه بمقدمة تشتمل على تسع مقولات فى الأصول الصوفية .

وقد اعتمد الجامى فى هذه المقولات على مجموعة من كتب التصوف المعروفة العربية والفارسية ، مثل الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، وكشف المحجوب ، والتفسير الكبير ، ودلائل النبوة ، وصرح بأنه ينقل عن هذه الكتب ، وأشار الى كل منها فى الموضع الذى ينقل فيه .

وقد نقل الجامى عن كشف المحجوب مرتين :

الأولى : فى القول فى أصناف الولاية(٤) .

---

(١) « تذكرة الاولياء » أنظر : ج ١ ص ٢٠٨ ، ج ٢ ص ٦٨

(٢) « سبك شناس » أنظر : ج ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٩

(٣) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة محمد عباسى : ص بيست ودو .

(٤) « نفحات الانس » أنظر : ص ١٩

والثانية : فى القول فى اثبات كرامات الأولياء(١) .

كما اعتمد الجامى على كشف المحجوب فى تراجم شـيوخ الهجويرى ومعاصريه وبعض السابقين عليه ، مثل ابى القاسم الجرجانى(٢) ، وأبى العباس الشقانى(٣) ، وأبى الفضل الختلى(٤) ، و « خواجه » مظفـر الكرمانى(٥) ، وابى القاسم القشيرى(٦) ، وأحمد بن حماد السرخسى(٧) ، وغيرهم ، بل ان ما ورد فى نفحات الأنس عن بعض هؤلاء لايتعدى نبذا مما ورد عنهم فى كشف المحجوب ، ويمكن التحقق من هـذا بالرجوع الى تراجمهم فى كتابى كشف المحجوب ونفحات الأنس ، فى الصفحات المشار اليها فى الحاشية .

غير أن الجامى سلك مسلك العالم الأمين ، فهو يصرح فى كل مرة ينقل فيها عن كشف المحجوب بأنه ينقل عنه ، فيقول :

« صاحب كشف المحجوب كويد » .

أى : يقول صاحب كشف المحجوب :

* * *

وقد أفاد أيضا من كشف المحجوب اثنان ممن كتبوا فى التصوف فى العصر الحديث ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسى لكشف المحجوب ، والثانى كتب باللغة العربية واعتمد على الترجمة الانجليزية للكتاب .

أما الأول فهو : « قاسم غنى » الذى اعتمد اعتمادا كبيرا فى كتابه « تاريخ تصوف در اسلام » على كشف المحجوب ، فهو ينقل عنه بمعدل صفحة من كل عشر صفحات من كتابه ، بل انه فيما يختص بفرق الصوفية ، قدم ملخصا لما ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب بخصوص هـذه الفرق ، وصرح بأنه ينقل عنه .

---

(١) « نفحات الأنس » أنظر : ص ٢٢
(٢) أنظر « كشف المحجوب » ص ٢١١ ونفحات الانس ص ٣٠٧
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ ونفحات الانس ص ٣١٤
(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ ونفحات الانس ص ٣١٥
(٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٢ ونفحات الانس ص ٣٠٨
(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ ونفحات الانس ص ٣١٣
(٧) « كشف المحجوب » ص ٢١٦ ونفحات الانس ص ٣١٧

يقول :

« هجويرى كه در أواسط قرن بنجم كتاب معروف كشــف المحجوب را تأليف كرده باب مخصوص راجع بفرق صوفية نوشته ، كه ذيلا خلاصة آن براى مزيد فايده نقل ميشود(١) .

وترجمته :

« وقد كتب الهجويرى الذى الف كتابه المعروف كشــف المحجوب فى أواسط القرن الخامس ، بابا خاصــا بالفرق الصوفية ننقــل فيما يلى خلاصة له من أجل مزيد الفائدة » .

كما أفاد قاسم غنى من كشف المحجوب فى الجزء الأخير من كتابه ، والذى جعله على هيئة قاموس للمصطلحات الصوفية(١) ، فهو فى هــذا الجزء يعتمد على تعريف الهجويرى لهذه المصطلحات .

وأما الثانى فهــو : « أبو العــلا عفيفى » الذى اعتمد فى كتــابه : « التصوف الثورة الروحية فى الاسلام » على ترجمة نيكولسون الانجليزية لكشف المحجوب ، ونقل عنها كثيرا .

---

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٤٣٨
(٢) « تاريخ تصوف در اسلام » أنظر : ص ٤٣٨ ــ ٤٥٩

الفصل السادس

القيمة العلمية للكتاب

تعرضنا فى الفصل الرابع للتعريف بمجموعة من كتب التصـــوف التى سبقت كشف المحجوب والكتب التى جاءت بعده . وبينا فى الفصل الخامس مظاهر التأثير والتأثر بينه وبين هذه الكتب . وسنحاول فى هذا الفصل أن نقيم الكتاب فى ضوء ما توفر لنا من المعلومات نتيجة لتلك الدراسة المقارنة التى عقدناها فى الفصلين السابقين ..

بالنسبة للكتب السابقة على كشف المحجوب :

رأينا أن الكتاب لم يسبق بكتب مؤلفه فى موضوعه باللغة الفارسية ، وكل ما تقدم عليه من مؤلفات صوفية كان مكتوبا باللغة العربية . ووجدنا على رأس هـــذه المؤلفات ثلاثة كتب كانت ولا تزال تعتبر من أهم الكتب المؤلفة فى التصـــوف وهى : « اللمـــع » و « طبقـــات الصـــوفية » و « الرسالة » ..

واذا أردنا أن نتعرف على قيمة كتاب كشف المحجوب ومنزلته بين هذه الكتب نراه يتميز عليها بمميزات نلخصها فيما يلى :

* **أولا :** من حيث المنهج العام والطريقة التى عالج بها المؤلف مواده :

(أ) اقتصر الكتاب الأول ، أى اللمع ، على التعرض لبحث الأصول والعقائد الصوفية . ولكن المؤلف اعتمد فى معالجته لهذه الأمور على ايراد أقوال الشيوخ المتقدمين فى الموضوع الذى يبحثه ، ولم يضف الى ذلك خبراته الشخصية ودراساته ، ولم يكن يدلى بآرائه الشخصية الا فى القليل النادر ..

(ب) اختص الكتاب الثانى ، أى طبقات الصـــوفية ، بتراجم شـــيوخ الصوفية السابقين فذكر المؤلف فيه تواريخ حياة هؤلاء الشيوخ وما ورد عنهم من حكايات ، وما أثر عنهم من أقوال وأفعـــال ،

وما سمعه بنفسه ممن عاصروه . ودوره فى هذا كله مقصور على جمع هذه المعلومات وعرضها ..

(جـ) جمع الكتاب الثالث ، أى « الرسالة » بين منهجى الكتابين السابقين ، فعالج الأصول المتعلقة بالتصوف فى قسم منه ، وتعرض فى القسم الثانى لتراجم الشيوخ ، ولكن المؤلف سلك فى معظم الأحيان مسلك الايجاز ، وكان يكتفى بذكر الحكايات والأقوال والتعريفات ، ولم يكن يشارك برأيه فى كثير من الموضوعات أو يناقش الآراء التى ينقلها عن غيره ..

ومن ناحية أخرى فان المادة التى وردت فى الرسالة تعتمد الى حد كبير على ما ورد فى كتابى اللمع وطبقات الصوفية مما يوضح لنا مدى افادة مؤلفها من سابقيه ..

واذا أتينا بعد ذلك الى كشف المحجوب ، نجد أنه من حيث المنهج العام ، يجمع بين الأصول الصوفية وتراجم الشيوخ ، فقد حذا فيه الهجويرى حذو معاصره القشيرى ، الا أنه زاد على ذلك بأنه سلك مسلك المعلم فتناول كل شىء بالايضاح والتفسير ، فحتى الجزء الخاص بالتراجم يشارك فيه الهجويرى برأيه فى المسائل التى تعرض عندما يترجم لأولئك الشيوخ .

وعلى الرغم من أن الهجويرى استقى مادة كتابه من الكتب السابقة عليه ، ونقل كثيرا من الموضوعات التى ناقشها عن اللمع والرسالة ، الا أنه لم يقف قط موقف الرواية ، فقد بدت شخصيته واضحة فى كتابه نتيجة للمنهج العلمى السليم الذى اختطه لنفسه ، والذى التزمه فى الكتاب من أوله الى آخره ، فهو عندما يتعرض لمادة من المواد يدرس عموما الآراء السائدة بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، ويفند هذه الاراء اذا اقتضى الأمر ، ثم يدلى برأيه الخاص الذى توصل اليه من خلال خبرته العلمية وتجاربه الشخصية ، فهو فى هذا معلم أكثر منه مؤرخ أو راوية . وكان من نتيجة هذا المسلك أن رأينا كثيرا من المشكل الصوفية والموضوعات الجدلية قد أضحت أقرب فهما نتيجة للايضاحات التى أضفاها الهجويرى عليها ، والتى توصل اليها عن طريق تجربته الخاصة ..

ومن هنا نرى أن كشف المحجوب يعد أكثر أهمية من رسالة القشيرى التى ترجع أهميتها الى أنها مجموعة قيمة من الأمثلة والحكايات والأقوال والتعريفات ، كما أنه يتفوق على اللمع والطبقات للسبب الذى أشرنا اليه ..

* **ثانيا** : من حيث المميزات التى انفرد بها كشف المحجوب :

انفرد كشف المحجوب بميزة ضخمة لم يسبقه اليها كتاب آخر ، وهذه الميزة تتمثل فى القسم الرابع عشر منه ، وهو الباب الخاص بفرق الصوفية، والتى قسمها مؤلفه الى اثنتى عشرة فرقة ، نسب كلا منها الى مؤسسها، وشرح المذهب الخاص بها .

يقول نيكولسون :

« ان أبرز باب فى كشف المحجوب ، هو الباب الرابع عشر الذى يتعلق بالمذاهب التى تتبعها مختلف الفرق الصوفية ، والتى عددها المؤلف باثنتى عشرة مدرسة صوفية . وبقدر ما أعلم ، فانه أول كاتب فعل ذلك(١) » .

والواقع أن الهجويرى أول من قسم الصوفية الى هذه الفرق أو المدارس ، فلم يرد فى أى من كتب التصوف السابقة على كشف المحجوب مثل اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة ، اشارة الى هذا التقسيم ، والفرقة الوحيدة التى ذكرت كفرقة متميزة لها تعاليم خاصة تزيد على ما للصوفية عامة هى فرقة « الملامتية » التى ألف عنها أبو عبد الرحمن السلمى رسالته المسماة بهذا الاسم(٢) . وقد أطلق الهجويرى على هذه الفرقة اسم : « القصارية » نسبة الى أبى حمدون القصار الزعيم الأول للملامتية .

والهجويرى فى الباب الذى خصصه فى كتابه للفرق الصوفية ، ينظر الى المجال الصوفى العام ويحاول أن يتبين المعالم البارزة فيه ، ويركز هذه المعالم حول كبار الشيوخ الذين كان لهم أتباع وتعاليم روحية اصطبغ بها تصوفهم ، وخلفت أثرها فى مجرى التصوف العام ، لذلك أفرد كل واحد من هؤلاء الشيوخ بكلمة خاصة عالج فيها أخص ما يمتاز به تصوفه وتصوف فرقته ، تاركا مختلف التفاصيل التى يشترك فيها مع غيره .

كما أنه يعرج أحيانا على المسائل التى هى موضع خلاف بين صوفى وآخر ليعرضها عرضا موضوعيا مفصلا ، ويورد أقوال الصوفية الآخرين فيها ، ويسجل رأيه الخاص فى أغلب الأحيان .

---

(١) أنظر « مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب » .
(٢) حقق أبو العلا عفيفى هذه الرسالة ونشرها فى كتابه : « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » القاهرة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

وقد وضح الهجويرى بهذا الباب تاريخ المذاهب الصوفية واتجاهاتها منذ ظهور التصوف حتى عصره . وأخذ عنه كل من جاء بعده وكتب عن الفرق والمدارس الصوفية .

وبالنسبة لكتب التصوف الفارسية التى جاءت بعد كشف المحجوب :

فقد تعرضنا فى هذا البحث لثلاثة من هذه الكتب ، تأثرت أكثر من غيرها بكشف المحجوب ، وهى : « أسرار التوحيد » و « تذكرة الأولياء » و « نفحات الأنس » .

أما الكتاب الأول ، أى أسرار التوحيد ، فقد اختص بشرح حال شيخ من شيوخ الصوفية ولا شك أنه من هذه الناحية يعد نموذجا رائعا من حيث تصويره لحياة ذلك الشيخ . وهو وان مس فى سياقه كثيرا من الأصول الصوفية ، والمسائل التى تتعلق بالتصوف ، الا أن هدفه الأساسى هو تسجيل حياة الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، وليس وضع نظام كامل للصوفية يقوم على أساس علمى وترتيب منطقى على نحو ما ورد فى كشف المحجوب .

وأما الكتابان الآخران ، أى « تذكرة الأولياء » و « نفحات الانس » ، فهما لايخرجان عن كونهما كتابين من كتب التذاكر التى تهتم فى الدرجة الأولى بسير الشخصيات التى تتحدث عنها ، وان كان هذا لا يمنع من أنها مفيدة من حيث المعلومات التى تمدنا من خلال تصويرها للحياة الروحية لشخصياتها ، والطريقة التى كانوا يسلكونها فى سيرهم وسلوكهم ، وتنقل لنا ما أثر عنهم من أقوال وتعريفات صوفية مهمة .

واذا كان الجامى قد تعرض فى مقدمة « نفحات الأنس » لبعض الأصول الصوفية ، الا أنه نقل كل أصل منها عن كتاب بعينه ، وذكر اسم كل كتاب فى الموضع الذى ينقل عنه فيه ، فدوره فى هذا مقصور على النقل . ومن بين الكتب التى نقل عنها نجد اسم كتاب كشف المحجوب(١) .

ونستخلص من ذلك كله أن كشف المحجوب يتميز على الكتب التى سبقته ، والتى جاءت بعده بأن مؤلفه صاحب منهج خاص فى دراسة التصوف ، فهو لا يكتفى كغيره برواية أقوال المتصوفة ، أو الترجمة لحياتهم ، أو ايراد الأصول الصوفية دون نقاش فيما يدور حولها من آراء ، وانما يتناول هذه المسائل بالجدل والنقاش حينا ، وبالايضاح والتفسير أحيانا ، وتبدو شخصيته واضحة فى كل ما يتعرض له .

---

(١) « نفحات الانس » أنظر ص ١٩ — ٢٠ .

الفصل السابع

مخطوطات الكتاب، طبعاته الترجمة الانجليزية

مخطوطات « كشف المحجوب » :

توجد مخطوطات كشف المحجوب فى مكتبات متفرقة فى جميع أنحاء العالم ومن بينها عدة مكتبات أوربية . وان من يرجع الى فهارس «ايته»(١) و « ريو »(٢) و « بلوشيه »(٣) يجد وصفا لبعض هذه المخطوطات التى تنتمى من حيث كتابتها الى تواريخ مختلفة .

وقد اعتمد « زوكوفسكى » عند طبعه كتاب كشف المحجوب ، لأول مرة ، على خمس نسخ خطية أشار اليها فى مقدمة هذه الطبعة ، وهى :

١ ــ مخطوطة «فينا» التابعة للمكتبة الملكية فى فينا ، والمحفوظة تحت رقم ٣٣٤ من مجموعة هامر ، وترجع هذه النسخة الى القرن التاسع الهجرى .

٢ ــ مخطوطة « طشقند » المحفوظة فى المكتبة العمومية فى طشقند ويرجع تاريخ كتابتها الى سنة ١٠٤٦ هـ .

٣ ــ مخطوطة « سمرقند » ويبدو أنها لا تحمل تاريخا .

٤ ــ مخطوطة « بطرسبرج » التابعة لجامعة سن ، وتحمل تاريخ ١٠١١ هـ .

٥ ــ مخطوطة « مؤسسة اللغات الشرقية » بوزارة الخارجية(٤) .

كما أشار « ايته » فى فهرسه للمخطوطات الفارسية الذى أعده للمكتبة

---

(١) «Ethé» : Gat Vol. I.

(٢) «Rieu» : Gat Vol. I.

(٣) «Blechet» : Catalogue des Manuscrits Persians, Vol. 2.

(٤) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٦٢ .

الهندية الى خمس مخطوطات قدم وصفا شاملا لها وقيدها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ..

وتوجد نسخة خطية لكشف المحجوب محفوظة فى دار الـكتب المصرية ورد ذكرها فى فهرس المخطوطات الفارسية تحت رقم ١٧٩٣ (٤ تصوف فارسى طلعت) وهى نسخة بدون تاريخ وتقع فى ٣٨٥ ورقة مكتوبة بقلم فارسى عادى ، وضم اليها فهرس بخط مخالف(١) .

طبعات كشف المحجوب :

طبع كتاب « كشف المحجوب » عدة مرات نذكر منها :

(ا) الطبعة الأولى : طبعة « زوكوفسكى » :

وهى الطبعة التى قام بهـــا المستشرق الروسى « زوكوفسكى » فحقق وصحح النص الفارسى لكشف المحجوب ، وكتب له مقدمة قيمة ، وضم اليه فهارس وافية ، غير أن الأجل لم يمهله ، فطبع الكتاب بعد وفاته ونشر فى «ليننجراد» عام ١٩٢٦م — ١٣٤٤هـ(٢) فى مائتى وخمسين نسخة فقط(٣) .

(ب) طبعات لاهور :

طبع كشف المحجوب ثلاث مراتعلى الحجر فى « لاهور » .

الأولى : الطبعة التى اعتمد عليها « نيكولســـون » فى ترجمته للكتاب وطبعت فى لاهور عام ١٩٠٣ م(٤)

الثانية : طبعة « أحمد عليشـــاه » بروفسر اســـلامية كالج ، لاهور ، ١٩٣٣ م — ١٣٤٢ هـ ، وتقع فى ٣٢٩ صفحة .

---

(١) خلط المفهرس فى النسخة رقم ١٧٩٢ بين كتابى « كشف المحجوب » للهجويرى فى التصوف و « كشف المحجوب » لابى يعقوب السجزى فى المذهب الاسماعيلى فأضاف الكتابين الى الهجويرى . وقد بدا الخطأ واضحا عندما نقل العبارة الاولى من الكتاب فهو يقول : وأوله « أكاه باش كه عقايد علم در حجاب است » فهذه العبارة بداية كتاب السحزى لا الهجويرى . أنظـــر : فهرس المخطوطات الفارســـية . دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٧ ج ٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) فهرست كتابهاى جابى فارسى ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٣) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة محمد عباسى ص ٣١ .

(٤) Bulletin of the School of Oriental Studies : London, 1929, p. 475.

الثالثة : طبعة بتصحيح « محمد حسين فاضـــل ديوبندى » لاهور ١٩٣١ م وتقع فى ٣٢٨ صفحة .

(جـ) طبعة « سمرقند » عام ١٣٣٠ هـ .

(د) طبعات ايران :

الأولى : فى طهران ١٣٢٧ هـ ش(١) .

الثانية : طبعة « مؤسسة مطبوعات أمير كبير » المأخــوذة عن طبعة زوكوفسكى . تهران ١٣٣٦ هـ ش .

الثالثة : طبعة به تصحيح على قويم ، تهران ١٣٣٧ هـ ش (٢) .

الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب :

فى الوقت الذى كان فيه « زوكوفسكى » يعمل فى اعداد نص دقيق لكشف المحجوب تمهيدا لطبعه كان المستشرق الانجليزى « نيكولسون » يعمل فى ترجمة الكتاب نفســـه .

وقد اعتمد نيكولسون فى ترجمته على طبعة لاهور ١٩٠٣ م(٣) ، وذكر أن هذه الطبعة غير دقيقة ، وخاصـــة فى هجاء الأسماء ، ولكن النص فيها يتفق الى حد كبير مع مخطوطتين فى المكتبة الهندية . كما رجع أيضا الى المخطوط الموجود فى المتحف البريطانى .

ويقول نيكولسون ان النسخة الأوربية تعتبر كاملة تقريبا ، ولم يحذف منها شىء هام ، وإن كان لم يتردد فى الاختصار كلما سنحت له الفرصة لذلك (٤) .

وقد قدم نيكولسون لترجمته بمقدمة طيبة فى ثمـــان صفحات ، ونشرت الترجمة فى لندن سنة ١٩١١ م ضمن سلسلة جب التذكارية .

(١) « فهرست كتابهاى جابى فارسى » ج ١ عمود ١٢٦٥ .
(٢) « فهرست كتابهاى جابى فارسى » خانبابامشار تهران ١٣٤٢ ش ، ج ٢ عمود ٢٦٢٣
(٣) Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475.
(٤) «E.I.W. GIBB MEMORIAL» A Translation of : «The Hashaf Al-Mahjub» : Reynold A. Nicholson, London 1911, (Preface p. XXIV).

كذلك قام نيكولسون بنشر ترجمة انجليزية للمقدمة الروسية التى كتبها زوكوفسكى لطبعته لكشف المحجوب ، وقام بترجمتها عن الروسـيـة ، « سيدنى جيرولد » ، ونشرت هـذه الترجمة فى دوريات معهـد اللغـات الشرقية فى لندن عام ١٩٢٩ م تحت عنوان : « الصوفية الفارسية »(١) .

* * *

(١) Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475 — 482.

القسم الثاني

ترجمة كتاب كشف المحجوب

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وتمم

« الحمد لله الذى كشف لأوليائه بواطن ملكوته ، وقشع لأصفيائه سراير جبروته ، وأراق دم المحبين بسيف جلاله ، وأذاق سر المشتاقين روح وصاله، هو المحيى لموات القلوب بأنوار ادراكه ، والمنفس لها براحة روح المعرفة بنشر أسمائه . والصلاة على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه من بعده(١) » .

قال الشيخ أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى ثم الهجويرى رضى الله عنه :

سلكت طريق الاستخارة ، ومحوت من قلبى الأغراض التى كانت ترجع الى النفس ، وقمت بحكم ما دعوتنى اليه — أسعدك الله — وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، وأسميت هذا الكتا ب« كشف المحجوب » . وقد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب وانى أطلب من الله تعالى العون والتوفيق فى اتمام هذا الكتاب ، وأبرأ من حولى وقوتى فى القول والعمل ، وبالله التوفيق .

فصل : قد كان مرادى من اثبات اسمى فى بداية الكتاب شيئين : أولهما نصيب الخاصة ، والثانى نصيب العامة .

أما ما هو نصيب العامة : فهو أن جهلة هذا العلم عندما يرون كتابا جديدا لا يكون اسم مصنفه مثبتا فى أماكن عدة منه ، فانهم ينسبونه الى أنفسهم ، وبذلك لا يتحقق مقصود المصنف ، لأن المراد من الجمع والتأليف والتصنيف ليس الا احياء اسم المصنف بذلك الكتاب ، فيدعو له القــراء والمتعلمون بالخير .

وقد وقعت لى هذه الحادثة مرتين :

الأولى : أن رجلا طلب ديوان شعرى وأخذه ، ولم يكن يوجد منه سوى

---

(١) هذا الجزء من مقدمة المؤلف باللغة العربية . ويلاحظ أن ما يرد بعد هذا بين علامات التنصيص انما هو فى الاصل الفارسى باللغة العربية .

النسخة الأصل . فغيرها جملة ، واسقط اسمى من أولهــا ، وأضاع — تاب الله عليه — تعبى .

والثانية : أنى عملت كاتبا فى طريقة التصوف اسمه « منهاج الدين » ، فمحا اسمى من عنوانه مدع ركيك لايزن قوله ، وأظهر للعوام أنه عمله ، ولو أن الخواص كانوا يضحكون منه على هذا القول . ولم يبارك الله له فى ذلك ، ومحا اسمه من ديوان طلاب حضرته .

وأما ما هو نصيب الخاصة : فهو أنهم عندما يرون كتابا ، ويعرفون أن مؤلفه كان عالما بذلك العلم أو الفن ، ومحققا ، فانهم يرعون حقه على نحو أفضل ، ويكونون أكثر جدا فى قراءته ودراسته ، فيتأتى بذلك مراد القارىء وصاحب الكتاب بصورة أفضل ، والله أعلم بالصواب .

فصل : وأما ما قلته من أنى سلكت طريق الاستخارة ، فالمراد منه حفظ آداب الله عز وجل ، فقد أمر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والتابعين بهذا ، وقال : «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم(١) » . والاستعاذة والاستخارة والاستعانة كلها بمعنى الطلب ، وتسليم الأمور لله سبحانه وتعالى ، والنجاة من الآفات المختلفة . وقد روى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم ، أن النبى كان يعلمهم الاستخارة كما كان يعلمهم القرآن . فحينما يعلم العبد أن خيرية الأمور ليست منوطة بكسبة وتدبيره ، لأن الله تعالى أعلم بصلاح العباد ، وما يصيب العبد من خير أو شر مقدر ، فأى وجه غير التسليم للقضاء وطلب العون منه ، يدفع عن العبد تأثير النفس وتأمرها فى كل أحواله ، ويمن عليه بخيره وصلاحه .

وعلى هذا : ينبغى على العبد أن يستخير فى بداية جميع الأعمال ، عسى الله تعالى أن يحفظه من الخطر والخلل والآفة ، وبالله التوفيق .

فصـــل : وأما ما قلته من أنى محوت من قلبى الأهــواء التى ترجع الى النفس ، فالمراد منه أن كل عمل يدخل فيه الغرض النفسانى تزول منه البركة . وينحرف القلب عن الطريق المستقيم الى محل الأعوجاج والانشغال وهذا لا يخرج عن أمرين : اما أن يتحقق غرضه ، واما لا يتحقق ، فاذا تحقق غرضه يكون فى ذلك هلاكه ، وليس لباب الجحيم مفتاح غير حصول هوى النفس . واذا لم يتحقق غرضه ، فالأغلب أن يكون قد محاه من قلبه لأن فى ذلك نجاته ، ومفتاح باب الجنة ليس سوى منع النفس عن أغراضها ،

---

(١) سورة « النحل » آية ٩٨

كما قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى(١) » .

والأغراض النفسية فى الأمور هى أن العبد فى العمل الذى يعمله يكون على غير رضا الله تعالى ، ولا يطلب نجاة النفس من العقوبة .

وفى الجملة : ان رعونات النفس لا حد لها ، ومراميها فى ذلك خفية . وسوف يرد فى الكتاب باب فى هذا المعنى فى موضعه ان شاء الله تعالى .

فصل : وأما ما قلته من أنى قمت بحق ما دعوتنى اليـــه ، وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب، فقد كان المراد من هذا القول انك رأيتنى أهلا للسؤال وسألتنى واقعتك ، وطلبت هذا الكتاب ، وكان مرادك منه الفائدة ، فوجب على لا محالة أداء حق سؤالك . ولمـــا لم أصل الى اتمام حق سؤالك فى حينه ، وكان يلزم لى تمام العزم والنية ، لأكون فى حال ابتداء الكتاب وعقد النية على اتمامه قد أديت حكم السؤال وجوابه . وحين يكون قصد العبد فى ابتداء عمله مقرونا بالنية ، فانه ان يظهر منه خلل فى ذلك العمل يكن معذورا فيه . ومن ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نية المؤمن خير من عمله »(٢) . والنية فى ابتداء العمل خير من ابتداء العمل بلا نية .

وللنية فى الأمور سلطان عظيم وبرهان صادق ، لأن العبد بالنية يتحول من حكم الى آخر بدون أن يبدو على ظاهرة أثر لهذا التحول ، كما لو أن شخصا جاع مدة دون أن ينوى الصيام فهو لايثاب على ذلك ، وحين ينوى بقلبه الصيام يصير من المقربين ، بدون أن يبـــدو على ظاهرة أثر . ومثل المسافر الذى يرد مدينة ويبقى مدة ، فانه لا يصير مقيما مالم ينو الاقامة ، واذا نوى صار مقيما . وأمثال هذا كثير ، فالنية عند بدء العمل تكون قياما بحقه والله أعلم .

فصل : وأما ما قلته من أنى أسميت هذا الكتاب « كشف المحجوب » ، فان الغرض منه أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان المراد منه .

وأعلم أن أهل العالم كلهم محجوبون عن لطيفة التحقيق الالهية باستثناء أولياء الله تعالى وجل ، وأعزاء حضرته . ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق الحق ، وشرح الأقوال ، وكشف حجب البشرية ، فانه لا يناسبه غير هذا الاسم .

---

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ ، ٤١

(٢) رواه البيهقى فى شعب الايمان عن أنس (مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى : طبع القاهرة ١٣٧٣ هـ ـــ ١٩٥٤ م ، ج ٢ ص ٣٣١) .

والكشف فى الحقيقة هو هلاك للمحجوب، كما أن الحجاب هلاك المكاشف، لأنه لا طاقة للقريب بالبعد ، ولا للبعيد بالقرب ، كالحيوان الذى يتولد من الخل فهو يموت فى كل ما عداه ، وما يتولد من سواه يهلك فى الخل .

وسلوك طريق المعانى صعب جدا الا لمن خلق من أجله . والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل ميسر لما خلق له(١) » . وقد خلق الله عز وجل كلا لعمل ، وجعل طريقه سهلا عليه .

أما الحجاب فحجابان : حجاب رينى — نعوذ بالله منه — وهو لاينكشف أبدا . وحجاب غينى ، وهذا سرعان ما ينكشف .

ولتوضيح ذلك : أن عبدا قد تكون ذاته حجابا للحق فيستوى لديه الحق والباطل ، وعبدا تكون صفته حجابا للحق ، وطبعه وسره يطلبان الحق دائما ، ويفران من الباطل .

فالحاجب الذاتى ؛ وهو الرينى ، لا ينكشف أبدا . ومعنى الرين والختم والطبع واحد ، كما قال الله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(٢) » . وقد أظهر حكم ذلك فقال : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون(٣) » ، ثم بين علته — فقال — « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم(٤) » . وقال أيضا : « طبع الله على قلوبهم(٥) » .

وحجاب الصفة ، وهو الغينى ، يجوز أن ينكشف وقتا دون وقت ، فتبديل الذات غريب وعجيب فى الحكم ، وغير ممكن فى الغين . أما تبديل الصفة فجائز .

ولشيوخ هذه الطريقة فى معنى الرين والغين اشارات لطيفة ، كقول الجنيد(٦) رحمه الله : « الرين من جملة الوطنات ، والغين من جملة الخطرات » . والوطن باق ، والخطر طارىء .

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى السنن عن أبى حميد الساعدى : « أجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧) ورواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء : « كل امرىء مهيأ لما خلق له » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٥٣) .

(٢) سورة « المطففين » آية ١٤

(٣) سورة « البقرة » آية ٦

(٤) سورة « البقرة » آية ٧

(٥) سورة « النحل » آية ١٠٨

(٦) أبو القاسم الخزاز : أصله من نهاوند ، ومولده ومنشأه بالعراق . كان فقيها تفقه على أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته . صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى وغيرهم.وهو من ائمة المتصوفة وسادتهم ، ومن العلماء ، وكانوا على عهده يلقبونه=

مثال ذلك : أنه لا يمكن عمل مرآة من أى حجر ، ولو اجتمع كثير من الصقالين . وعندما تصدأ المرآة فانها تصفو بالمصقلة ، لأن الظلام أصلى فى الحجر ، والضياء أصلى فى المرآة . والأصل باق ، ولا بقاء لتلك الصفة العارية .

وقد عملت هذا الكتاب ليكون صقالا للقلوب الأسيرة فى حجاب الغين ويكمن فيها جوهر ونور الحق ، فينكشف عنها الحجاب ببركة قراءة هذا الكتاب ، وتجد الطريق الى حقيقة المعنى . أما أولئك الذين عجن وجودهم من انكار الحق وارتكاب الباطل ، فانهم لا يجدون الطريق قط الى شواهد الحق ، ولا يكون لهم من هذا الكتاب فائدة .

فصل : وأما ما قلته من أنه قد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب ، فان المراد من هذا القول أنه مالم يعلم مقصود السائل للمسئول فانه لا يتحقق مراد السائل ، لأن السؤال يكون عن اشكال ، واذا لم يحل الاشكال بالجواب ، فانه لا يفيد . ولا يمكن حل الاشكال الا بالعلم بالاشكال .

وأما قولى ان الكلام استقام فى غرضك ، فيعنى أن للسؤال على الجملة جواب على الجملة ، حين يكون السائل عليما بجملة وأخوات سؤاله . ثم ان للمبتدىء حاجة الى التفصيل ، وتحديد الأقسام وبيانها ، وبخاصة ان غرضك — أسعدك الله — كان أن أضع كتابا مفصلا فى الاجابة عن سؤالك ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من أنى أطلب التوفيق والعون من الله تعالى : فان الغرض منه أنه ليس للعبد ناصر غير الله ، لأنه هو الذى ينصره على الخيرات ، ويزيده توفيقا .

وحقيقة التوفيق هى موافقة تأييد الله لفعل العبد فى أعمال الصواب . والكتاب والسنة ناطقان على وجود صحة التوفيق ، والأمة مجتمعة على

= « طاووس العلماء ». توفى سنة سبع وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٠٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٥ ، نفحات الانس ص ٨٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨١).

ذلك ، باستثناء طائفة من المعتزله(١) والقدرية(٢) الذين يقولون ان لفظ التوفيق خال من كل المعانى .

وقد قال فريق من مشايخ الصوفية ان التوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال . فحين يكون العبد مطيعا لله ، يكون له من الله المزيد أيضا ، وتكون قوته أكثر مما كانت عليه من قبل ، وفى جملة الحالات من بعد — ذلك أن ما يكون من سكون العبد وحركته جملة هو فعل الله تعالى وخلقه — فيسمون تلك القوة التى يطيع بها العبد بالتفيق . وليس هذا الكتاب موضعا اشرح هذه المسألة ، لأن المراد منه شىء آخر .

---

(١) « المعتزلة » يسمون : أهل العدل والتوحيد (الملل والنحل على هامش الفصل : ج ١ ص ٥٤) . ويذهب كثيرون الى أن اسم المعتزلة يرجع تاريخه الى انفصال واصل بن عطاء (م : ١٨١ هـ) عن حلقة الحسن البصرى (م : ١١٠ هـ) بعد اختلافهما فى مرتكب الكبيرة : هل يبقى مؤمنا ، أم يصير كافرا ؟ وذهب واصل الى أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، منزلته بين المتزلتين . فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد (م : ١٤٤ هـ) فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٧ ، ج ٢ ص ١٧٠) كان أكثر كلام المعتزلة فى القدر ولذلك كانوا يسمون فى بادىء الامر بالقدرية .

والمعتزلة كانوا فرقا مختلفة : عاش بعضهم فى البصرة وبعضهم فى بغداد . وكان الغالب عليهم حب المناظرة والاختلاف ، فنجد كل شيخ منهم يعارض سائر الشيوخ ويناقضهم حتى لنجد بين المتأخرين منهم الشيخ أبا هاشم الجبائى (م : ٣٢١ هـ) يعارض أباه الشيخ أبا على الجبائى (م : ٣٠٣ هـ) ويخلف معه فى مسائل كثرة . غير أن المعتزلة بالرغم من كثرة ما بينهم من خلاف يتفقون بوجه عام على أصول خمسة من اعتقدها كان معتزليا ، وهى : القول بالتوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١) .

على أن أسوا ما تورط فيه المعتزلة : القول بخلق القرآن ، فى أيام الخليفة المعتصم (م : ٢٢٧ هـ) والخليفة الواثق (م : ٢٣٢ هـ) وتنكيلهم بخصوصهم ، فأذاقوا الناس العذاب اذا هم لم يقولوا بذلك ، وأقاموا المحاكم يعرض فيها على العلماء والقضاة القول بخلق القرآن فمن لم يقل عذب وأهين ، حتى أن المؤرخين يسمون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن . ثم جاء الخليفة المتوكل (م : ٢٤٧ هـ) فأبطل هذا القول (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨).وفى القرن الثالث الهجرى كان أهل السنة ينظرون الى المعتزلة نظرة كراهية واحتقار . وفى أواخر هذا القرن خرج عليهم الاشعرى (م : ٣٢٤ هـ) بعد أن كان منهم ، وحاول التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل ، وانتشر مذهبه فى العراق فى أواخر القرن الرابع الهجرى (وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٢٧) .

والهجويرى كصوفى من أهل السنة وقف موقفا مشددا من المعتزلة وتصدى لأقوالهم وعارض آراءهم ووصفهم فى كتابه بالخروج على الدين ، بل ان الامر بلغ به الى درجة أن كفرهم وأخرجهم من دائرة الموحدين .

(٢) « القدرية » : هم الذين يبحثون فى مسألة الاختيار والقدرة الانسانية . وقد اختلفوا فيهم ، فالشهرستانى لقب المعتزلة بالقدرية وقال ان هذا اللفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى . (الملل والنحل على هامش الفصل ج ١ ص ٥٤). وقال آخرون انهم كانوا يقولون بأن الله يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة : مختلف الحديث . طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥) . وقد حاول القاضى عبد الجبار (م : ٤١٥ هـ) أكبر شيوخ المعتزلة فى « الرى » فى عصره أن يثبت أن اسم القدرية لا ينبغى أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله (ظهر الاسلام ج ٤ ص ٤٣ ، ٤٤) .

والآن : أعود بمشيئة الله عز وجل الى مقصودك . وقبل أن أبدأ الكلام أذكر أولا أصل سؤالك ، ومن هنا بدأ الكتاب ، وبالله التوفيق .

صورة السؤال :

قال السائل ، وهو أبو سـعيد الهجويرى(١) : بين لى على التحقيق طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ، وأظهر لى رموزهم واشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية اظهارها على القلوب ، وما السبب فى حجاب العقول عن كنهها وما هيتها ، ونفرة النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها . وما يتعلق بهذا من المعاملات .

قال المسئول وهو على بن عثمان الجلابى ، رحمه الله(٢) :

أعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى هذه الديار ، حيث انشغل الخلق بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على خلاف أصلها . فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدى أهل هذا الزمان وأسرارهم ، باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنـه مراد كل أهل الارادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق ، واكتفى خاصـة الخلق وعامتهم منه بالعبارة ، واشتروا حجابه بأرواحهم وقلوبهم ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد ، واخفى التحقيق وجهه عن أحوالهم ، ورضى العوام بذلك قائلين اننا نعرف الحق ، وفرح الخواص بأن يحسوا التمنى فى قلوبهم ، والهواجس فى نفوسهم ، والميل الى الدار الآخرة فى صدورهم . وهم ، لانشغالهم ، يقولون ان هذا شوق الرؤية ، وحرقة المحبة . وعجز الأدعياء بدعواهم عن كل المعانى ، وكف المريدون عن المجاهدة ، وسموا ظنهم المعلول مشاهدة . وقد عملت قبل هذا كتبا فى هذا المعنى ضاعت كلها . وقد أقتبس الأدعياء الكاذبون بعض أقوال منها لصيد الخلق ، وغسلوا البعض الآخر ولم يبقوا عليه ، لأن لصاحب الطبع رأس مال من الحسد وانكار نعمة الله . وفريق آخر لم يغسلوها ولكن لم يقرأوها . وفريق قرأوها ولم يدركوا معناها ، واكتفوا بعباراتها ليكتبوها ويحفظوها ويقولوا اننا نتكلم فى علم التصوف والمعرفة ، وهم له منكرون . والسبب فى هذا كله أن هذه المعانى كبريت أحمر ، وهو شىء عزيز ، وحين

---

(١) سبق الاشارة اليه . فى القسم الاول .
(٢) عبارة « رحمه الله » اضافة من الناسخ .

يوجد يكون كيمياء(١) . ووزن دانق منه يحيل كثيرا من النحاس والقصدير ذهبا أحمر .

وفى الجملة : كل يطلب الدواء الذى يوافق علته ، ولا يلزمه غيره . كما يقول واحد من الكبار :

(شـــعر عربى)

فكل من فى فـؤاده وجـــع   يطلب شــيئا يوافق الوجعا

فمن يكون دواء علته أحقر الأشـــياء لا يلزمه الدر والمرجان ليخلطوهما بالبلسان(٢) ودواء المسك . وهذا المعنى أعز من أن يكون لكل نصيب منه .

وقد فعل جهال هذا العلم عين هذا من قبل بكتب المشايخ ، حين وقعت تلك الخزائن الملأى بالأسرار الالهية فى أيديهم ، فلم يعرفوا معناها ، وألقوا بها الى أيدى صـــناع القلانس الجهـــلة ، وأعطوها للمجلدين الأدناس ، فصيروها بطانة للقلانس ، وجلدا لدواوين شـــعر أبى نواس(٣) ، وهزل الجاحظ(٤) . وحين يحط بازى الملك على جـــدار بيت عجوز فانهم يقصون ريشه وجناحه لا محالة .

---

(١) « كيمياء » : الكيمياء فى اصطلاح القدماء المـــادة التى تضاف الى المعادن الخسيسة كالنحاس والرصاص فتحيلها ذهبا ، وتسمى أحيانا « الاكسير » ، وتطلق أيضا على علم تحويل هذه المعادن الى ذهب .

(٢) نوع من الزيت يستخرج من نبات يعرف بالبلسم ، ورد ذكره فى كتاب « الابنية عن حقائق الادوية » لموفق بن على الهروى . وهو كتاب فارسى من مؤلفات القرن الرابع الهجرى (أنظر : سبك شناسى ج ٢ ص ٢٤) .

(٣) أبو على الحسن بن هانىء المعروف بأبى نواس الحكمى . الشاعر المعروف . كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكمى والى خرسان ، ونسبته اليه . قيل أن الخصيب صاحب دوان الخراج بمصر سأله عن نسبه ، فقال : أغنانى أدبى عن نسبى فأمسك عنه . من الطبقة الاولى من المولدين ، وشعره عشرة أنواع ، وهو مجيد فى العشرة . كان المأمون يقول : لو وصفت الدنيا نفسها لمـــا وصفت بمثل قول أبى نواس :

ألا كـــل حى هـــالك وابن هـــالك   وذو نســب فى الهالـــكين عـــريق
اذا امتحن الدنيـــا لبيب تـــكشفت   لـــه عن عـــدو فى ثيـــاب صـــديق

توفى أبو نواس سنة خمس وقيل ست وقيل ثمان وتسعين ومائة ببغداد ، ودفن فى مقابر الشونزى . قيل له أبو نواس لذؤابين كانتا تنوسان على عاتقيه (وفيـــات الاعيان ج ١ ص ١٣٥ — ١٣٦) .

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى المعروف بالجاحظ البصرى : العالم المشهور صاحب التصانيف فى كل فن ، له مقالة فى أصول الدين ، واليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة . كان تلميذا لابى اسحاق بن سيار البلخى المعروف « بالنظام » المتكلم المشهور . من أحسن تصانيفه وأمتعها : كـــتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » . توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٨٨) . =

وقد أوجدنا الله عز وجل فى زمان أسمى أهله الهوى شريعة ، وطلب الجاه والرياسة والتكبر عزا وعلما ، ورياء الخلق خشية ، واخفاء الحفيظة فى القلوب حلما ، والمجادلة مناظرة ، والمحاربة والسفاهة عظمة ، والنفاق زهدا ، والتمنى ارادة ، وهذيان الطبع معرفة ، وحركات القلب وحديث النفس محبة ، والالحاد فقرا ، والجحود صفوة ، والزندقة فناء ، وترك شريعة النبى صلى الله عليه وسلم طريقة ، وأسموا آفة أهل الزمان معاملة ، حتى احتجب أرباب المعانى بينهم ، على حين صارت الغلبة لهم ، كما حدث فى الفترة الأولى لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع آل مروان . وما أجمل ما قاله سلطان أهل الحقائق وبرهان التحقيق والدقائق أبو بكر الواسطى(١) رحمة الله : « ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الاسلام ولا أخلاق الجاهلية ولا أحكام ذوى المروءة(٢) » .

ويقول الشبلى(٣) وفقا لهذا :

(شعر عربى)

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب   فكل بعيد الهم فيها معذب

فصل : أعلم — قواك الله — أنى وجدت هذا العالم محلا لبعض الأسرار الالهية ، والمكونات موضعا لودائعه ، والمثبتات مكانا للطائفة فى حق أحبائه .

= وكان الجاحظ لسان المعتزلة فى عصره ، رد على المشبهة وتكلم فى اعجاز القرآن وألف فى الاحتجاج للنبوة ونصرة الرسالة ، وفى الطبائع . وتكلم فى الخلود فى الاخرة .

من أقواله أن أفعال العباد تنسب الى العباد مجازا وانما هى أفعال الطبيعة تظهر فيهم ، الا الارادة فانها فعل الانسان (ظهر الاسلام ج ٤ ص ١١) . وللجاحظ كتاب « نظم القرآن » (الفهرست ص ٥٧) .

(١) اسمه : محمد بن موسى . من قدماء اصحاه الجنيد وأبى الحسين النورى . أصله من فرغانه ، ويعرف بابن الفرغانى . كان عالما بالاصول وعلوم الظاهر . خرج من العراق وهو شاب ومشايخه فى الاحياء ، فتكلم بخراسان بأبيورد ومرو ، وأكثر كلامه بمرو ، ومات بها بعد العشرين وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٦٥ ، نفحات الانس ص ١٧٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٠٣) .

(٣) أبو بكر الشبلى : اسمه « دلف » ويقال : ابن جحدر . خرسانى الاصل ، بغدادى المولد والمنشأ . تاب فى مجلس خير النساج ، وصحب الجنيد ، وصار أوحد عصره حالا وعلما . كان عالما فقيها على مذهب مالك . مات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٦٠ ، نفحات الانس ص ١٨٠ ، **خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨٦**) :

والجواهر والأعراض والعناصر والأجرام والأشباح كلها حجاب تلك الاسرار واثبات كل من هذه فى محل التوحيد شرك ، فالله تعالى قد جعل هذا العالم فى محل الحجاب ، حتى اطمأنت الطبايع كل منها فى عالمه بأمره ، واحتجبت بوجودها عن توحيد الحق،وانشغلت الأرواح فىالعالم بمزاحها ، وابتعدت بالمقارنة عن محل الخلاص ، حتى صعب على العقول فهم الأسرار الربانية . واحتجبت لطائف القرب عن الأرواح ، حتى احتجب الانسان بوجوده فى مظلة الغفلة ، وصار معيوبا بحجابه فى محل الخصوصية ، كقول الله تعالى : « والعصر ان الانسان لفى خسر(١) » وقال أيضا « انه كان ظلوما جهولا(٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الخلق فى ظلمة ثم ألقى عليه نورا(٣) » .

وقد وقع هذا الحجاب مزاجا له (للانسان) فى العالم ، لتعلق الطباع به ، ولتصرف العقل فيه ، حتى صار مكتفيا بجهله ، واشترى بروحه حجابه عن الحق ، لأنه غافل عن جمـــال الكشف . وأعرض عن تحقيق السريرة الربانية ، واستقر فى محل الدواب ، وجفل من محل نجاته . ولم يشم رائحة التوحيد ، ولم ير جمال الأحدية ، ولم يذق ذوق التوحيد ، وعجز بالتقليد عن تحقيق المشـــاهدة ، ورجع بحرص الدنيـــا عن ارادة الله ، وقهر النفس الناطقة(٤) بالنفس الحيوانية(٥) المجردة من الحياة الربانية . وأقر حركاته وطباعه جملة فى نصيب الحيوانية ، ولا يعرف غير الأكل والنوم ومتابعة الشهوات . وقد أمر الله عز وجل أحباءه بالأعراض عن هذا كله ، وقال : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون(٦) » . لأن سلطان طبعهم أخفى عليهم سر الحق ، وحل بهم الخزلان والحرمان مكان العناية والتوفيق ، وأصبحوا جميعا متابعين للنفس الأمارة — وهى الحجاب الأعظم ومنبع السوء والشر — كما قال الله تعالى : « ان النفس لأمارة بالسوء(٧) » .

والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضـــح مقصـــودك فى المقامات والحجب ، .

---

(١) سورة « العصر » آية ١ ، ٢
(٢) سورة « الاحزاب » آية ٧٢
(٣) لم أجد له سندا .
(٤) النفس الناطقة : هىالجوهر المجرد عن المـــادة فى ذواتها ، مقارنة لها فى افعالها . (تعريفات الجرجانى ص ١٤٢) .
(٥) النفس الحيوانية : هو كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة . (المصدر السابق) .
(٦) سورة « الحجر » آية ٣
(٧) سورة « يوسف » آية ٥٣

وأبسطها ببيان لطيف ، وأشرط عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا من أقوال المشايخ ، وأمده بغرر الحكايات ، ليتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر فى هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم : أن لطريق التصوف أصــلا قويا وفرعا مثمرا .

وقد حث جميع المشايخ من أهل العــلم كل المريدين على تعلم العــلم ، والمداومة عليه ، حتى صاروا حريصين عليه ، ولم يتابعوا اللهو والهزل أبدا ، ولم يسلكو طريق اللغو ، بعد أن صنف كثير من مشايخ الصوفية وعلمائهم فى هذه المعانى ، وأظهروا بالعبارات اللطيفة براهين من الخواطر الربانية ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

الباب الأول

باب إثبات العلم

قوله تعالى فى وصف العلماء : « انما يخشى الله من عباده العلماء(١) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم(٢) » . وقال أيضا : « أطلبوا العلم ولو بالصين(٣) » .

واعلم أن العلم كثير ، والعمر قصير . وليس تعلم كل العلوم ، مثل علم النجوم والطب وعلم الحساب والصناعات البديعية وما يشبه هذا ، فريضة على الناس ، الا بالقدر الذى يتعلق بالشريعة من كل من هذه العلوم ، فالنجوم لمعرفة الوقت فى الليل ، والطب للاحتماء ، والحساب للفرائض ومدة الحيض ، وما يشبه هذا ، ففرائض العلم بقدر ما يصح به العمل .

وقد ذم الله عز وجل أولئك الذين يتعلمون العلوم غير النافعة فى قوله تعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم(٤) » . والرسول عليه السلام استعاذ وقال : « أعوذ بك من علم لا ينفع(٥) » .

واعلم أنه يمكن عمل الكثير من علم قليل . وينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل كما قال عليه السلام: «المتعبد بلا فقه كالحمار فى الطاحونة(٦)» .

---

(١) سورة « فاطر » آية ٢٨

(٢و٣) رواه البيهقى فى شعب الايمان وابن عبد البر فى العلم عن أنس بن مالك : « اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » (شرح المناوى للجامع الصغير ج ١ ص ٧٢) .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٠٢

(٥) رواه أحمد فى مسنده وابن حيان فى صحيحه عن أنس : اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع (شرح المناوى للجامع الصغير ج ١ ص ٧٣) .
وقد عرف الغزالى العلم الذى لا ينفع بأنه العلم المذموم ، وان كان العلم لا يذم لعينه وانما يذم فى حق العباد لاحد هذه الاسباب الثلاثة :
١ ــ أن يكون العلم مؤذيا لضرر ما لصاحبه أو غيره .
٢ ــ أن يكون مضرا بصاحبه فى غالب الامر كعلم النجوم .
٣ ــ الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم . (احياء علوم الدين : أنظر ج ١ ص ٢٦) .

(٦) رواه أحمد فى مسنده عن واثلة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٢٥) .

فشبه المتعبدين بلا فقه بحمار الطاحونة ، لأنه مهما يدور يظل فى مكانه ولا يقطع أى طريق .

ورأيت طائفة من العوام فضلت العلم على العمل ، وطائفة أخرى فضلت العمل على العلم ، وكلاهما باطل ، لأن العمل بلا علم لا يكون عملا ، فالعمل يصير عملا حين يكون موصولا بالعلم ، ليكون العبد بذلك متجها لثواب الحق(١) . مثال ذلك : الصلاة ، فانه ما لم يكن العلم أولا بأركان الطهارة ، ومعرفة الماء والقبلة وكيفية النية وأركان الصلاة ، فالصلاة لا تكون صلاة . ومادام العمل يصير عملا بعين العلم ، فكيف يقول جاهل بفصله عنه ؟

وأولئك الذين فضلوا العلم على العمل ، على باطل أيضا ، لأن العلم بلا عمل لا يكون علما ، فالتعلم والحفظ والاستيعاب كلها عمل ، لأن العبد مثاب بذلك . ولو لم يكن علم العالم بفعله وكسبه ، لما كان له بذلك أى ثواب .

وهذا كلام طائفتين(٢) ، احداهما : أولئك الذين ينسبون جاه الخلق الى العلم ولا طاقة لهم بمعاملته ، ولم يصلوا الى تحقيق العلم ، فيفضلون العمل عن العلم لأنهم لا يعرفون علما ولا عملا ، حتى ليقول جاهل : لا يلزم القال ويلزم الحال(٣) ، ويقول آخر : يلزم العلم ولا يلزم العمل .

---

(١) يتفق رأى الهجويرى فى ضرورة ارتباط العلم بالعمل واثابة العبد بهما مع رأى أبى طالب المكى حيث يقول : اعلم ان من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران : أجر التوفيق ، وأجر العمل . وهذا مقام العارفين . (قوت القلوب : أنظر ج ١ ص ٢٨٠) .

(٢) أورد المؤلف قول الطائفة الاولى فقط .

(٣) يقسم الصوفية العلوم تقسيمات مختلفة ، منها تقسيمهم العلم الى ظاهر وباطن ، وتقسيمهم العلوم الى علوم الدنيا وعلوم الآخرة ، وتقسيمهم العلم الى علم القال وعلم الحال .

أما علم القال فيطلقونه على بعض العلوم الدينية كالفقه وعلم الكلام والجدل ، وأما علم الحال فهو علم التصوف الذى يتعلق بالمقامات والاحوال : كالمحبة ، واليقين ، والمعرفة وغيرها . وهم ينظرون الى العلوم من النوع الاول على أنها من الامور الكسبية التى يكسبها الانسان بالتعلم . أما العلوم من النوع الثانى فهى من الامور الذوقية والمواهب الالهية التى يمنحها الله للمقربين من الصوفية ويختصهم بها . يقول الجنيد :

علم التصوف ليس يعرفه — الا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده — وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

(قوت القلوب : أنظر ج ١ ص ٣٢٤) .

ويرد عن ابراهيم بن أدهم(١) رحمه الله أنه قال : رأيت حجرا ملقى فى الطريق ، وقد كتب عليه : أدرنى واقرأ . قال : فأدرته ، ورأيت أنه قد كتب عليه : « أنت لا تعمل بما تعلم ، فكيف تطلب ما لاتعلم ؟ » .

أى : اعمل بما تعلم حتى تعلم أيضا ببركات ذلك ما لم تعلم .

ويقول أنس بن مالك(٢) رضى الله عنه : « همة العلماء الدراية ، وهمة السفهاء الرواية » ، لأن أخوات الجهل منتفية عن العلماء ، فمن يطلب بالعلم جاه الدنيا وعزها لا يكون عالما ، لأن طلب الجاه والعز من أخوات الجهل . ولا درجة قط فى المرتبة مثل العلم ، لأنه حين لا يكون لا يعلم — العبد — أى لطيفة لله تعالى ، وحين يوجد يكون لائقا لجميع المقامات والشواهد والمراتب .

فصل : اعلم أن العلم علمان : أحدهما علم الله تعالى ، والآخر علم الخلق . وعلم العبد يتلاشى فى جنب علم الله تعالى ، لأن علمه صفته وقائم به(٣) ، ولا نهاية لأوصافه . وعلمنا صفتنا وقائم بنا ، وأوصافنا منتهية ، لقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا(٤) » .

وفى الجملة : العلم من صفات المدح ، وحده الاحاطة بالمعلوم وتبين المعلوم ، وأفضل حدوده هو أن « العلم صفة يصير الحى بها عالما » . والله عز وجل قال : « والله محيط بالكافرين(٥) » . وقال أيضا : « والله بكل شىء عليم(٦) » .

وعلم الله: هو علم يعلم به جملة الموجودات والمعدومات ، ولا مشاركة للخلق معه ، وهو غير متجزىء وغير منفصل عنه . والدليل على علمه

---

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم : من أهل بلخ . كان من أبناء الملوك فيف به هاتف أيقظه من غفلته . صحب سفيان الثورى والفضيل بن عياض بمكة . ودخل الشام فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده . مات بالشام سنة احدى أو اثنتين وستين ومائه (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ٥١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٥ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٤١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٣٦) .

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام ، الانصارى البخارى . خدم النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وشهد بدرا . مات سنة تسعين أو بعدها . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٥) .

(٣) يعارض الهجويرى هنا رأى المعتزلة الذى يقول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته . ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته لا بعلم وقدرة وحياة هى صفات قديمة ومعان قائمة به (الملل والنحل على هامش الفصل : أنظر ج ١ ص ٥٥) .

(٤) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .

(٥) سورة « البقرة » آية ١٦ .

(٦) سورة « البقرة » آية ٢٨٢

ترتيب فعله ، لأن الفعل المحكم يقتضى علم الفاعل ، فعلمه لاحق بالأسرار ومحيط بالظواهر .

وينبغى للطالب أن يعمل الأعمال فى مشاهدته ، بحيث يعلم أن — الله — بصير به وبأفعاله .

ترد حكاية ، أنه كان بالبصرة(١) رئيس ذهب الى حديقة له ، فوقعت عينه على جمال امرأة فلاح ، فأرسل الرجل لشغل ، وقال للمرأة : غلقى الأبواب . قالت : غلقت كل الأبواب الا بابا لا أستطيع اغلاقه ! قال : أى باب ذاك ؟ قالت : الباب الذى بيننا وبين الله جل جلاله ! فندم الرجل واستغفر .

حكاية : قال حاتم الأصم(٢) رضى الله عنه : اخترت أربعة من العلوم فنجوت من كل العالم . قيل : ما هى ؟ قال :

أولها : انى عرفت أن لله تعالى حقا لا يستطيع غيرى أن يؤديه ، فانشغلت بأدائه .

وثانيهما : انى عرفت أن لى رزقا مقسوما لا يزيد بحرصى ، فاسترحت من طلب الزيادة .

وثالثها : أنى عرفت أن لى طالبا — أى الموت — لا أستطيع الفرار منه فتهيأت له .

ورابعها : أنى عرفت أن لى الها جل جلاله مطلع على فخجلت منه ، وامتنعت عما لا يليق عمله ، لأنه حين يكون العبد عالما بأن الله تعالى ناظر اليه ، لا يعمل عملا يخجل منه يوم القيامة .

فصل : أما علم العبد ، فينبغى أن يكون فى أمور الله تعالى ومعرفته . وعلم الوقت وما يفيد بموجبه ظاهرا وباطنا فريضة على العبد ، وهو على قسمين :

---

(١) « البصرة » : اختطها عتبة بن غزوان المازنى عامل عمر بن الخطاب . وكانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها فى وقت افتتاحها فى ولاية عمر بن الخطاب فى سنة سبع عشرة (البلدان ص ٨٥) .

(٢) حاتم بن عنوان الاصم : ويقال حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن . من قدماء مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . صحب شقيق بن ابراهيم ، وكان أستاذ أحمد بن خضروية . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة ج ١ ص ٨٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .

أحدهما : الأصول ، والآخر : الفروع . وكل واحد منهما له ظاهر وباطن فظاهر الأصول : قول الشهادة ، وباطن الأصول : تحقيق المعرفة .

وظاهر الفروع : ممارسة المعاملة ، وباطن الفروع : تصحيح النية .

وقيام كل هذين بدون الآخر محـــال ، فظاهر الحقيقة بلا باطن : نفاق ، وباطن الحقيقة بلا ظاهر : زندقة . وظاهر الشريعة بلا باطن : نفس ، وباطن الشريعة بلا ظاهر : هوس .

ولعلم الحقيقة أركان ثلاثة :

الأول : العلم بذات الله عز وجل ووحدانيته ، ونفى التشبيه عن ذاته المنزهة جل جلاله .

والثانى : العلم بصفات الله وأحكامها .

والثالث : العلم بأفعال (الله) وحكمته .

ولعلم الشريعة أركان ثلاثة :

الأول : الكتاب .

والثانى : السنة .

والثالث اجماع الأمة .

والدليل على العلم يكون باثبات ذات الله تعالى وصفاته المنزهة وأفعاله، لقوله تعالى : « فاعلم انه لا اله الا الله(١) » . وقال أيضا : « فاعلموا أن الله مولاكم(٢) » . وقال أيضا : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل(٣) » . وقال أيضـــا : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت(٤) » . ومثل هـــذه الآيات كثيرة ، وهى كلها دلائل على النظر فى أفعال الله تعـــالى وتقدس ، ليعرف بتلك الأفعال الفاعل بصفاته .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من علم أن الله تعالى ربه وأنى نبيه حرم الله تعالى لحمه ودمه على النار(٥) » .

أما العلم بذات الله تعالى فهو : أن يعلم العاقل والبالغ أن الله تعـــالى

---

(١) سورة « محمد » آية ١٩
(٢) سورة « الانفال » آية ٤٠
(٣) سورة « الفرقان » آية ٤٥
(٤) سورة « الغاشية » آية ١٧
(٥) رواه البزاز عن عمران : « من علم ان الله ربه وأني نبيه موقنا من قلبه حرمه الله على النار » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٠٦) .

موجود فى قدم ذاته ، ولا حد ولا حدود له . وأنه ليس فى مكان أو جهة ، وليست ذاته موجب آفة ، ولا شبيه له من خلقه،ولا صاحبة له ولا ولد. وكل ما يتصور فى الوهم ويقاس فى العقل فهو جل جلاله خالقه ، وما لكه ، وربه ، لقوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير(١) » .

وأما العلم بصفات الله فهو : أن تعلم بأن صفاته تعالى موجودة به ، فهى ليست هو ، ولا جزءا منه ، هى قائمة به ، وهو قائم بذاته ، ودائم : مثل العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والبقاء ، لقوله تعالى : « أنه عليم بذات الصدور(٢) » . وقال أيضا : « والله على كل شيء قدير »(٣) . وقال أيضا : « هو الحى لا اله الا هو »(٤) . وقال أيضا : « وهو السميع البصير »(٥) . وقال أيضا : « فعال لما يريد »(٦) . وقال أيضا : « قوله الحق »(٧) .

وأما العلم بأفعال الله فهو : أن تعلم أنه تعالى وتقدس خالق الخلق وخالق أفعالهم ، وأن العالم لم يكن موجودا وصار موجودا بفعله ، وهو مقدر الخير والشر ، وخالق النفع والضر ، لقوله تعالى : « خالق كل شيء »(٨) .

والدليل على اثبات أحكام الشريعة هو : أن تعلم أنه قد جاءنا رسل من الله تعالى بمعجزات ناقضة للعادة ، وأن رسولنا محمدا المصطفى صلى الله عليه وسلم حق ، وله معجزات كثيرة . وأن ما أخبرنا به من غيب وعيان كله حق .

والركن الأول من الشريعة : الكتاب ، لقوله تعالى : « منه آيات محكمات »(٩) .

والثانى : السنة ، لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(١٠) .

---

(١) سورة « الشورى » آية ١١ .
(٢) سورة « الشورى » آية ٢٤ .
(٣) سورة « البقرة » آية ٢٨٤
(٤) سورة « غافر » آية ٦٥ .
(٥) سورة « الشورى » آية ١١
(٦) سورة « هود » آية ١٠٧
(٧) سورة « الانعام » آية ٧٣
(٨) سورة « الرعد » آية ١٦
(٩) سورة « آل عمران » آية ٧
(١٠) سورة « الحشر » آية ٧

والثالث : اجماع الأمة ، لقوله عليه السلام : « لا تجتمع أمتى على الضلالة ، عليكم بالسواد الأعظم »(١) .

وفى الجملة : ان أحكام الحقيقة كثيرة ، واذا أراد أحد أن يجمعها كلها لا يستطيع ، لأنه لا نهاية للطائف الحق تعالى .

فصل : اعلم أنه توجد جماعة من الملحدة — لعنهم الله — يسمونهم السوفسطائية(٢) ، يذهبون الى أنه لا يصح العلم بأى شىء ، وأن العلم ذاته غير موجود .

ونقول لهم : هذا العلم الذى تعرفون أنه لا يصح به العلم بأى شىء : صحيح أم لا ؟ فاذا قالوا : نعم ، فقد أثبتوا العلم ، واذا قالوا : لا ، فالشىء الذى لا يصح ، تكون معارضته محالا . والكلام مع قائل ذلك لا يكون من العقل .

وهناك فريق من الملاحدة(٣) الذين ينتمون الى هذه الطريقة يقولون أن علمنا لا يصح بشىء ، فترك العلم أتم لنا من اثباته . وهذا من حمقهم وضلالتهم وجهلهم ، لأن ترك العلم لا يخرج عن اثنتين : اما أن يكون بعلم ، أو بجهل . والعلم لا ينفى العلم ، ولا يكون ضده . وترك العلم بالعلم محال . ويبقى هنا الجهل ، فاذا صح أن نفى العلم يكون جهلا ، وأن تركه يكون بالجهل ، والجاهل مذموم ، والجهل قرين الكفر ، فان — قولهم هذا — يكون باطلا ، اذ لا تعلق للحق بالجهل . وهذا مخالف لجميع المشايخ .

ولما سمع الناس هذا القول وعملوا به ، قالوا : ان مذهب جملة أهل التصوف هو هذا ، ومسلكهم هكذا ، حتى تشوش اعتقادهم ، وعجزوا عن تميز الحق من الباطل . وقد سلمنا الأمور كلها لله تعالى ليظلوا فى ضلالهم ،

---

(١) رواه ابن ماجه عن أنس : « ان أمتى لن تجتمع على ضلالة فاذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الاعظم » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٥١) .

(٢) « السوفسطائية » : ذكرهم ابن حزم على أنهم مبطلو الحقائق . انظر « الفصل » ج ١ ص ٨ . وفى « التعريفات » و « أقرب الموارد » : السفسطه والسفسطه — بفتح وكسر السين — (يونانية) قياس مركب من الوهميات ، والغرض من افحام الخصم واسكاته ج سفسطات . السفسطى من يأتى بالسفسطة . السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات وغيرها . (أنظر تعريفات الجرجانى ص ٦٨) .

(٣) « الملاحدة » : حيثما ذكر الهجويرى اسم الملاحدة فانه يقصد به الصوفية الادعياء الذين أحدثوا فى التصوف أمورا تتناقى مع ما يراه المحققون من الصوفية : من ذلك قولهم بالتحلل من الشرائع وسقوط التكاليف من عبادات وطاعات عمن بلغوا مرتبة الولاية ، وغير ذلك مما يتنافى مع الدين والشرع ، ويشير اليه الهجويرى فى موضعه.

فان يتيمكن الدين منهم ، فانهـم يتصوفون تصـوفا خيرا من هذا ، ولا يتجنبون حكم الرعاية ، ولا ينظرون الى أحباء الله عز وجل بهذه النظرة ، ويحتاطون فى أحوالهم أفضل من هذا .

واذا تعلق قوم من الملاحدة بهؤلاء الأحرار ليخلصوا أنفسهم من الآفات بجمالهم ، وليعيشوا فى ظل عزهم ، فلماذا يقيسون الكل عليهم ، ويختارون فى معاملتهم المكابرة العيـانية ، ويدوسون قدرهم — فى هذا الباب — بأقدامهم ؟

وقد جرت لى مناظرة مع دعى منتسب الى العلم ، أسمى تاج الرعونة عز العلم ، ومتابعة الهوى سنة الرسول عليه السلام ، وموافقة الشيطان سيرة الأئمة ، وقال فى مناظرته : ان الملاحدة اثنتا عشر طائفة ، واحدة منها بين المتصوفة . فقلت له : اذا كان بين المتصوفة طائفة واحدة من هؤلاء ، فان الاحـدى عشرة الأخرى بينكم ! وهم يستطيعون أن يحموا أنفسهم من طائفة ، أفضل مما تستطيعون أنتم حماية أنفسكم من الاحدى عشرة .

وكان هذا كله نتيجة لفتور الزمن ، والآفات التى ظهرت . وقد حفظ الله تعالى أولياءه دائما بين قوم ، وجعل أولئك القوم مهجورين بين الخلق من أجلهم . وما أجمل ما قال شيخ المشايخ وشمس المريدين « على بن بندار الصيرفى »(١) رحمة الله عليه : « فساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله »(٢) .

والآن : أورد فصلا فى أقاولهم ليكون تنبيها لمن للحق فى أمره عنـاية صادقة من منكرى هذه الطائفة ، وبالله التوفيق .

فصل : يقول محمد بن الفضل البلخى(٣) رحمه الله : « العلوم ثلاثة : علم من الله ، وعلم مع الله ، وعلم بالله »(٤) .

---

(١) أبو الحسن على بن بندار الصيرفى : كان من أجله شيوخ نسابور . صحب كثيرا من الشيوخ ، وكتب الحديث الكثير ورواه . مات سنة تسع وخمسين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٥٠١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ١١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٠٣) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس . مريد أحمد بن خضروية . كان من اجلة مشايخ خراسان . أصله من بلخ وأخرج منها بسبب المذهب فنزل سمرقند ومات بها سنة تسع عشرة وثلثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٢ ، الرسالة ج ١ ص ١١٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٧ ، نفحات الانس ص ١١٦) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية مع شرح آخر (انظر : ص ٢١٥) .

فالعلم بالله : هو علم المعرفة الذى عرفه به جميع أوليائه . ولو لم يكن تعريفه وتعرفه لما عرفوه ، لأن كل أسباب الاكتساب المطلق منقطعة عن الحق تعالى . ولا يصير علم العبد علة لمعرفة الحق ، لأن علة معرفته تعالى وتقدس انما هى أيضا هدايته واعلامه .

والعلم من الله : هو علم الشريعة ، وهو أمر وتكليف منه لنا .

والعلم مع الله : هو علم مقامات طريق الحق ، وبيان درجات الأولياء . فالمعرفة اذن لا تصح بدون قبول الشريعة ، وممارسة الشريعة لا تستقيم بغير اظهار المقامات .

ويقول أبو على الثقفى(١) رحمه الله : « العلم حياة القلب من الجهل ، ونور العين من الظلمة »(٢) .

أى أن العلم حياة القلب من موت الجهل ، ونور لعين اليقين من ظلمة الكفر . وكل من يجهل علم المعرفة قلبه ميت بالجهل ، وكل من يجهل علم الشريعة قلبه مريض بالجهل ، فقلوب الكفار ميتة لأنها جاهلة بالله تعالى ، وقلوب أهل الغفلة عليلة لأنها جاهلة بأوامره .

ويقول أبو بكر الوراق الترمذى(٣) رحمه الله : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد تزندق ، ومن اكتفى بالفقه دون الورع تفسق »(٤) .

والمراد بهذا القول أن تجريد التوحيد بلا معاملة ومجاهدة يكون جبرا ، والموحد يكون جبرى القول وقدرى الفعل ، ليصح مسلكه بين الجبر والقدر .

---

(١) اسمه محمد عبد الوهاب . لقى أبا حفص الحداد وحمدونا القصار ، كان أماما فى أكثر علوم الشرع ، مقدما فى كل فن منه . عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية وتكلم فيه أحسن الكلام . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٦١ ، الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٥، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨١ ، نفحات الانس ص ٢٠٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص١٩٢).

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٦٤) .

(٣) هو محمد بن عمر الحكيم . أصله من ترمذ وأقام ببلخ . لقى أحمد بن خضرويه وصحبه . وصحب محمد بن سعد بن ابراهيم الزاهد ، ومحمد بن عمر بن خشنام البلخى ، له الكتب المشهورة فى أنواع الرياضات والمعاملات والآداب . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٢١ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٨، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٠٢ ، نفحات الانس ص ١٢٣) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية على هذا النحو : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق ، ومن تفنن فى هذه الامور كلها تخلص » . (انظر طبقات الصوفية ص ٢٢٤) .

وهذا حقيقة ما قاله ذلك الشيخ ــ رحمة الله عليه : « التوحيد دون الجبر وفوق القدر » ، فكل من يكتفى من التوحيد بالعبارة دون المعاملة يصير زنديقا . أما الفقه فيشترط له الاحتياط والتقوى ، وكل من ينشغل بالرخص والتأويلات والتعلق بالشبهات ويحوم حول المجتهدين بلا مذهب ، للترخص ، سرعان ما يقع فى الفسق . وهذا كله يتأتى من الغفلة .

وحسنا قال شيخ المشايخ بن معاذ الرازى(١) رحمه الله : « اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والفقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين »(٢) .

أما العلماء الغافلون ، فهم أولئك الذين جعلوا الدنيا قبلة قلوبهم ، واختاروا السهولة من الشرع ، واتخذوا عبادة السلاطين وصيروا بلاطهم مطافهم ، وجعلوا جاه الخلق محرابهم ، وانخدعوا بغرور مهارتهم ، وشغلوا قلوبهم برقة كلامهم ، وأطلقوا لسان طعنهم فى الأئمة والأساتذة ، وانشغلوا بقهر علماء الدين بكلام مزيد عليه ، واذا وضعوا الكونين فى كفة ميزانهم لا بظهران ، ومن ثم صيروا الحقد والحسد مذهبا . وجملة القول : أن هذا كله لا يكون علما ، لأن العلم صفة تنتفى بها كل أنواع الجهل عن الموصـــوف .

وأما الفقراء المداهنون ، فهم أولئك الذين حين يكون فعل شخص موافقا لهواهم ، وان يكن باطلا ، فانهم يمدحونه به ، وحين يعمل عمـــلا على خلاف هواهم ، وان يكن حقا ، فانهم يذمونه به . وهم بمعاملتهم يطمعون فى الجاه من الخلق ، ويداهنونهم على الباطل .

وأما المتصوف الجاهل ، فهو الذى لم يصحب شيخا ، ولم يتلق الأدب عن كبير ، ولم يذق عرك الزمان له ، ويرتدى الأزرق بلا بصيرة ، ويلقى بنفسه بين (الصوفية) ، ويسلك فى الخزى طريق الانبساط فى صبحتهم ، وقد حمله حمقه على أن يظن الجميع مثله ، ومن ثم يشكل عليه طريق الحق والباطل .

وكان المراد من هذه الطوائف الثلاث التى ذكرها ذلك الموفق ، وأمر المريد

---

(١) أبو زكريا يحى بن معاذ بن جعفر الرازى الواعظ . نكلم فى علم الرجاء . وله كلام فى المعرفة . خرج الى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع الى نيسابور ومات بها ســـنة ثمان وخمسين ومائتين . وروى الحديث (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٧ ، الرسالة ج ١ ص ٩١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٤، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٩٨ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص١١٠)

(٢) ورد فى طبقات الصوفية مع تحريف فى كلمة « الفقراء » حيث وردت « القـــراء » (انظر : ص ١١٣) .

بالاعراض عن صحبتهم هو أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم ، وناقصين فى سلوكهم .

يقول أبو يزيد البسطامى(١) رحمه الله : « عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته »(٢) .

وفى الجملة : ان السير على النار أيسر على الطبع من السير على موافقة العلم ، وعبور الصراط ألف مرة يكون أسهل على قلب الجاهل من تعلم مسألة واحدة من العلم ، وضرب خيمة فى الجحيم أحب الى الفاسق من العمل بمسألة من العلم ، فليكن لزاما عليك تعلم العلم ، وطلب الكمال فيــــه .

وكمال علم العبد يكون جهلا الى جنب علم الله عز اسمه . ويجب أن تعلم كثيرا حتى تعلم أنك لا تعلم(٣) . ومعنى هذا أن العبد لا يستطيع أن يعلم الا علم العبودية ، والعبودية حجاب أعظم عن الألوهية .

ويقول واحد فى هذا المعنى :

(شـــعر عربى)

العجــز عن درك الادراك ادراك　　والوقف فى طــرق الأخيار اشراك

فمن لا يتعلم ويصر على الجهل يكون مشركا ، ومن يتعلم ويظهر له معنى فى كمال علمه ، ويزول غرور علمه ويعلم أنه لا عاقبة لعلمه سوى العجز فى طلب العلم — لأنه لا تأثير للتسميات فى حق المعانى — فعجزه هذا عن ادراك العلم ، ادراك للعلم ، والله أعلم .

---

(١) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان . كان جده سروشان مجوسيا فأسلم . فارسى الاصل من أهل بسطام ، ومن أوائل القائلين بالفناء والمروجين لوحدة الوجود ، ومذهبه يقوم على السكر . مات سنة احدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وستين ومائتين . (انظر ترجمتــه فى الباب الحادى عشر ، طبقــات الصوفية ص ٦٧ ، الرسالة ج ١ ص ٨٠ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦١ ، تذكر الاولياء ج ١ ص ١٣٤ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية ، وزيد عليه : « ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمه الا فى تجريد التوحيد » . (انظر : ص ٧٠) .

(٣) فى هذا المعنى يقول الشاعر الفارسى أبو شكور البلخى من شعراء العصر السامانى مباهيا بسعة علمه ومزريا بقصور علم البشر :

تا بــدانجا رسـيد دانش من　　كه بــدانم همى كه نادانم

والمعنى :

لقد بلغ علمى أن أعلم أنى جاهــل .

ويعزى مثل هذا القول الى حكماء اليونان ، وكان يردده سقراط .

الباب الثانى

باب الفقر

اعلم أن للفقر ، فى طريق الله عز وجل ، مرتبة عظمى . وللفقراء خطر كبير ، كما قال الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف »(١) . وقال أيضا : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء »(٢) . وقال أيضا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا »(٣) .

واختار الرسول صلى الله عليه وسلم الفقر ، وقال : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين »(٤) . وقال أيضا : يقول الله تعالى فى يوم القيامة : « أدنوا منى أحبائى . فيقول الملائكة : من أحباؤك ؟ فيقول فقراء المسلمين » .

ومثل هذه الآيات والروايات كثير ، الى حد أنها لشهرتها لا يحتاج لاثباتها لصحة الدلائل .

وكان الفقراء والمهاجرون فى وقت النبى عليه السلام هم أولئك الذين أقاموا فى مسجده فى حكم أداء العبودية ، وصحبة النبى عليه السلام ، وأعرضوا عن الأشغال كلية ، وقالوا بترك المعارضة ، واعتمدوا على الله تعالى فى رزقهم ، وتوكلوا عليه ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبتهم والقيام بحقهم ، قال عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »(٥) . وقال أيضا : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا »(٦) الى حد أن

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .
(٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .
(٣) سورة « السجدة » آية ١٦ .
(٤) رواه الحاكم فى المستدرك من أبى سعيد (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٣) .
(٥) سورة « الأنعام » آية ٥٢ .
(٦) سورة « الكهف » آية ٢٨ .

كان الرسول عليه السلام حيثما يرى واحدا منهم يقول : بأبى وأمى أولئك الذين عاتبنى الله تعالى من أجلهم .

فالله تعالى قد أعطى للفقر مرتبة ودرجة عظمى ، وخص الفقراء بها ، حتى قالوا بترك الأسباب الظاهرة والباطنة ، ورجعوا الى المسبب كلية ، وصار فقرهم فخرا لهم ، الى حد أنهم بكوا لزواله ، وفرحوا لقدومه ، واعتنقوه ، واحتقروا كل شيء عدا أخواته(١) .

أما الفقر فله حقيقة ورسم(٢) : ورسمه الافلاس الاضطرارى ، وحقيقته الاقبال الاختيارى فمن رأى الرسم ركن الى الاسم ، فلما لم يدرك المراد جفل عن الحقيقة . ومن أدرك الحقيقة أعرض عن الموجودات ، وأسرع الى فناء الكل فى رؤية الكل ببقاء الكل : « من لم يعرف سوى رسمه ، لم يسمع سوى اسمه » .

فالفقير هو الذى لا يملك شيئا قط ، وليس له خلل فى شيء ، وهو لا يصير غنيا بوجود الأسباب ، ولامحتاجا الى سبب بعدمها ، فوجود الأسباب وعدمها لدى فقره سواء وان يكن فى العدم أكثر سعادة ، فجائز أيضا ، لأن المشايخ قالوا : كلما يكون الفقير أضيق يدا يكون الحال أكثر فتحا عليه . فوجود المعلوم شؤم للفقير ، الى حد أنه لا يجعل أى شيء فى قيده الا ويكون هو أيضا فى القيد بذلك القدر . فحياة أحباب الحق مع الحق تكون بالألطاف الخفية ، والأسرار البهية ، لا بآلات الدنيا الغدارة ، والدار الفجارة ، فالمتاع مناع عن طريق الرضا .

ويرد أنه اتفق لفقير لقاء ملك ، فقال الملك : سلنى حاجة . قال الفقير : أنا لا أسأل عبدا لعبيدى حاجة ! قال الملك : كيف ؟ قال : لى عبدان كلاهما سيد لك : أحدهما الحرص ، والآخر طول الأمل .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الفقر عز لأهله » ، فالشيء الذى يكون عزا للأهل ، يكون ذلا لغير الأهل . وعزه هو أن الفقير يكون محفوظ

---

(١) قيل أن رجلا أتى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه ، وقال له: تريد أن يمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل . (الرسالة ج ٢ ص ٥٣٨) .

(٢) يشير بالرسم الى الفقر المادى ، وبالحقيقة الى الفقر المعنوى . والفقر المادى هو التخلى عن الاسباب ، والفقر المعنوى هو الافتقار الى الله . والفقير الحقيقى هو الذى يفتقر فى وجوده الى الله ، وهو لا يصبح غنيا بوجود الاسباب ، ولا يصير محتاجا بانعدامها ، لان من طبيعة المخلوق الافتقار الى الخالق سواء ملك شيئا او لم يملك ، وكل من يدرك هذه الحقيقة يسرع بالتخلى عن جميع الاسباب ، ويتجه الى مسبب الاسباب ، الغنى الحقيقى ، ليبقى له الغنى به .

الجوارح من الزلل ، ومحفوظ الحال من الخلل ، فلا المعصية والزلل تجرى على جسده ، ولا الخلل والآفة على حاله ، لأن ظاهره مستغرق فى النعم الظاهرة ، وباطنه منبع للنعم الباطنة . وطالما كانت نفسه روحانية وقلبه ربانيا فليس للخلق اليه حوالة ، ولا لآدم اليه نسبة ، حتى يكون فقيرا من حوالة الخلق ونسبة آدم . وهو لا يصير غنيا بملك هذا العالم فى الدنيا ، أو بملك ذلك العالم فى الأخرى . والكونان فى كفة ميزان فقره لا يزنان جناح بعوضة ، وكلا العالمين لا يتسعان لنفس واحد من أنفاسه .

فصل : وقد اختلف شيوخ الصوفية رحمهم الله فى الفقر والغنى ، وأيهما أفضل فى صفات الخلق ، لأن الله تعالى غنى على الحقيقة ، وله الكمال جل جلاله فى جميع أوصافه .

ويحيى بن معاذ الرازى ، وأحمد بن أبى الحوارى(١) ، والحارث المحاسبى(٢) ، وأبو العباس بن عطاء(٣) ، ورويم(٤) ، وأبو الحسن بن شمعون(٥) ، ومن المتأخرين شيخ المشايخ أبو سعيد فضل الله بن محمد

---

(١) أحمد بن أبى الحوارى : من أهل دمشق . كان له أخ يقال له محمد بن أبى الحوارى بجرى مجراه فى الزهد والورع ، وابنه عبد الله بن أحمد من الزهاد ، وأبوه أبو الجوارى كان من العارفين الورعين ، فبينهم بيت الورع والزهد . توفى سنة ثلاثين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩٨ ، الرسالة ج ١ ص ٩٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٦ ، نفحات الانس ص ٦٥) .

(٢) كنيته : أبو عبد الله ، كان من علماء مشايخ القوم ، عالما بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والاشارات ، عديم النظير فى زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا . بصرى الاصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال عنه الغزالى : المحاسبى خبر الامة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٥٦، الرسالة ج ١ ص ٧٢ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٢٥ ، نفحات الانس ص ٥١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٢).

(٣) اسمه : سهل بن محمد . من كبار متايخ الصوفية وعلمائهم . له لسان فى فهم القرآن يختص به . كان من أقران الجنيد ، صحب ابراهيم المارستانى . مات سنة تسع وثلثمائة (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٦٥ ، الرساله ص ١٣٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٧، نفحات الانس ص ١٤١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٥) .

(٤) رويم بن أحمد بن يزيد . كنيته : أبو محمد . من أهل بغداد . كان مقرئا وفقيها على مذهب داود . مات سنة ثلاث وثلثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٨٠ ، الرسالة ج ١ ص ١١٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٤ ، نفحات الانس ص ٩٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

(٥) ورد اسمه فى نفحات الانس : « أبو الحسين بن سمعون » . ترجم له الجامى فذكر أن اسمه محمد بن أحمد بن اسماعيل بن سمعون ، كان يلقب بالناطق بالحكمه . من مشايخ بغداد . توفى سنة ست أو سبع وثمانين وثلثمائة (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

الميهنى(١) ، رحمة الله عليهم أجمعين ، على أن الغنى أفضل من الفقر ، ويستدلون بأن الغنى صفة للحق تعالى ولا يجوز عليه الفقر ، فالصفة التى تكون مشتركة — فى المحبة — بين العبد والله تعالى ، أتم من الصفة التى لا تجوز عليه تعالى وتقدس .

ونقول : ان هذه المشاركة فى الاسم لا فى المعنى ، لأنه يلزم المماثلة للمشاركة فى المعنى ، ولما كانت صفاته قديمة وصفات الخلق محدثة ، فهذا الدليل يكون باطلا .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله بالخير — أقول : ان الغنى اسم لائق بالحق ، ولا يستحق الخلق هذا الاسم . والفقر اسم لائق بالخلق ، ولا يجوز على الحق . ومن يسمونه غنيا على المجاز لا يكون كالغنى على الحقيقة .

والدليل الأوضح هو : أن غنانا يكون بوجود الأسباب ، ونكون نحن مسببين فى حال قبول الأسباب ، وهو مسبب الأسباب ، وليس لغناه سبب ، فالمشاركة فى هذه الصفة باطلة .

وأيضا : لما كانت المشاركة فى العين لا تجوز لأحد معه ، فهى أيضا لا تجوز فى الصفة ، وبما أنها لا تجوز فى الصفة ، فهى لا تجوز فى الاسم . وتبقى بعد ذلك : التسمية ، والتسمية علامة بين الخلق ، ولها حد .

فالغنى لله تعالى هو أنه لا حاجة له بأى أحد أو شىء ، ويفعل ما يريد ، وليس لمراده دافع ، ولا لقدرته مانع ، وهو قادر على قلب الأعيان ، وخلق الضدين ، وكان ولا يزال دائما بهذه الصفة .

وغنى الخلق : منال معيشة ، أو وجود مسرة ، أو نجاة من آفة ، أو راحة بمشاهدة ، وهذا كله محدث ومتغير ، وأصل الطلب والحسرة ، وموضع العجز والتذلل .

اذن : فهذا الاسم للعبد مجاز(٢) ، وللحق تعالى حقيقة ، لقوله تعالى :

---

(١) سبق ذكره فى القسم الاول ، ترجمته فى الباب الثانى عشر ، تذكرة الاولياء ، جـ ٢ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٣٠٠ ، رياض العارفين ص ٤٨ ، خزينة الاصفياء جـ ٢ ص ٢٢٨) .

(٢) يتفق الامام الغزالى مع الهجويرى فى رفض اسم الغنى للانسان ويسميه : المستغنى، ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شىء ، ويقول ان المستغنى ان سمى غنيا ، لم يكن هذا الغنى مطلقا عليه الا مجازا . (احياء علوم الدين جـ ٤ : انظر ص ١٦٥).

« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله »(١) . وقال أيضا : « والله الغنى وأنتم الفقراء »(٢) .

وتقول طائفة من العوام أيضا : أننا نفضل الغنى على الفقير لأن الله تعالى خلقه سعيدا فى الدارين ، ومن عليه بالغنى . وهذه الطائفة تريد هنا بالغنى كثرة المتاع ، وادراك الغايات ، ومتابعة الشهوات . ويدللون على هذا بأن الله أمر بالشكر على الغنى ، والصبر فى الفقر ، فالصبر يكون فى البلاء ، والشكر يكون فى النعماء ، والنعماء فى الحقيقة أفضل من البلاء .

ونحن نقول : ان (الله) أمر بالشكر على النعمة ، وجعل الشكر علة لزيادة النعمة . وأمر بالصبر على الفقر ، وصير الصبر علة لزيادة القربة ، لقوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم »(٣) . وقال أيضا : « ان الله مع الصابرين »(٤) ، فكل من يشكر فى نعمة أصلها الغفلة ، نزيده غفلة على غفلة ، وكل من يصبر فى فقر أصله البلية ، نزيده قربة على قربة .

أما الغنى الذى يفضله المشايخ على الفقر ، فليس مرادهم ما يسميه العوام بالغنى ، لأن هذا الغنى ادراك للنعم ، وذاك ادراك للمنعم ، فادراك الوصل شيء ، وادراك الغفلة شيء آخر .

ويقول الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير رحمه الله : « الفقر هو الغنى بالله » ، والمراد بهذا : الكشف الأبدى بمشاهدة الحق(٥) .

ونقول : ان المكاشف ممكن الحجاب ، فاذا حجب (الله) صاحب المشاهدة عن المشاهدة ، فهو : اما أن يحتاج اليها ، أو لا يحتاج . فاذا قال : لا يحتاج ، يكون هذا محالا ، واذا قال : يحتاج ، نقول : اذا جاء الاحتياج سقط الغنى .

وأيضا : الغنى بالله قائم الصفة وثابت المراد ، وباقامة المراد واثبات أوصاف الآدمية لا يصح الغنى ، لأن عين هذا نفسه غير قابل للغنى ، لأن وجود البشرية عين الحاجة ، وعلامة الحدث عين الاحتياج ، فالباقى الصفة

---

(١) سورة « فاطر » آية ١٥ .
(٢) سورة « محمد » آية ٣٨ .
(٣) سورة « ابراهيم » آية ٧ .
(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٣ .
(٥) فى هذا اشارة الى ما حدث بين أبى سعيد بن أبى الخير وأبى مسلم الفارس عندما دخل على أبى سعيد فوجده جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية فاخرة ، فقال أبو مسلم فى نفسه : هذا الرجل يدعى الفقر ؟ فأدرك ابو سعيد ما يجول بخاطره وقال له : « يا أبا مسلم ، فى أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما فى مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ » انظر ترجمة أبى سعيد فى الباب الثانى عشر) .

محو الغنى ، والفانى الصفة لا يليق لأى اسم . فالغنى بالله : فاعل ، ومن أغناه الله ، مفعول ، والفاعل يقوم بنفسه ، والمفعول يقوم بالفاعل ، والقيام بالنفس صفة البشرية ، والقيام بالحق محو الصفة .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — هكذا أقول : لما صح أن الغنى على الحقيقة لا يصح على بقاء الصفة ، لأن بقاء الصفة — بالأدلة المذكورة — محل العلة وموجب الآفة ، وبما أن فناء الصفة نفسه لا يكون غنى ، لأن كل مالا يبقى بنفسه لا يسمى ، وبما أنه يلزم للغنى فناء الصفة ، فاذا فنيت الصفة سقط محل الاسم ، فانه لا يقع على هذا الشخص أسم الفقر ولا اسم الغنى .

وأيضا : يفضل كل المشايخ وكثير من العوام الفقر على الغنى ، لأن الكتاب والسنة ناطقان بفضله ، وكثرة من الأمة مجتمعة على ذلك .

وقد وجدت فى الحكايات(١) أنه ذات يوم ، كان يجرى للجنيد وابن عطاء — رحمة الله عليهما — حديث فى هذه المسألة ، فقدم ابن عطاء الدليل على أن الأغنياء أفضل ، لأنهم يحاسبون فى القيامة ، واسماع الحساب يكون كلام الله بلا واسطة فى محل العتاب ، والعتاب يكون من الحبيب للحبيب . فقال الجنيد : اذا كانوا يحاسبون الأغنياء ، فانهم يعتذرون للفقراء ، والعذر أفضل من عتاب الحساب . وهنا لطيفة عجيبة !

ونقول انه فى تحقيق المحبة يكون العذر غربة ، والعتاب مخالفة ، والأحبة فى محل يبدو فيه هذان آفة فى أحوالهم ، لأن العذر يكون عن موجب تقصير صدر من الحبيب فى حق الحبيب ، وعندما يطلب منه الحبيب حقه يعتذر اليه . والعتاب يكون على موجب تقصير جرى من الحبيب فى أمر الحبيب ، وعندئذ يعاتبه الحبيب على ذلك التقصير . وكلاهما محال .

وفى الجملة : الفقراء مطالبون بالصبر ، والأغنياء بالشكر . وفى تحقيق المحبة لا الحبيب يطلب شيئا من الحبيب ، ولا الحبيب يضيع أمر الحبيب .

اذن : « ظلم من سمى ابن آدم أميرا وقد سماه ربه فقيرا » ، فمن أسماه الحق فقيرا فهو فقير ، وان يكن أميرا ، وهلك من يخال أنه غير أسير ، وان يكن مكانه التخت والسرير ، لأن الأغنياء أصحاب صدقة ، والفقراء أصحاب صدق ، ولا يكون الصدق أبدا كالصدقة . ففقر سليمان

---

(١) مجموعة من الحكايات من تصنيف بعض شيوخ العراق . والهجويرى ينقل عنها ، ويذكرها مرة باسم : الحكايات ، ومرة باسم : حكايات العراقيين .

فى الحقيقة مثل غنى سليمان ، لأن (الله) قال لأيوب فى شدة صبره : « نعم العبد »(١) ، وقال لسليمان فى استقامة ملكه : « نعم العبد »(٢) ، فلما حصل رضا الرحمن جعل فقر سليمان مثل غنى سليمان .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيرى(٣) رضى الله عنه يقول : تكلم كل من الناس فى الفقر والغنى ، واختار لنفسه شيئا ، وأنا أختار ما يختاره لى الحق ، ويجعلنى فيه ، فاذا جعلنى غنيا لا أكون غافلا ولا تاركا ، واذا جعلنى فقيرا لا أكون حريصا ولا معرضا .

فالغنى نعمة ، والاعراض فيه آفة . والفقر نعمة ، والحرص فيه آفة . والمعانى كلها طيبة ، والمذاهب فيها مختلفة .

والفقر فراغ القلب من الغير ، والغنى انشغال القلب بالغير ، وعندما يتأتى الفراغ ، فلا الفقر أولى من الغنى ، ولا الغنى أولى من الفقر .

والغنى كثرة المتاع ، والفقر قلة المتاع ، والمتاع كله لله ، فاذا قال الطالب بترك الملكية ، زالت المشاركة من البينية ، وفرغ من كلا الاسمين .

فصل : ولكل من مشايخ الطريقة رمز فى هذا المعنى ، وأورد بقدر الامكان أقاويلهم فى هذا الكتاب ، ان شاء الله عز وجل .

يقول واحد من المتأخرين : « ليس الفقير من خلا من الزاد ، انما الفقير من خلا من المراد » .

أى أن يعطيه الله تعالى مالا ، فاذا كان مراده حفظ المال ، يكون غنيا ، واذا كان مراده ترك المال ، يكون غنيا أيضا ، لأن كلا الأمرين تصرف فى ملك الغير ، والفقر ترك التصرف .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « علامة الفقر خوف زوال الفقر(٤) » .

أى أن علامة صحة الفقر ، أن العبد فى كمال الولاية ، وقيام المشاهدة

---

(١) سورة « ص » آية ٤٤ .
(٢) سورة « ص » آية ٣٠ .
(٣) سبق ذكره فى القسم الاول (انظر : ص ، انظر ترجمته فى الباب الثانى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩٩ ، نفحات الانس ص ٣١٢ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٣٥) .
(٤) ورد فى الرسالة : « قيل ليحيى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .

وفناء الصفة ، يخشى الزوال والقطيعة ، ثم يصل به كمال الحال الى حد أنه لا يخشى القطيعة .

ويقول رويم رحمه الله : « من نعت الفقير حفظ سره ، وصيانة نفسه ، وأداء فرائضه(١) » .

أى أن سره يكون محفوظا من الأغراض ، وجسده مصونا من الآفات ، وتكون أحكام الفرائض جارية عليه، بحيث أن ما يجرى على الأسرار لايشغل الأظهار ، وما يجرى على الأظهار لا يشغل الأسرار ، ولا تمنعه غلبة ذلك عليه من انفاذ الأمر .

وهذا علامة زوال البشرية ، لأن كل العبد يصير موافقا للحق ، وهذا أيضا يصير بالحق .

ويقول بشر الحافى(٢) رضى الله عنه : « أفضل المقامات : اعتقاد الصبر على الفقر(٣) » .

وهذا الصبر والاعتقاد من جملة مقامات العبد ، والفقر فناء مقامات العبد . فاعتقاد الصبر على الفقر علامة رؤية آفات الأعمال ، وسمة فناء الأوصاف .

أما معنى ظاهر هذا القول ، فهو تفضيل الفقر على الغنى ، والاعتقاد بعدم الاعراض أبدا عن الفقر .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقير لا يستغنى بشىء دون الله(٤) » ، لأنه لا يكون له مراد غيره .

وظاهر اللفظ هو أنك لا تدرك الغنى الا به ، فاذا أدركته صرت غنيا ، ووجودك دونه ، ولن تدرك الغنى الا بترك دونه ، واذا وجدت أنت ، صرت حجابا للغنى ، واذا زلت من الطريق ، كيف تكون غنيا ؟ .

---

(١) ورد فى الرسالة : « نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره ، وأداء فرائضه ، وصيانة فقره » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان . كنيته : أبو نصر . أصله من مرو وسكن بغداد . من الطبقة الاولى من الصوفية . مات سنة سبع وعشرين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٨ ، طبقات الصوفية ص ٣٩ ، الرسالة ج ١ ص ٦٨ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٩٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٠٦ ، نفحات الانس ص ٤٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٣٧) .

(٣) ورد بنصه فى الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٤١) .

(٤) ورد فى الرسالة : « سئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى العبد بشىء دون الحق » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

وهذا المعنى — فى الحقيقة — غامض جدا ، ولطيف عند اهل المعنى . وحقيقة معنى أن « الفقير لا يستغنى عنه » : ان الفقير هو من لا يكون له غنى أبدا .

وهو نفس المعنى الذى ذكره ذلك الشيخ(١) حيث قال : همنا أبدى ، فلا همتنا تدرك المقصود أبدا ، ولا كليتنا تصير عدما فى الدنيا والآخرة ، لأنه يلزم لادراك الشيء ، المجانسة ، ولا مجانس للحق . ويلزم للاعراض عن حديثه الغفلة ، والفقير ليس غافلا .

اذن : قد وقع بلاء دائم ، وعرض طريق مشكل ، وذلك هو محبة من لا سبيل لأحد الى رؤيته ، ووصاله ليس من جنس مقدور الخلق .

والفناء لا يجرى عليه التبديل ، والبقاء لا يجوز عليه التغيير ، فلا الفانى يصير باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقى يصير فانيا حتى يكون القرب . وأمر احبائه من أوله الى آخره هو أنهم صاغوا عبارات مزخرفة لتسلى قلوبهم ، وبينوا المقامات والمنازل والطريق ، لراحة أرواحهم ، فعباراتهم منهم واليهم ، ومقاماتهم من جنسهم لجنسهم ، والحق تعالى منزه عن أوصاف الخلق وأحوالهم .

ويقول أبو الحسن النورى(٢) رحمه الله : « نعت الفقير ، السكون عند العدم ، والبذل عند الوجود(٣) » .

فمن مراده لقمة حين يعجز عن مراده يسكن قلبه ، وحين تظهر اللقمة يعطيها لمن يراه أولى منه .

وفى هذا القول معنيان : فسكونه فى حال العدم : رضا ، وبذله فى حال الوجود : محبة ، لأن الراضى يكون قابلا للخلعة ، وفى الخلعة علامة القرب . والمحب تارك للخلعة ، لأن فى الخلعة علامة الفراق ، فسكونه فى العدم

---

(١) ورد فى الهامش أن المقصود بذلك الشيخ : « خواجه » عبد الله الانصارى .

(٢) اسمه : أحمد بن محمد . خرسانى الاصل ، بغدادى المنشأ والمولد . يعرف بابن البغوى . كان من أقران الجنيد . صحب سريا السقطى ، ورأى أحمد بن أبى الحوارى . توفى سنة خمس وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٦٤ ، الرسالة ج ١ ص ١١٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٤٦ ، نفحات الانس ص ٧٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٩) .

(٣) ورد فى « التعرف » : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والايثار عند الوجود (أنظر : ص ٩٦) ، وورد فى « الرسالة » : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والايثار عند الوجود (أنظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

انتظارا للوجود ، فاذا وجد كان غيره ، وهو لا يستريح مع الغير ، فيقول بتركه .

وهذا هو معنى قول شيخ المشايخ أبى القاسم الجنيد بن محمد : « الفقر : خلو القلب عن الأشكال » ، فحين يخلو القلب عن الانشغال بالشكل والشكل موجود ، فما الوجه سوى طرحه ؟ .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كل عز (١) » .

والعز نصيب الغير ، والمبتلى فى عين البلاء . وأى خبر للمبتلى عن العز الى أن ينظر من البلاء الى المبلى ، وعندئذ يصير بلاؤه كله عزا ، وعزه كله وقتا ، ووقته كله محبة ، ومحبته كلها مشاهدة ، حتى أن دماغ الطالب يصبح — بسبب غلبة الخيال — محلا للرؤية ، فيصير مبصرا بلا عين ، وسامعا بلا أذن .

وما أعز العبد الذى يتحمل عبء بلاء الحبيب ، لأن البلاء عز على الحقيقة والنعماء ذل . والعز هو أن يكون — الفقير — حاضرا بالحق ، والذل أن يكون غائبا عنه .

وبلاء الفقر علامة الحضور ، وراحة الغنى علامة الغيبة ، فالحاضر بالحق عزيز ، والغائب عن الحق ذليل ، لأن الأمر الذى يكون بلاؤه المشاهدة ، ورؤيته الأنس يكون التعلق به ، بأى صفة ، غنيمة .

ويقول الجنيد رحمه الله : « يا معشر الفقراء : انكم انما تعرفون بالله ، وتكرمون لله ، فانظروا كيف تكونون مع الله اذا خلوتم به » .

أى أنه حين يسميكم الخلق فقراء فانهم يوفونكم حقكم ، فكيف تؤدون أنتم حق طريقة الفقر ؟ واذا دعاكم الخلق باسم آخر على خلاف دعواكم ، فلا تروا ذلك منهم ، لأنكم أيضا لا تنصفون دعواكم ، لأنه لا أسوأ ممن يعرف الخلق أنه للحق ولا يكون له ، ولا أسعد ممن يعرف الخلق أنه للحق وهو له ، والأعز (من ذلك) من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو له .

ومثل من يعرف الخلق أنه للحق ولا يكون له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يلزمه طبيب آخر .

ومثل من يعرف الخلق أنه للحق وهو له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يعرف دواء نفسه ويفعله .

---

(١) ورد فى اللمع (أنظر ص ٢٩٢) .

ومثل من لا يعرف الخلق انه للحق وهو لاحق ، كمثل من يكون طبيبا ولا علم للخلق به ، وهو فارغ من الانشغال بالخلق ، ويحفظ نفسه جيدا بالأغذية الموافقة ، والأشربة الطيبة ، والمفرحات[1] الملائمة ، والأهوية المعتدلة حتى لا يمرض ، وتكون أعين الخلق كلهم مغمضة عن أحواله .

ويقول بعض المتأخرين : « الفقر عدم بلا وجود » . والعبارة منقطعة عن هذا القول ، لأن المعدوم لا يكون شيئا ، ولا يمكن التعبير الا عن شيء . والصورة هنا أن الفقر ليس بشيء ، ولا تكون عبارات كل أولياء الله تعالى واجماعهم على أصل يكون فى عين ذاته فانيا ومعدوما .

ولا يريدون هنا ، من هذه العبارات عدم العين ، بل عدم الآفة من العين . وكل أوصاف الآدمى آفة ، وعندما تنتفى الآفة ، يكون ذلك فناء الصفة . وفناء الصفة يرفع من أمامهم آلة الوصول وعدم الوصول ، فيظهر لهم عدم السلوك بالعين نفيا للعين ، ويهلكون فى ذلك .

ورأيت جماعة من المتكلمين لم يفقهوا صورة هذا المعنى ، وكانوا يضحكون منه ويقولون : ان هذا الكلام غير معقول . ورأيت جماعة من المدعين كانوا قد اعتقدوا شيئا غير معقول — ولم يكن أصل الطريقة معلوما لهم — وكانوا يقولون : الفقر عدم بلا وجود . وكان كلا الفريقين على خطأ: أنكر أحدهما الحق جهلا ، وجعل الآخر الجهل حالا ، وظهر به .

والمراد بالعدم والفناء فى عبارات هذه الطائفة — اى الصوفية — فناء الآلة المذمومة والصفة المرذولة فى طلب الصفة المحمودة ، لا عدم المعنى بوجود آلة الطالب .

وفى الجملة : الفقير فى كل معانى الفقر عارية ، وفى كل الأسباب أصل غريب ، ولكنه طريق الأسرار الربانية ، لتكون أموره من كسبه ، ويكون للفعل نسبة له ، وللمعانى اضافة اليه . وإذا تخلصت أموره من قيد

---

(1) مفرحات ج مفرح : اسم دواء كان يطلق عليه (مفرح ياقوت) لعلاج القلب .
يقول الحافظ الشيرازى :

علاج ضعف دل ما بلب حوالت كن   كه اين مفرح ياقوت در خزانه تست

والمعنى :
أحيلى علاج ضعف قلوبنا على شفتيك ، لأن هذال (مفرح ياقوت) فى خزانتك .
وفى هذا البيت اشارة لطيفة الى ما بين اسم الدواء (مفرح ياقوت) ولون الشفتين المشبهتين بالياقوت ، من المشاركة .
غزليات حافظ شيرازى : تحقيق القزوينى وقاسم غنى ص ٢٥ .

كسبه ، تنقطع عنه نسبة الفعل ، وعندئذ يكون هو طريق الشىء الذى يمر عليه ، لا سالك ذلك الطريق ، فهو لا يجلب لنفسه شيئا ، ولا يدفع عن نفسه شيئا ، وما يدل عليه كله للغير .

ورأيت فريقا من المدعين أرباب اللسان ، كان يبدو نفى ظنهم عن ادراك تلك الطريقة نفيا للوجود ، وهذا نفسه عزيز جدا . ورأيت أن نفى مرادهم عن حقيقة الفقر كان يبدو نفيا للصفة فى عين الفقر . ورأيت أنهم كانوا يسمون نفى الحق والحقيقة ، فقرا وصفوة . ورأيت أن اثبات هواهم كان يبدو نفيا للكل . وقد تخلف كل منهم فى درجة من حجب الفقر ، لأنه ظن هذا الحديث علامة كمال الولاية للرجل ، ورائحة هذا الحديث غاية الغايات ، والتولى لعين هذا محل الكمال .

اذن : فلا مناص لطالب هذه الطريقة من سلوك طريقهم ، وطى مقاماتهم ، ومعرفة عباراتهم ، حتى لا يكون عاميا فى محل الخصوصية ، لأن عوام الأصول عن الأصول معرضون ، وعوام الفروع عن الفروع عاجزون ، وكيف ينسب للأصول من قعد عن الفروع ؟ انه عندما يعجز عن الأصول لا تبقى له نسبة لأى مكان . وقد قلت هذا كله لتسلك طريق هذه المعانى ، وتنشغل برعاية حق هذا .

والآن أورد طرفا من أصول هذه الطائفة فى باب التصوف ، ثم أجىء بأسامى الرجال ، ثم أبين أحكام الحقائق والمعارف والشرائع ، ثم آتى باختلاف المذاهب ومشايخ المتصوفة ، ثم أشرح بقدر الامكان آدابهم ورموزهم ومقاماتهم ، لينكشف لك وللقراء حقيقة هذا ، وبالله التوفيق .

الباب الثالث

باب التصوف

قال الله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين(٢) » .

وقد تكلم الناس فى تحقيق هذا الاسم كثيرا ، وألفوا كتبا فى ذلك . وقالت جماعة ان الصوفى يسمى بالصوفى لأنه يلبس ثياب الصوف ، وقالت جماعة انهم سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول ، وقالت طائفة انهم سموا كذلك لأنهم يتولون أهل الصفة ، وقال آخرون ان هذا الاسم مشتق من الصفاء . ولكن هذا الاسم — على مقتضى اللغة — بعيد عن هذه المعانى(٣) .

والصفاء فى الجملة محمود ، وضده الكدر . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها(٤) » .

واسم لطائف الأشياء : صفوها ، واسم أوضارها : كدرها ، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فانهم سموا صوفية ، وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام ، لأن خطر أهله أجل من أن يمكن اخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم اشتقاق .

وقد حجب الله عز وجل — فى عصرنا هذا — أكثر الخلق عن هذه الطريقة وأهلها ، وأخفى لطائفها عن قلوبهم ، حتى ليظن جماعة أن هذه الرياضة

---

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .

(٢) لم أجد له سندا .

(٣) يقول الكلاباذى ان معانى هذه الاسماء كلها فى أسامى القوم ، وان كانت الالفاظ متغيرة ، لأنها ان أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وان أضيفت الى الصف والصفة ، كانت صفية وصفية . ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصفية والصفية من تناول الألسن . وان جعل مأخذه من الصوف : استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة (التعرف : أنظر ص ٢٤ ، ٢٥) .

(٤) ورد فى الرسالة عن أبى جحيفة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال : « ذهب صفو الدنيا وبقى الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » (الرسالة : أنظر ج ٢ ص ٥٥٠) .

هى مجرد صلاح الظاهر دون مشاهدة الباطن ، وتظن جماعة أخرى أن هذا الأمر حيلة ورسم بلا حقيقـــة وأصل ، الى حد أنهم ارتكبـــوا المنـــكر أمام أهل الهزل وعلماء الظاهر ، وفرحوا باخفـــاء الأمر ، حتى قلدهم العوام ومحوا عن قلوبهم طلب صفاء الباطن ، ووضعوا مذهب السلف والصحابة على الرف .

(شـــعر عربى)

ان الصفاء صفة الصـــديق   ان أردت صوفيا على التحقيق

لأن الصفاء أصلا وفرعا ، وأصله : انقطاع القلب عن الأغيار ، وفرعه : خلو اليد من الدنيا الغادرة . وهاتان صفتا الصديق الأكبر أبى بكر عبد الله ابن أبى قحافة رضى الله عنه ، لأنه كان امام أهل هذه الطريقة ، فكان من انقطاع قلبه عن الأغيار ، أن كل الصحابة انكسرت قلوبهم برحلة النبى عليه السلام الى الحضرة الأعلى والمكان المصفى ، وسل عمر رضى الله عنه سيفه قائلا : كل من يقول ان محمدا قد مات أقطع رأســـه . فخرج الصديق الأكبر وصاح قائلا : ألا من عبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن عبد رب محمد فانه حى لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد الا رســـول قد خلت من قبله الرســـل أفان مات أو قتـــل انقلبتم على أعقابكم »(١) .

ذلك أن من يتعلق بفان يفنى ويصير كل تعبه هباء ، ومن يطلق روحه الى حضرة الباقى فانه حين تفنى النفس ، يبقى قائما بالبقاء .

فمن نظر الى محمد بعين الآدمية ، فانه حين رحل محمد عن الدنيا ، ذهب من قلبه تعظيم العبودية ورحل معه ، ومن نظر اليـــه بعين الحقيقة استوى لديه ذهابه ووجوده ، لأنه فى حال البقاء رأى بقاءه بالحق ، وفى حال الفناء رأى فناءه بالحق — فأعرض عن المحول وأقبل على المحول — فعظمه بمقدار اكرام الحق له ، ولم يربط سويداء قلبه بأحد ، ولم يفتح سواد عينه على الخلق ، فقد قيل : « من نظر الى الخلق هلك ، ومن رجع الى الحق ملك » ، لأن النظر الى الخلق علامة الهلك ، والرجوع الى الحق علامة الملك .

أما خلو يده من الدنيا الغدارة ، فهو أنه أعطى كل ما كان يملك من مال ومنال ومآل ، وارتدى الكليم ، وجاء الى النبى عليه السلام فقال له النبى

---

(١) سورة « آل عمران » آية ١٤٤

عليه السلام : « ما خلفت لعيالك ؟ فقال الله ورسوله(١) » فلما تحرر قلبه من التعلق بصفو الدنيا ، أخلى يده من كدرها .

وهذا كله صفة الصوفى الصادق ، وانكار هذا كله انكار للحق ، ومكابرة فى العيان .

وقد قلت ان الصفاء ضد الكدر ، والكدر من صفات البشر . والصوفى حقا من اجتاز الكدر ، كما حدث فى حال الاستغراق فى مشاهدة يوسف عليه السلام ولطف جماله ، فغلبت البشرية على نساء مصر ، وارتدت الغلبة الى العكس ، فلما وصلت غايتها بلغت نهايتها ، ولما بلغت نهايتها تجاوزتها ، ونظرن بفناء بشريتهن فقلن : « ما هذا بشر »(٢) فأشرن اليه ، وعبرن عن حالهن . وكان من ذلك أن قال مشايخ هذه الطريقة رحمهم الله : « ليس الصفاء من صفات البشر ، لأن البشر مدر لا يخلو من كدر » .

فمثال الصفاء لا يكون بالأفعال ، وزوال البشرية لا يكون عن طريق المجاهدة ، ولا نسبة لصفة الصفاء بالأفعال والأحوال ، ولا تعلق لاسمه بالأسماء والألقاب « فالصفاء صفة الأحباب ، وهم شموس بلا سحاب » ، وكل من يفنى عن صفته ويبقى بصفة الحبيب ، فهو الحبيب . وأحوالهم لدى أرباب المعانى عيان كالشمس ، كما سئل حبيب الله محمد المصطفى صلوات الله عليه عن حال حارثة(٣) ، فقال : « عبد نور الله قلبه بالايمان(٤) » .

كما قيل : « ضياء الشمس والقمر اذا اشتركا ، أنموذج من صفاء الحب والتوحيد اذا اشتبكا » .

وأى شأن لنور القمر والشمس حيثما يكون نور محبة الجبار وتوحيده حتى يضاف هذا الى ذاك ... ؟ . أما فى الدنيا ، فليس هنالك أظهر من هذين ، لأن العين ترى السماء بنور الشمس والقمر ، والقلب يرى العرش بنور التوحيد والمحبة ، ويطلع على العقبى فى الدنيا .

وكل مشايخ الطريقة — رحمهم الله — مجمعون على أنه حين يتخلص العبد من قيد المقامات ، ويخلو من كدر الأحوال ، وينفصل عن جميع الأوصاف

---

(١) رواه الترمذى عن عمر : « ما تركت لأهلك يا أبا بكر » وقال عنه : حسن وصحيح .
(٢) سورة « يوسف » آية ٣١
(٣) « حارثة بن سراقة » : أحد شهداء بدر من الانصار . (السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٨٠) .
(٤) رواه الحارث بن مالك : « من أراد أن ينظر الى عبد نور الله تعالى الايمان فى قلبه فلينظر الى حارثة » .

ـ أى أنه لا يتقيد بصفة من صفاته الحميدة ، ولا يراها ويعجب بها ـ يغيب حاله عن ادراك العقول ، ويتنزه وقته عن تصرف الظنون ، فلا يكون لحضوره ذهاب ، ولا لوجوده أسباب ، « لأن الصفاء حضور بلا ذهاب ووجود بلا أسباب » ، ويكون حاضرا بلا غيبة ، وواجدا بلا سبب وعلة ـ لأن من تتأتى عليه الغيبة لا يكن حاضرا ، ومن يصير السبب علة وجده لا يكون واجدا ـ وحين يصل الى هذه الدرجة يصير فانيا فى الدنيا والعقبى ، وربانيا فى جوشن الانسانية ، ويستوى لديه الذهب والمدر ، ويسهل عليه ما يصعب على الخلق من حفظ أحكام التكليف ، كحال حارثة عندما جاء الرسول عليه السلام فسأله : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ! فقال عليه السلام : انظر ما تقول يا حارثة ، ان لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها، وفضتها ومدرها ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى، حتى صرت كأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى انظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتصارعون فيها »(١) . وفى رواية : « يتغامزون فيها » . الحديث . فقال ـ الرسول ـ « عرفت فالزم . قالها ثلاثا » .

و « الصوفى » اسم يطلقونه على كاملى الولاية ومحققى الأولياء ، ويقول أحد المشايخ رحمهم الله : « من صافاه الحب فهو صاف ، ومن صافاه الحبيب فهو صوفى » .

واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أى معنى ، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه ، وهم يشتقون الشىء من شىء مجانس له ، وكل ما هو كائن ضد الصفاء ، ولا يشتق الشىء من ضده . وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله ، ولا يحتاج الى العبارة ، « لأن الصوفى ممنوع عن العبارة والاشارة » . وحين يكون الصوفى ممنوعا عن كل العبارات فان العالم كلهم معبرون عنه ، عرفوا أو لم يعرفوا ، وأى خطر يكون للاسم فى حال حصول المعنى ؟

---

(١) ورد فى اللمع قول السراج : اما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم حيث سأل حارثة فقال : « لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة كيف يتزاورون ، والى أهل النار فى النار كيف يتعادون . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم » (اللمع : أنظر ص ٣٠) . وورد فى التعرف : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر الى عبد نور الله قلبه فلينظر الى حارثة » (التعرف : أنظر ص ٢٣) .

وهم يسمون أهل الكمال منهم بالصوفى ، ويسمون المتعلقين بهم وطلابهم بالمتصوف . والتصوف تفعل وتكلف ، والصفاء هو الفرع الأصلى ، والفرق بينهما ظاهر من حكم اللغة والمعنى ، « فالصفاء ولاية لها آية ، والتصوف حكاية للصفاء بلا شكاية » . والصفاء معنى متلألىء ، وظاهر التصوف حكاية عن ذلك المعنى . وأهله فى هذه الدرجة على ثلاثة أقسام ، الأول : الصوفى ، والثانى : المتصوف ، والثالث : المستصوف .

فالصوفى : هو الفانى عن نفسه ، والباقى بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق(١) .

والمتصوف ، هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة ، ويقوم نفسه فى الطلب على معاملاتهم .

والمستصوف ، هو من تشبه بهم من أجل المنال والجاه وحظ الدنيا ، وهو غافل عن هذين ، وعن كل معنى ، الى حد أن قيل : « المستصوف عند الصوفية كالذباب ، وعند غيرهم كالذئاب » .

فالصوفى هو صاحب الوصول ، والمتصوف هو صاحب الأصول ، والمستصوف هو صاحب الفضول .

فمن كان نصيبه الوصل يكون بادراكه المقصود ، وبلوغه المراد ، بلا مراد من المراد ، وبلا مقصود من المقصود .

ومن كان نصيبه الأصل صار على أحوال الطريقة متمكنا ، وفى لطائفها ساكنا ومستحكما .

ومن كان نصيبه الفضول تخلف عن الكل ، وقعد على عتبة الرسم ، وحجب بالرسم عن المعنى ، وعجز بالحجاب عن وصل الواصل .

وللمشايخ فى هذا الأمر رموز كثيرة ، الى حد أنه لا يمكن احصاؤها كلها، غير أنى أذكر طرفا منها فى هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ان شاء الله عز وجل.

فصل : يقول ذو النون المصرى(٢) رحمه الله : « الصوفى اذا نطق أبان

---

(١) أى ان الصوفى الحقيقى هو من تخلى عن صفاته البشرية ، وتجرد من علائقه الدنيوية ، فلما فنى عن ذلك : تهيأ له الاتصال بالحقيقة الالهية ، ووجد البقاء بالله.

(٢) أبو الفيض : ثوبان بن ابراهيم ، وذو النون : لقب . نوبى الاصل ، من شيوخ الصوفية من الطبقة الاولى . كان أوحد وقته علما وحالا وورعا وأدبا ، توفى سنة خمس وأربعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥ ، الرسالة ج ١ ص ٥٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٤٤ ، نفحات الانس ص ٣٢ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٣) .

نطقه عن الحقائق ، وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق(١) » .

أى أن قوله كله يكون على أصل صحيح ، وفعله كله تجريدا صرفا ، فحين يتكلم يكون قوله كله حقا ، وحين يصمت يكون فعله كله فقرا .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف نعت أقيم العبد فيه . قيل : نعت للعبد ؟ أم نعت للحق ؟ فقال : نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسما(٢) » .

أى أن حقيقة (التصوف) تقتضى فناء صفة العبد ، وفناء صفة العبد يكون ببقاء صفة الحق ، وهذا نعت الحق . ورسمه يقتضى دوام مجاهدة العبد ، والمجاهدة صفة العبد .

واذا أجريته على معنى آخر ، فهو : انه لايصح للعبد أى نعت فى حقيقة التوحيد ، لأن نعوت الخلق غير دائمة لهم ، وليس نعت العبد سوى الرسم ، لأن نعته غير باق ، وهو ملك وفعل الحق ، فهو فى الحقيقة للحق .

ومعنى هذا هو أن الله عز وجل أمر العبد بالصيام ، وسمى العبد صائما بصيامه ، وهذا الصوم يكون للعبد من وجه الرسم ، ولله من وجه الحقيقة ، كما قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجزى به(٣) » .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف ترك كل حظ النفس(٤) » .

وهذا يكون على نوعين : أحدهما رسم ، والآخر حقيقة . بمعنى أنه اذا كان تاركا للحظ ، فان تركه الحظ يكون حظا أيضا ، وهذا هو الرسم . واذا كان الحظ تاركا له ، فهذا هو فناء الحظ . وهذا يتعلق بحقيقة المشاهدة ، فترك الحظ فعل للعبد ، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله . وفعل العبد رسم ومجاز ، وفعل الحق حقيقة .

وبهذا القول وضح قول الجنيد — رحمه الله — السابق لهذا القول .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « الصوفية هم الذين صفت أرواحهم فصاروا فى الصف الأول بين يدى الحق » .

أى أن الصوفية هم أولئك الذين تحررت أرواحهم من كدورة البشرية ، وصفوا من الآفات النفسية ، وخلصوا من الهوى ، حتى استقروا فى الصف الأول والدرجة الأعلى مع الحق ، ونفروا من الغير .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٩) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٥٨) .
(٣) حديث قدسى رواه الشيخان والترمذى ومالك عن أبى هريرة (الموطأ ص ١٣٣) .
(٤) ورد بنصه فى التعرف (أنظر ص ٢٥) ، طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

ويقول أيضا رحمه الله : « الصوفى : الذى لا يملك ولا يملك » . وهذا عبارة عن عين الفناء ، ففانى الصفة لا يكون مالكا ولا مملوكا ، لأن صحة الملك تصح على الموجودات .

والمراد من هذا القول أن الصوفى لا يملك أى شىء من متاع الدنيا وزينة العقبى ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان ارادته عن الغير ، ليقطع الغير عنه طمع العبودية . وهذا قول لطيف لمن يقولون بالفناء الكلى . وسنورد موضع الخطأ فى أقوالهم فى هذا الكتاب ، ليصير معلوما لك ان شاء الله عز وجل .

ويقول ابن الجلاء(١) رحمه الله : « التصوف حقيقة لا رسم له » .

وما هو رسم من المعاملات نصيب الخلق ، والحقيقة خاصة بالحق ، لأن التصوف هو الاعراض عن الخلق ، فلا يكون له رسم لا محالة .

ويقول أبو عمرو الدمشقى(٢) رحمه الله : التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غض الطرف عن الكون(٣) » .

يقول : التصوف هو أن لا تنظر الى الكون الا بعين النقص ، وهذا هو دليل بقاء الصفة. وان تغض الطرف عن الكون، وهذا هو دليل فناء الصفة، لأن النظر من الكون ، وحين لا يبقى الكون لا يبقى النظر ايضا . وغض الطرف عن الكون هو بقاء البصيرة الالهية ، أى أن من لا يصير مبصرا بنفسه يصير مبصرا بالحق ،لأن كون الطالب يكون طالبا ايضا ، وأمره منه اليه ، ولا مخرج له عن نفسه ، فواحد يرى نفسه ولكن يراها ناقصة ، وواحد يغض الطرف عن نفسه ولا يراها . ومن يرها ، وان يرها ناقصة ، فرؤيته حجاب ، ومن لا يراها فانه لا يحجب بعدم الرؤية(٤) . وهذا أصل قوى فى طريق الصوفية وأرباب المعانى ، ولكن ليس هنا مكان شرح هذا .

---

(١) ابو عبد الله بن الجلاء : اسمه أحمد بن يحيى . أصله من بغداد وأقام بالرملة ودمشق . كان من أجلة مشايخ الشام . صحب أبا تراب النخشبى وذا النون المصرى وأباه يحيى الجلاء . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٧٦ ، الرسالة ج ١ ص ١١٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٣ ، نفحات الانس ص ١١٠) .

(٢) من مشايخ الشام . كان عالما بعلوم الحقائق . صحب أبا عبد الله بن الجلاء واصحاب ذى النون المصرى . له كتاب فى الرد على من قال بقدم الارواح . مات سنة عشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٧٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٠ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية ونفحات الانس هكذا : « التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزه عن كل نقص » (أنظر طبقات الصوفية ص ٢٧٨ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .

(٤) خلاصة هذا القول : ان يغض السالك طرفه عن الكون حتى لا تكون رؤيته للكون حجابا له عن الحق .

ويقول أبو بكر الشبلى رحمه الله : « التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ، ولا غير » .

أى أن رؤية الغير شرك فى اثبات التوحيد . وحين لا يكون للغير قيمة فى القلب ، تكون صيانته عن ذكر الغير محال .

ويقول الحصرى(١) رحمه الله : « التصوف صفاء السر من كدورة المخالفة » .

ومعنى هذا أنه يحفظ السر عن مخالفة الحق ، لأن المحبة هى الموافقة ، والموافقة ضد المخالفة . وليس للحبيب فى العالم كله سوى الحفاظ على أمر المحبوب . وحين يكون المراد واحدا ، فمن أين تكون المخالفة ؟

ويقول محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب(٢) رضى الله عنه: « التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف(٣) » .

وحسن الخلق نوعان : أحدهما مع الخلق ، والآخر مع الحق . وحسن الخلق مع الحق هو الرضا بقضائه ، وحسن الخلق مع الخلق هو حمل ثقل صحبتهم لأجل الحق . وكل من هذين يعود على الطالب ، وللحق صفة الاستغناء عن رضاء الطالب وسخطه ، وهاتان الصفتان متعلقتان بنظر وحدانيته .

ويقول المرتعش(٤) رحمه الله : « الصوفى لا يسبق همته خطوته البتة »

---

(١) أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى : بصرى الأصل . سكن بغداد . كان شيخ العراق فى وقته ، له لسان فى التوحيد يختص به ، ومقام فى التجريد مسلم له . صحب أبا بكر الشبلى وغيره . مات ببغداد سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص١٨٣، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

(٢) أبو جعفر محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب . قيل أنه سمى بالباقر لانه بقر العلم ، أى شقه فعرف أصله وعرف خفيه . الامام الخامس من الأئمة الاثنى عشر . كان عالما سيدا كبيرا ، يحب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويقول : من لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيا والآخرة . توفى سنة ثلاث عشرة وقيل سبع عشرة ومائة ، ودفن بالبقيع فى القبر الذى فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن على رضى الله عنه . أوصى بأن يكفن فى قميصه الذى كان يصلى فيه . (أنظر ترجمته فى الباب الثامن ، تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٣٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٥) .

(٣) ورد هذا القول فى الرسالة منسوبا الى الكتانى (أنظر ج ٢ ص ٥٥٤) .

(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش النيسابورى . صحب أبا حفص الحداد ، ولقى الجنيد وصحبه . أقام ببغداد حتى صار احد مشايخ العراق . كان يقيم فى مسجد الشونيزيه . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية =

أى أن يكون كله حاضرا ، فيكون الجسد حيث يكون القلب ، ويكون القلب حيث يكون الجسد . ويكون القول حيث تكوم القدم ، والقدم حيث يكون القول . هذه علامة الحضور بلا غيبة ، على خلاف ما يقال من أنه يكون غائبا عن نفسه وحاضرا بالحق ، فنقول : لا ، بل هو حاضر بالحق وحاضر بنفسه .

وهذه العبارة من جمع الجمع ، لأنه ما لم تكن الرؤية بالنفس لا تكون الغيبة عن النفس ، فاذا انعدمت الرؤية يكون الحضور بلا غيبة . وهذا عين قول الشبلى رحمه الله : « الصوفى لا يرى فى الدارين مع الله غير الله » . وفى الجملة : ان وجود العبد هو الغير ، وحين لا يرى الغير لا يرى نفسه ، ويفرغ من نفسه كلية فى حال نفيه واثباته .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف مبنى على ثمان خصال : السخاء والرضا والصبر والاشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر » .

قال : بناء التصوف على ثمان خصال ، اقتداء بثمانية أنبياء عليهم السلام ، فيقتدى فى السخاء بابراهيم ، لأنه باغ به أن ضحى بولده . وفى الرضا باسحاق لأنه رضى بأمر الله ، فقال بترك روحه العزيزة . وفى الصبر بأيوب لأنه صبر فى بلائه بالدود . وفى الاشارة بزكريا لأن الله تعالى قال : « اذ نادى ربه نداء خفيا(١) » وفى الغربة بيحيى ، لأنه كان غريبا فى وطنه وغريبا عن أهله بين أهله . وفى السياحة بعيسى لأنه كان فى سياحته من التجرد بحيث لم يكن يملك الا وعاء ومشطا ، وحين رأى شخصا يشرب بحفنتيه ألقى الوعاء ، وعندما رآه يخلل شعره بأصابعه رمى المشط . وفى لبس الصوف بموسى لأن ملابسه كلها كانت صوفا . وفى الفقر بمحمد عليه السلام لأن الله عز وجل بعث اليه بمفاتيح كنوز الأرض وقال له : لا تشق على نفسك ، وهيىء لنفسك من هذه الكنوز متاعا وأسبابا ، فقال : لا أريد ، يا الهى : أشبعنى يوما وأجعنى يومين(٢) .

= ص ٣٤٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٣) .

(١) سورة « مريم » آية ٣ .

(٢) اشارة الى ما روى عن الرسول عليه السلام أنه قال : « عرض على الدنيا فأبيتها » رواه ابن أبى الدنيا وأحمد والطبرانى عن أبى بويهية .

وما ورد عنه عليه السلام أنه قال: « خيرت بين أن أكون نبيا ملكا او أكون نبيا عبدا ، فأشار الى جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيا عبدا : أشبع يوما وأجوع يوما » رواه الطبرانى عن ابن عباس ، وابن حبان عن أبى هريرة .

وهذه الأصول فى المعاملة : طيبة جدا .

ويقول الحصرى رحمه الله : « الصوفى لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده(١) » .

أى أن ما يجده لا يفقده أبدا ، وما يفقده لا يجده أبدا . وبمعنى آخر : لا يكون لوجده عدم ، ولا لعدمه وجد . فاما اثبات بلا نفى ، أو نفى بلا اثبات .

والمراد من كل هذه العبارات هو أنه : أما أن تسقط حال البشرية عن شخص وتفوته الشواهد الجسمانية وتنقطع نسبته عن الكل ، واما أن تظهر البشرية فى شخص وتجتمع تفاريقه فى عين ذاته فيجد قيامه من نفسه بنفسه .

ولم يكن من الممكن ظهور هذا الا فى نبيين عليهما السلام : أحدهما موسى — صلوات الله عليه — الذى لم يكن فى وجوده عدم فقال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى(٢) » ، والآخر رسولنا — صلى الله عليه وسلم — الذى لم يكن فى عدمه وجود حتى قيل : « ألم نشرح لك صدرك(٣) » ، فواحد أراد الحلية وطلب الزينة ، والثانى زين ولم تكن له رغبة .

ويقول على بن بندار الصيرفى النيسابورى رحمه الله : « التصوف اسقاط الرؤية للحق ظاهرا وباطنا » .

لأنك اذا نظرت الى الظاهر تجد علامة التوفيق على الظاهر ، فاذا أمعنت النظر فان معاملة الظاهر لاتزن جناح بعوضة فى جنب توفيق الحق تعالى ، فتقول بترك رؤية الظاهر . واذا نظرت الى الباطن تجد علامة التأييد على الباطن ، فاذا دققت النظر فان معاملة الباطن لا تزن ذرة فى جنب تأييد الحق تعالى ، فتقول بترك الباطن ، وترى الكل للحق ، ولا ترى لنفسك شيئا .

ويقول محمد بن أحمد المقرىء(٤) رحمه الله : « التصوف استقامة

---

(١) ورد هذا القول فى الرسالة وعقب عليه القشيرى بقوله : وهذا فيه اشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه : أى اذا فنيت آفاته لا تعود تلك الآفات . وقوله : لا يعدم بعدوجوده ، يعنى : اذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه (انظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥٦) .

(٢) سورة « طه » آية ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة « الشرح » آية ١

(٤) أبو عبد الله : محمد بن أحمد المقرىء . صحب يوسف بن الحسين الرازى وعبد الله الخراز ومظفر القرمسينى ورويما والجريرى وابن عطاء . كان أغنى المشايخ وأسخاهم خلقا وأعلاهم همة وأتمهم دينا وورعا . مات سنة ست وستين وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٥٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ٢٦٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٣) .

الأحوال مع الحق(١) » . أى أن الأحوال لا تحول سر الصوفى عن الاستقامة فى الحال ، ولا تلقى به فى الاعوجاج ، لأن من يكون قلبه صيدا لمحول الأحوال ، فإن الأحوال لا تنحرف به عن درجة الاستقامة ، ولا تمنعه عن الحق تعالى .

فصل فيما قيل فى المعاملات :

يقول أبو حفص الحداد النيسابورى(٢) رحمه الله : « التصوف كله آداب : لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول(٣) » .

وقريب من هذا المعنى ماقاله أبو الحسن النورى رحمه الله : « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق(٤) .

أى أنه لو كان رسوما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علوما لأمكن الوصول اليه بالتعلم ، ولكنه أخلاق ، فما لم تطلب حكمه من نفسك ، وما لم تصحح معاملاته مع نفسك ، وتنصفه من نفسك ، لا يحصل .

والفرق بين الرسوم والأخلاق هو أن الرسوم فعل يكون بالتكلف والأسباب ، وحين يكون ظاهرها على خلاف باطنها تكون فعلا خاليا من المعنى . والأخلاق فعل محمود بلا تكلف وأسباب ، وظاهره موافق لباطنه ، وخال من الدعوى .

ويقول المرتعش رحمه الله : « التصوف : حسن الخلق » . وهذا على ثلاثة أنواع :

أولها مع الحق : بأداء أوامره بلا رياء .

والثانى مع الخلق : بحفظ حرمة الكبار ، والشفقة على الصغار ، وانصاف الأقران ، والاعراض عن الكل ، وعدم طلب الانصاف .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٥١١) .

(٢) اسمه عمرو بن سلمه . من أهل قرية يقال لها كوراباذ على باب نيسابور . صحب عبيد الله بن مهدى الابيوردى وعليا النصرابادى ، ورافق احمد بن خضروية البلخى. توفى سنة نيف وستين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة جـ ١ ص ٩٦ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء جـ ١ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٥٧ ، خزينة الاصفياء جـ ١ ص ١٥٥) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف طفيف (أنظر : ص ١١٩) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف طفيف (أنظر : ص ١٦٧) .

والثالث مع النفس : بعدم متابعة الهوى والشيطان .

وكل من يقوم نفسه فى هذه المعانى الثلاثة يكون من ذوى الخلق الحسن.

وهذا الذى ذكرته متفق مع قول عائشة الصديقة(١) رضى الله عنها ، حين قيل لها : أخبرينا عن خلق النبى عليه السلام ، فقالت : اقرأ من القرآن قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين(٢) » .

ويقول المرتعش رحمه الله أيضا : « هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشىء من الهزل » .

أى أن مذهب التصوف كله جد فلا تخلطوه بالهزل، ولا تتعلقوا بمعاملات المترسمين ، وفروا من المقلدين ، ذلك أن العوام لما نظروا الى أهل هذا الزمان ورأوا مترسمى الصوفية ، وشاهدوا رقصهم وغناءهم وذهابهم الى أبواب السلاطين ، واختصامهم من أجل اللقمة والخرقة ، أساءوا الاعتقاد فى الجميع ، وقالوا ان أصل الطريقة هو هذا ، وقد سار المتقدمون أيضا على هذا ، ولم يعلموا أنه زمان الفترة وعهد البلاء . وحين يحمل الحرص السلطان على الجور ، والطمع العالم على الفسق ، والرياء الزاهد على النفاق ، فانه لا محالة أيضا من أن يحمل الهوى الصوفى على الرقص والغناء .

واعلم أن أهل الطرق يفسدون ، ولكن أصول الطرق لا تفسد . واعلم أنه اذا أخفى فريق من أهل الهزل هزله فى جد الأحرار ، فان جدهم لا يصير هزلا .

ويقول أبو على القرمسينى(٣) رحمه الله : « التصوف : الأخلاق المرضية(٤) » .

والفعل المرضى هو أن يكون العبد راضيا عن الحق فى كل الأحوال ليكون راضيا بالرضا .

---

(١) عائشة ابنة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما ، تزوجها النبى عليه السلام بكرا ولم يتزوج بكرا غيرها ، وكان تزويجه بها بمكة وهى بنت ست سنين ، ودخل بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين ، وقبض وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وتكنى أم عبد الله . توفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ، ودفنت بالبقيع . (المعارف ص ٥٩) .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩

(٣) مظفر القرمسينى : من أشياخ الجبل . صحب عبد الله الخراز وغيره (انظر ترجمته فى الرسالة ص ١٥٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٠) .

(٤) ورد هذا القول فى حواشى الرسالة : « التصوف الاخلاق المرضية (أنظر الرسالة ج ١ ص ١٥٩) .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف هو الحرية ، والفتوة ، وترك التكلف ، والسخاء » .

فالحرية : أن يتحرر العبد من قيد الهوى ، والفتوة : أن يتجرد من رؤية الفتوة ، وترك التكلف : أن لا يجتهد فى المتعلقات والنصيب ، والسخاء : أن يترك الدنيا لأهل الدنيا .

ويقول أبو الحسن البوشنجى(۱) رحمه الله : « التصوف اليوم اسم بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم(۲) » .

يعنى : أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف ، وكان المعنى موجودا فى كل منهم . والآن يوجد الاسم ولا يوجد المعنى .

أى أن المعاملة كانت معروفة ، والدعوى مجهولة ، والآن صارت الدعوى معروفة ، والمعاملة مجهولة .

الآن : قد أوردت هذا القدر من تعريفات المشايخ وأقوالهم رحمهم الله فى هذا الكتاب فى باب التصوف هذا ، لينفتح عليك — أسعدك الله — طريقه ، وتقول للمنكرين : مامرادكم من انكار التصوف ؟ فان كانوا ينكرون الاسم المجرد فلا ضير ، لأن المعانى تكون فى حق التسميات غريبة ، وان كانوا ينكرون عين هذه المعانى ، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبى عليه السلام وخصاله المحمودة .

وأنا أوصيك أن تراعى حق هذا وتنصفه لتكف الدعوى ، وأن تحسن الاعتقاد بأهل هذه الطريقة .

وبالله التوفيق ، وعليه التوكل والتصديق .

---

(۱) اسمه على بن أحمد بن سهل . كان من فتيان خراسان ، لقى ابا عثمان وابن عطاء والجريرى وأبا عمرو الدمشقى . كان من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد ، وعلوم المعاملات وأحسنهم طريقة فى الفتوة والتجريد . مات سنة ثمان وأربعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٥٨ ، الرسالة جـ ١ ص ١٧٢ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء جـ ٢ ص ٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٢٥) .

(۲) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٤٥٩) .

الباب الرابع

باب فى لبس المرقعة

أعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف . ولبس المرقعات سنة ، ومن هنا قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الايمان فى قلوبكم(١) » .

ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار(٢) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا لعائشة رضى الله عنها : « لا تضيعى الثوب حتى ترقعيه(٣) » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الايمان .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة(٤) . ويرد عنه أنه قال أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة .

ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كان له قميص لا يصل كماه الى أصابعه ، وكان اذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كميه .

وأمر الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بتقصير الثياب فى قوله تعالى : « وثيابك فطهر(٥) » . أى : فقصر .

ويقول الحسن البصرى(٦) رحمه الله : رأيت سبعين بدريا يلبسون

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى أمامة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٠٧) .

(٢) من قول ابى موسى الاشعرى : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار ويأتى مدعاة الضعيف .

(٣) ورد فى تلبيس ابليس : « لا تخلعى الثوب حتى ترقعيه » .

(٤) روى عن أبى عثمان النهدى أنه قال : رأيت على عمر قميصا فيه اثنتا عشرة رقعة وهو يخطب (اللمع ص ١٧٣) .

(٥) سورة « المدثر » آية ٤

(٦) أبو سعيد الحسن البصرى . كان والده من أهل ميسان فسبى . شيخ زهاد البصرة ، ويعده المتصوفة منهم . صبغ الحياة الروحية بصبغة الزهد والخوف ، وغلب عليه الخوف كأن النار لم تخلق الاله وحده . توفى سنة عشر ومائة (أنظر ترجمته فى الباب العاشر ، المعارف ص ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ص ١٢٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٣ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٢٣ .

جميعا ثيابا من الصوف(١) .

والصديق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب الصوف فى حال التجريد .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله . رأيت سلمان(٢) وقد لبس كليما ذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، وهزم بن حيان(٣) رضى الله عنه رأوا أويسا القرنى(٤) وكان يلبس ثوبا من الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار(٥) وسفيان الثورى(٦) ، رحمة الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية .

---

(١) ورد فى التعرف : قال الحسن البصرى : لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم الا الصوف . (أنظر :ص ٢٣) .

(٢) سلمان الفارسى : كان يكنى أبا عبد الله ، ويقول قوم أنه من أهل أصبهان ويقول قوم انه من فارس . لم يشهد بدرا ولا أحدا لأنه كان فى أوقاتهما عبدا . وأول غزاة غزاها ، الخندق سنة خمس من الهجرة . عمر عمرا طويلا ومات فى أول خلافة عثمان وفى بعض الروايات انه مات فى خلافة عمر رضى الله عنه بالمدائن . وقيل مات سنة ست وثلاثين . (أنظر ترجمته فى المعارف ص ١١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٥) .

(٣) « هرم بن حيان » : هو من عبد القيس وكان من خيار الناس ، وولى الولايات زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان على عبد القيس يتوج يوم قتل شهرك زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنــه (المعارف ص ١٩٢ ، أنظر ترجمته فى الباب العاشر) .

(٤) « أويس بن عامر » : ويقال ابن عمرو القرنى . من سادات التابعين ، ويعده البخارى من الضعفاء . كان يلزم المسجد مع جماعة من اصحابه . قال بعضهم انه مات بالحيرة ، وقال آخرون : بل مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه فى صفين . كان يلتقط الكسر من المزابل فيغسلها ويأكل بعضها ويتصدق ببعضها . قال له هرم بن حيان أوصنى فقال : توسد الموت اذا نمت ، واجعله نصب عينيــك اذا قمت . (أنظر ترجمته فى الباب العاشر ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١١٨) .

(٥) أبويحيى مالك بن دينار البصرى : من موالى بنى سامة بن لؤىالقرشى . كان عالما زاهدا كثير الورع لا يأكل الا من كسبه . وكان يكتب المصاحف بالأجر . توفى سنة احدى وثلاثين ومائة بالبصرة . كان يقول : لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت أنى اذا مت أن أغل فأدفع الى ربى مغلولا كما يدفع العبد الآبق الى مولاه . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٣) .

(٦) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن عدنان الثورى الكوفى . كان اماما فى علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على امامته وورعه وزهده . وكانوا يسمونه أمير المؤمنين فى الحديث . توفى بالبصرة سنة احدى وستين ومائة . قوموا ثيابه التى عليه حتى النعل فبلغت درهما وأربعة دوانق (أنظر ترجمته فى المعارف ص ٢١٧ ، وفيات الاعيان جا ص ٢١٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٣٨ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٨٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٥) .

ويروى عن الامام الأعظم أبى حنيفة(١) — وهذا مكتوب فى كتاب تاريخ المشايخ الذى ألفه محمد بن على الترمذى(٢) — أنه كان أولا يلبس الصوف ويقصـــد العزلة الى أن رأى الرسول عليه السلام فى النوم يقول له : ينبغى لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب احيـــاء سنتى . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غاليا ، وأمر داود الطائى(٣) رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء ابراهيم بن أدهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر اليه أصحاب — أبى حنيفة — بعين الاحتقار ، فقال أبو حنيفة : جاء ســـيدنا ابراهيم بن أدهم ؟ فقـــال له أصحابه : لا يجرى الهزل على لسان امام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمداومة على الخدمة ؛ فقـــد انشغل بخدمة الله ، و انشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صـــار سيدنا .

واذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لظواهرهم ؛ فمن الجائز أن يكون فى الجيش مبارز واحد ، والمحققون فى كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون اليهم حينما يشبهونهم فى شىء من الأحكام ، لقـــوله

---

(١) النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه : الامام الفقيه الكوفى مولى تيم الله بن ثعلبة . كان جده زوطى من أهل كابل وكان رقيقا أعتق ، وان نفى ذلك أحد أحفاد أبى حنيفة ، كان عالمـــا زاهدا عابدا ورعا تقيا كثـــير الخشوع دائم التضرع الى الله تعالى . وكان حجة فى الفقه شهد له الشافعى فقال : من أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال على أبى حنيفه . دعى لتولى القضاء مرتين ولكنه رفض . توفى ببغداد سنة خمسين ومائة ودفن فى مقبرة الخيزران . تنسب اليه عدة مؤلفات فى الفقه أشهرها « الفقه الاكبر » (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢١٦ ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٣ ، الفهرست ص ٢٨٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٠٢ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٤١ ، كشف الظنون ج ٢ عمود ١٢٨٧) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن على الترمذى المتوفى سنة ٢٨٥ هى : متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقيه كوفى . لقى أبا تراب النخشبى وصحب يحيى الجلاء واحمد بن خضرويه . له تصانيف كثيرة وكرامات مشهورة . كان أستاذا لأبى على الجوزجانى وأبى بكر الوراق (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقـــات الصوفية ص ٢١٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٩١ ، نفحات الانس ص ١١٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٥٠٣) .

(٣) داود بن نصير : أبو سليمان الطائى الكوفى الزاهد . يقال ورث عشرين دينارا فأكلها فى عشرين سنة . قيل عن سبب زهده أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له يوما : يا أبا سليمان ، أما الأداة فقد أحكمناها . فقال داود : أى شىء بقى ؟ قال : العمل بها . مات سنة خمس وستين ومائة (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٤ ، الرسالة ج ١ ص ٧٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٧، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٨) .

عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم(١) » أى : كل من يتولى قوما يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقا نظر الى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق الى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحبة المتصوفية لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم ، فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال — هؤلاء — على كشف الأحوال ، والتجرد عن الهوى والاعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم(٢) ، فيرون ممارستهم للشريعة وحفظهم لآداب الاسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة انسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مزدانة بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق — رابع — يقوده الى أفعالهم كسل طبعه ورعونة نفسه وطلبه الرياسة بلا آلة ، وارادته التصدر بلا فضل ، وبحثه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهم(٣) يلاينونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ، لأنه ليس فى قلوبهم(٤) شىء من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شىء من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرعى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله(٥) » .

---

(١) رواه ابن رسلان عن ابن عمر ، والطبرانى فى الاوسط (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٨٩) .
(٢) أظهارهم = ظواهرهم : جمع « ظاهر » .
(٣) « هم » أى الصوفية المحققون .
(٤) قلوبهم : أى قلوب أفراد الفريق الرابع .
(٥) سورة « الجمعة » آية ٥

وهذا الفريق هم الأغلب فى هذه الأيام . فليكن لزاما عليك اذن أن لا تقصد ما ليس لك ، لأنك لو قلت ألف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لا يكون بالخرقة ، بل بالحرقة . وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعة الادبار ومنشور الشقاء يوم النشور ، كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لا تلبس المرقعة ؟ قال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة » . فاذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، واذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فان تكن كذلك فهو رياء ، وان لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب ملىء بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله انعام واكرام ، والصوف من لباس الأنعام » ! فالحلية حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قربة ، فهم يعملون ما عليهم، ويحلون ظاهرهم ، وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فاذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة ، واذا أرادوا اتيان المعصية فى تلك الثياب ، فانهم لا يستطيعون خجلا من الخلق .

وفى الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص . وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر اليهم الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك ، فهى « لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص » ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سببا لجمع النعم . ثم ان الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة قميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، **ليتجرد** أهل الصفاء بلبسها من الكونين ، **وينقطعوا** بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، **وينقطعوا** بها عن الصلاح .

وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوطاء لآخر . وأرجوا أن يفلحوا جميعا بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحب قوما فهو

معهم(١) » . ولكن ينبغى أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل الى التحقيق أبدا .

واعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يغنى الحجاب الا بدور الأحوال والتربية فى المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن . واذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة الطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أن سمى بالصوفى أو باسم آخــر .

فصــل : أما شرط المرقعات فهو ان يعملها — الصوفى — من أجل الخفة والفراغ ، وحيثما يتمزق شىء من الأصل يوضع فوقه رقعة .

وللمشايخ ، رحمهم الله ورضى الله عنهم ، فى هذا قولان : ففريق يقول أنه لا يشــترط مراعاة نظام لحياكة الرقعة ، فتسحب الابرة حيثما تخرج رأســها ، ولا يتكلف فى هــذا .

وفريق آخر يقولون انه يشــترط لحياكة الرقعة الترتيب والاســتقامة ورعاية التضريب والتكلف فى الاستقامة ، لأنها معاملة الفقراء ، وصحة المعاملة دليل صحة الأصل .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — سألت شيخ المشــايخ أبا القاسم الجرجانى(٢) فى طوس(٣) : ما أقل ما ينبغى للفقير حتى يكون جديرا باسم الفقر ؟ قال : ينبغى له ثلاث ، ولا أقل منها :

أولا : يجب أن يعرف كيف يخيط الرقعة خياطة مستقيمة .

ثانيا : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سماعا مستقيما .

ثالثا : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة .

وعندما رجعنا — أنا وفريق الدراويش الذين كانوا حاضرين معى حين قال هذا — الى الدويرة ، أخذ كل منهم يتصرف فى هذا ، وظهر لفريق من

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير : « من أحب قوما حشره الله فى زمرتهم » (شرح الجامع الصغر ج ٢ ص ٢٧٢) .

(٢) من شيوخ الهجويرى : انظر ترجمته فى الباب الثانى عشر .

(٣) « طوس » من مدن خراسان . وهى من نيسابور على مرحلتين ، وبها قبر الرشيد أمير المؤمنين ، وبها توفى الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام (البلدان : ص ٤٤) ،وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه مالا يحصى ، وحسبك بأبى حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى وأبى الفتوح أخيه (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٤٠) .

الجهلة فى هذا شره، وقالوا ان الفقر هو عين هذا ، وكان أكثرهم يتسابقون فى تجويد حياكة الرقعة ، والدبيب على الأرض بأقدامهم ، ويظن كل منهم فى نفسه أنه يعرف سماع الكلام ، فى الطريقة . ويحكم أن قلبى كان يميل الى هذا السيد ، لم أشأ أن يضيع كلامه هذا عبثا ، فقلت : تعالوا ليقول كل منا شيئا فى هذا القول . فقال كل منهم ما نراءى له ، فلما وصلت النوبة الى قلت : الرقعة المستقيمة هى أن تخاط للفقر لا للزينة ، لأنها اذا خيطت بالفقر كانت مستقيمة ولو لم تكن كذلك . وسماع الكلام مستقيما هو أن يسمع بالحال لا بالمنية ، ويتصرف فيه بالجد لا بالهزل ، وأن يفهم بالروح لا بالعقل . والقدم المسقيمة هى التى توضع على الأرض بالوجد لا باللهو والرسم .

ونقل البعض هذا الكلام للشيخ فقال : أصاب على خيره الله .

والمراد من لبس المرقعة لهذه الطائفة هو مؤنة الدنيا ، وصدق الفقر لله تعالى . وقد ورد فى الآثار الصحيحة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يلبس مرقعة حين رفع الى السماء . وقال أحد المشايخ : رأيته فى النوم ، بتلك المرقعة من الصوف ، وكان يتلألأ من كل رقعة نور ، فقلت : أيها المسيح ، ما تلك الأنوار على الثوب ؟ قال : انها أنوار اضطرارى ، فقد خطت كل رقعة منها لضرورة ، فصير الله عز وجل كل أذى أصابنى به نورا .

وأيضا : رأيت فى ما وراء النهر ، شيخا من أهل الملامة لم يكن يأكل أو يلبس شيئا للآدمى فيه نصيب ، فكان يأكل الأشياء التى يرميها الناس كالكراث العفن والقرع المر والجزر الفاسد وأمثال ذلك ، ويتخذ ملابسه من الخرق التى يلتقطها من الطريق ويطهرها ويصنع منها مرقعة(١) .

وسمعت أنه كان بمرو الروذ(٢) شيخ من المتأخرين من أرباب المعانى قوى الحال طيب السيرة ، كانت العقرب تلد دون كلفة فى سجادته وقلنسوته ، لكثرة ما عليهما من الرقع غير المتكلفة .

وقد لبس شيخى(٣) رضى الله عنه ثوبا واحدا لمدة ستة وخمسين عاما ، كان يضع عليه رقعا بلا تكلف .

---

(١) ورد مثل هذا عن أويس القرنى أنه كان يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها فى الفرات ثم يخيطها فيلبسها (تلبيس ابليس ص ١٨٦) .

(٢) « مرو الروذ » : من مدن كورة مرو ، وبين مرو وبينها خمس مراحل : ومرو الروذ افتتحها الاحنف بن قيس فى خلافة عثمان سنة احدى وثلاثين (البلدان : ص ٥٦)

(٣) أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى : من شيوخ الهجويرى : أنظر ص ، ترجمته فى الباب الثانى عشر .

ووجدت فى حكايات العراقيين أنه كان هنا لك اثنـــان من الدراويش : أحدهما صاحب مشاهدة ، والآخر صاحب مجاهدة ، لم يلبس أولهما طيلة حياته الا الخـــرق التى يمزقها الدراويش فى الســـماع ، ولم يلبس **الآخر** الا الخرق التى يمزقونها فى حال الاستغفار من ذنب ، حتى صـــارت زينة ظاهرهما موافقة لسيرة باطنهما . وهذا من رعاية الحال .

وكان الشيخ محمد بن خفيف(٥) رضى الله عنه يرتدى لمدة عشرين عاما ثوبا من الصوف الغليظ ويعتكف كل عامٌ أربع أربعينيات(٢) ، وكان يؤلف فى كل منها كتابا فى غوامض علوم الحقائق . وكان يعاصره شيخ من المحققين من علماء الطريقة ، يقيم بالقرب من فارس(٢) ، يدعى محمد بن زكريا ، لم يرتد المرقعة قط ، فسئل الشيخ محمد بن خفيف : ما شرط المرقعة ؟ ولبسها مسلم لمن ؟ فأجاب : شرط المرقعة هو ما يفعله محمد بن زكريا فى قميصه الأبيض ، ولبسها مسلم له .

فصل : وأما ترك عادة هذه الطائفة فلا يكون شرطا فى طريقهم . وقلة ارتدائهم ثياب الصوف الآن ، له معنيان ، أحدهما : أن الأصواف تشعثت ، والأنعام انتقلت فى الغارات من مكان الى مكان ، والثـــانى : أن طائفة من أصحاب البدع اتخذوا رداء الصوف شعارا لهم ، ومخالفة شعار أهل البدع ســـنة ، ولو كان مخالفة للسنة .

أما التكلف فى حياكة الرقعة فيجيزونه ، لأن جاههم قد عظم بين الخلق وكل من الخلق تشبه بهم ولبس المرقعة ، وبدت منهم أفعال ذميمة . ولما تأذوا من صحبة الأضـــداد ، اتخذوا زينة لا يعرف أحد غيرهم حياكتها ، وجعلوها علامة لمعرفة بعضهم البعض ، واتخذوها شـــعارا ، حتى ليقال ان درويشـــا دخل على أحد الشيوخ ، وكان قد جعل خطوط الرقعة التى خاطها على ثوبه مستعرضة ، فهجره الشيخ . وكان معنى هذا أن أصل الصـــفاء هو رقة الطبع ولطافة المزاج ، ولا يحسن الاعوجاج فى الطبع البتة . وكما أن الشعر غير المستقيم لا يحسن فى الطبع ، فكذلك الفعل غير المستقيم لا يقبله الطبع .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن خفيف . كان شيخ المشايخ فى وقته . صحب رويما والجريرى وأبا العباس بن عطاء . كان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ٤) .

(٢) أنظر الابواب من السابع والعشرين الى التاسع والعشرين من عوارف المعارف ، « فى خاصية الاربعينية وذكر الفتوح وكيفية الدخول فيها » .

(٣) فارس : ولاية واسعة واقليم فسيح ، وأول حدودها من جهـــة العراق أرجان . وفارس اسم البلد وليس اسم الرجل ، وقصبتها شيراز . فتحت فى عهد عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٣٥ ــ ٨٤٨) .

وطائفة أخرى لا يتكلفون فى وجود اللباس وعدمه ، فاذا رزقهـم الله عباءة لبسوها ، واذا رزقهم قباء لبسوه ، واذا تركهم عراة بقوا كذلك . وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — قد ارتضـيت هذا الطريق ، وفعلت هكذا فى أسـفارى .

وورد فى الحكايات أنه حين جاء أحمد بن خضرويه(١) لزيارة أبى يزيد كان يرتدى قباء ، وحين جاء شاه بن شجاع(٢) لزيارة أبى حفص(٣) كان يلبس القباء . ولم يكن هذا لباسهما المعهود ، فقد كانا فى بعض الأوقات يرتديان المرقع ، ويلبسـان ثوبا من الصوف فى البعض الآخر ، أو البياض حسبما اتفق .

ونفس الآدمى معتادة ، ولها بالعادة الفة . والنفس اذا اعتادت شيئا صار طبيعة ، واذا ما صار طبيعة صـار حجابا ، ولذا قال النبى عليه السـلام : « خير الصيام صوم أخى داود(٤) » عليه السلام ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما حتى لا يصير الصوم عادة للنفس ، ويحجب بذلك .

وكان فى هذا المعنى أحب الأحباء أبو حامد الدوستانى(٥) المروزى رحمه الله ، فقد كان مريدوه يلبسونه ثوبا ، ثم تكون لشخص اليه حاجة ، ثم كان يأتى من كانت له به حاجة فيتلمس فراغه ، فاذا ما خلا ، نزع عنه ذلك الثـوب . ولم يكن يقول للمبسـه : لم تلبسنى ؟ ولا لنازعه : لم تخلعه عنى ؟ .

---

(١) كنيته : أبو حامد . من كبار مشايخ خراسان . صحب أبا تراب النخشبى وحاتما الأصم . كان كبيرا فى الفتوة ، قال عنه أبو حفص الحداد : ما رأيت أحدا أكبر همة ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه . توفى سنة أربعين ومائتين (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٣ ، الرسالة ج ١ ص ٩٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٨ ، نفحات الانس ص ٥٤) .

(٢) كنيته : أبو الفوارس . كان من أبناء الملوك . صحب أبا تراب النخشبى وأبا عبد الله الزراع البصرى . له رسالات مشهورة ، والمثلثة التى سماها : مرآة الحكماء . مات قبل الثلثمائة (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٩٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣١٢ ، نفحات الانس ص ٨٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٥٨) .

(٣) أبو حفص الحداد النيسابورى : سبق الاشارة اليه .

(٤) رواه الشيخان عن ابن عمرو : « أحب الصيام الى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة الى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦) .

(٥) أشير اليه فى أسرار التوحيد (أنظر ص ٢٧٢) .

ويوجد الآن فى غزنين(١) — حرسها الله — شيخ يلقب بالمريد ، رضى الله عنه ، لا اختيار له ولا تمييز فى لباسه . والحديث فى ذلك صحيح .

أما معنى أن أكثر ثيابهم زرقاء ، فمنه : أنهم وضعوا أصل طريقتهم على السفر والسياحة ، ولا يبقى الثوب الأبيض فى السفر على حاله ، ويصعب غسله ، ويطمع فيه كل شخص .

ثم ان لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب ، وهو لأناس رداء الحزن . والدنيا دار المحنة ، وخربة المصيبة ، ومفازة الغم ، وآفة المبتلين بالفراق ، وحصن البلاء ، فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا مقصودهم فى الدنيا ، لبسوا الأزرق ، وجلسوا فى مأتم الوصال .

ومنهم طائفة أخرى لم يروا فى المعاملات غير التقصير ، وفى القلب غير الخراب ، وفى الوقت غير الفوت ، فلبسوا الأزرق .

فواحد لبسه على موت عزيز ، والآخر على فوت مقصود ، لأن « الفوت أشد من الموت » .

سأل واحد من مدعى العلم درويشا : لم لبست هذا الأزرق ؟ قال : لقد بقى عن النبى عليه السلام ثلاثة أشياء ، أولها : الفقر ، والثانى : العلم ، والثالث : السيف .

ظفر السلاطين بالسيف ولم يستعملوه فى موضعه .

واختار العلماء العلم واكتفوا بالتعلم فقط .

واختار الفقراء الفقر وجعلوا منه آلة للغنى . فلبست الأزرق على مصيبة هذه الفئات الثلاث .

ويرد عن المرتعش رحمه الله أنه كان يمر فى محله ببغداد(٢) وأحس بالظمأ ، فقصد بابا وطلب الماء . فخرجت اليه فتاة بجرة ماء ، فلما شرب صار قلبه صيدا للساقية . فظل فى مكانه حتى جاء رب الدار فقال له : أيها السيد ، كان قلبى متعطشا جدا لشربة ماء فسقونى شربة من دارك وسلبوا قلبى ، قال الرجل : تلك ابنتى ، وقد زوجتك اياها . فدخل

---

(١) « غزنين » أو « غزنه » موطن الهجويرى : ارجع الى ما ورد عنها فى القسم الاول ص .

(٢) « بغداد » : وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير فى مشارق الارض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء . انتقل اليها من جميع البلدان الدانية والقاصية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم . يجرى فى حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات . بناها ابو جعفر المنصور فاختطها فى ربيع الاول سنة احدى وأربعين ومائة (البلدان ص ٢ — ٢٢) .

المرتعش البيت تحقيقا لمراده ، وعقد عليها . وكان صاحب البيت هذا من أثرياء بغداد ، فأرسله الى الحمام ، وألبسه ثيابه ، وخلع عنه المرقعة . ولما أقبل الليل وقف المرتعش للصلاة ، وقرأ الأوراد ، وأخلد الى الخلوة ، فصاح فى أثناء ذلك : هاتوا مرقعتى . فسألوه : ماذا أصابك ؟ قال : نوديت فى سرى : لقد خلعنا عن ظاهرك ثوب الصلاح والمرقعة بنظرة نظرتها مخالفة لنا ، فاذا نظرت أخرى نزعنا عن باطنك لباس المعرفة .

فالثوب الذى يكون السبب فى ارتدائه التقرب الى الله والموافقة لأوليائه تكون المداومة عليه مباركة ، فاذا كنت تستطيع أن تفى بحقه ، فبها ، والا فانه ينبغى عليك أن تصون دينك . ولا تجوز الخيانة فى ثياب الأولياء . ولأن تكون مسلما على التحقيق بلا دعوى ، خير من أن تكون وليا على التكذيب .

أما لبس المرقعة ، فيستقيم لطائفتين : أولاهما ، المنقطعون عن الدنيا ، والأخرى ، المشتاقون الى حضرة المولى .

وقد جرت السنة فى عادات المشايخ رضى الله عنهم ، على أنه عندما يتصل بهم مريد بحكم التبرك ، فانهم يؤدبونه خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة ، فاذا أدى حقها ، فبها والا قالوا ان الطريقة لا تقبله ، فسنة منها لخدمة الخلق ، وسنة ثانية لخدمة الحق ، وسنة ثالثة لمراعاة قلبه .

وهو يستطيع خدمة الخلق عندما يضع نفسه فى درجة الخدم ، وكل الخلق فى درجة المخدومين : أى يخدم الجميع بلا تمييز ، ويراهم خيرا منه ، ويعرف أن خدمتهم واجب عليه ، ولا يرى لنفسه بتلك الخدمة فضلا على الآخرين ، لأن ذلك خسران عظيم ، وعيب ظاهر ، وغبن فاحش ، وداء من الأدواء فى هذا الزمان(١) لا دواء له .

وهو يستطيع أن يخدم الحق جل جلاله حين يقطع حظوظه من الدنيا والعقبى كلية ، ويعبد الحق سبحانه وتعالى عبادة مطلقة من أجله هو ، لأن العبد ما دام يعبد الحق من أجل كفارة الذنوب وادراك الدرجات فانه لا يعبده لذاته ، فما بالك بأسباب الدنيا .

وهو يستطيع مراعاة قلبه حين يجمع همته ويرفع عن قلبه الهموم المختلفة ، ويحفظه — فى حضرة الأنس — من مواطن الغفلة .

فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة فى المريد ، يسلم له بلبس المرقعة على وجه التحقيق لا التقليد .

(١) زمان المؤلف .

أما من يخلع على المريد المرقعة ، فيجب أن يــكون مستقيم الحال ، قد اجتاز جميع عقبات الطريق ، وذاق طعم الأحـــوال ، وادرك مشارب الأعمال ، وشاهد قهر الجلال ولطف الجمال . ويجب أيضا أن يكون مشرفا على حال مريده ، يعرف الام ينتهى : أهو من الراجعين ، أو الواقفين ، أو الواصلين ، فاذا عرف أنه سوف يرتد يوما عن الطريقة ، يقول له ذلك حتى لا يبدأ ، واذا توقف ، يأمره بالمعاملة ، واذا تحقق من أنه سيصل ، يتعهده بالرعاية .

ومشايخ هذه الطريقة هم أطباء القلوب ، وحين يكون الطبيب جاهلا بعلة مريضه فانه يهلكه بطبه ، لأنه لا يعرف تطبيبه ، ويجهل مواطن دائه ، فيجعل غذاءه وشرابه مخالفا لعلته ، لقوله عليه السلام : « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته(١) ، فالأنبياء عليهم السلام دعوا الخلق على بصيرة ، وجعلوا كل فرد فى درجته . ويجب للشيخ أيضا أن يدعو على بصيرة ، وأن يعطى لكل غذاءه ، حتى يتحقق المراد من الدعوة . فاذا ألبس شيخ بلغ الكمال فى ولايته لله ، مريدا المرقعة بعد هذه السنوات الثلاث من التربية فى الرياضة ، فهذا جائز .

وشرط لبس المرقعة لبس الكفن ، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ، ويطهرون قلوبهم من راحتهـــا ، ويقفون عمرهم كله على خـــدمة الحق جل جلاله ، ويبرأون تماما من الهوى ، ومن ثم يعز الشيخ المريد بالباسه الخلعة ، وهو يقوم بحقها ويجتهد تماما فى أداء هذا الحق ، ويحرم على نفسه رغباتها .

أما الاشارات فى المرقعـــة ، فقد قيل فيهـــا الكثير ، وقد عمل الشيخ أبو معمر الاصفهانى كتابا فيها . وعوام المتصوفة يغالون فى هذا الأمر كثيرا ، وليس مرادنا من هذا الكتاب نقل أقوالهم ، بل كشف المغلق من مراد هذه الطريقة .

وخير الاشارات فى المرقعة القول بأن يكون قبها من الصبر ، وكماها من الخوف والرجاء ، وابطاها من القبض والبسط ، ووسطها من مخالفة النفس ،وجيبها من صحة اليقين ، وسجافها من الاخلاص .

وخير من هذا ، القول بأن يكون القب من فناء المؤانسة ، والكمان من الحفظ والعصمة ، والابطان من الفقر والصفوة ، والوسط من الاقامة فى

---

(١) رواه ابن النجار عن أبى رافع : « الشيخ فى أهله كالنبى فى أمته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .

المشاهدة والجيب من الأمن فى الحضرة ، والسجاف من القرار فى محل الوصل . واذا هيأت لباطنك مرقعة كهذه ، فيجب أن تعمل لظاهرك واحدة أيضا .

ولى كتاب مستقل ، مؤلف فى هذا الموضوع ، اسمه : « أسرار الخرق والملونات » ويلزم للمريد نسخة منه .

أما اذا لبس (المريد) المرقعة ، فانه اذا مزقها فى غلبة الحال وقهر سلطان الوقت فهذا مسلم له ، ويكون له العذر . واذا مزقها فى حال الاختيار والتمييز ، فالأكثر فى شرط هذه الطريقة أن لا يسلم له بالاحتفاظ بها ، أما اذا ما لبسها فانه يكون كأحد أصحاب المرقعات فى هذا الزمان ، قد اكتفى بالظاهر دون الباطن .

والحقيقة فى تخريق الثياب هى أنهم حين ينتقلون من مقام الى مقام آخر ، يخلعون الثوب فى الحال ، شكرا على وجدان هذا المقام ، ويعدون ثوبا آخر لباسا لمقام آخر .

والمرقعة لباس جامع لكل مقامات الطريقة والفقر والصفوة . والخروج من هذا الثوب والتبرؤ منه تبرؤ من الكل ، وان يكن هذا المكان ليس موضعا لذكر هذه المسألة ، اذ أنها تلزم لباب الخرق والملونات وكشف حجاب السماع ؛ وقد أشرت اليها هنا بهذا المقدار حتى لا تخفى هذه اللطيفة ، وسأفصل هذا الحكم فى مكانه ان شاء الله عز وجل .

وقيل أيضا : أنه يجب لمن يقوم بالباس المرقعة من السلطان فى الطريقة ما يجعله اذا نظر الى غريب بعين الشفقة يصير قريبا ، واذا ما ألبس عاصيا المرقعة يصير من أولياء الله .

وفى وقت من الأوقات كنت أسير برفقة شيخى فى آذربيجان(1) ، فرأيت بضعة أفراد من اصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال مرقعاتهم ليضع الفلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليوم وقرأ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين(2) » قلت : أيها الشيخ ، بأى خزى ابتلوا بهذا البلاء ، وفضحوا على الملأ ؟ قال : لأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين ، وهم يحرصون على

---

(1) « أذربيجان » : من ربع المشرق : أول مدنها أردبيل على أربع مراحل من رنجان . وأهل مدن اذربيجان أخلاط من العجم الآذرية والجاودانية القدم أصحاب مدينة البذ التى كان فيها بابك ثم نزلتها العرب لما فتحت . وافتتحت آذربجان سنة اثنتين وعشرين انتتحها المغيرة بن شعبة فى خلافة عثمان (البلدان ص ٣٨) .

(2) سورة « البقرة » آية ١٦

جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص ؛ والدعوة بلا أمر تربية للهـــوى .

ويرد عن الجنيد رحمه الله أنه رأى بباب الطاق(١) مسيحيا جميلا جدا ، فقال : اللهم سخر لى هذا لأنه مخلوق طيب جدا ، فلما مرت برهة ، أقبل المسيحى وقال له : أيها الشيخ ، اعرض على الشهادة ، فعرضها عليه ، وأســـلم ، وصار واحدا من أولياء الله .

وسئل الشيخ أبو على الأسود المروزى(٢) رحمه الله : الباس المرقعة مسلم لمن ؟ قال : للمشرف على ملك الله تعالى فلا يجرى شىء يومئذ فى الدنيا من الأحكام والأحوال الا ويطلعه الله عليه .

وبعد ، فالمرقعة سمة الصالحين ، وعلامة الطيبين ، ولباس الفقراء والمتصوفين . وقـــد جرى الحديث قبل هذا عن حقيقة الفقر والصفوة . واذا جعل شخص لباس الأولياء أداة لجمع أسبا بالدنيا ، وسترا لآفته ، فانه لا يضر الأولياء كثيرا . وبالله التوفيق .

---

(١) « باب الطاق » : محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقى . (معجم البلدان ج ١ ص ٤٤٥)

(٢) « أبو على سياه » (الاسود) : من كبار مشايخ مرو ، كان معاصرا لابى العباس القصاب وأبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير . صحب أبا على الدقاق، وتوفى بمرو سنة أربع وعشرين وأربعمائة . (أنظـــر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٩٠) .

الباب الخامس

باب اختلافهم في الفقر والصفوة

أما علماء هذه الطريقة فمختلفون فى تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، وعند جماعة الصفوة أتم من الفقر .

فمن يقدمون الفقر على الصفوة يقولون ان الفقر فناء الكل ، وانقطاع الأسرار ، والصفوة مقـام من المقامات ، فاذا حصل الفنـاء ، تنعدم كل المقامات .

وهذه المسألة تعود الى الفقر والغنى ، وقد جرى الحديث فيهما قبل هذا .

ومن يقدمون الصفوة على الفقر يقولون ان الفقر شيء موجود قابل للاسم ، والصفوة صفاء من جميع الموجودات ، والصـفاء عين الفناء ، والفقر عين الغنى ، فالفقر من أسـماء المقامات ، والصـفوة من أسماء الكمال .

وقد طال الحديث فى هذا الأمر فى هـذه الأيام ، وكل منهم يعبر بعبارة عجيبة ، ويتقول على الآخر اقوالا غريبة ، والخلاف قائم فى تفضيل وتقديم وتأخير الفقر والصفوة .

ومن المتفق عليه أن العبـارة المجردة ليست الفقر أو الصـفوة . وقد صاغوا من العبارة مذهبا ، وأخلوا الطبع من ادراك المعنى ، وتخلوا عن حديث الحق . وهم يسمون نفى الهوى نفيا للعين ، ويرون اثبات المراد اثباتا للعين ، فالموجود والمقصود والمنفى والمثبت كله هم ، بقيام أنفسهم وهواهم ، والطريقة منزهة عن ترهات المدعين .

وفى الجملة : ان الأولياء يصـلون الى المحل الذى لا يبقى فيه محل ، وتفنى الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى ، فلا يبقى شرب ولا ذوق ، ولا قمع ولا قهر ، ولا صحو ولا محو ، ومن ثم يطلبون

اســـما بالضرورة ليطلقوه على هـــذا المعنى الذى لا يدخل تحت اسم ولا صفة ، وعندئذ يطلق عليه كل شخص الاسم الذى يكون أكثر تعظيما فى نظره . ولا يجوز التقديم والتأخير فى ذلك الأصل فيقول واحد ان ذاك مقدم ، أو هذا مقدم ، لأن التقديم والتأخير يكون فى الأسماء . وقد بدأ لفريق أن اسم الفقر أكثر تقدما ، فصار فى قلوبهم أعظم ، لأنه يتعلق بالترك والتواضع . وبدأ لفريق أن اسم الصفوة مقدم ، فصار أكثر عظما فى قلوبهم ، لأنه أقرب الى ارتفـــاع الكدر وفنـــاء الآفات . وكان مرادهم من هاتين التســـميتين الاعلام والدلالة على ذلك المعنى الذى تنقطع عنه العبارة ، وكانوا يتحدثون عنه فيما بينهم بالاشارة ، فكشفوا وجوده لأنفسهم باتمام الأعلام . ولا خلاف بينهم سواء عبروا عنه بالفقر أو بالصفوة .

ثم ان أهل العبارة وأرباب اللســـان الذين كانوا يجهلون حقيقة هذا المعنى ، تكلموا فى مجرد العبارة ، وقـــدموا واحدا وأخروا الثـــانى ، وكلاهما عبارة ، وسارت تلك الجماعة لتحقيق المعانى ، وتخلف هؤلاء فى ظلمة العبارة .

وفى الجملة ، ان هذا المعنى اذا حصل لفرد وجعل منه قبلة قلبه ، فسواء لديه أن سموه فقيرا أو صوفيا ، فكلاهما اسم اضطرارى لذلك المعنى الذى لا يدخل تحت اسم .

ويرجع هذا الخلاف الى زمن أبى الحسن بن شمعون رحمه الله ، فقد كان حينما يكون فى كشف يتعلق بالبقاء يقدم الفقر على الصفوة ، وحينما يكون أيضا فى كشف يتعلق بالفناء يقدم الصفوة على الفقر ، فقال له أرباب المعانى فى ذلك الوقت : لم تقـــول هذا ؟ قال للطبع مشرب تام فى الفناء والانقلاب ، ومثله أيضا فى البقاء والعلو ، فحينما أكون فى محل يتعلق بالفناء أقدم الصفوة على الفقر ، وحين أكون فى محل يتعلق بالبقاء أقدم الفقر على الصفوة ، لأن الفقر اسم الفناء ، والصفوة اسم البقاء ، لأفنى عن نفسى رؤية البقاء فى البقـــاء ، ورؤية الفنـــاء فى الفناء ، حتى يفنى طبعى عن الفنـــاء والبقاء .

وهذا كلام طيب من حيث العبارة ، ولكن الفناء يكون للفناء وليس للبقاء . وكل باق يفنى عن نفسه فهو فان ، وكل فان يبقى بنفسه فهو باق . والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص أن الفناء يفنى ، لأن المبالغة فى نفى أثر وجود ذلك المعنى ، يمكن أن تكون فى الفنـــاء ، وطالما بقى أثر ، فانه لا يكون فناء بعد ، فاذا حصل الفناء ، فان فناء الفناء لا يكون شـــيئا سوى الاغراب فى عبارة بلا معنى .

وهذه ترهات أرباب اللسان فى وقت عبادة العبارة . ولنا من هذا النوع كلام فى كتاب « الفناء والبقاء » ، وقد عملته فى أيام هوس الصبا وحدة الأحوال ، ولكنى أورد أحكامه فى هذا الكتاب على سبيل الحيطة ، ان شاء الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين الفقر والصفوة من حيث المعنى ، أما من حيث المعاملة فهى من قبيل التجرد عن الدنيا ، واخلاء اليد منها . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والمسكنة .

وقد قالت جماعة من المشايخ رحمهم الله : ان الفقير افضل من المسكين ، لأن الله عز وجل قال : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله(١) » . فالمسكين صاحب معلوم ، والفقير تارك للمعلوم ، والفقر عز ، والمسكنة ذل ، وصاحب المعلوم ذليل فى الطريقة ، فقد قال النبى عليه السلام : « تعس عبد الدرهم وتعس عبد الدينار وتعس عبد الخميصة والقطيفة(٢) » وتارك المعلوم عزيز ، لأن اعتماد صاحب المعلوم على المعلوم ، واعتماد تارك المعلوم على الله تعالى . واذا اتفق لصاحب المعلوم شغل فانه يسير الى المعلوم ، واذا اتفق لتارك المعلوم شغل فانه يسير الى الله تعالى .

وقالت جماعة أخرى : ان المسكين أفضل (من الفقير) لأن النبى عليه السلام قال : « اللهم احينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين(٣) » . وحين ذكر عليه السلام الفقر قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا(٤) » . والفقير هو من يتعلق بسبب ، والمسكين هو المنقطع عن الأسباب .

وفى الشريعة — عند طائفة من الفقهاء — أن الفقير صاحب بلغة ، والمسكين مجرد ، وعند طائفة أخرى ، المسكين صاحب بلغة ، والفقير مجرد . ومن هنا يسمى أهل المقامات المسكين صوفيا .

وهذا الاختلاف يرجع الى اختلاف الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فالذين يقولون منهم أن الفقير مجرد والمسكين صاحب بلغة ، الفقر عندهم أفضل من الصفوة ، والذين يقولون ان المسكين مجرد والفقير صاحب بلغة ، الصفوة عندهم أفضل من الفقر .

هذه هى أحكام اختلافهم فى الفقر والصفوة على سبيل الاختصار ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣
(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .
(٣) مكرر : سبق الاشارة اليه .
(٤) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس : « كاد الفقر أن يكون كفرا ، وكاد الحسد أن يكون سبق القدر » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٨) .

الباب السادس

باب بيان الملامة

سلكت طائفة من مشايخ الطريقة طريق الملامة(١) ، وللملامة فى خلوص المحبة تأثير عظيم ، ومشرب تام ، وقد اختص أهل الحق من بين العالم جميعا بملامة الخلق ، وبخاصة علماء هذه الأمة ، زاد الله من أمثالهم .

والرسول عليه السلام الذى كان قدوة ، واماما لأهل الحقائق ، وقدوة للمحبين ، كان — قبل أن يظهر عليه برهان الحق ويتصل به الوحى —

« أهل الملامة » أو « الملامتية » : فرقة من فرق الصوفية ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى بمدينة نيسابور بخراسان . ويطلق الهجويرى على هذه الفرقة اسم : « القصارية » أو « الحمدونية » نسبة الى حمدون القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وقد وصفه السلمى بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة (طبقات الصوفية ص ١٢٣) . وأساس مذهب الملامتية يقوم على الملامة .

و « الملامة » هى : لوم الملامتى نفسه ، ولوم الناس له . والمراد بلوم النفس : ان الملامتى لا يرى لنفسه حظا على الاطلاق ، ولا يطمئن اليها ، لأنه يعتقد أن النفس شر محض ، وأنها لا يصدر عنها الا ما يوافق طبعها من رياء ورعونة .

والمراد بلوم الناس : أن الملامتى يرى أن معاملته مع الله سر بينه وبين ربه لا يصح أن يطلع عليه غيره ، فهو حريص على كتمان ذلك السر ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلتهبه ، بل ان الملامتية خوفا من أن تنكشف أحوالهم وأسرارهم التى يضنون بها على الخلق ، وخشية أن يتسرب الغرور الى نفوسهم اذا ما ظهروا للناس بما يوجب مدحهم ، يتعمدون فعل ما يجلب عليهم سخط الخلق وازدراءهم ، ويجعليم يطلقون عليهم ألسنتهم بالذم واللوم . يقول أبو حفص الحداد : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ، ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم (الملامتية والصوفية ص ٨٩) .

والملامتية لم يؤلفوا كتبا ، وكل ما أثر عنهم انما هو أقوال لها طابع خاص ، جمعها السلمى فى رسالته التى سماها باسمهم . وتعتبر هذه الرسالة أول ما ألف عن الملامتية ، وتلا ذلك ما ورد عنهم فى كشف المحجوب وعوارف المعارف والفتوحات المكية .

وقد تعرض الملامتية لنقد ابن الجوزى فوصفهم بأنهم أسقطوا جاههم عند الله (تلبيس ابليس ص ٣٦٣) بينما أشاد بهم السلمى (أنظر الملامتية ص ٨٧) ووضعهم ابن عربى فى أعلى درجات السالكين : (أنظر الفتوحات جـ٣ ص ٤٦) . ووقف منهم السهروردى موقفا وسطا ، فهو يصف الملامتى بالاخلاص والصدق ، ولكنه يضع الصوفى فى مرتبة اعلى ويصفه بأنه المخلص الخالص (انظر عوارف المعارف ص ٥٤) .

طيب الاسم وعظيما ، وعندما ألبس خلعة المحبة ، أطلق الخلق فيه لسان الملامة ، فقالت طائفة انه كاهن ، وقالت أخرى انه شاعر ، وقال فريق انه كاذب ، وقال آخر أنه مجنون ، وأمثال هذا .

وقد ذكر الله عز وجل صفة المؤمن فقال : « ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (١) » .

وقد جرت سنة اله العالم جل جلاله على أن كل من يكون له علاقة به ، يجعل العالم كله يلومه ، ويحفظ سره عن الانشغال بلومهم . وهذه غيرة الحق الذى يحفظ أحباءه من ملاحظة الغير حتى لا تقع على جمالهم عين ، ويحميهم من رؤيتهم لأنفسهم حتى لا يروا جمال أنفسهم ويعجبوا بها ، ويقعوا فى آفة العجب والكبرياء ، فسلط عليهم الخلق ليطيلوا فيهم ألسنتهم ، ومكن منهم النفس اللوامة لتلومهم على كل ما يفعلون،فاذا فعلوا الشر لامتهم به،واذا فعلوا الخير رمتهم بالتقصير . وهذا أصل قوى فى طريق الله عز وجل ، لأنه لا يوجد فى هذا الطريق آفة أو حجاب أصعب من أن يصير الانسان معجبا بنفسه .

وينشأ أصل العجب من شيئين : أحدهما طلب الجاه لدى الخلق ومدحهم ، وذلك : أن فعل العبد يرتضيه الخلق ، فيمدح نفسه ، ويرى نفسه كفءا ، فيعجب بذلك . والآخر ، أن ينال فعل شخص رضاء شخص آخر فيثنى عليه ، ويعجب بذلك .

وقد سد الله تعالى بفضله هذا الطريق على أحبائه حتى أن معاملاتهم وان تكن طيبة ، لا يرتضيها الخلق ، لأنهم لا يرونهم رؤية حقيقية ، ومجاهداتهم وان تكن كثيرة ، فانهم لا يرونها بحولهم وقوتهم ، ولا يعجبون بأنفسهم ، حتى حفظوا من العجب بأنفسهم . فمن يرضى عنه الحق لا يرضى عنه الخلق ، ومن يصطفى نفسه لا يصطفيه الحق .

مثال ذلك ابليس ، فقد ارتضاه الخلق ، ولم ترض عنه الملائكة ، وأعجب هو بنفسه . ولما لم يكن مرضيا عنه من الحق ، فقد جر عليه اعجاب الخلق اللعنة .

وآدم صلوات الله عليه ، لم ترض عنه الملائكة وقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء(٢) » . وهو لم يعجب بنفسه وقال :

---

(١) سورة « المائدة » آية ٥٤
(٢) سورة « البقرة » آية ٣٠

« ربنا ظلمنا أنفسنا(١) » . ولما كان مرضيا عنه من الحق قال فيه : « فنسى ولم نجد له عزما(٢) » ، فعدم رضاء الخلق عنه ، وعدم اعجابه بنفسه ، جلبا له الرحمة ، ليعلم أهل العالم أن المقبول لدينا(٣) مهجور من الخلق ، والمقبول لدى الخلق مهجور منا . فلا جرم أن تكون ملامة الخلق غذاء لأحباب الحق ، لأن فيها آثارالقبول ومشرب أوليائه ، لأنها علامة القرب ، وكما يفرح كل الخلق بقبول الخلق ، يفرحون هم برد الخلق لهم .

وجاء فى أخبار السيد المختار عليه السلام ، وعن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل أنه قال : « أوليائى تحت قبائى لا يعرفهم غيرى الا أوليائى » .

فصل : أما الملامة فعلى ثلاثة أوجه : الأول : استقامة السير ، والثانى : القصد ، والثالث : الترك .

فملامة استقامة السير : هى أن يؤدى فرد عمله جيدا ، ويحافظ على الدين ، ويرعى المعاملة ، فيلومه الخلق فى ذلك . ويكون هذا مذهب الخلق فيه ، وهو فارغ منهم .

وملامة القصد : هى أن يحصل لفرد جاه كبير بين الخلق ، ويصير مرموقا بينهم ، ويميل قلبه الى الجاه ، ويتعلق طبعه بهم ، ويريد أن يفرغ قلبه منهم وينشغل بالحق ، فيتكلف طريق الملامة — حتى فى الشىء الذى ليس فيه ضرر فى الشرع — لينفر الخلق منه ، ويكون هذا طريقه مع الخلق ، وهم فارغون منه .

وملامة الترك : هى أن يكون الكفر والضلال الطبيعى متمكنان من شخص حتى يقول بترك الشريعة واتباعها ، ويقول أن ما يفعله ملامة . ويكون هذا طريقه فيها .

أما من يكون طريقه الاستقامة ، وعدم مزاولة النفاق ، والكف عن الرياء ، فلا خوف عليه من ملامة الخلق ، ويكون فى كل الأحوال على مسلكه ، ويستوى لديه أى اسم يسمونه به .

---

(١) سورة « الأعراف » آية ٢٣
(٢) سورة « طه » آية ١١٥
(٣) أى لدى الحق .

وجدت فى الحكايات أن الشيخ أبا طاهر الحرمى ، كان يركب يوما حمارا ، وقد أمسك واحد من مريديه بعنان الحمار ، وكان يسير فى السوق ، فصاح رجل يقول : هذا الشيخ زنديق . فلما سمع المريد بذلك القول أراد — بدافع من غيرة ارادته لشيخه — أن يرجم الرجل ، وثار جميع أهل السوق أيضا . فقال الشيخ للمريد : اذا لزمت الصمت علمتك شيئا ، لتخلص من هذه المحن ، فصمت المريد . ولما رجعا الى الخانقاه قال للمريد : أحضر ذلك الصندوق . فلما أحضره ، أخرج منه لفافات من الرسائل ووضعها أمامه وقال له : انظر ، لقد أرسل كل شخص الى رسالة وخاطبنى فيها كل بلقب ، فواحد لقبنى بالشيخ الامام ، وآخر لقبنى بالشيخ الذكى ، وواحد لقبنى بالشيخ الزاهد ، وآخر لقبنى بشيخ الحرمين ، وأمثال هذا ، وهى كلها ألقاب وليست أسماء ، ولست شيئا من هذا كله . وقد قال كل منهم كلاما حسب اعتقاده ، ولقبنى بلقب ، فان كان ذلك المسكين قد قال كلاما على حسب اعتقاده ، ولقبنى بلقب ، فلماذا أثرت كل هذا العداء ؟ .

وأما من كان طريقه القصد فى الملامة ، وترك الجاه والرياسة ، والكف عن الانشغال بالخلق ، فانه يكون كما روى عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، من أنه كان قادما يوما من بستان نخل — فى حال خلافته — وقد حمل على رأسه حزمة حطب ، وكان له أربعمائة غلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا ؟ قال : « أريد أن أجرب نفسى » ، هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق عن أى عمل . وهذه الحكاية صريحة على اثبات الملامة ، وتوجد حكاية فى هذا المعنى عن الامام أبى حنيفة ، تجدها حيث يرد ذكره فى هذا الكتاب .

ويروى أيضا عن أبى يزيد أنه كان قادما من الحجاز(١) ، فنودى فى المدينة أن أبا يزيد قد جاء . فخرج الناس جميعا لاستقباله وأدخلوه المدينة باكرام ، ولما انشغل بمجاملتهم ، تخلف عن الحق وتشتت ، فلما دخل السوق ، أخرج من كمه رغيفا وأخذ فى أكله — وكان هذا فى شهر رمضان — فرجع الناس جميعا عنه وتركوه وحده . وكان بصحبته مريد ، فقال له : ألم تر كيف أنى تركت مسألة واحدة من الشريعة فردنى الخلق جميعا ؟

---

(١) « الحجاز » : جبل ممتد حل بين الغور ، غور تهامه ونجد . وقيل سمى الحجاز حجازا لانه فصل بين الغور والشام وبين البادية . وقال الاصمعى فى كتاب جزيرة العرب : الحجاز اثنتا عشرة دارا (وذكر على رأسها المدينة وخيبر) . (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — أقول : لقد كان يلزم للملامة فى ذلك الزمان فعل مستنكر ، والظهور بشىء مخالف للعادة . والآن اذا أراد رجل أن يلام ، قل له : أد ركعتين طويلتين ، أو : زاول دينك كاملا ، فان الخلق جميعا يسمونه بالمرائى والكاذب .

وأما من كان طريقه الترك ، ويختار ما يخالف الشريعة ويقول اننى أسلك طريق الملامة ، فتلك ضلالة واضحة ، وآفة ظاهرة ، وجنون صادق — على نحو ما يوجد عليه كثيرون فى هذه الأيام ، ومقصودهم من رد الخلق قبول الخلق — لأنه يجب أن يكون الشخص أولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردهم ، ويظهر بفعل يردونه به ، اذ أن تكلف الرد لقبول لم يحصل ، يكون حيلة .

واتفق لى ذات مرة أن أصحب أحد هؤلاء الأدعياء المبطلين ، فظهر يوما بمعاملة باطلة ، وجعل الملامة عذرا لها ، فقال له رجل : هذا ليس بشىء !! فرأيته يزفر ، فقلت : يا هذا ، اذا كنت تسلك طريق المعاملة وأنت صادق فى هذا ، فانكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك ، وما دام هو يوافقك فى طريقك ، فلم الخصومة والغضب ؟ وقصتك هذه أقرب الى الدعوى منها الى الملامة ، وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق ، وبرهانه حفظ السنة . ولما كنت أرى منك ترك الفريضة ظاهرا وأنت تدعو الخلق ، فان هذا الأمر يخرج عن دائرة الاسلام .

فصل : أعلم أن مذهب الملامة فى هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار(١) ، وله فى حقيقة الملامة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال : « الملامة ترك السلامة » . واذا تعمد شخص ترك سلامته ، وأحاط نفسه بالبلايا ، وتبرأ من المألوفات والراحات جميعا — أملا فى كشف الجلال وطلب المآل — حتى ييأس من الخلق برد الخلق ، ويقطع طبع ألفته منهم ، فانه كلما كان أكثر انقطاعا عنهم ، كان أكثر اتصالا بالحق . فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم — وهو السلامة — يعرض عنه أهل الملامة ، لتكون همومهم مخالفة للهموم ، وهمتهم مخالفة

---

(١) كنيته : أبو صالح . واسمه : حمدون بن أحمد بن عمارة القصار . صحب سلم ابن الحسين الباروسى ، وأبا تراب النخشبى ، وعليا النصرابادى . كان عالما فقيها يذهب مذهب الثورى . مات سنة احدى وسبعين ومائتين ودفن بنيسابور . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣٣ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

للهمم ، ويكونوا وجدانيين فى أوصافهم ، كما روى أحمد بن فاتك[1] عن الحسين بن منصور[2] أنه سئل : من الصوفى ؟ فقال : وجدانى الذات[3] .

ويرد عن أبى حمدون أنه سئل عن الملامة فقال : ان طريقها صعب ومغلق على الخلق ، ولكنى أقول عنها شيئا ، فهى «رجاء المرجئة[4] ، وخوف القدرية[5] » . وتحت هذا المعنى رمز .

اعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله تعالى بشىء الا بالقدر الذى يكون كافيا لجاه الخلق ، كأن يقول عنه شخص انه رجل طيب ويمدحه ، فيهبه روحه وقلبه ، ويتخلف به عن الله تعالى . فالخائف يجتهد دائما فى أن يكون بعيدا عن موضع الخطر ، وفى هذا الاجتهاد يكون للطالب خطران : أولهما ، الخوف من حجاب الخلق ، والآخر ، منع الفعل الذى أدانه الخلق به ، فيطيلون عليه لسان الملامة ، فلا هو يركن الى جاههم ، ولا هو بقادر على أن يجعلهم مذنبين بملامته . فينبغى للملامتى اولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه ، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا بالصغيرة فى الشرع ، ليرده الخلق ، حتى يكون خوفه فى المعاملة كخوف القدرية ، ورجاؤه فى معاملة اللائمين كرجاء المرجئة .

ولا يوجد فى حقيقة المحبة شىء أطيب من الملامة ، اذ ليس لملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب ، ولا مرور للحبيب الا على حى الحبيب ، وليس للأغيار خطر على قلب الحبيب ، لأن الملامة روضة العاشقين ، ونزهة المحبين ، وراحة المشتاقين ، وسرور المريدين . وهذه الطائفة من الثقلين

---

(١) أحمد بن فاتك بن سعيد : كنيته : أبو الفاتك . بغدادى . صحب الجنيد والنورى . كان تلميذا للحلاج وخادما له . (أنظر ترجمته فى نفحات الانس ص ١٥٢) .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج : من أهل بيضاء فارس . نشأ بواسط والعراق ، وقتل ببغداد سنة تسع وثلثمائة (ارجع الى ما ورد عن الحلاج فى القسم الاول ص ، ترجمة الحلاج فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٤٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٥ ، نفحات الانس ص ١٥٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٧٨) .

(٣) ورد فى الرسالة القشيرية : سئل عن الصوفى فقال : وحدانى الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا . (أنظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥١) وعلى هذا تكون العبارة السابقة لهذا القول : ويكونوا وجدانيين فى أوصافهم .

(٤) يقول ابن حزم ان فرق المقرين بملة الاسلام خمسة وهم : أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج . وأقرب فرق المرجئة الى أهل السنة من ذهب مذهب أبى حنيفة الى أن الايمان هو التصديق باللسان والقلب معا ، أما غلاة المرجئة فطائفتان : احداهما تقول ان الايمان عقد بالقلب فقط وان أظهر الكفر والتثليث بلسانه ، والطائفة الثانية تقول أن الايمان هو القول باللسان وأن اعتقد الكفر بقلبه (انظر : الفصل فى الملل ج ٢ ص ١١١ — ١١٢ ، ج ٤ ص ٢٠٤) .

(٥) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٢٩) .

مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب ، ولم تكن لأى أحـــد من الخلائق المقربين والكروبيين والروحانيين هذه الدرجة ، ولم تكن هذه المرتبة أيضا لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة الا لهذا الفريق من هذه الأمة ، الذين سلكوا طريق انقطاع القلب .

أما عندى ، فطلب الملامة عين الرياء ، والرياء عين النفاق ، لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق ، والملامتى يسلك بالتكلف الطريق الذى يرده الخلق . وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم ، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة ، والأخرى خرجت بتلك . ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق ، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين ، ولا يقيده شىء .

وقد اتفقت لى ذات مرة صحبة أحد الملامتية فى ما وراء النهر ، وعندما تملكنى فى الصحبة حال من البسط قلت له : يا أخى ! ما مرادك من هذه الأفعال المشوشة ؟ قال : خلو الخلق منى . فقلت له : هؤلاء الخلق كثير ، ولن تجد العمر والزمان والمكانة لاخلاء الخلق منك ، فاخل أنت نفسك من الخلق لتخلص من هذه المشاغل ! ويوجد فريق منشغلون بالخلق ويظنون أن الخلق مشغولون بهم . أن أحدا لايراك ، فلا تر أنت نفسك ! وآفة حالك من عينك . ثم ، ما شأنك بالغير ؟ من يلزمه طلب الشفاء من الاحتماء ويطلبه من الغذاء ، فليس من الناس .

وهناك أيضا جماعة يمارسون الملامة لرياضة النفس ، لتتأدب نفوسهم باحتقار الخلق لهم ، وينتصفون منها ، لأن أطيب أوقاتهم ما يجدون فيه نفوسهم فى البلاء والمهانة .

ويروى عن السيد ابراهيم بن أدهم رحمه الله أنه سئل : أرأيت نفسك قد بلغت المراد أبدا ؟ قال : نعم ، رأيت ذلك مرتين : مرة ، كنت قد ركبت سفينة لم يعرفنى بها أحد ، وكنت ألبس خلقا ، وقد طال شعرى ، وكنت على حال كان أهل السفينة معه يسخرون منى ويهزأون بى . وكان مع القوم مهرج يأتى الى كل لحظة ويشد شعرى وينتزعه منى ، ويستخف بى على سبيل السخرية . وكنت أجد نفسى على مرادى ، وأفرح بذل نفسى ، الى أن بلغ السرور يوما غايته بأن قام المهرج وتبول على !

والمرة الثانية : أنى بلغت قرية فى مطر عظيم ، وقد غلبنى برد الشتاء وابتلت المرقعة على جسدى ، فوصلت الى مسجد فلم يدعونى أدخـــل هنالك . وقصدت مسجدا ثانيا وثالثا حتى عجزت ، وعصف بى البرد ،

فدخلت فى موقد حمام ، وبسطت ذيلى على النار ، وتصاعد الدخان من تحتى فاسود ثوبى ووجهى ، فبلغت مرادى فى تلك الليلة .

وقد وقعت لى أنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — واقعة ذات مرة ، وقمت بكثير من المجاهدة على أمل أن تحل تلك الواقعة ، فلم تحل . وكانت قد وقعت لى مثل تلك الواقعة من قبل ، فأقمت مجاورا على قبر الشيخ أبى يزيد (البسطامى) الى أن حلت ، فقصدت هنالك هذه المرة أيضا ، وبقيت على قبره مجاورا ثلاثة أشهر ، وكنت أغتسل كل يوم ثلاث مرات ، وأتوضا ثلاثين مرة ، أملا فى كشف تلك الواقعة ، فلم تحل البتة . ونهضت وذهبت الى خراسان(١) ، وبلغت فى الليل قرية فى ولاية « كمش »(٢) حيث توجد خانقاة بها جماعة من المتصوفة ، وكنت وفقا للسنة المتبعة ، أرتدى مرقعة خشنة ، ولم يكن معى من آلة أهل الرسم غير عصا وركوة ، وبدوت حقيرا جدا فى أعين تلك الجماعة ، ولم يعرفنى منهم أحد ، وأخذ كل منهم يقول للآخر انى لست منهم ، وكان ذلك حقا لأنى لم اكن منهم ، ولكن كان لابد من قضاء تلك الليلة فى ذلك المكان ! وفى تلك الليلة أجلسونى على سطح ، وذهبوا هم الى سطح أعلى ، وأجلسونى على أرض جافة ووضعوا أمامى خبزا عفنا ، وكانت تصل الى رائحة الأحسية التى كانوا يأكلونها ، وأخذوا يسخرون منى من ذلك السطح العلوى ، فلما فرغوا من الطعام أخذوا يأكلون الخربوزج(٣) ، ويلقون بقشرة فوق رأسى على سبيل المزاح . وكنت أتحمل استخفافهم راضيا وأقول : يا الهى ، لو لم يكونوا يرتدون ثياب أحبائك لما تحملت منهم هذا . وكلما ازدادت سخريتهم بى ازداد قلبى سرورا ، حتى حلت واقعتى بتحمل هذا العبء . وأدركت فى الحال لماذا أفسح المشايخ — رحمهم الله — للجهال طريقا بينهم ، ويحتملون عبئهم .

هذه هى أحكام الملامة كاملة أوضحتها . وبالله التوفيق .

---

(١) « خراسان » : بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند طخارستان وغزنه وسجستان وكرمان وليس ذلك منها انما هو أطراف حدودها . وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهى كانت قصبتها وبلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيمون . وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا سنة ٣٠ فى أيام عثمان . ونيسابور أكبر مدن خراسان وقد صارت عاصمة هذا الاقليم منذ اتخذها أمراء الطاهريين عاصمة لهم (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها) .

(٢) كمش : « قومس » : كورة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهى فى ذيل جبال طبرستان وقصبتها دامغان وهى بين الرى ونيسابور . ومن مدنها الشهيرة بسطام (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) الخربوزج معرب (خربوزه) نوع من أنواع الشمام حلو المذاق جدا وقوامه من الداخل أصلب من الشمام وأبيض اللون ، أما لون قشره من الخارج فأغبر تغلب عليه الخضرة الداكنة العفرة ، وأجود أنواعه بأصفهان .

الباب السابع

باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين رضى الله عنهم أجمعين

والآن أذكر طرفا من أحوال ائمتهم من الصحابة الذين كانوا هداة لهم وقدوتهم فى المعاملة ، وأنفاسهم وقوادهم فى الأحوال بعد الأنبياء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم ، ليكون تأكيدا لاثبات مرادك ان شاء الله تعالى عز وجل .

منهم شيخ الاسلام وبعد الأنبياء خير وأفضل الأنام ، خليفة النبى ، وامام وسيد أهل التجريد ، وهادى أرباب التفريد ، والبعيد عن الآفات النفسية ، **« أبو بكر عبد الله بن عثمان الصديق(١) »** رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة ، والآيات والدلائل الظاهرة فى المعاملات والحقائق . وقد ذكر طرف من أحواله فى باب التصوف . ويعده المشايخ مقدم أرباب المشاهدة ، لقلة حكاياته ورواياته ، ويعدون عمر رضى الله عنه مقدم أرباب المجاهدة ، لصلابته ومعاملته .

---

(١) اسمه عبد الله ، واسم أبيه ، أبو قحافة عثمان ، وكان اسم أبى بكر فى الجاهلية ، عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ولقبه عتيقا . ويقال لقب عتيقا لجماله ، ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار . وسمى صديقا ، لتصديقه خبر الاسراء ، فهو : عبد الله ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال له التيمى ، وهو يلتقى مع الرسول عليه السلام عند مرة بن كعب .

وكان أول من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به من أصحابه على بن أبى طالب ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر . وبويع أبو بكر فى اليوم الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعده بن كعب بن الخزرج . ثم بويع بيعة العامة . وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال . مات فى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة . دفن مع النبى صلى الله عليه سلم فى بيت عائشة ابنته زوج الرسول صلى الله عليه وسلم .

والصوفية يعدون أبا بكر أمامهم وقدوتهم فى التجريد . يقول أبو بكر الواسطى « أول لسان الصوفية : ظهرت فى هذه الأمة على لسان ابى بكر رضى الله عنه اشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء . ويقول السراج فى شرح قول الواسطى : انه يشير بهذا الى قول أبى بكر ، عندما سأله النبى صلى =

ومسطور فى الأخبار الصحاح ، ومشهور بين أهل العلم ، أن أبا بكر حين كان يصلى بالليل ، كان يقرأ القرآن بصوت خفيض ، وكان عمر عندما يصلى ، يقرأ بصوت جهير . وسأل الرسول عليه السلام أبا بكر : لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « أسمع من أناجى » فأنا أعرف أنه غير بعيد عنى ، ويستوى لدى سمعه الخفيض والجهير . وسأل عمر ، فقال : « أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان » ، فدل هذا (عمر) على المجاهدة ، وذاك (أبو بكر) على المشاهدة . ومقام المجاهدة فى جنب مقام المشاهدة مثل قطرة فى بحر ، ولهذا السبب قال النبى عليه السلام لعمر : « وهل أنت الا حسنة من حسنات أبى بكر » فاذا كان عمر — وهو الذى كان به عز الاسلام — حسنة من حسنات أبى بكر ، فانظر كيف يكون العالمون ؟ !!

يرد عنه أنه قال : « دارنا فانية ، وأحوالنا عارية ، وأنفاسنا معدودة ، وكسلنا موجود » .

فعمارة الدار الفانية من الجهل ، والاعتماد على الحال العارية من البله ، وتوطين القلب على الأنفاس المعدودة من الغفلة ، وتسمية الكسل بالدين من الغبن ، لأن ما هو عارية يسترد ، وما هو عابر لا يبقى ، وما يأتى تحت العدد ينتهى ، وليس للكسل دواء .

وقد بين لنا رضى الله عنه أنه لا خطر للدنيا والدنيوى حتى ينبغى شغل الخاطر بهما ، لأنك اذا شغلت بالفانى حجبت عن الباقى ، ولما صارت النفس والدنيا حجابا للطالب عن الحق ، أعرض أحباؤه عنهما . ولما عرفوا أن الدنيا عارية ، والعارية ملك لآخر ، كفوا عن التصرف فى ملك الآخرين .

ويرد عنه أيضا أنه رضى الله عنه قال فى مناجاته : « اللهم أبسط لى الدنيا وزهدنى فيها » وتحت هذا رمز يعنى : أعطنى الدنيا أولا لأشكر ، ثم وفقنى لكى أكف عنها وأعرض عنها من أجلك ، لأكون قد أدركت درجة

= الله عليه وسلم : ايش خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ، فهى اشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التجريد .

وحكى عن الجنيد البغدادى ، أنه قال : اشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته » .

(أنظر المعارف ص ٧٣ — ٧٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٦ — ١١٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٢ ، اللمع ص ١٦٨ — ١٧٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٧ — ٩) .

الشكر والانفاق ، وكذلك مقام الصبر ؛ وحتى لا أكون مضطرا فى الفقر ، فيكون الفقر لى باختيارى .

وهذا رد شيخ المعاملة الذى قال : من يكون فقره اضطرارا فهو أتم ممن يكون فقره اختيارا ، لأنه اذا كان فقره اضطراريا كان هو صنعة للفقر ، واذا كان فقره اختيارا كان الفقر صنعة له ، وعندما يكون كسبه منقطعا عن جلب الفقر فانه يكون أفضل من أن يجعله لنفسه درجة بالتكلف .

ونقول : ان صنعة الفقر تكون أظهر عند من تستولى ارادتها على قلبه فى حال الغنى ، الى حد أن يصرف عن محبوب آدم وذريته ، الا وهو الدنيا ، وليس ذلك الذى تستولى على قلبه فى حال الفقر الرغبة فى الغنى الى حد أنها تدفعه الى أعتاب الظلمة والسلاطين من أجل المال ، فصنعه الفقر هى الانتقال من الغنى الى الفقر ، لا طلب الرياسة فى الفقر .

والصديق الأكبر رضى الله عنه — وهو المقدم على كل الخلق بعد الأنبياء ولا يجوز أن يتقدمه أحد — قد قدم الفقر الاختيارى على الفقر الاضطرارى . وكل مشايخ المتصوفة على هذا ، الا ذلك الشيخ الذى ذكرنا حجته ومقالته ورددنا عليه . ثم ان الصديق الأكبر أكد هذا ، ودلل عليه بالدليل الواضح .

روى عنه الزهرى أنه حين بويع بالخلافة ، اعتلى رضى الله عنه المنبر وخطب ، وقال فى أثناء الخطبة : « والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولاليلة قط ، ولا كنت فيها راغبا ، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية ، وما لى فى الامارة من راحة » .

وحين يوصل الله عز وجل العبد الى كمال الصدق ، ويكرمه فى محل التمكين ، فانه ينتظر وارد الحق ليرى على أى صفة يجىء ويمضى عليها ، فاذا جاء الأمر له بالفقر يكون فقيرا ، واذا جاء الأمر بالغنى يكون غنيا ، فلا يتصرف فى هذا ولا يختار ، كما فعل الصديق رضى الله عنه فى البداية . ولا يكون له فيه أيضا الا التسليم ، كما فعل فى النهاية ، فبه اقتداء هذه الطائفة فى التجريد والتمكين ، والحرص على الفقر ، وترك الرياسة ، من بعد أن أصبح امام دين المسلمين عامة ، وامام أهل هذه الطريقة خاصة ، رضى الله عنه .

ومنهم : قائد أهل الايمان وفقير أهل الاحسان ، امام أهل الحقائق ،

وغريق بحر المحبة ، أمير المؤمنين « **أبو حفص عمر بن الخطاب**(١) » رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة والفراسات المذكورة ، خصه الله بالفراسة والصلابة ، وله لطائف فى هذه الطريقة ، وحقائق فى هذا المعنى ، كما قال عليه السلام : « الحق ينطق على لسان عمر(٢) » . وقال أيضا عليه السلام : « قد كان فى الأمم محدثون فان يك فى أمتى فعمر(٣) » . وله فى هـذه الطريقة رموز لطيفة كثيرة لا يمكن حصرها كلها فى هـذا الكتاب .

ويرد عنه أنه قال : « العزلة راحة من خلطاء السوء » . والعزلة على نوعين ، أولهما : الاعراض عن الخلق ، والآخر : الانقطاع عنهم .

---

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وينسب الى عدى فيقال العدوى ، ويكنى أبا حفص . وكان يدعى الفاروق لأنه أعلن الاسلام ونادى به والناس يخفونه ، ففرق بين الحق والباطل . وكان المسلمون يوم أسلم تسعة وثلاثين رجلا وامرأة بمكة فكملهم عمر أربعين . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . عهد اليه أبو بكر واستخلفه بعده . وكان أول عمل قام به ، رد سبايا أهل الردة الى عشائرهم وقال : انى كرهت أن يصير السبى سنة على العرب . وحج بالناس عشر سنين متوالية ، ثم صدر الى المدينة ، فقتله (فيروز أبو لؤلؤة) غلام المغيرة بن شعبة فى أواخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقبر فى حجرة عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنهما . وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال .

سن عمر قيام شهر رمضان وكتب بذلك الى البلدان . سمى أمير المؤمنين ، وكان يسمى خليفة رسول الله . وكتب اليه أبو موسى الاشعرى « لعبد الله عمر أمير المؤمنين » وجرت عليه . كان فى وجهه خطان من كثرة البكاء ، وكان يحب الصلاة فى وسط الليل ، وكان يمر بالآية فى ورده فتخنقه العبرات فيبكى حتى يسقط ثم يلزم بيته حتى يعاد ، يحسبونه مريضا .

كان فى أعلى درجات الصديقين وظهرت عليه دلائل ذلك ، وهو ما ذكر عنه من أنه كان يخطب فصاح فقال فى وسط خطبته : يا سارية الجبل ! وسارية فى عسكر على باب نهاوند . فسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو . وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ قال : سمعت صوت عمر رضى الله عنه يقول : يا سارية ! الجبل ! الجبل ! وكان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت .

ويقول السراج : لأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر ، رضى الله عنه ، بمعانى . خص بذلك عمر من اختياره لبس المرقعة والخشونة ، وترك الشهوات واجتناب الشبهات ، واظهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ، ومساوات الاقارب والاباعد فى الحقوق ، والتمسك بالأشد فى الطاعات وغير ذلك مما روى عنه وبيانه يطول .

(أنظر ترجمته فى : المعارف ص ٧٧ — ٨٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١١٧ — ١٣٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٦ ، اللمع ص ١٧٣ — ١٧٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٤ — ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٩ — ١٣) .

(٢) رواه الحكيم عن الفضل بن عباس : « الحق بعدى مع عمر حيث كان » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٩) .

(٣) رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة : « قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فان يك فى أمتى أحد منهم فهو عمر بن الخطاب (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٢) .

والاعراض عن الخلق هو اختيار مكان خال ، وتجنب صحبة الأجناس بالظـــاهر ، والركون الى النفس لرؤية الأعمال ، وتخليص النفس من مخالطة الناس ، وتأمين الخلق من شرك .

أما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب ، وليس لصفة القلب أى تعلق بالظاهر ، فحين ينقطع الشخص بقلبه عن الخلق وصحبتهم ، لا تكون له دراية بالمخلوقات حتى يستولى التفكير فيهم على قلبه،ومن ثم فان هذا الشخص وان يكن بين الخلق ، فانه يكون وحيدا ، وتكون همته فريدة عنهم . وهذا مقام عال وبعيد جدا وصحيح . وكانت هذه صفة عمر رضى الله عنه ، الذى أشـــار الى راحـــة العزلة ، وان كان بالظـــاهر فى ولاية الامارة والخـــلافة .

وهذا دليل على أن أهل الباطن وان خالطوا الخلق فى الظاهر ، فان قلوبهم تكون متعلقة بالحق ، ويكونون راجعين اليه فى كل حال ، ويعدون ذلك القدر من صحبتهم للخلق بلاء من الحق . وهم لا يتحولون عن الحق تعـــالى بصحبتهم للخلق ، لأن الدنيا لا تصفوا أبدا لأحباب الحق ، ولا تهنأ أحوالها ، كما قال عمر رضى الله عنه : « دار أسست على البلوى بلا بلوى محال » .

وكان عمر رضى الله عنه من خواص أهل الرســـول عليه الســـلام وأصحابه ، وكان مقبولا فى حضرة الحق تعالى بجميع أفعاله ، الى حد أن جاء جبريل عليه السلام عندما أسلم عمر وقال للرسول عليه الســـلام : « يا محمد قد أستبشر أهل السماء اليوم باسلام عمر » . وبه اقتداء هذه الطائفة فى لبس المرقعة والصلابة فى الدين من بعد أن صار رضى الله عنه اماما للخلق فى كل شىء .

ومنهم أيضا : جوهر كنز الحياء ، وأعبد أهل الصفاء ، والمتعلق بأعناب الرضا ، والمتمكن على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنـــه : ((**أبو عمرو عثمان بن عفان**(١))) رضى الله عنـــه . ذو الفضائل الواضحة ، والمناقب الظاهرة فى جميع المعانى .

---

(١) هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة ، ويجتمع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه : رقية وأم كلثوم . سمى ذا النورين لجمعه بينهما . وهو من المهاجرين الأولين ، هاجر الى الحبشة وهاجر الى المدينة . اشترى بئر رومة فى المدينة ، وكان ليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقـــال النبى صلى الله عليه وسلم : من يشترى رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها =

ويروى عبد الله بن رباح وأبو قتادة — رضى الله عنهما — أنه فى يوم حرب الدار ، كنا عند عثمان رضى الله عنه ، فلما اجتمع الغوغاء على بابه ، شهر غلمانه السلاح ، فقال لهم : عثمان : كل من لا يخلع السلاح فهو حر منى . وخرجنا خوفا على أنفسنا ، فلاح الحسن بن على فى الطريق ، ورجعنا معه ، ودخلنا على عثمان لنرى لم أقبل الحسن رضى الله عنه ، فلما دخل الحسن ، حياه وعزاه على تلك البلية ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المسلمين بدون أمرك وأنت امام القوم ، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم . فقال له عثمان : « يا ابن أخى ! ارجع واجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره ، فلا حاجة لنا فى اهراق الدماء » .

وهذا علامة التسليم فى حال ورود البلاء ، فى درجة الخلة ، كما حدث لابراهيم عليه السلام عندما أشعل النمروذ النار والقى به فيها ، فقد جاءه جبريل عليه السلام وقال : « هل لك من حاجة » قال : « أما اليك ، فلا » فقال : فسل الله . قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ، فعثمان فى مكان الخليل ، والغوغاء فى مكان النار ، والحسن فى مكان جبريل . ولكن ابراهيم عليه السلام قد نجا من البلاء ، وعثمان رضى الله عنه هلك فى البلاء .

= فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . فكان يوم له ويوم لعثمان . فاذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فقال اليهودى لعتمان : أفسدت على فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم .

بويع فى غرة محرم سنة أربع وعشرين وهو ابن تسع وستين سنة . وكانت أيامه اثنتى عشرة سنة وحج بالناس اىامه كلها الا السنة الأولى . حوصر أربعين يوما وقتل فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل أن الذين قتلوه : محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى خذيفة وابن حزم . فلما دخلوا عليه من دار بنى حزم ضربه أحدهمبمشقص فى وجهه فسال الدم على المصحف فى حجره . ثم أخذ محمد ابن أبى بكر بلحيته ... ودفن بالبقيع ليلا وأخفوا قبره .

ويقول السراج ان عثمان رضى الله عنه خص بالتمكين ، والتمكين من أعلى مرانب المحققين . ومما يتعلق به أهل الحقائق بعثمان ، ما روى عنه من أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه ، وكان له عدة ممالك ، فقيل له : لو دفعتها الى بعض عبيدك ؟ فقال : انى قد استطعت أن أفعل ذلك ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل يعجز عن ذلك وهل تكره ذلك ؟ فدل على أنه كان لا يدع افتقاد نفسه ، وكان يفتقد رياضة نفسه لئلا يسكن الى ما جمع الله من الاموال لانه ليس فى ذلك كغيره .

ومما يدل على تخصيصه بالتمكين والثبات والاستقامة ما روى عنه أنه يوم قتل لم يبرح موضعه ، ولم يأذن لاحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره الى أن قتل ، رضى الله عنه ، وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ووقع الدم على موضع الآية : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » .

(انظر ترجمته فى المعارف ص ٨٢ — ٨٥ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٩ — ١٥٢ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣ ، اللمع ص ١٧٦ — ١٧٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٣ — ١٥) .

وللنجاة تعلق بالبقاء ، وللهلاك تعلق بالفناء ، وقد ذكرت طرفا من الحديث فى هذا المعنى من قبل .

فاقتداء هذه الطائفة بعثمان رضى الله عنه فى بذله المال والحياة ، والتسليم فى الأمور ، والاخلاص فى العبادة . وهو على الحقيقة امام حق فى الحقيقة والشريعة ، وطريقته فى المحبة ظاهرة . وبالله التوفيق .

● ومنهم ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء ، وقدرة الأولياء والأصفياء ، ((**أبو الحسن على بن أبى طلب**(١))) كرم الله

---

(١) هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ويكنى أبا الحسن ، ابن عم الرسوم عليه السلام وزوج ابنته فاطمة . بويع بيعة العامة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقتل عثمان بأربعة أيام . وبايع له بالمدينة طلحة والزبير . وسار الى البصرة سنة ست وثلاثين وفيها كانت واقعة الجمل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة . وقتل طلحة وهزم من كان معهم . ورجع الزبير فقتل بوادى السباع . وأحيط بعائشة فأخذت ، ودخل على البصرة فبايعه أهلها . وأرسل عائشة الى المدينة ووجه معها سبعين امرأة من عد القيس فى ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة ، ثم انصرف على بعد ذلك الى الكوفة واستعمل على البصرة عبد الله بن عباس . وتهيأ لحرب معاوية فسار بأهل العراق ، وأقبل معاوية فى أهل الشام ومن اتبعه فكانت موقعة صفين ثم الحكمان . ولم يزل فى حرب الى أن قتل رحمه الله ولم يحج لشغله بالحروب . وكان مقتله فى رمضان سنة أربعين ، وقاتله عبد الرحمن بن ملجم ، ودفن بالكوفة عند مسجد الجماعة فى قصر الامارة . وكانت ولايته خمس سنين الا ثلاثة أشهر .

ويقول السراج : لأمير المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعانى جليلة واشارات لطيفة ، والفاظ مفردة ، وعبادة وبيان للتوحيد والمعرفة والايمان ، والعلم وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية : من ذلك أنه سئل : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفنى نفسه ، لا تشبه صوره ، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، فوق كل شىء ولا يقال شىء تحته ، وتحت كل شىء ولا يقال شىء فوقه ، امام كل شىء ولا يقال شىء أمامه ، داخل فى الأشياء لا كشىء ولا من شىء ولا فى شىء ولا بشىء . سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره .

وسأله رجل عن الايمان فقال : الايمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات ، فان صح ذلك عنه فهو أول من تكلم فى الاحوال والمقامات .

وذكر عنه أنه وقف على باب خزانة الأموال وقال : يا صفراء ويا بيضاء غرى غرى . ويقال أنه كان اذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه ، فيقال له : مالك ياأمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانه عرضها الله تعالى على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، فلا أدرى أحسن أداء ما احتملت أم لا ؟

وكان رضى الله عنه يقول : القلوب أوعية وخيرها أوعاها . ويقول : التقوى هى ترك الاصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة .

وكان الجنيد يقول : رضوان الله عليه أمير المؤمنين على لولا انشغاله بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معانى كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى العلم اللدنى . والعلم اللدنى هو العلم الذى خص به الخضر عليه السلام .

(انظر : المعارف ص ٨٨ — ٩٠ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٥٤ — ١٨٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢ — ٤٥ ، اللمع ١٧٩ — ١٨٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٥ — ١٧ ؛ خزينة الاصفياء ط ص ٥ — ٢٦) .

وجهه . وله فى هذه الطريقة شأن عظيم ،ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام فى دقة التعبير عن أصول الحقائق الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « شيخنا فى الأصول والبلاء على المرتضى » رضى الله عنه .

أى أن عليا رضى الله عنه هو امام هذه الطريقة فى العلم والمعاملة ، فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات .

ويحكى أن رجلا ذهب اليه وقال له : يا أمير المؤمنين ! أوصنى . فقال له :

« لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك ، فان يكن أهلك وولدك من أولياء الله ، فان الله لا يضيع أولياءه ، وان كانوا أعداء الله ، فما همك وشغلك لأعداء الله » .

وهذه المسألة تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله ، لأنه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقينهم صادقا ، كما ترك موسى عليه السلام ابنه شعيب عليه السلام فى حال قاسية وأسلم أمرها لله ، وكما حمل ابراهيم هاجر واسماعيل عليهما السلام الى واد غير ذى زرع ، وأسلم أمرهما لله جل جلاله ، ولم يجعلاهما أكبر شغلهما ، وربطا قلبيهما بالحق تعالى حتى تحقق مرادهما فى الدنيا والآخرة فى حال انعدام المراد ، بتسليم الأمور لله عز وجل .

وهذا شبيه بما قاله على كرم الله وجهه لسائل كان قد سأله : ما أطهر الكسب ؟ قال : « غناء القلب بالله » .

وكل قلب يكون غنيا بالله تعالى لا يصيره عدم الدنيا فقيرا ، ووجودها لا يسره . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والصفوة ، وقد مر ذكرهما . فأهل هذه الطريقة يقتدون به فى حقائق العبارات ودقائق الاشارات ، والتجرد عن معلوم الدنيا ، والنظر فى تقدير الحق .

ولطائف كلامه أكثر من أن تحصى ؛ ومنهجى فى هذا الكتاب هو الاختصار، وبالله التوفيق .

الباب الثامن

باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت

وأهل بيت النبى عليه السلام هم أولئك الذين اختصوا بطهارة الأصل ، ولكل منهم فى هـذه المعانى قدم راسخة ، وكانوا كلهم قدوة هذه الطائفة ، الخواص منهم والعوام . وأبين طرفا من أحوال طائفة منهم ، ان شاء الله عز وجل .

● منهم فلذة كبد المصطفى ، وريحانة قلب المرتضى، وقرة عين الزهراء : ((**أبو محمد الحسن بن على**(١))) كرم الله وجهه ، كان ذا نظر صائب فى هذه الطريقة ، وحظ وافر فى دقائق العبارات ، الى حد أنه عندما أوصى قال : « عليكم بحفظ السرائر فان الله تعالى مطلع على الضمائر » .

وحقيقة هذا أن العبد مخاطب بحفظ الأسرار مع الحق ، وحفظ الأظهار من مخالفة الجبار .

---

(١) كان يكنى أبا محمد ، بويع بعد وفاة أبيه فى رمضان سنة اربعين ، ووجه عماله الى السواد والجبل ، ودعا بعبد الرحمن بن ملجم وقتله . وقدم معاوية العراق ، وكان الحسن عليلا وقد تفرق عنه أصحابه فلما رأى أنه لا قوة به ، صالح معاوية ، وصعد المنبر وقال : « أيها الناس ! ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وقد سالمت معاوية ، وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » . ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن . ومات الحسن فى ربيع الاول سنة احدى وأربعين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقى خليفة بالحجاز واليمن والعراق نحو سبعة أشهر .

ويقال ان معاوية حرض عليه امرأته جعدة بنت الاشعث بن قيس ، فدس اليها انك ان احتلت فى قتل الحسن وجهت اليك بمائة ألف درهم وزوجتك يزيد : فكان ذلك الذى بعثها على سمه ، فلما مات وفى لها معاوية المال وأرسل اليها : أنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بزويجه .

كان رضى الله عنه يقول : انى لأستحى من ربى عز وجل أن ألقاه ولم أمش الى بيته فمشى عشرين مرة الى مكة من المدينة على رجليه . وكانت الجنائب تقاد معه . وخرج من ماله لله تعالى مرتين . وكان اذا اشترى أحد حائطا ثم افتقر البائع يرد عليه الحائط ويردفه بالثمن معه . وما قال قط لسائل : لا . ولما نزل الموت به بعد شربه السم ، قال أخرجوا فراشى الى صحن الدار ، فأخرج ، فقال : اللهم انى أحتسب نفسى عندك فانى لم أصب بمثلها ، ثم قبض .

(انظر : المعارف ص ٩٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٩١ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ ـ ٥٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٦) .

ويرد عنه أنه عندما غلب شـأن القدرية ، وتشتت مذهب الاعتزال فى الدنيا ، كتب الحسن البصرى رضى الله عنه الى الحسن بن على رضى الله عنهما ، كتابا قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : السلام عليك يا ابن رسول الله وقرة عينه ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فانكم معشر بنى هاشم كالفلك الجارية فى اللجج ، ومصابيح الدجى ، وأعلام الهدى ، والأئمة القادة الذين من تبعهم نجا كسفينة نوح المشحونة التى يأول اليها المؤمنون ، وينجو فيها المتمسكون . فما قولك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حيرتنا فى القدر ، واختلافنا فى الاستطاعة ؟ لتعلمنا بما تأكد عليه رأيك ، فانكم ذرية بعضها من بعض ، بعلم الله علمتم ، وهو الشاهد عليكم ، وأنتم شهداء الله على الناس . والسلام » .

وعندما وصل الكتاب كتب الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد انتهى الى كتابك عن حيرتك وحيرة من زعمت من أمتنا ، والذى عليه رأيى أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر ، ومن حمل المعاصى على الله فقد فجر . ان الله لا يطاع باكراه ولا يعصى بغلبة ، ولا يهمل العباد من الملكة ، لكنه المالك لما ملكهم والقادر على ما غلبه قدرتهم ، فان ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا ولا لهم عنها مثبطا ، فان أتوا المعصية وشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبينها ، فعل ، وان لم يفعل فليس هو حملهم عليها اجبارا ولا الزمهم اياها اكراها ، باحتجاجه عليهم أن عرفهم ومكنهم وجعل لهم السبيل الى أخذ ما دعاهم اليه وترك ما نهاهم عنه . ولله الحجة البالغة . والسلام » .

أى أن انكار التقدير مذهب القدر ، وحمل المعاصى على الله مذهب الجبر ، فالعبد مختار فى كسبه بقدر ما حباه الله عز وجل من استطاعة ، والدين بين الجبر والقدر .

ولم يكن مرادى من هذا الكتاب أكثر من كلمة ، غير أنى أوردته كله لأنه غاية فى الفصاحة والعذوبة . وقد أوردت كل هذا لكى أبرهن على أنه رضى الله عنه كان فى علم الحقائق والأصول الى حد أن اشارة الحسن البصرى — مع علو مكانته فى العلم — كانت اليه .

ووجدت فى ثلحكايات أن اعرابيا جاء من البادية ، وكان جالسا على بابه فى الكوفة ، فسبه وسب أمه وأباه . فنهض وقال له : يا أعرابى ،

اذا كنت جائعا يحضر لك الطعام ، واذا كنت ظمآنا يؤتى لك بالماء ، والا ماذا ألم بك ؟ وكان الاعرابى يقول له : أنت كذا ، وأمك كذا ، وأبوك كذا . فأمر الحسن رضى الله عنه غلامه فأحضر بدرة دنانير ، وقال له : فيها الاعرابى ! أسألك المعذرة ، فلم يبق ببيتنا أكثر من هذا والا ما منعناك اياه . فلما سمع منه الأعرابى هذا قال : أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وقد جئت هنا لتجربة حلمك .

وهذه صفة محققى المشايخ ، رضوان الله عليهم ، الذين يستوى لديهم مدح الخلائق وذمهم ، ولا تغيرهم الجفوة فى القول ، والله أعلم .

● ومنهم شمع آل محمد ، المجرد من العلائق ، سيد زمانه ، ((**أبو عبد الله الحسين بن أبى طالب**(١))) رضى الله عنهما . كان من الأولياء المحققين وقبلة أهل البلاء ، وقتيل صحراء كربلاء(٢) . وجميع أهل الطريقة متفقون على صحة حاله لأنه كان متابعا للحق ما دام الحق ظاهرا ، فلما فقد الحق شهر سيفه ، ولم يهدأ حتى جعل روحه العزيزة فداء الشهادة لله عز وجل . وللرسول فيه اشارات خصه بها ، كما روى عمر بن الخطاب

---

(١) « أبو عبد الله » كنيته . وورد عنه أنه لما مات معاوية طولب (الحسين) بالبيعة ليزيد بالمدينة ، فسأم التأخير وخرج الى مكة . وكتب أهل العراق اليه ووجهوا الرسل ، فوجه اليهم مسلم بن عقيل وكتب اليهم وأعلمهم أنه آثر كتابه . فلما قدم مسلم بن عقيل بالكوفة بايعه أهلها . وخرج الحسين من مكة يريد العراق ، وكان يزيد قد ولى على العراق عبيد الله بن زياد وكتب اليه يقول : قد بلغنى أن أهل الكوفة قد كتبوا الى الحسين فى القدوم عليهم وأنه قد خرج من مكة متوجها نحوهم . وقد بلى بلدك من بين البلدان وأيامك من بين الايام ، فان قتلته والا رجعت الى نسبك والى أبيك عبيد فاحذر أن يفوتك » . وسار الحسين الى العراق وفى الطريق أتاه الخبر بقتل مسلم بن عقيل فأراد أن يرجع ، فبعث اليه عبيد الله بالحر بن يزيد فمنعه .ثم بعث اليه بعمر بن سعد بن أبى وقاص فى جيش فلقى الحسين فى كربلاء وقتل . وكان الذى قتله رجل من مزحج واجتز رأسه وانطلق به الى ابن زياد فبعث به الى يزيد ومعه الرأس . وكان مقتله يوم عاشوراء سنة احدى وستين وهو ابن ست وخمسين . وحملت رأسه الى مصر ودفنت بالمشهد المشهور بها ومشى الناس أمامها حفاة من مدينة غزا الى مصر تعظيما لها .
قيل له رضى الله عنه : ما سمعت من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول : أن الله يحب معالى الامور ويكره سفسافها . وعقلت عنه أنه يكبر فأكبر خلفه فاذا سمع تكبيرى اعاد التكبير حتى يكبر سبعا . وسمعته يقول : من يطع عالله يرفعه ، ومن يعص الله يضعه ، ومن يخلص نيته لله يزينه ، ومن يثق بما عند الله يغنيه ، ومن يعزز على الله يذله .
وقال بعضهم : سمعت الحسين يقول : الصدق عز والكذب عجز ، والسر أمانة ، والجوار قربة ، والمعونة صداقة ، والعمل تجربة ، والخلق الحسن عبادة ، والصمت زين ، والشح فقر ، والسخاء غنى ، والرفق لب .
(انظر : المعارف ص ٩٣ ، اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٨ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ — ٩٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٨ — ٣٠) .

(٢) « كربلاء » : الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى طرف البرية عند الكوفة . (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٩) .

رضى الله عنه ، قال : جئت النبى عليه السلام يوما ، فرأيته كان قد أركبه على ظهره ، ووضع حبلا فى فمه ووضع طرفه فى يد الحسين ، حتى كان الحسين يسير وهو عليه السلام يسير خلفه على ركبتيه ، فلما رأيت هذا قلت : « نعم الجمل جملك يا أبا عبد الله » . فقال النبى عليه السلام : « نعم الراكب هو يا عمر » .

وله كلام لطيف فى طريقة الحق ، ورموز كثيرة ومعاملات طيبة . ويروى عنه أنه قال : « أشفق الاخوان عليك دينك » ، لأن نجاة المرء تكون فى متابعة الدين ، وهلاكه فى مخالفته ، فالرجل العاقل هو الذى يكون عند أمر المشفقين ، ويدرك أنهم يشفقون عليه ، ولا يسير الا متابعا لهم . والأخ الحق هو الذى يبدى النصيحة ، ولا يغلق باب الشفقة .

ووجدت فى الحكايات أن رجلا جاءه يوما وقال : يا ابن رسول الله عز وجل ! أنا رجل فقير ولى أطفال ، وأريد منك قوت ليلتى ! فقال له الحسين : أجلس فان لنا رزقا فى الطريق الينا ، فانتظر حتى يحضروه . ولم يمض كثير حتى جىء اليه بخمس صرر من عند معاوية ، فى كل منها ألف دينار ، وقالوا ان معاوية يعتذر لك ويقول : انفق هذا المقدار على أتباعك ، الى أن تأتيك بعده معونة أوفى . فأشـــار الحسين رضى الله عنه أن اعطوها لذلك الفقير ، فأعطوه الصرر الخمس ، واعتذر اليه قائلا : لقد بقيت كثيرا ، ونلت قليلا ، ولو كنا نعرف أنه هـــذا المقدار لمـــا حملناك على الانتظار ، فاعذرنا لأننا من أهل البلاء ، وقد تخلفنا عن كل راحات الدنيا ، وفقدنا مرادنا فيها ، ويجب أن نعيش لمراد الآخرين .

ومناقبه أشهر من أن تخفى على أحد من هذه الأمة ، والله أعلم .

● ومنهم أيضا : وارث النبوة ، وسراج الأمة ، السيد المظلوم ، والامام المحروم ، زين العباد ، وشمع الأوتاد : « **أبو الحسن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب (١)** » رضى الله عنه . كان أكرم وأعبد أهل زمانه ، وهو مشهور بكشف الحقائق والنطق بالدقائق .

---

(١) الامام الرابع من الأئمة الاثنى عشر ويكنى بزين العابدين وهو على الاصغر ، وأما الأكبر فقتل مع الحسين . وليس للحسين رضى الله عنه عقب الا من ولد زين العابدين هذا . أمه بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس . قال عنه الزهرى : ما رأيت قرشيا أفضل منه . وكان يثنى على أبى بكر وعمر وعثمان ويترحم عليهم ، ويصلى كل يوم وليلة ألف ركعة . قيل توفى سنة أربع وتسعين أو اثنتين وتسعين للهجرة بالمدينة ودفن بالبقيع فى قبر عمه الحسن بن على رضى الله عنه ، وقيل توفى سنة تسع وتسعين وهو ابن ثمان وخمسين سنة . قال أبو خالد الكابلى : سمعت على ابن الحسين يقول : « من عف عن محارم الله كان عابدا ، ومن رضى بقسم الله كان غنيـــا ، ومن أحسن مجـــاورة من جاوره كان مسلما » . (أنظر المعـــارف ٩٤ ، اليعقوبى ج ٣ ص ٤٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٢٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٠) .

سئل : من أسعد أهل الدنيا والآخرة ؟ قال « من اذا رضى لم يحمله رضاه على الباطل ، واذا سخط لم يخرجه سخطه من الحق » . وهذا من أوصاف الكمال للمستقيمين ، لأن الرضا بالباطل باطل ، والكف عن الحق فى حال الغضب باطل ، ولا يكون المؤمن مبطلا .

ويروى عنه أنه حين قتل الحسين بن على مع أولاده ، رضوان الله عليهم ، فى كربلاء ، لم يبق سواه ، لأنه كان قيما على النساء ومريضا — وكان أمير المؤمنين الحسين رضى الله عنه يدعوه عليا الأصغر — فلما حملوهم على ابل عارية الى دمشق(١) لدى يزيد بن معاوية — أخزاه الله — قال له رجل : « كيف أصبحتم يا على ، ويا أهل بيت الرحمة ؟ قال : أصبحنا من قومنا بمنزلة قوم موسى من آل فرعون : يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا فلا ندرى صباحنا من مسائنا ، وهذا من حقيقة بلائنا » ، ونحن نشكر الله جل جلاله على نعمائه ، ونحمده على بلوائه .

ورد فى الحكايات أن هشام بن عبد الملك بن مروان(٢) ذهب للحج عاما ، وكان يطوف بالكعبة . وأراد أن يقبل الحجر ، فلم يجد طريقا اليه لكثرة الزحام ، فصعد المنبر وخطب . وفى أثناء الخطبة دخل زين العابدين على ابن الحسين المسجد بوجه مقمر ، وخد منور ، وثوب معطر وطاف بالبيت . فلما اقترب ، أخلى الناس الحجر تعظيما له حتى يقبله . فلما رأى ذلك رجل من أهل الشام (٣) ، قال لهشام : يا أمير المؤمنين ! لم يفسحوا لك الطريق الى الحجر وأنت أمير ، فمن كان ذلك الفتى الجميل الذى جاء

---

(١) « دمشق » : مدينة جليلة قديمة . وهى مدينة الشام فى الجاهلية والاسلام . ونهرها الأعظم يقال له بردا ، افتتحت فى خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة (البلدان ص ٨٧) . وقد روى عن كعب الاحبار أن أول حائط وضع فى الارض بعد الطوفان حائط دمشق وحران (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٨٩) .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ، كان يكنى أبا الوليد . بويع بعد يزيد بن عبد الملك ويقال واتته الخلافة وهو بقرية يقال لها الزيتونة من الجزيرة فجاءه البريد فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى جاء دمشق ، وكان ذلك فى رمضان سنة خمس ومائة . وفى عهده قتل زيد بن على الشهيد سنة مائة واحدى وعشرين وتحركت الشيعة فى خراسان وظهر أمرهم . كانت ولايته عشرين سنة الا خمسة أشهر وتوفى بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .
(انظر : اليعقوبى ج ٣ ص ٥٧ — ٦٨ ، المعارف ص ١٥٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٠)

(٣) « الشام » : سميت بذلك لكثرة قراها وتدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وقال آخرون سميت بالشام بسام بن نوح وذلك أنه أول من نزلها فجعلت السين شينا .
أما حدها من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما عرضها فمن =

فتفرق الناس جميعا عن الحجر وأخلوا المكان ؟ فقال هشام : لا أعرفه — مخافة أن يعرفه أهل الشام ويتولون اليه ، ولا يرغبون فى امارته — وكان الشاعر الفرزدق (١) هناك فقال : أنا أعرفه ،قالوا :من هو يا أبا فراس؟ أخبرنا لأننا رأيناه فتى مهيبا جدا . فقال الفرزدق : أنصتوا لأرتجل لكم نسبه .

(شعر عربى)

هــذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والحــل يعرفه والبيت والحــرم
هــذا ابن خــير عبــاد الله كلهم ... هــذا التقى النقى الطــاهر العلم
هــذا ابن فاطمة الزهراء ويحــكم ... وابن الرضى على خــيركم قــدم
اذا رأته قــريش قــال قائلهــا ... الى مكــارم هــذا ينتهى الــكرم
ينمى الى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الاســلام والعجم
من جــده دان فضــل الأنبياء له ... وفضــل أمتــه دانت له الأمــم
ينشق نور الدجى عن نور طلعته ... كالشمس ينجــاب اشراقها الظلم
يكاد يمســكه عرفان راحتــه ... ركن الحطيم اذا ما جــاء يســتلم
يغضى حيــاء ويغضى من مهــابته ... فمــا يكلم الا حين يبتســم
فى كفــه خيزران ريحهــا عبــق ... من كف أروع فى عرنينه شــمم
مشتقة من رســول الله نبعتــه ... طابت عنــاصره والخيم والشــيم
كلتــا يديه غيــاث عم نفعهمــا ... يســتو كفان ولا يعروهما العدم
عم البــرية بالاحســان فانقشعت ... عنــه الغيــابة والامــلاق والظلم
لا يستطيع جــواد بعــد غايتهم ... ولا يدانيهم قــوم وان كرموا
هم الغيوث اذا مــا أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس يحتلم
من معشر حبهــم دين وبغضــهم ... كفــر وقربهم منجــا ومعتصم
ان عــد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

= جبل طىء من نحو القبلة الى بحر الروم .. وبها من أمهات المدن حلب وحماة وحمص ودمشق وبيت المقدس .. وهى خمسة أجناد : جند مسربن وجند دمشق وجند الاردن وجند فلسطين وجند حمص (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٣٩ — ٢٤٤) وقد بدىء بفتح الشام سنة ثلاث عشرة وتم فتح مدنها سنة سبع عشرة (فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥ — ٤٤) .

(١) « الفرزدق » : أبو فراس همام الفرزدق ، ويقال هميم بالتصــغير . الشاعر المشهور وصاحب جرير وهما الشاعران المعروفان بالمهاجاة . وقد جمع لهما كتابه سمى « النقائض » وهو من الكتب المشهورة . وتوفى الفرزدق بالبصرة سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوما وقيل ثمانين يوما . وقيل لما مات الفرزدق وبلغ خبره جرير بكى وقال : أما والله أنى لا أعلم انى قليل البقاء بعده ، ولقد كان نجمنا واحــدا ، وكل واحد منا مشغول بصــاحبه ، وقلما مات ضد أو صديق الا وتبعه صاحبه .

قيل التقى الحسن البصرى والفرزدق فى جنازة فقال الفرزدق للحسن البصرى :=

وقال فى مدحهم أبياتا كثيرة كهذه ومدحه ومدح أهل بيت النبى عليه السلام ، فغضب عليه هشام وأمر بحبسه بعسفان — وهو موضع بين مكة(١) والمدينة(٢) — ونقلوا هذا الخبر بعينه الى (زين العابدين) فأمر فحملوا اليه اثنى عشر ألف درهم ، وقال : قولوا له : يا أبا فراس ، اعذرنا لاننا معسرون لانملك أكثر من هذا والا أرسلناه لك. فأعاده الفرزدق وأرسل يقول : يا ابن رسول الله ، لقد قلت شعرا كثيرا قبل هذا من أجل المال ، وذكرت فى تلك المدائح الكذائب ، فقلت هذه الأبيات ، لكفارة بعضها ، من أجل الله ومحبة رسول الله وأولاده . فلما أبلغوا زين العابدين الرسالة قال : ارجعوا وأعيدوا اليه المال ، وقولوا له : يا أبا فراس ، اذا كنت تحبنا فانك لا ترتضى أن نستعيد شيئا وهبناه وأخرجناه من ملكنا . وعندئذ قبل الفرزدق المال .

ومناقب هذا السيد أكثر من أن يمكن جمعها ، والله أعلم .

● **ومنهم** : الحجة على أهل المعاملة ، وبرهان أهل المشاهدة ، أمام أولاد النبى ، والمختار من نسل على ، ((**أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب**)) كرم الله وجهه ، ورضى عنهم . ويقال أيضا أنه كان يكنى بأبى عبد الله(٣) ، ويلقب بالباقر .

= أتدرى ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ يقولون : اجتمع فى هذه الجنازة خير الناس وشر الناس . فقال الحسن : كلا ، لست خيرهم ولست بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله منذ ستين سنة .
(أنظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٤ ، ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٢) . وقد وردت هذه الحكاية والقصيدة فى وفيات الاعيان فى ترجمة الفرزدق . ونجد هنا اختلافا فى ترتيب بعض الابيات ، وتحريفا فى بعض المفردات . (انظر : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٠٠) .

(١) « مكة » المكرمة : تقع بين جبال عظام . وهى أودية ذات شعاب فجبالها المحيطة بها أبو قبيس الجبل الاعظم منه تشرق الشمس على المسجد الحرام ، وقعيقعان وفاضح والمحصب وثور عند الصفا وحراء وثبير وتفاحة والمطانح والفلق والحجون وسقر . لها من الشعاب كثير يقع المسجد الحرام بين جياد وقعيقعان . وقد زاد فى بنائه وتوسيعه — حتى صارت الكعبة فى وسطه — الخليفة المهدى فى سنة أربع وستين ومائة (انظر : البلدان ص ٧٨ — ٨٠) .

(٢) « المدينة » المنورة : كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة فى مستوى من الارض عذبه برية جبلية وذلك أن لها جبلين أحدهما : أحد والاخر . عير ، وأهلها المهاجرون والانصار والتابعون وبها قبائل العرب . وقد انتقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب معاقلها واختط الناس بها الخطط وكانوا قبل ذلك متفرقين واتصل البنيان بعضه ببعض حتى صارت مدينة . ومن المدينة الى مكة عشر مراحل عامرة آهلة (انظر : البلدان ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣) هذه الكنية ليست له وانما لابنه جعفر الصادق (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥) .

كان مخصوصا بدقائق العلوم ، ولطائف الاشـــارات فى كتاب الله عز وجل ، وكانت له كرامات مشهورة ، وآيات زاهرة ، وبراهين نيرة .

ويقال ان ملكا قصد هلاكه يوما ، وأرسل اليه رجلا ، فلما دخل عليه اعتذر له الملك ، وقدم له هدية ، ورده بالاحسان ، فقيل له : أيها الملك ! لقد كنت تقصـــد اهلاكه ، ورأيناك معه على حال آخـــر ، فماذا حدث ؟ قال : لمـــا دخل على رأيت أسدين عن يمينه ويساره ، وكانا يقولان لى : اذا قصدته بسوء أهلكناك .

ويرد عنه أنه قال فى تفســـير قول الله عز وجل « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله(١) » قال : « كل من شغلك عن مطالعة الحق فهو طاغوتك » ، فتبين بأى شىء حجبت وتخلفت ، وتخل عنه لتحظى بالكشف . والمحجوب ممنوع ، والممنوع ينبغى أن لايدعى القربة .

يروى عنه واحـــد من خواصه أنه حين كان يمضى هزيع من الليل ، ويفرغ من أوراده ، كان يرفع صوته مناجيا ويقول : يا الهى وسيدى ! أقبل الليل ، وانتهت ولاية تصرف الملوك ، وظهرت النجوم فى السماء ، ونام جميع الخلق ، وهدأت أصوات الناس ونامت أعينهم ، وجفلوا عن أبواب بنى أمية واختفت رغائبهم ، وأغلق بنوا أمية أبوابهم ووكلوا بها حراسهم ، وتخلى كل ذى حاجة اليهم عن حاجته . يا الهى أنت الحى ، العليم ، البصير ، لا تجوز عليك سنة ولا نوم ، ومن لا يعرفك بهذه الصفة لايستحق نعمتك . أنت يا من لا يردك شىء عن شىء ، ولا يتطرق الخلل الى بقائك ليـــلا ونهارا ، أبواب رحمتك مفتوحة لمن يدعوك ، وخزائنك كلها فداء من يثنى عليك ! أنت الاله الذى لا يجوز عليك رد ســـائل حين يدعوك مؤمن ، ولا راد لسائل بابك من خلق الأرض والسماء ، يا الهى حين أذكر الموت والقبر والحساب ، كيف أسعد القلب بالدنيا ؟ وحينما أذكر الكتاب كيف أقر بشىء من الدنيا ؟ وحين أذكر ملك الموت كيف أقبل نصيبا من الدنيا ؟ فأنا أطلب منك يا الهى لأنى أعرفك ، وأبحث عنك لأنى ادعوك أن تمنحنى فى حال الموت راحة تخلو من العذاب ، وفى حال الحساب عيشا بلا عقاب . كان يقول كل هـــذا ويبكى ، حتى قلت له ذات ليلة : ياسيدى وسيد آبائى ! الآم تبكى والآم تصيح ؟ قال : يا صديقى ، لقد ضاع ليعقوب ولد فبكى حتى كف بصره وابيضت عينـــاه ، وأنا فقدت ثمانية عشر فردا مع أبى — أى الحسين وقتلى كربلاء — فلا أقل من أن تبيض عيناى على فراقهم .

---

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥٦ .

وهذه المناجاة فى العربية فصيحة جدا ، ولكنى جئت بمعانيها بالفارسية تجنبا للاطالة حتى لا تتكرر ، ثم أجىء بها فى موضع آخر ، ان شـــاء الله رب العالمين .

● **ومنهم** سيف السـنة ، وجمال الطريقة ، ومعبر المعـرفة ، ومزين الصفوة ، **((أبو محمد(١) جعفر بن (محمد بن) على بن الحسن بن على))** الصادق(٢) ، رضوان الله عليهم أجمعين . كان عالى الحال وحسن السيرة مزين الظاهر وعامر السريرة . وله اشارات جميلة فى كل العلوم . وهو مشهور بين المشايخ ، رضى الله عنهم أجمعين ، بدقة كلامه ووقوفه على المعانى . وله كتب معروفة فى بيان الطريقة .

يروى عنه أنه قال : « من عرف الله أعرض عما سواه » ، لأن معرفته هى عين الانكار للغير ، فانكار غيره هو معـرفته ، ومعرفة غيره هى انكاره ، والعارف منقطع عن الخلق ومتصل بالحق ، وليس للغير فى قلبه من القدر ما يجعله يلتفت اليهم ، أو يجعل لوجودهم كبير خطر يعقد ذكرهم فى خاطره .

ويروى عنه أيضا أنه قال : « لا يصح العبـادة الا بالتوبة » ، فقدم التوبة على العبادة ، لأن الله تعالى قدم التوبة على العبادة فى قوله تعالى : « التائبون العابدون(٣) » ، لأن التوبة بداية المقامات ، والعبودية نهاية المقامات . ولما ذكر الله جل جلاله العصاة أمر بالتوبة وقال : « وتوبوا الى الله جميعا(٤) » ولما ذكر الرسول عليه السلام ، ذكره بالعبودية وقال : « فأوحى الى عبده ما أوحى(٥) » .

---

(١) كنيته : « أبو عبد الله » (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥) .
(٢) الامام السادس من الائمة الاثنى عشر : « جعفر الصادق » : ابن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم . وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضىالله عنه . لقب بالصادق لصدقه فى مقالته . وله كلام فى صنعة الكيميا والزجر والفال .. ألف تلميذه أبو موسى جابر بن حيان كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهى خمسمائة رسالة . توفى سنة ثمان وأربعين ومائة ودفن بالبقيع فى قبر أبيه وجده .دخل عليه سفيان الثورى يوما فرأى عليه جبة من خز ، فقال له : أنتم فى بيت النبوة تلبسون هذا ؟ فقال : ما تدرى أدخل يدك ، فاذا تحته مسح من شعر خشن .
(انظر ترجمته فى : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٩٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٣٦) .
(٣) سورة « التوبة » آية ١١٢
(٤) سورة « النور » آية ٣١ .
(٥) سورة « النجم » آية ١٠

ووجدت فى الحكايات أن داود الطائى رحمه الله جاء اليه وقال : يا ابن رسول الله ! عظنى ! فقد أسود قلبى . قال : يا أبا سليمان ! أنت زاهد زمانك ، فما حاجتك الىعظتى ؟ . قال : يا ابن رسول الله ! ان لك على جميع الخلق فضلا ، وعظتك لكل الخلق واجب . قال : يا أبا سليمان ، انى أخشى أن يتعلق بى جدى يوم القيامة قائلا : لم لم تؤد حق متابعتى ؟ فهذا الأمر لا يكون بالنسبة الصحيحة ولا بالنسب القوى ، وانما بالمعاملة الحسنة فى حضرة الحق تعالى . فبكى داود وقال : يا الهى ! اذا كان من طينته معجونة بماء النبوة ، وتركيب طبيعته من أصل البرهان والحجة ، جده الرسول ، وأمه البتول ، بهذه الحيرة ، فمن يكون داود حتى يعجب بمعاملته ؟ .

ويرد عنه أيضا أنه كان قد جلس يوما بين مواليه وأخذ يقول لهم : تعالوا لنبايع ونتعاهد على أن كل من يفوز منا يوم القيامة يشفع للجميع . فقالوا : يا ابن رسول الله ! ما حاجتك الى شفاعتنا ، وجدك الشفيع لجميع الخلق ؟ قال : انى أخجل بأفعالى هذه أن أنظر الى وجه جدى يوم القيامة .

وهذا كله من رؤية عيوب النفس ، وهى صفة من صفات الكمال . وجميع المتمكنين فى حضرة الله عز وجل من الأولياء والأنبياء والرسل كانوا على هذا . والرسول عليه السلام قال : « اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه وعيوب الدنيا(١) . » . وكل من يخفض رأسه من قبيل تواضع العبودية ، يرفع الله تعالى شأنه فى الدنيا والآخرة .

واذا ذكرت أهل البيت جميعا ، وأحصيت مناقبهم فردا فردا لا يكفى هذا الكتاب ، بل أن كتبا كثيرة لا تحتمل عشر عشير منها ، فهذا المقدار كاف لقوم يكون لعقولهم لباس الادراك ، من مريدى ومنكرى هذه الطريقة .

والآن ، أورد ذكر أصحاب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الايجاز والاختصار ، فى هذا الكتاب . وقد ألفت قبل هذا كتابا وأسميته « منهاج الدين » ، بينت فيه مناقب كل منهم بالتفصيل ، ولكنى سأذكر هنا أسماءهم وكنياتهم بمفردها ، ليتم مقصودك ـــ أعزك الله ـــ وبالله التوفيق .

---

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس ، والبيهقى فى شعب الايمان عن أنس : « اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره عيوبه (اشرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦) .

الباب التاسع

باب فى ذكر أهل الصُّفة

أعلم أن الأمة — زاد الله من عددهم — مجتمعة على أنه كان للنبى عليه السلام فريق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يلازمون مسجده ، وهبوا أنفسهم للعبادة ، وكفوا أيديهم عن الدنيا ، وأعرضوا عن الكسب . وأن الله عز وجل عاتب النبى عليه السلام من أجلهم ، فقال عز من قائل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى(١) » وكتاب الله عز وجل ناطق بفضائلهم ، وللرسول عليه السلام فى مناقبهم أقوال كثيرة بلغتنا فى ذكرهم رحمة الله عليهم أجمعين ، وقد ذكرت طرفا منها فى مقدمة هذا الكتاب .

ويروى عن ابن عباس(٢) رضى الله عنه ، عن النبى عليه السلام ، قال : « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه ، راضيا بما فيه فانه من رفاقى فى الجنة » .

نذكر منهم : مؤذن حضرة الجبار ، ومختار محمد المختار : « **بلال بن رباح**(٣) » رضى الله عنه .

---

(١) سورة « الانعام » آية ٥٢ .

(٢) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم : ابن عم النبى عليه السلام وصاحبه ، وحبر الامة وفقيهها . مات سنة ثمان وستين بالطائف (انظر : المعارف ص ٥٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ١٧٢) .

(٣) بلال بن رباح : كان من مولدى مكة لرجل من بنى جمح ، فأسر ، فاشتراه أبوبكر بخمس أواق فأعتقه .وكان يعذب فى الله . وشهد بدرا والمشاهد كلها .وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض رسول الله أتى أبا بكر فاستأذنه الى الشام فأذن له ، فلم يزل مقيما بها .ولم يؤذن بعد النبى ، فلما قدم عمر الى الشام لقيه فأمره فأذن فبكى عمر والمسلمون . مات بدمشق سنة عشرين (المعارف ص ٧٦) .

ومنهم : حبيب الله الحكيم ، ومحرم أحوال النبى : ((**أبو عبــد الله سلمان الفارسى**)) رضى الله عنه .

ومنهم : قائد المهاجرين والأنصار ، والمتوجه الى الله الغفار : **أبو عبيــده عامر بن عبد الله بن الجراح**(١) رضى الله عنه .

ومنهم : مختار الأصحاب وزينة الأرباب : ((**أبو اليقظان عمار بن ياسر**(٢))) رضى الله عنه .

ومنهم : كنز العلم ، وخزينة الحلم : ((**أبو مسعود عبد الله بن مسعود الهذيلى** (٣))) رضى الله عنه .

ومنهم المتمسك بباب الحرمة ، المبرأ من العيب والأمة : ((**عتبة بن مسعود**(٤))) : أخو عبد الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : سالك طريق العزلة ، والمعرض عن عصائب الزلة : ((**المقداد ابن الأسود**)) رحمه الله .

ومنهم : راعى مقام التقوى ، الراضى بالبلاء والبلوى : ((**خباب بن الأرت**(٥))) رضى الله عنه .

---

(١) أبو عبيدة بن عبد الله الجراح نسبة الى جده . اسمه عامر وهو من بنى الحارث ابن فهر بن مالك بن النظار . وبنو فهر هم قريش ومن فهر تفرقت قبائلها . وأمه من بنى الحارث بن فهر وقد أسلمت وزوجها . قال فيه الرسول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . شهد بدرا . ومات سنة ثمان عشرة بالشام ودفن بفوربيسان (انظر : المعارف ص ١٠٨ ، اللمع ص ١٨٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٧) .

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن عنس ، وعنس من مذحج من اليمن ، وياسر تدم من اليمن الى مكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى وزوجه أبو حذيفة أمة له اسمها سمية.ولم يزل ياسر وعمار ابنه مع حذيفة الى أنمات وجاء الاسلام فأسلم ياسر وعمار وسمية . وسمية أم عمـــار أول شهيدة فى الاسلام ، قتلها أبو جهل بحربة . وشهد عمار صفين مع على بن أبى طالب فقتل ودفن هناك ، وصلى عليه على (انظر : المعارف ص ١١١) .

(٣) من بنى عامر بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . وكان من حلفاء بنى زهرة . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد . وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمر وصدرا من خلافة عثمان ، ثم صار الى المدينة فتوفى بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع .
(انظر المعارف ص ١٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٨) .

(٤) كان قديم الاسلام . ولم يرو عن النبى صـــلى الله عليه وسلم شيئا ، ومات فى خلافة عمر . وكان له ابن يقال له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن مات بالكوفة فى خلافة عبد الملك بن مروان . وكان كثير الحديث والفتيا ، فقيها (انظر المعارف ص ١٠٩) .

(٥) من بنى سعد بن زيد مناة من تميم . ويكنى أبا عبد الله . أصابه سباء فبيع بمكة فاشترته أم سباع الخزاعية فاعتقته . كان رجل فتيا . وابنه عبد الله بن خباب هو الذى قتله الخوارج فسال دمه كأنه شراك نعل . مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين ، وهو أول من قبره على بالكوفة وصلى عليه . (انظر المعارف ص ١٣٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٨) .

ومنهم : قاصد باب الرضا ، وطالب اللقاء فى الفنا : « **صهيب بن سنان**(١) » رضى الله عنه .

ومنهم : درج السعادة ، وبحر القناعة : « **عتبة بن غزوان**(٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : أخو الفاروق والمعرض عن الكونين والمخلوق : « **زيد بن الخطاب**(٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب المجاهدات فى طلب المشاهدات : « **أبو كبشة** (٤) » مولى رسول الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : العزيز التائب ، وعن كل الخلق آيب : « **أبو مرثد كناز بن حصين الغنوى**(٥) » رضى الله عنه .

ومنهم عابر طريق التواضع ، وسالك محجة التقاطع : « **سالم مولى حذيفة اليمانى**(٦) » رضى الله عنه .

---

(١) صهيب بن سنان بن مالك . بدرى ، وجميع المدنيين يثبتون نسبه فى النمر بن قاسط . وأمه سلمى من مازن تميم . وقال بعضهم . كان أبوه سنان عاملا لكسرى وكانت منازلهم بأرض الموصل فاغارت الروم على تلك الناحية فسبوا صهيبا وهو غلام صغير فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان واعتقه ، وبعث به الى النبى صلى الله عليه وسلم . كان مزاحا ، قال له النبى : أتأكل تمرا وبك رمد ؟ فقال : يا رسول الله انما أمضغ بالناحية الاخرى ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم منه . توفى بالمدينة سنة ثمان وثلاثين ، ودفن بالبقيع (المعارف ص ١٤ — ١٥) .

(٢) عتبة بن غزوان بن الحرث بن جابر من بنى مازن أخى سليم بن منصور بن عكرمة . من المهاجرين الأولين ، وهو ممن شهد بدرا وكان من الرماة المذكورين ، وهو الذى افتتح الابلة واختط البصرة وأمر محجن بن الازرع فاختط مسجد البصرة . قدم المدينة فى الهجرة ، وتوفى فى طريق مكة بمعدن بنى سليم فى خلافة عمر سنة سبع عشرة . (المعارف صـ ١١٩) .

(٣) زيد بن الخطاب : أمه أسماء من بنى أسد بن خزيمة ، وكان اسلامه قبل اسلام عمر . شهد بدرا وكان بينه وبين عمر درع فجعل كل واحد منهما يقول والله لا يلبسها غيرك . ثم شهد يوم أحد فصبر فى أربعة أنفس ولم يهرب فيمن هرب . وشهد يوم مسيلمة سنة اثنتى عشرة فقتل . (المعارف ص ٧٨) .

(٤) أبو كبشة : اسمه « سليم » . من مولدى أرض دوس ، ويقال من مولدى مكة . ابتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه . توفى أول يوم استخلف فيه عمر ابن الخطاب . (المعارف ص ٦٤) .

(٥) أبو مرثد كناز بن حصين : من غنى ولذا يسمى بالغناوى . كان تربا لحمزة بن عبد المطلب ، وآخى الرسول عليه السلام بينه وبين عبادة بن الصامت . وآخى بين ابنه مرثد وبين ابن الصامت أخى عبادة . مات فى خلافة أبى بكر سنة اثنتى عشرة ،وقتل مرثد فى حياة الرسول يوم الرجيع شهيدا وكان أمير السرية . (المعارف ص ١٤٣) .

(٦) سالم مولى حذيفة اليمانى : كان يكنى أبا عبد الله . وهو بدرى ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى بكر . وكان ولاء سالم لامرأة أبى حذيفة . استشهد يوم اليمامة ولا عقب له . (المعارف ص ١١٨) .

ومنهم : الخائف من العقوبة ، والهارب من طريق المخالفة : « **عكاشة ابن محصن**(١) » رضى الله عنه .

ومنهم : زين المهاجرين والأنصار ، وسيد بنى قار : « **مسعود بن الربيع القارى** » رضى الله عنه .

ومنهم : حافظ أنفـــاس النبى ، وباب كل الخيرات : « **عبـــد الله بن عمر**(٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : شبيه عيسى فى الزهد ، وبدرجة موسى فى الشوق : « **أبو ذر جندب بن جناده**(٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : المقيم فى الاستقامة ، والمستقيم فى المتابعة : « **صـــفوان بن البيضاء** » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب الهمة والخالى من التهمة : « **أبو الدرداء عويمر بن عامر**(٤) » رضى الله عنه .

ومنهم : شرف كيمياء الدين ، وصدف در التوكل : « **عبد الله بن بدر الجمهى** » رضى الله عنه .

---

(١) عكاشة بن محصن بن حرثان : من أسد خزيمة . بدرى يكنى أبا محض ، واخته أم قيس بنت محصن التى دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم بابن لها قد اعقلت عليه بالعذرة ، والعذرة وجع الحلق ، كان عكاشة من أجمل الرجال وبشره الرسول بالجنة بغير حساب ، وقتل ببزاخة فى خلافة أبى بكر . (المعارف ص ١١٩) .

(٢) عبد الله بن عمر : كان يكنى أبا عبد الرحمن ، وأسلم مع اسلام أبيه بمكة وهو صغير ، وشهد المشاهد بعد يوم بدر وأحد ، وبقى الى زمن عبد الملك ،ويقال مات بمكة ودفن بفخ ، وهو آخر من مات بمكة من الصحابة . (المعارف ص ٨٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٠) .

(٣) أبو ذر الغفارى : يقال اسمه جندب بن السكن ، ولقبه برير . وقال آخرون : جندب بن جناده . وعن حفص بن المعتمر قال : جئت وأبو ذر آخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول : أنا أبو ذر الغفارى ، من لم يعرفنى فأنا جندب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا . وهو من غفار ، وغفار قبيلة من كنانة . أسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرا ولا أحدا ولا الخندق لانه حين أسلم رجع الى بلاد قومه ، فأقام حتى مضت هذه المشاهد ، ثم قدم المدينة . وكان عثمان سيره الى الربذة فمات بها سنة اثنتين وثلاثين . (المعارف ص ١١٠) .

(٤) عويمر بن عامر بن الحرث بن الخزرج : كان آخر أهل داره اسلاما ، وكان قبل اسلامه تاجرا . مات بالشام سنة اثنتين وثلاثين (انظر ترجمته فى : المعارف ص ١١٦ ، اللمع ص ١٨١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٩)

ومنهم : المتعلق بباب الرجاء ، ومختار رسول مالك الملك : « **أبو لبابة ابن عبد المنذر**(١) » رضى الله عنه .

واذا ذكرتهم جميعا يطول بنا الكلام . وقد الف الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى(٢) رضى الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوى أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة(٣) ذكر فيه مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم ، ولكنه ذكر من جملتهم « مسطح بن أثاثة ابن عباد »(٤) ، وأنا أبغضه لأنه كان هو البادىء بافك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

أما « أبو هريرة(٥) » و « ثوبان(٦) » و « معاذ بن الحارث » و « سائب ابن الخلاد » و « ثابت بن الوديعة » و « أبو عبيس عويم بن ساعد »

---

(١) أبو لبابة الانصارى ، مكنى ببنت له كانت تحت زيد بن الخطاب . اسمه بشير ، ويقال رفاعة بن المنذر . توفى بعد مقتل عثمان وقبل قتل على (المعارف ص ١٤٢)

(٢) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى النيسابورى ، العربى الاصل ، المعروف بأبى عبد الرحمن السلمى . اشتهر بنسبه الى السلميين وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد أبى عمرو بن نجيد السلمى . تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقطنى وأبو نصر السراج الطوسى . كان مريدا لابى القاسم النصرابادى وتسلم منه الخرقة . وتتلمذ عليه عدد كبير من كبار الصوفية منهم الصوفى الفارسى أبو سعيد أبى الخير ، وأبو القاسم القشيرى . ألف السلمى كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، والذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف المعروف بطبقات الصوفية . توفى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، ودفن فى نيسابور .
(انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٣١١) .

(٣) كتاب تاريخ أهل الصفة : نقل عنه أبونعيم الاصفهانى فى حلية الاولياء . ويسميه حاجى خليفة : « تاريخ أهل الصفوة » . (انظر : « كشف الظنون » ج ١ عمود ٢٨٦) .

(٤) مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ويكنى أبا عباد . شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها . وكان أبو بكر يجرى عليه . وهو الذى قذف عائشة رضى الله عنها ، وتوقف أبو بكر عن الانفاق حتى نزلت الاية : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » فقال أبو بكر : والله لأحب أن يغفر الله لى فرجع الى مسطح نفقته التى كان ينفقها عليه (المعارف ص : ١٤٣)

(٥) أبو هريرة : اختلفوا فى اسمه ، فمنهم من قال هو عبد الله بن عمرو ، وقال غيره هو عبد الرحمن ، وقيل عبد شمس . كان من قبيلة من اليمن يقال لها دوس وهو دوس بن عدثان من الازد . قال أبو هريرة : نشأت يتيما وهاجرت مسكينا ، وكنت أجيرا لبسرة بنت غزوان لطعام بطنى . وكان يكنى بأبى هريرة بهرة كان يلعب معها . وكان قدومه المدينة سنة سبع والنبى صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فسار الى خيبر حتى قدم مع النبى . توفى بالمدينة سنة تسع وخمسين . لما حضرته الوفاة بكى فقيل له فى ذلك فقال : أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وانى أصبحت على مهبط جنة أو نار لا أدرى أيهما يأخذ بى . (أنظر : المعارف ص ١٢٠ ، اللمع ص ١٨٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٠) .

(٦) ثوبان : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا عبد الله ، وهو من أهل السراة . أصابه سباء فاشتراه النبى وأعتقه ، ولم يزل معه حتى قبض ثم تحول الى الشام فنزل حمص ومات سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية (المعارف ص ٦٤) .

و « سالم بن عمير بن ثابت » و « أبو اليسر كعب بن عمرو بن وهب بن معقل(١) » و « عبد الله بن أنيس(٢) » و « الحجاج بن عمرو الأسلحى » رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد كانوا منهم وان تعلقوا من حين لحين بسبب ، ولكنهم كانوا جميعا بدرجة واحدة . وفى الحقيقة كان قرن الصحابة خير القرون ، وفى كل درجة كانوا فيها ، كانوا أحسن الخلق وأفضلهم فى كل فن ، بعد أن وهبهم الله سبحانه وتعالى صحبة النبى عليه السلام ، وحفظ أسرارهم من جميع العيوب ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم(٣) » وقال الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان(٤) » .

والآن أثبت ذكر بعض من التابعين ، فى هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ، وتتصل القرون بعضها بالبعض ، ان شاء الله العزيز .

---

(١) أبو اليسر كعب بن عمرو : من الأنصار . أسره العباس بن عبدالمطلب يوم بدر ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم . توفى سنة خمس وخمسين فى خلافة عثمان. (المعارف ص ١٤٢) .

(٢) عبد الله بن أنيس الأنصارى : كان يكنى أبا يحيى ويعرف بالجهنى ، وجهنة من قضاعة . اختلفوا فى بدر هل شهدها أم لا . وهو الذى يقال فيه : ليلة الجهنى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن ينزل من باديته الى مسجده فيصلى فيه ليلة ثلاث وعشرين ، فكان يدخل المسجد ليلة ثلاث وعشرين اذا صلى العصر ، ثم لا يخرج عنه الا لحاجة حتى يصلى الصبح ثم يخرج الى أهله ، فقيل ليلة الجهنى . وهو الذى روى عن الرسول فى ليلة القدر أنه قال : التمسوها الليلة ، وكانت ليلة ثلاث وعشرين . مات بالمدينة فى خلافة معاوية . (المعارف ص ١٢١) .

(٣) رواه أحمد فى مسنده عن ابن مسعود . (شرح اجامع الصغير ج ٢ ص ١٣) .

(٤) سورة «التوبة » آية ١٠٠ .

الباب العاشر
باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين

● **منهم** شمس الأمة ، وشمع الدين والملة :

« **أويس القرنى** » رضى الله عنه . كان من مشـــايخ أهل التصـــوف ، ومعاصرا للرسول عليه السلام ، غير أنه منع من رؤية الرسول عليه السلام بشيئين ، أولهما : غلبة الحال ، والثانى : حق الوالدة .

وقال عنه النبى عليه السلام للصحابة : يوجد رجل من قرن(١) اسمه أويس يشفع يوم القيامة لعدد من أمتى مساو لأغنام ربيعة ومضر . والتفت الى عمر وعلى رضى الله عنهما وقال لهما : انظراه ، وهو رجل عنين ، متوسط القامة ، غزير الشعر ، توجد على جنبه الأيسر شامة بيضاء فى حجم الدرهم ، وبكفه بياض كالبرص ، وهو يشفع فى عدد من أمتى مساو لعدد ربيعة ومضر ، وحين تريانه أبلغاه سلامى ، وقولا له أن يدعو لأمتى .

ولما قدم عمر مكة بعد وفاة النبى عليه السلام ، وكان معه أمير المؤمنين على ، قال فى خطبته : يا أهل نجد(٢) قوموا ، فنهض أهل نجد ، فقال : أيوجد بينكم رجل من قرن ؟ قالوا : نعم ، وأرسلوا اليه بنفر . فاستخبرهم أمير المؤمنين عن أويس فقالوا : يوجد رجل مجنون يدعى أويسا ، لا يرد الأماكن العامرة ، ولا يصاحب الناس ، ولا يأكل ما يأكله الناس ، ولا يعرف الترح والفرح : يبكى حين يضحك الناس ، ويضحك حين يبكون . فقال :

---

(١) « قرن » بفتح القاف والراء : بطن من مراد ــ اليمنى العابد . والنسبة اليها : قرنى (معجم البلدان ج ٤ ص ١) .

(٢) « نجد » : نجد الحجاز ونجد اليمن . وجنوبى نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد اليمن ، وبين النجدين وعمان برية ممتنعة (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٥١) .

أريده . قالوا : انه بالصحراء على مقربة من ابلنـــا . فنهض الأميران رضى الله عنهما وذهبا اليه . ووجداه واقفا يصلى ، فجلسا حتى فرغ من الصلاة وسلم عليهما وأراهما علامتى جنبه وكفه فعرفاه ، وطلبا منه الدعاء ، وأبلغاه سلام النبى عليه السلام ، وأوصياه بالدعاء للامة . وظلا معــه بعض الوقت الى أن قال لهما : عودا الآن فان القيامة قريب ، ومن ثم تتعذر رؤيتنا ، حيث لا رجعة ،لأنى الآن مشـــغول باعداد عدة الطريق الى القيامة .

ولـــا رجع أهل قرن الى بلدهم صارت له حرمة وجاه بينهم ، وغادرها الى الكوفة(١) . وقد رآه هرم بن حيان رضى الله عنه يوما ، ولم يره أحـــد بعد ذلك ، الى أن وقعت الفتنة والحرب مع أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، فجاءه وكان يحارب معه أعداءه حتى استشهد فى موقعة صفين(٢) : « عاش حميدا ومات شهيدا » .

ويروى عنه أنه قال : « السلامة فى الوحدة » ، لأن قلب المنفرد عن الناس يكون متحررا من التفكير فى الغير ، ويائسا من الخلق فى جميع الأحوال ، ليسلم من كل آفاتهم ، ويعرض عنهم جميعا .

أما اذا ظن أحد معنى الوحدة أن يعيش المرء منفردا ، فهذا محال ، لأنه طالما يصحب الشيطان قلبه ويكون للنفس سلطان على صدره ، وتخطر الدنيا والعقبى على فكره ، ويجول التفكير فى الخلق فى رأســه ، لا تكون هناك وحدة بعـــد ، لأن عين الشىء والتفكير فى الشىء كلاهما واحد . والمشـغول لا تكون العزلة سبب فراغه . وعلى ذلك فالوحيد اذا صاحب لا تزاحم الصحبة وحدته ، والمشــــغول لا تـــكون العزلة سبب فراغه ، فالانقطاع عن الانس لا يكون بالأنس . ومن يكون له انس بالحق تعـــالى لا تضر مخالطة الأنس أنســه ، ومن يأنس بالأنس لا يخطـــر الأنس على قلبه ، ولا يدرى شــــيئا عن الأنس مع الحق ، لأن الوحدة صفة عبد صاف سمع قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده(٣) » .

• **ومنهم** أيضا شيخ الصفاء ومعدن الوفاء :

---

(١) « الكوفة » : اختطها سعد بن أبى وقاص الزهرى سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب . وهى أول مدينة اختطها المسلمون بالعراق (البلدان ص ٤ ، ٧٣) .

(٢) « صفين » موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربى . وكانت موقعة صفين بين على رضى الله عنه ومعاوية سنة ٣٧ هـ (معجم البلدان ج ٣ ص ٤٠٢) .

(٣) سورة « الزمر » آية ٣٦ .

((**هرم بن حيان**)) رضى الله عنه ، كان من عظماء الطريقة ، ذا حظ موفور فى المعاملة . وقد أكثر من صحبة الصحابة وكرامهم . وقصد زيارة أويس ، ولما سار الى قرن كان (أويس) قد غادرها ، فرجع يائسا. ولما عاد الى مكة علم أنه بالكوفة ، فذهب اليها ولم يجده. وظل هناك مدة طويلة ، فلما أراد أن يرحل عنها الى البصرة لقيه فى الطريق على شاطىء الفرات(١) يتوضأ ، وقد ارتدى مرقعة ، فعرفه . ولما تنحى (أويس) عن الشاطىء ومشط ذقنه ، تقدم اليه هرم وسلم عليه ، فقال له : عليك السلام يا هرم بن حيان . فسأله : كيف عرفت أنى هرم ؟ قال : عرفت روحى روحك . وجلسا معا برهة ، وصرفه .

قال هرم : لقد حدثنى كثيرا عن الأميرين — أى عمر وعلى رضوان الله عليهما — وقال لى ان عمر روى له عن الرسول عليه السلام قوله عليه السلام : « انما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه(٢) . ثم قال : « عليك بحفظ قلبك » . وفى رواية : « عليك بقلبك » . أى : عليك بحفظ قلبك من التفكير فى الغير .

ولهذا الكلام معنيان ، أولهما : أن يجعل القلب متابعا للحق بالمجاهدة ، والثانى : أن يجعل نفسه متابعا للقلب بالمشاهدة ، وكلاهما أصل قوى .

وجعل القلب متابعا للحق شأن المريدين الذين يردون القلب عن ممارسة الشهوة ومؤانسة الهوى ، فتنقطع عنه الأفكار غير الملائمة ، الى حد أنه لا يبقى له فكر آخر سوى ذكر الحق .

وجعل النفس متابعة للقلب شأن الكاملين الذين ينور الحق تعالى قلوبهم بنور جماله ، ويحررها من جميع الأسباب والعلل ، ويبلغها أعلى الدرجات ، ويخلع عليها خلعة القرب ، ويتجلى عليها بألطافه ، ويتولاها بالمشاهدة والقرب ، ومن ثم يجعل البدن موافقا للقلب .

فالطائفة الأولى أصحاب قلوب ، وهؤلاء مغلوبو قلوب ، وصاحب القلب هو مالك القلب وباقى الصفة ، ومغلوب القلب فانى الصفة .

---

(١) « الفرات » (نهر) : الفرات معرب عن لفظه ، وله اسم آخر وهو «فراز رود» لانه بجانب دجلة ، والجنيبة تسمى بالفارسية « فراز » و « رود » = نهر (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٠)

(٢) رواه الشيخان عن عمر ، ومالك فى الموطأ .

وحقيقة هــذه المسألة مردها الى قوله عز وجل : « الا عبــادك منهم المخلصين »(١) ــ بفتح اللام ــ والمخلص بكسر اللام هو الفاعل وباقى الصفة . والمخلص بفتح اللام هو المفعول وفانى الصفة . وسأورد هذه المسألة أكثر شرحا فى مكان آخر ، ان شاء الله تعالى .

والحقيقة ان فانى الصفة أعظم من هؤلاء الذين يجعلون الجسد موافقا للقلب ، لأن قلوبهم تكون محولة فى حضرة الحق وقائمة فى مشاهدة الحق أكثر من باقى الصفة الذين يجعلون القلب موافقا للأمر بالتكلف .

وبناء هذه المسألة قائم على أصل الصحو والسكر والمجاهدة والمشاهدة ، والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم** أيضا : امام العصر وفريد الدهر :

أبو على الحسن بن أبى الحســين البصرى » رحمــه الله . وهنــاك فريق يجعلون كنيته « أبا محمد » ، وآخرون يجعلونها « أبا سعيد » . وله قدر كبير وشأن عظيم عند أهل هذا العلم (أى علم التصوف) بل كل العلوم . وكان لطيف الاشارة فى المعاملة .

وقد قرأت فى الحكايات أن أعرابيا جاءه وسأله عن الصبر ، فقال له : الصبر نوعان : أولهما : الصبر فى المصائب والبليات ، والثانى : الصبر عن المنهيات . فقال الأعرابى : أنت زاهد ما رأيت أزهد منك . فقــال الحسن : يا أعرابى ! أما زهدى فكله رغبة ، وأما صبرى فكله جزع . فقال الأعرابى : فسر لى هذا الكلام ، فقد اضطرب اعتقادى . فقال له: صبرى فى البلاء أو الطاعة ناطق بخوفى من نار جهنم ، وهذا عين الجزع . وزهدى فى الدنيــا رغبة فى الآخرة ، وهذا عين الرغبة ، بخ بخ لمن كان يأخذ نصيبه فى الوسط . حتى يكون صبره خاصا بالحق جل جلاله لا خوفا من جهنم ، وزهده مطلقا للحق عم نواله لا للوصول الى الجنة . وهذا دليل على صحة الاخلاص .

ويروى عنه أيضا ، رحمه الله ، أنه قال : « صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار » .

وهذا قول جد محكم ، وأليق لأهل زماننا هذا الذين كلهم منكر لأعزاء حضرة الحق جل جلاله . وقد حــدث ذلك لأنهم يصحبون المستصوفة

---

(١) سورة « الحجر » آية ٤٠ .

وأهل الرسم ، ويرون أعمالهم قائمة على الخيانة ، والسنتهم تفيض كذبا وغيبة ، وسمعيهم منصرفا الى استماع « الدوبيتات(١) » المليئة بالهزل والبطلان ، وأعينهم مملوءة باللهو والشهوة ، وكل همتهم جمع الحرام والشبهة . ويظنون أن هذه هى معاملة المتصوف ، وان مذهب المتصوفة هكذا . وليس الأمر كذلك ، بل فعلهم كله طاعة ، ولسانهم ذاكر للحق والحقيقة ، وآذانهم محل استماع الشريعة ، وأعينهم موضع جمال المشاهدة ، وهمتهم كلها جمع فى محل الرؤية . فاذا ظهر قوم قد سلكوا طريق الخيانة ، فخيانة الخائنين تعود اليهم لا الى أحرار الدنيا وسادات الزمان هؤلاء . واذا صحب أحد أشرار قوم فان ذلك يرجع الى شره ، لأنه لو كان فيه خير لصاحب الأخيار ، اذ الجنس أميل الى الجنس(٢) . فملامة كل امرىء عليه ، لأنه يصحب صنوه وكفاه .

والمنكرون على الصوفية هم أشر خلق الله جل جلاله وأرذلهم ، لأن صحبتهم كانت مع أشرهم وأرذلهم ، فلما لم يدركوا هوى ومرادا أنكروا عليهم . أو أنهم اقتدوا بهم فلما هلكوا ، لم يتجهوا الى هؤلاء الأخيار والأعزاء على الله تعالى ، فينظروا بعين الرضا الى أخيارهم ، ويشتروا صحبتهم بأرواحهم وقلوبهم ، ويختاروا من العالم طريقهم ، وينالوا ببركاتهم مقصودهم فى الدارين وينقطعوا عن الكل . وقد قيل فى هذا المعنى : (بيت من الشعر العربى)

فلا تحقرن نفسى وأنت حبيبها * فكل امرىء يصبو الى من يجانس

● **ومنهم** : رئيس العلماء ، وقدوة الفقهاء : « **سعيد بن المسيب** »(٣) رحمه الله . كان عظيم الشأن ، رفيع القدر ، عزيز القول ، حميد الصدر ، وله مناقب كثيرة فى فنون العلم : من فقه وتوحيد وحقائق وتفسير وشعر ولغة وغير ذلك .

---

(١) « الدوبيت » : شعر مكون من أربع شطرات ، وهو نوع من الرباعيات يترنم به الصوفية فى حلقات السماع .

(٢) العبارة فى الاصل : « الجنس مع الجنس آثر » .

(٣) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن مخزوم القرشى المدنى . أحد الفقهاء السبعة بالمدينة . كان سيد التابعين ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبى وقاص الزهرى وأبى هريرة رضى الله عنهما ، ولقى جماعة من الصحابة وسمع منهم . ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن . أكثر روايته المسند عن أبى هريرة ، وكان زوج ابنته . ضربة عبد الملك بن مروان وألبسه المسوح وطاف به أسواق المدينة حين امتنع عن مبايعته ، ومنع من مجالسته . كان يقول لنفسه اذا دخل الليل : قومى يا مأوى كل شر ، والله لادعنك تزحفى زحف البعير . قيل توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة وقيل سنة خمس ومائة (انظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٠٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٤) .

ويقولون أنه كان رجلا عيار(١) المظهر زاهد الطبع ، لا زاهد المظهر عيار الطبع . وهذه طريق محمودة فى الطريقة ، ومقبولة لدى جميع المشايخ رضى الله عنهم .

ويروى عنه أنه قال : « أرض باليسير من الدنيا مع سلامة دينك ، كما رضى قوم بكثيرها مع ذهاب دينهم » . أى أن الفقر مع السلامة خير من الغنى مع الغفلة ، لأن الفقير اذا نظر فى قلبه لا يجد فيه التفكير فى الزيادة ، واذا نظر فى يده يجد القناعة . والغنى حين ينظر الى قلبه يجد فيه التفكير فى زيادة الدنيا ، وعندما ينظر فى يده يرى الدنيا المليئة بالشبهات .

اذن فرضاء الأحباب بربوبية الله بلا غفلة خير من رضاء الغافلين بالدنيا المليئة بالغرور والآفة والحسرة والندامة والزلة والمعصية .

وحينما يحل البلاء يقول الغافلون : الحمد لله اذ أنه لم يحل بالجسد ، ويقول الأحباب : الحمد لله أنه لم يحق بالدين . واذا كان الجسد فى بلاء ، فما دام القلب فى اللقاء ، يطيب للجسد البلاء . وحين يكون القلب فى الغفلة فانه وان يكن الجسد فى النعمة ، فانها لا تكون نعمة ، بل نقمة . وفى الحقيقة فان الرضا بقليل الدنيا هو كثير الدنيا ، والرضا بكثير الدنيا هو قليل الدنيا ، لأن قليلها مثل كثيرها .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه كان جالسا فى مكة وجاء اليه رجل وقال له : أخبرنى عن حلال ليس فيه حرام ، وحرام ليس فيه حلال . فقال رضى الله عنه : « ذكر الله حلال ليس فيه حرام ، وذكر غيره حرام ليس فيه حلال » ، لأن النجاة فى ذكره والهلاك فى ذكر غيره ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) العيار : هو الرجل الكثير المجيء والذهاب ، الذكى ، الكثير الطواف . وقيل الذى يتردد بلا عمل . ومنه العيار من الرجال ، الذى خلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها (أقرب الموارد) .

الباب الحادى عشر

باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين إلى يومنا

منهم شجاع الطريقة ، والمتمكن فى الشريعة ، ((**حبيب العجمى**(١))) ، رضى الله عنه . كان عالى الهمة ، جليل القدر ، وله فى مراتب الرجال قيمة وخطر عظيم .

وكانت توبته فى البداية على يد حسن البصرى ، فقد كان فى أول عهده يقرض بالربا ، ويعيث فسادا ، ووهبه الله عز وجل بكمال لطفه التوبة النصوح ، ومن عليه بالتوفيق ، حتى أناب الى حضرته جل جلاله ، وتعلم قدرا من العلم .

وعن الحسن (البصرى) أن لسانه كان اعجميا ، ولم يكن جاريا على العربية . وقد خصه الله تعالى وتقدس بكرامات كثيرة الى حد أن الحسن مر يوما بباب صومعته وقت صلاة العشاء ، وكان قد أقام الصلاة ووقف يصلى ، فدخل الحسن ولم يقتد به ، لأن لسانه لم يكن جاريا على قراءة القرآن . ولما نام (الحسن) رأى الله سبحانه وتعالى فى منامه ، فقال: يا الهى ياذا الجلال ! فيم يكون رضاؤك ؟ فقال : يا حسن ، كنت قد أدركت رضاءنا فلم تعرف قدره . فقال : يا الهى تعاليت ! ما هو ؟ قال : لو أنك صليت خلف حبيب بالأمس ، ولم يردك عن صحة نيته انكار عبارته ، لكنا رضينا عنك .

---

(١) ورد عنه أن أحمد بن حنبل والشافعى كانا قد اجتمعا يوما ، فدخل عليهما حبيب . فقال أحمد : سأسأله سؤالا ، فقال الشافعى : لا تفعل ، فهو رجل عجيب فقال أحمد : لا مناص لى من ذلك . ولما اقترب حبيب منهما سأله : ما قولك فى حق رجل فاتته صلاة من الصلوات الخمس ولا يعرف أى واحدة هى ، ماذا يجب عليه أن يفعل ؟ قال حبيب : هذا قلب غفل عن الله فليؤدب ، وينبغى عليه أن يقضى الصلوات الخمس . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٩) .

ومن المعروف بين هذه الطائفة أنه عندما فر الحسن من رجال الحجاج(١) ، دخل صومعة حبيب ، فلما جاءوا اليها قالوا : يا حبيب ، هل رأيت الحسن؟ قال : نعم ، قالوا : أين ؟ قال : هاهو في صومعتى ، فدخلوا الصومعة فلم يروا أحدا ، وظنوا أن حبيبا يهـزأ بهم ، فأغلظوا له قائلين : انك تكذب . وأقسم لهم قائلا : انى أقول الصدق ، وها هو فى صـومعتى . فدخلوا الصومعة ثانية وثالثة ولم يجـدوه ، فانصرفوا . وخرج الحسن وقال : يا حبيب انى أعـرف أن الله تعـالى لم يظهرنى لأولئك الظلمة ببركاتك ، فلماذا قلت لهم : انه هنـا ؟ قال : يا أسـتاذ ! انه لم يكن ببركاتى ان الله لم يظهرك لهم ، بل كان ببركات الصدق ، ولو كنت كذبت لفضحونى ، أنا وأنت(٢) .

وله من هذا القبيل كرامات كثيرة .

سئل : فيم يكون رضاء الله تعالى ؟ . قال : « فى قلب ليس فيـه غبار النفاق » . ذلك أن النفاق خلاف الوفاق ، والرضا عين الوفاق ، ولا تعلق للمحبة بالنفاق ، ومحلها الرضا ، فالرضا صفة الأحباب ، والنفاق صـفة الأعداء . وهذا قول عظيم أبينه ان شاء الله فى موضع آخر .

● **ومنهم** بقية أهل الانس ، وزين جملة الجن والانس :

«مالك بن دينار» رضى الله عنه . كان صاحب الحسن البصرى ، ومن كبار هذه الطريقة ، وله كرامات كثيرة مشهورة ، وفى الرياضة خصال مذكورة .

وكان دينار عبدا ، وقد ولد (مالك) فى حال عبودية أبيه .

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى . كان يكنى أبا محمد . ولى شرط أبان بن مروان فى بعض ولايات ابان فلما خرج بن الزبير أوفده عبد الملك بن مروان مع جيش من أهل الشام لقتاله فحاصره وقتله وصلبه . وولاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنوات . وفى سنة ٧٤ هـ . ولاه عبد الملك العراق فوليها عشرين سنة وأصلحها وذل أهلها . وتوفى سنة ٩٥ هـ فى عهد الوليد عبد الملك (انظر : المعارف ص ١٧٣ ، اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧ ــ ٣٤) .

(٢) وردت هذه الحكاية على لسان أبى طالب المكى ، قال : « حدثونا أن الحسن رحمه الله اختفى عند حبيب العجمى من الحجاج ، فسعى به فدخل عليه الشرط ففزع الحسن وذهب ليتسور الحائط ويهرب ، فقال له حبيب : أبا محمد ، اقعد حتى تبصر ، فقال : فدخل الشرط فقالوا أين الحسن ؟ قيل لنا انه عندك . فقال : هل ترون شيئا ؟ ففتشوا الدار كلها وخرجوا وهم لا يرونه ، فقال له الحسن : كيف لم ينظروا الى ؟ قال : لانك كنت عند الله فلم يروك ، ولو كنت عندى لابصروك . قال له الحسن : انى رأيتك لما دخلوا هممت بشىء ، فهل ذكرت اسم الله الاعظم ؟ قال :لا ، ولكن قلت : اللهم اجعله عندك حتى لايبصروه » (قوت القلوب جـ ١ ص ١٣٧) .

وكانت بداية أمره أنه ذات ليلة ، شاء صبح السعادة الالهية أن ينثر شعلة من أنواره على روح مالك بن دينار ، وكان فى تلك الليلة مشغولا بالطرب بين جماعة من رفاقه ، ولما ناموا جميعا أيقظ الحق جل جلاله بختنه ، فانبعث من خلال العود الذى كان يضرب عليه صوت جميل يقول : « يا مالك مالك أن لا تتوب ؟ » . فكف يده عن هذا كله ، وجاء الى الحسن وتاب على يديه توبة نصوحا .

وبلغ من منزلته أنه ركب ذات مرة سفينة ، فضاع فيها جوهرة ، وكان يبدو أكثر القوم نكرا(١) ، فاتهموه بسرقتها . ورفع رأسه الى السماء ، فخرج فى الحال كل ما فى البحر من السمك على الماء ، وقد أمسكت كل سمكة بفمها جوهرة ، فأخذ من كل ذلك جوهرة وأعطاها للرجل ، ووضع قدمه على الماء وسار عليه فى يسر حتى خرج الى الساحل .

يرد عنه أنه قال : « أحب الأعمال الى(٢) الاخلاص فى الأعمال » .

ذلك أن العمل يصير عملا بالاخلاص ، والاخلاص للعمل بمنزلة الروح للجسد . وكما أن الجسد بلا روح يكون جمادا ، كذلك الشخص الذى يؤدى العمل بالظاهر ألف عام لا يصير عمله عملا ما لم يربط الاخلاص به.

أما الاخلاص فهو من جملة الأعمال الباطنة ، والطاعات من جملة الأعمال الظاهرة . والأعمال الظاهرة تتم بالأعمال الباطنة ، والأعمال الباطنة تكتسب قيمتها بالأعمال الظاهرة ، فلو أن انسانا أخلص بقلبه ألف عام فانه ما لم يعمل بالاخلاص لا يكون اخلاصه اخلاصا . واذا عمل أحد بالظاهر ألف عام فانه ما لم يتصل الاخلاص بعمله لا يصير عمله عملا .

● **ومنهم** الفقير الخطير ، وعلى سائر الأولياء الأمير :

« أبو حاتم حبيب بن سليم الراعى(٣) » رضى الله عنه . كان عظيم المنزلة بين المشايخ ، وله جملة الأحوال آيات وبراهين كثيرة نيره . وكان صاحب سلمان الفارسى رضى الله عنه . ويروى عن النبى عليه‌الصلاة والسلام أنه قال : « نية المؤمن خير من عمله » .

وكان صاحب أغنام ، يقيم على شاطىء الفرات ، ويسلك طريق العزلة. ويروى أحد المشايخ قائلا : مررت به فوجدته يصلى ويحرس غنمه ذئب !

---

(١) أى مجهولا من الجميع أكثر من أى شخص آخر : اذ النكر بمعنى الجهل .
(٢) فى الاصل « على » .
(٣) لم ترد له ترجمة فى الكتب التى رجعت اليها .

فقلت : فلأزر هذا الشيخ فانى أرى فيه آية كبرى . وبقيت لحظة حتى فرغ من الصلاة ، وسلمت عليه ، فقال : يا بنى ! لأى أمر جئت ؟ قلت : لزيارتك . قال : خيرك الله . قلت : أيها الشيخ ! انى أرى الذئب موافقا للغنم ! فقال : لأن راعى الغنم موافق للحق . قال هذا ، وكان لديه وعاء خشبى ! تحت حجر ، تفجرت فيه عينان : احداهما لبن ، والأخرى عسل . فقلت له : يا شيخ ! بم نلت هذه الدرجة ؟ قال : بمتابعة محمد عليه الصلاة والسلام . يا بنى ! لقد كان قوم موسى يخالفونه ، ومع هذا حباهم الصخر الماء ، ولم يكن موسى فى درجة محمد ، وبما انى متابع لمحمد ، فقد حبانى الله العسل واللبن ، فلا عجب . فقلت له : عظنى ! قال : « لا تجعل قلبك صندوق الحرص وبطنك وعاء الحرام » ، لأن هلاك الخلق فى هذين ، ونجاتهم فى حفظهما .

وكان لشيخى — رضوان الله عليه — روايات كثيرة عنه ، ولكن ليس من الميسر فى هذا الوقت أكثر من هذا ، لأن كتبى بقيت فى حضرة غزنين — حرسها الله — وأنا فى ديار الهند ، فى بلدة لها نور(١) من توابع الملتان ، أسير بين أناس ليسوا من جنسى ، والحمد لله رب العالمين .

● **ومنهم** الشيخ الصالح ، وبصلاحه الصالح ، « **أبو حازم المدنى** »(٢) رحمه الله ، كان قدوة لبعض المشايخ ، وله فى المعاملات حظ وافر وخطر كبير ، وفى الفقر قدم ثابتة ونفس صادق ، وفى المجاهدات مسلك كامل .

ويروى عنه عمرو بن عثمان المكى(٣) رضى الله عنه — وكلامه فى كل القلوب مقبول ، وفى كثير من الكتب مسطور — انه قيل له : « ما مالك ؟ قال : « الرضا عن الله والغناء عن الناس » .

وكل من يرضى بالحق يستغنى لا محالة عن الخلق . والكنز الأكبر للمرء : رضاء الله تعالى وتقدس .

---

(١) « لاهور » .

(٢) يسميه فريد الدين العطار ، أبا حازم المكى . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٥٦) .

(٣) عمرو بن عثمان بن كرب : كنيته أبو عبد الله . كان ينتسب الى الجنيد فى الصحبة، وصحب أبا سعيد الخراز وغيره ، روى عن محمد بن اسماعيل ويونس بن عبد الاعلى وسليمان بن سيف الحرانى وغيرهم . مات ببغداد سنة احدى وتسعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٠ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٢١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٦ ، نفخات الانس ص ٨٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٧١) .

والاشارة — هنا — الى الغناء بالله جل جلاله ، فكل من يغنى به يستغنى عن غيره ، ولا يعرف طريقا الى غير حضرته ، ولا يعرف غيره فى الخلا والملا ، ولا يدعو غيره ، ولا يعرف معزا ومذلا غيره .

ويقول واحد من المشايخ : دخلت عند « أبى حازم » فوجدته نائما ، وبقيت برهة حتى أستيقظ ، فقال : رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه الساعة فى المنام ، وقد حملنى اليك رسالة وقال : ان رعاية حق الأم أفضل من الحج ، فعد واطلب رضا قلبها . فرجعت من عنده ، ولم أذهب الى مكة . ولم أسمع منه أكثر من هذا .

● **ومنهم** داعى أهل المجاهدة ، والقائم فى محل المشاهدة ، « **محمد بن واسع**(1) » رضى الله عنه ، الذى لم يكن له مثيل فى زمانه ، وكان قد أدرك صحبة كثير من الصحابة والتابعين ، ورأى طائفة من الشيوخ المتقدمين .

وكان رضى اله عنه ذا حظ واف فى هذه الطريقة ، وأنفاس عالية واشارات كاملة فى الحقائق .

ورد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه » . وهذا مقام المشاهدة ، لأن العبد فى غلبة محبة الفاعل عليه يصل الى درجة أنه ينظر فى فعله فلا يرى الفعل ، ويرى الكل فاعلا . كما ينظر شخص الى الصورة فيرى المصور .

وحقيقة هذا ترجع الى قول الخليل عليه السلام الذى قال : لكل من القمر والشمس والنجم : « هذا ربى(2) » ، وكان ذلك فى حال غلبة الشوق ، لأنه كان يرى كل ما يراه فى صفة محبوبه ، فالأحبة حين ينظرون الى العالم يرونه مقهور قهر الله وأسير سلطانه ، فيتلاشى وجود العالم فى جنب قدرة فاعله ، ويصير فى ذل قوله تعالى « كن »(3) لا شىء . وهم ينظرون فيه بعين الاشتياق ، فلا يرون المقهور ويرون القاهر ، ولا يرون

---

(1) محمد بن واسع بن جابر الازدى ، أبو بكر البصرى الزاهد . روى عن أنس بن مالك والحسن البصرى . توفى سنة عشرين ومائة ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة . كان يلبس الصوف ، فدخل يوما على قتيبة بن مسلم فقال له قتيبة : ما دعاك الى لبس الصوف ؟ فسكت ، فقال : أأكلمك فلا تجيبنى ؟ فقال : أكره أن أقول انى زاهد فأزكى نفسى ، أو فقير فأشكو ربى عز وجل (أنظر ترجمته فى المعارف ص ٢٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٨) .

(2) اشارة الى الايات : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ من سورة « الانعام » .

(3) اشارة الى الآية : « واذا قضى أمرا فانه يقول له كن فيكون » سورة « البقرة » آية ١١٧ .

المفعول ويرون الفاعل ، ولا يرون المخلوق ويرون الخالق . وسأوضح هذا في باب المشاهدة ان شاء الله تعالى .

وهنا يخطىء فريق اذ يقولون : ان الرجل قال : « رأيت الله فيه » ، وهذا يقتضى المكان والتجزئة والحلول ، وهو كفر محض ، لأن المكان يكون جنس المتمكن ، واذا قدر شخص أن المكان مخلوق ، فلا بد وأن يكون المتمكن مخلوقا أيضا ، وإذا قدر أن المتمكن قديم ، فلا بد وأن يكون المكان قديما أيضا .

وبهذا القول يحصل نوعان من الفساد : فاما أن يقال ان الخلق قديم، أو أن الخالق محدث ، وهذان كلاهما كفر . فرؤيته هذه (أى رؤية الله فى الأشياء) بمعنى رؤية آياته وأدلته وبراهينه فيها ، بالمعنى الذى ذكرته أولا .

وفى هذا المعنى رموز لطيفة أجىء بها فى موضعها ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** امام العالم ومقتدى الخلق وشرف الفقهاء وعز العلماء : **« أبو حنيفة النعمـــاء بن ثابت الخـــزاز »** رضى الله عنـــه ، كان له فى العبادات والمجاهدات قدم ثابتة ، وشأن عظيم فى أصول الطريقة .

قصد فى بداية حاله العزلة ، وتبرأ من جملة الخلق ، وأراد أن ينسلخ عنهم ــ لأنه كان قد طهر قلبه من ريائهم وجاههم ، وهذبه للحق الحق ــ الى أن رأى فى منامه ليلة أنه كان يجمع عظام النبى عليه السلام من لحده ويتخير بعضها من بعض ، فهب من نومه فزعا من ذلك ، وسأل واحدا من أصحاب محمد بن سيرين(١) فقال له : ستصل فى علم النبى عليه السلام وحفظ سـنته الى درجة عظيمة بحيث تتصرف فيهـا وتميز الصحيح من السقيم .

ومرة أخرى رأى النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم ، وقال له : يا أبا حنيفة ! لقد جعلت سببا لاحياء سنتى فلا تقصد .

---

(١) أبو بكر محمد بن سيرين البصرى . كان من سبى ميسان . روى عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر وغيرهم . وروى عنه قتادة بن دعامة وخالد بن الحذاء وغيرهم . أحد فقهاء البصرة صاحب الحسن البصرى ثم تهاجرا فى آخر الأمر فلما مات الحسن لم يشهد ابن سيرين جنازته . كانت له اليد الطولى فى تعبير الرؤيا . توفى سنة عشر ومائة بالبصرة بعد الحسن البصرى بمائة يوم .
(أنظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٣) .

وكان أستاذا لكثير من المشايخ مثل : ابراهيم بن أدهم ، والفضيل ابن عياض ، وداود الطائى ، وبشر الحافى وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومدون لدى العلماء أنه فى عهد أبى جعفر المنصور(١) ، فكروا فى أن ينصبوا رجلا من بين أربعة قاضيا ، أولهم الامام الأعظم أبو حنيفة ، وثانيهم سفيان(٢) وثالثهم مسعر بن كدام(٣) ، ورابعهم شريك(٤) ، رحمة الله عليهم ، وكان هؤلاء الأربعة من فحول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لاحضارهم جميعا . وأثناء سيرهم فى الطريق قال أبو حنيفة رضى الله عنه : سأتفرس فى كل منا فراسة فى ذهابنا هذا ! قالوا : يستصوب ، قال : أنا أدفع عن نفسى هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفر سفيان فى الطريق ، ولجأ الى سفينة وقال : جبئونى لأنهم يريدون قطع رأسى ، وذلك بتأويل الخبر الذى ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين(٥) » ، فأخفاه الملاح . وحمل الثلاثة الى المنصور ، فقال أولا لأبى حنيفة رحمه الله : ينبغى أن تتولى القضاء ! فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل غير عربى ومن موالى العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمى . فقال أبو جعفر : هذا

---

(١) عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس . الخليفة العباسى . بويع فى اليوم الذى توفى فيه أبو العباس سنة ١٣٦ هـ ، وكان حاجا فأخذ له عمه عيسى بن على البيعة على من حضر من الهاشميين والقواد بالأنبار ووافاه الخبر بذلك بايعه ابو مسلم ومن حضر من القواد . قتل أبا مسلم سنة ١٣٧ هـ . وبايع ابنه المهدى بولاية العهد سنة ١٤٧ هـ . توفى عند وصوله مكة وهو حاج سنة ١٥٨ هـ ودفن بها . (أنظر تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٠٠ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) مسعر بن كدام ــ بكسر الكاف ــ طلبه أبو جعفر المنصور ليوليه القضاء فقال له : مهلا يا أمير المؤمنين . ان أهلى يطلبون حاجة بدرهم ، فأقول لهم أنا أشترى لكم ، فيقولون لانرضى بشرائك . فاذا كان أهلى لايرضون بشرائى لهم حاجة بدرهم ، (فكيف) يولينى أمير المؤمنين القضاء ؟ فأعفاه . دخل عليه سفيان الثورى فى مرض موته فقال له : ما هذا الجزع يامسعر ؟ والله لوددت أنى مت الساعة . فقال : انك اذا لواثق بعملك ياسفيان ! لكنى والله كأنى على شاهق جبل لا أدرى أين أهبط . فبكى سفيان وقال : أنت أخوف لله عز وجل منى يا أخى . توفى بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة . (انظر ترجمته فى طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٦) .

(٤) أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبى شريك النجمى . تولى القضاء بالكوفة أيام المهدى ثم عزله موسى الهادى ، وتولاه بالأهواز . توفى بالكوفة سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة .. (انظر ترجمته فى المعارف ص ٢٢٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٥) .

(٥) رواه أحمد فى مسنده ، وابن داود ، وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة : « من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص٢٩١)

العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغى له العلم ، وأنت مقدم علماء الزمان . فقال : أنا لا أليق لهذا العمل ، وفى هـذا القول اذ قلت : لا أليق ، لا يخرج عن اثنتين : اذا قلت الصدق ، فقد قلت بنفسى : لا أليق . واذا كذبت ، فالكاذب لا يليق للقضاء بين المسلمين ، وأنت لا تجيز أن تأتى بكاذب وتجعله خليفتك ، وتكل اليه أموال المسـلمين وفروجهم ، وأنت خليفة الله . قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر رحمه الله وأمسـك بيد الخليفة وقال له : كيف حالك وأولادك ، وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فانه مجنون.

وقالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء . فقال : أنا رجل سوداوى ورأسى خفيف ! فقال له المنصور : عالج نفسك بالعصائد الموافقة والأنبذة المثلثة ليكتمل عقلك . وعندئذ أسند القضاء الى شريك . وقاطعه أبو حنيفة رضى الله عنه ، ولم يكلمه قط . وهذه علامة على كمال حاله ، لمعنيـين : أولهما : صدق فراسته فى كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة وصحة الملامة ، واقصائه الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم .

وهذه الحكاية دليل قوى على صحة الملامة ، اذ أقصى هؤلاء الشيوخ الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة . واليوم ، لا ينظر جملة العلماء الى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنـوا الى أهوائهم ، ونفروا من طريق الحق ، وجعلوا ديار الأمراء قبلتهم ، وصيروا دور الظلمة بيتهم المعمور ، وجعلوا بساط الجبابرة موازيا (لمنزلة) قاب قوسين أو أدنى وينكرون كل ما يخالف هذه المعانى .

ذات مرة كان أحد مدعى الامامة والعلم قد قال فى حضرة غزنين — حرسها الله — ان لبس المرقعة بدعة ! فقلت : ان الثيـاب الحشيشية الديباجية والدبيقية(١) ، وكلها مصنوعة من الابريسـم(٢) المحـرم على الرجال ، أخذها من الظلمة وجمعها من الحرام بالالحاح واللجاج ، حرام مطلق ، وهم يلبسونها ولا يقولون انها بدعة ، فلماذا يكون الثوب الحلال، من المكان الحلال ، المشترى بمال حلال بدعة ؟ ولو لم تكن رعونة الطبع وضلالة العقل مسلطة عليك ، لقلت كلاما أكثر اتزانا من هذا . والثياب الأبريسمية حلال للنساء ومباحة للمجانين ، فاذا أقررت بأحد هذين فقـد عذرت نفسك ، والا فنعوذ بالله من عدم الانصاف .

---

(١) نسبة الى دبيق بلد بمصر واليه تنسب الثياب الدبيقية . أقرب الموارد .
(٢) نوع من الحرير

ويقول الامام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه : حينما حضرت نوفل ابن حيان رضى الله عنه الوفاة رأيت فى النوم أن القيامة قامت ، وجملة الخلق يحاسبون ، ورأيت النبى عليه السلام واقفا متشمرا على حوضه، والمشايخ وقوفا عن يمينه ويساره ، ورأيت شيخا حسن الوجه يجلل رأسه شعر أبيض وقد وضع خده على خد النبى ، ورأيت أمامه نوفلا واقفا ، فلما رآنى أقبل على وسلم ، فقلت له : اسقنى فقال : حتى أستأذن النبى عليه السلام . فأشار اليه النبى عليه السلام بأصبعه فأعطانى الماء ، فشربت منه وسقيت أصحابى ، ولم ينقص من ذلك القدح شىء قط . وقلت : يا نوفل ! من الشيخ الذى على يمين النبى ؟ قال : انه ابراهيم خليل الرحمن ، والآخر أبو بكر الصديق . وهكذا كنت أسأله وهو يعقد على أصبعى ، حتى سألته عن سبعة عشر شخصا رضوان الله عليهم أجمعين ، فلما استيقظت وجدت على أصبعى سبع عشرة عقدة .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم ، فقلت له : أين أطلبك ؟ قال : عند علم أبى حنيفة ، رضى الله عنه .

وله فى الورع طرف كثيرة ومناقب مشهورة اكثر من أن يحتملها هذا الكتاب .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — كنت بالشام يوما نائما على رأس قبر بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت نفسى بمكة فى النوم واذا بالنبى صلى الله عليه وسلم قد دخل من باب بنى شيبة وقد احتضن شيخا كما يحتضنون الأطفال بشفقة ، فهرعت اليه وقبلت يديه وقدميه . وكنت أتعجب متسائلا : من يكون ذاك ، وما تلك الحال ؟ فأطلع عليه السلام — بحكم اعجازه — على باطنى وفكرى ، وقال لى : هذا امامك وامام أهل ديارك . ولى وأهل بلدى أمل كبير بذلك الحلم .

وصدق هذا الحلم . لأنه كان أحد هؤلاء الذين كانوا فانين عن أوصاف الطبع وباقين بأحكام الشرع وقائمين به . ولما كان مرشده هو النبى صلى الله عليه وسلم — فانه وان يكن قد مضى — فقد كان باقى الصفة ، وباقى الصفة : أما مخطىء أو مصيب ، وبما أن مرشده كان النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه يكون فانى الصفة ببقاء صفة النبى عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الخطأ لا يجوز على النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه لا يجوز كذلك على القائم به . وفى هذا رمز لطيف .

ويقال انه عندما حصل داود الطائى رحمه الله العلم ، وصار مصدرا وقدوة ، جاء أبا حنيفة رضى الله عنه ، وقال له : ماذا أفعل الآن ؟ فقال له : عليك بالعمل فان العلم بلا عمل كالجسد بلا روح .

والعلم — فديتك — ما لم يقترن بالعمل ، فانه لا يصفو ولا يخلص عهده ، وكل من يقنع بالعلم المجرد لا يكون عالما ، لأن العالم لايقنع بمجرد العلم ، فعين العلم تقتضى العمل ، كما تقتضى عين الهداية المجاهدة . وكما أن المشاهدة لا تكون بدون المجاهدة ، فان العلم لا يكون بدون العمل ، لأن العلم مواريث العمل ، وتخريج العلم النافع وفتوحه يكون ببركات العمل . ولا يمكن بأى معنى فصل العمل عن العلم ، كما لا يمكن فصل نور الشمس عن عين الشمس .

وقد أوردنا فى بداية الكتاب بابا مختصرا فى العلم ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم** سيد الزهاد وقائد الأوتاد : ((**عبد الله بن المبارك المروزى(١)**)) رضى الله عنه . كان من محتشمى القوم ، وعالما بجملة أحوال وأسباب الطريقة والشريعة . وكان أمام الوقت فى عصره ، وأدرك كثيرا من الشيوخ وصحبهم ، واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وأخذ عنه العلم . وله تصانيف مذكورة وكرامات مشهورة فى كل فن من فنون العلم .

والسبب فى ابتداء توبته هو أنه كان قد فتن بجارية ، وذات ليلة نهض من بين السكارى ، وصحب أحدهم ، ووقف تحت جدار المعشوقة ، وصعدت هى الى السطح ، ووقفا كلاهما فى مشاهدة أحدهما الآخر حتى الفجر . وعندما سمع عبد الله أذان الفجر ظنه أذان العشاء ، فلما طلع النهار عرف أنه كان طول الليل مستغرقا فى جمال المعشوقة ، فكان له من هذا زاجر ، فقال لنفسه : خسئت يا ابن المبارك اذ وقفت طوال الليل على قدميك موافقة لهواك ، ولا تمل ، ولو أن اماما قرأ فى الصلاة سورة طويلة لجننت ! فأين معنى الايمان فى مقابل هذه الدعوى ؟ (٢) . وعندئذ تاب

---

(١) كان يقيم بخراسان ، وكانوا يقدمونه فى الأدب على سفيان ، وكان سفيان الثورى يقول : جهدت جهدى على أن أداوم ثلاثة أيام فى السنة على ماعليه ابن المبارك فلم أقدر . وكان يقول : سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ، لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس الا بالعصا ، والزاهد ينفر من الناس فيتبعونه . توفى سنة احدى وثمانين ومائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٤٧ ، تذكرة الأولياء جـ ١ ص ١٧٩) .

(٢) أورد القشيرى هذه الحكاية ضمن ترجمة الفضيل بن عياض وذكر أنها كانت السبب فى توبة الفضيل . انظر ترجمة الفضيل : الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٥٧ .

واشتغل بالعلم وطلبه ، حتى وصل الى درجة أن أمه دخلت عليه البستان يوما فرأته نائما وقد أمسكت حية كبيرة بغصن ريحان فى فمها وكانت تذب عنه الذباب .

ثم رحل عن مرو(١) وذهب الى بغداد وظل بها مدة فى صحبة المشايخ . وذهب الى مكة وجاور هنالك أيضا مدة ، ورجع الى مرو فتولاه أهلها ورتبوا له درسا . وفى ذلك الوقت كان نصف أهل مرو يتابع الحديث والنصف الآخر يسلك طريق الرأى ، كما هو الحال اليوم ، وكانوا يسمونه : « رضى الفريقين » بحكم أنه كان موافقا لكل منهما . وقد اختصم فيه كلا الفريقين . واتخذ هنالك رباطين : أحدهما لأهل الحديث ، والثانى لأهل الرأى ، وما يزال هذان الرباطان قائمين حتى اليوم ، ويسيران على قاعدة ذلك الأصل .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت راهبا قد هزل من المجاهدة ، وانحنى عوده من خشية الله ، فسألته : يا راهب ! كيف الطريق الى الله ؟ قال : لو عرفت الله لعرفت الطريق اليه ! ثم قال : أعبد من لا أعرفه وتعصى من تعرفه .

أى أن المعرفة تقتضى الخوف ، وأراك آمنا ، والأمن كفر . والجهل يقتضى الكفر ، وأجد نفسى خائفا . قال ابن المبارك : فصارت لى هذه عظة ، ومنعتنى عن كثير مما لا ينبغى عمله .

ويروى عنه أنه قال : « السكون حرام على قلوب أوليائه » . أى أنها مضطربة فى الدنيا فى حال الطلب ، ومضطربة فى العقبى فى حال الطرب ، ولا يجوز لها السكون فى الدنيا بغيبتها عن الحق ، ولا ينبغى لها القرار فى العقبى بحضور الحق وتجليه ورؤيته ، فالدنيا لها كالعقبى ، والعقبى كالدنيا ، لأن سكون القلب يقتضى أمرين : اما ادراك المقصود ، أو الغفلة عن المراد ، وادراك المراد لا يجوز فى العقبى والدنيا حتى يسكن القلب عن خفقان المحبة . والغفلة حرام على أحبائه حتى يسكن القلب عن حركات الطلب . وهذا أصل قوى فى طريق المتحققين ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) « مرو » : هى أجل كور خراسان . افتتحها حاتم بن النعمان الباهلى وهو من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان ويقال ان الأحنف بن قيس حضر فتحها وذلك فى سنة احدى وثلاثين (البلدان ص ٤٦) .

● **ومنهم** ملك أهل الحضرة وسلطان ولاية الوصلة : **«أبو على الفضيل بن عياض»** (١) رضى الله عنه . كان من جملة صعاليك القوم وكبارهم ، وله فى المعاملات والحقائق حظ وافر ونصيب كامل ، وكان أحد مشاهير هذه الطريقة ، وممدوحا بكل الألسن بين الملل ، وأحواله عامرة بالصدق والاخلاص .

وكان فى بداية أمره عيارا يقطع الطريق بين مرو وباورد(٢) . وكان يميل كل الميل الى الصلاح ، وفى طبعه همة وفتوة ، بحيث اذا كان فى القافلة امرأة لم يكن يحوم حولها ، ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل ، وكان يترك لكل رجل شيئا بنسبة رأس ماله . الى أن جاء وقت خرج فيه تاجر من مرو فقالوا له : خذ معك حارسا لأن الفضيل على الطريق . قال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة ، فلا خوف . وصحب معه قارئا ، وأركبه جملا ليتلو القرآن ليلا ونهارا ، الى أن بلغت القافلة مكانا كان الفضيل رحمه الله يكمن فيه . واتفق أن قرأ القارىء قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله(١) » ، فبدت رقة فى قلبه رضى الله عنه ، وأظهرت العناية الأزلية سلطان ألطافها لروحه ، فتاب عن ذلك العمل ، وكتب رسائل الى خصومه سرتهم .

وذهب الى مكة وظل بها مدة ، وأدرك بعض أولياء الله تعالى . ورجع الى الكوفة واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصحبه مدة ، وحصل العلوم . وله روايات عالية ومقبولة بين أهل الحديث ، وكلام رفيع فى حقائق التصوف والمعرفة .

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « من عرف الله حق معرفته عبده بكل طاقته » . ذلك أن كل من يعرفه يعرفه بالانعام والاحسان والرأفة والرحمة، فاذا عرفه أحبه ، فاذا أحبه أطاعه قدر طاقته ، لأن اطاعة أوامر الأحبة لا تكون شاقة ، وكل من يكون أكثر محبة يزداد حرصه على الطاعة . وكثرة المحبة من حقيقة المعرفة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : نهض النبى عليه السلام ذات ليلة من الفراش ، فتصورت أنه ذهب الى

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى . خرسانى من ناحية مرو من قرية يقال لها « قندبن » . ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد . مات سنة سبع وثمانين ومائة.
ورد عنه أنه قال : لا ينبغى لحامل القرآن أن يكون له الى الخلق حاجة لا الى الخلفاء فمن دونهم ، ينبغى أن تكون حوائج الخلق كلهم اليه . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٦ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٧٤ ، نفحات الانس ص ٣٧) .

(٢) « باورد » بفتح الواو وسكون الراء : وهى أبيورد : بلد بخراسان بين سرخس ونسا (معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٥) .

(٣) سورة « الحديد » آية ١٦ .

حجرة أخرى فنهضت ، وكنت أسير على اثره حتى وجدته فى المسجد واقفا فى الصلاة ، وكان يبكى ، الى أن أذن بلال لصلاة الفجر وهو فى الصلاة ، فلما أدى صلاة الفجرورجعالى الحجرة رأيت كلا قدميه متورمتين وأطراف أصابعها متشققة ، وكان يسيل منها سائل أصفر ، فبكيت وقلت : يا رسول الله ! لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلماذا تشق على نفسك كثيرا ، دع هذا لشخص غير مأمون العاقبة ! قال : يا عائشة ! هذا كله من فضل الله ومنته ولطفهونعمته جل جلاله ، أفلا أكون عبدا شكورا(١) ؟

وقد قبل صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج خمسين صلاة ولم يستثقلها ورجع الى الله بكلام موسى ، وعاد بخمس صلوات ، وذلك لأنه لم يكن فى طبعه شيء مخالف للأمر قط ، لأن المحبة الموافقة .

ويروى عنه رضى الله عنه أنه قال : « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين ، وللمجانين فى دار المرضى الغل والقيد » . وغلنا هوى نفوسنا ، وقيدنا معصيتنا .

روى الفضل بن الربيع(٢) ، رحمه الله ، قال : ذهبت الى مكة مع هارون الرشيد(٣) ، فلما حججنا قال لى هارون : أهنا رجل من رجال الله فنزوره ؟

---

(١) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة ، والشيخان عن عائشة : « حتى تنفطر قدماه » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠١) .

(٢) أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس : حاجب الرشيد ، ووزير الأمين . سعى بالبرامكة وتمكن بالمجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليهم . وزر للرشيد بعد البراكمة ومات الرشيد والفضل مستمر على وزارته . كان فى صحبة الرشيد عند وفاته فقرر الأمور للأمين ، ولم يعرج على المأمون وهو بخراسان . خاف من المأمون ان انتهت الخلافة اليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ويجعلها لابنه موسى ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الى أن سير المأمون جيشا من خراسان مقدمه طاهر ابن الحسين ووزيره الفضل بن سهل ، وأخرج الأمين جيشا من بغداد باشارة وزيره الفضل بن الربيع مقدمه على بن عيسى بن ماهان ، فالتقى الجيشان وقتل على بن عيسى ، ولما اضطربت أحوال الأمين وقويت شوكة المأمون ، استتر الفضل ابن الرابيع ثم ظهر لما ادعى ابراهيم المهدى الخلافة ببغداد واتصل به ابن الربيع ، فلما اختل حال ابراهيم استتر ابن الربيع ثانيا ، ولم يزل بطالا الى أن مات . توفى سنة ثمان ومائتين . (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٥٩ وما بعدها، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٢) .

(٣) الخليفة العباسى هارون الرشيد بن محمد المهدى . تولى الخلافة يوم أن توفى أخوه موسى سنة ١٧٠ هـ . وكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة . ولما أفضت اليه الخلافة دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ! أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك، وقد قلدتك الأمر . ودفع خاتمه اليه . بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥هـ. وكان الغالب على الرشيد — صدرا من خلافته — يحيى بن خالد بن برمك وأبناه جعفر والفضل ، ثم بطش بهم فقتل جعفر سنة ١٨٧ هـ ومثل بجثته ، واعتقل أباه واخوته وصادر أملاكهم . ونكل بالعلويين . توفى سنة ١٩٣ هـ فى طوس فى قرية يقال لها « سناباد » (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص١٣٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها) .

فقلت : نعم ؟ هنا عبد الرزاق الصنعانى(١) . قال : خذنى اليه . فلما ذهبنا اليه وتحدثنا برهة ، أشار الى هارون أن أسأله أعليه دين ؟ فسألته ، فقال نعم ! فأمر فقضوا دينه . وخرجنا من هناك وقال — هارون — يا فضل ! ان قلبى ما يزال يتطلب رجلاأكبر من هذا . فقلت : هنا سفيان بن عيينة(٢) ، قال : امض لنذهب اليه . ولما دخلنا وتحدث معه برهة وأردنا العودة ، أشار الى ثانية ان أسأله ، فقال : نعم ، على دين ، فأمر فقضوا دينه . وخرجنا من هنالك فقال : يا فضل ! لم يحصل مقصودى بعد . فتذكرت أن الفضيل بن عياض رحمة الله عليه ورضى الله عنه موجود ، فصحبته اليه . وكان يقيم فى غرفة يتلو القرآن . وطرقنا الباب ، فقال : من ؟ قلت : أمير المؤمنين . فقال رضى الله عنه : « مالى ولأمير المؤمنين » . قلت : سبحان الله ، الم يرو عن النبى عليه السلام أنه قال : « ليس للعبد أن يذل نفسه فى طاعة الله ، فقال : بلى ، أما الرضا فعز دائم عند أهله » . وعندئذ نزل وفتح الباب ،وأطفأ المصباح ، ووقف فى ركن ، فكان هارون يبحث عنه حتى وقعت يده عليه ، فقال : آه من يد لم أر أنعم منها اذا نجت من عذاب الله . فغلب هارون البكاء وظل يبكى حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال له : عظنى ! قال : يا أمير المؤمنين ! قد كان أبوك عم المصطفى صلوات الله عليه فطلب اليه أن : اجعلنى أميرا على قوم ، « قال : ياعم ، بك نفسك » . يعنى : « لأن تكون لحظة فى طاعة الله ، خير من طاعة الخلق لك ألف عام ، « لأن الامارة يوم القيامة الندامة » .

قال هارون : زد فى عظتى ؟ قال : لما نصب عمر بن عبد العزيز(٣) للخلافة،

---

(١) « عبد الرازق الصنعانى » : ابو بكر عبد الرازق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى اليمنى : من رواة البخارى ، ولد سنة ١٢٠هـ — ٧٣٧ م ، وتوفى سنة ٢١١ هـ — ٨٢٦ م . من مؤلفاته : تزكية الارواح ، تفسير القرآن ، الجامع الكبير ، كتاب السنن فى الفقه ، كتاب المغازى . قال فيه مؤلف « قاموس الاعلام » : كان من مشاهير العلماء والمحدثين .. وكان الناس يقصدونه من كل فج عميق لغزارة علمه ، وكان يروى عنه المشاهير مثل سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل » .
ومما هو جدير بالذكر أن أبا بكر الصنعانى من الشيوخ الذين ألصق بهم البعض قصة « شيخ صنعان » التى وردت فى الرسالة الفارسية « تحفة الملوك » المنسوبة الى الامام الغزالى ، وفى المنظومة الرمزية « منطق الطير » للشاعر الصوفى الفارسى « فريد الدين العطار » . (أنظر : « بحث فى حقيقة شيخ صنعان » أحمد ناجى القيسى : بغداد ١٣٨٤ هـ — ١٦٥ م) .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبى عمران الهلالى . أحد أئمة الاسلام . قال الشافعى عنه : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز . مات سنة ثمان وتسعين ومائة . (« خلاصة تذهيب الكمال » ص ١٢٤) .

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . الخليفة الأموى الزاهد العابد العادل : استخلف فى صفر سنة تسع وتسعين ، وتوفى بدير سمعان من أعمال حمص فى رجب سنة احدى ومائة . وكانت خلافته ثلاثين شهرا . وقبره فى هذا الموضع لم يتعرض لنبشه كقبور غيره من بنى أمية . كان فى نهاية النسك والتواضع ، ترك لعن على عليه السلام على المنابر وجعل مكانه : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها) .

استدعى سالما بن عبد الله ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن كعب القرظى(١) . رحمهم الله وقال : لقد ابتليت بهذه البلية ، فما تدبيرى ؟ فانى أرى هذا بلاء مهما يظنه الناس نعمة . فقال واحد منهم : اذا أردت أن يكون لك الفوز والنجاة غداة القيامة فاعتبر شيوخ المسلمين كأبيك ، وشبابهم كأخوتك ، وأطفالهم كأبنائك ، وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك وأخاك وولدك فى دارك ، لأن جميع ديار الاسلام بيتك ، وأهلها عيالك : « فزر أباك ، وأكرم أخاك ، وأحسن الى والدك » .

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين ، انى أخشى على وجهك الجميل أن يبتلى بنار جهنم ، فاخش الله تعالى ، وأد حقه خيرا من هذا .

وقال له هارون بعد ذلك : أعليك دين ؟ قال : نعم ، دين الله على وهو طاعته ، فاذا قضيته نجيتنى من الويل . فقال : يا فضل ، اتكلم عن دينك للخلق . فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله ، اذ لدى منه نعم كثيرة ، وليس لى منه أى شكوى حتى أشكوه الى عباده . وعندئذ وضع هارون أمامه صرة ذهب بها ألف دينار وقال له : اصرف هذا فى وجه من الوجوه . فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين ! ان عظاتى هذه لم تفدك قط ، ومن هنا أخذت فى الجور وبدأت الظلم . قال : أى ظلم فعلت ؟ قال الفضيل : أنا أدعوك الى النجاة وأنت توقعنى فى الهلاك ، أفلا يكون هذا ظلما ؟ فبكى هارون ، وخرج من عنده وقال : يا فضل بن الربيع ! ان الملك حقا هو الفضيل .

وهذا كله دليل صولته فى الدنيا وأهلها ، وحقارة زينتها فى قلبه ، وتركه التواضع لأهل الدنيا من أجل الدنيا .

وله مناقب أكثر من أن يستوعبها الفهم .

● **ومنهم** سفينة التحقيق والكرامة ، وخزانة الشرف فى الولاية : **« أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى(٢) »** رضى الله عنه ، كان صبيا نوبيا اسمه « ثوبان » ، وكان من أخيار القوم وكبار هذه الطريقة وعياريها ، سلك طريق البلاء ، وسار فى طريق الملامة .

وكان أهل مصر جميعا متحيرين فى شأنه ، ومنكرين عليه فى حياته . ولم يعرف أحد من أهل مصر جمال حاله الى وقت وفاته . وفى تلك الليلة التى

---

(١) سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ومحمد بن كعب القرظى : من الفقهاء فى أيام عمر بن عبد العزيز . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٥١) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

فارق فيها الدنيا ، رأى سبعون رجلا النبى عليه السلام فى النوم يقول : ان حبيب الله ذا النون يزمع المجىء وقد جئت لاستقباله . وحين مات ظهر مكتوبا على جبينه : « هـذا حبيب الله ، مات فى حب الله ، قتيل الله » . فلما حملوا جنازته ، تجمعت طيور السماء وظللت جنازته ، فتحير أهل مصر جميعا ، وتابوا عما كانوا قد ارتكبوه معه من جفاء .

وله طرف كثيرة وكلمات طيبة فى حقائق العلوم ، كقوله : « العارف كل يوم أخشع ، لأنه فى كل ساعة أقرب(١) » .

ومن يكن الأقرب تكن حيرته أكثر لا محالة ، وخشوعة أوفر ، لأنه صار عليما بهيبة الحق وسلطانه ، فقد استولى جلال الحق على قلبه فلا يرى نفسه بعيدا عنه وعن وصله ، فيزداد خشوعا على خشوع ، كما قال موسى فى حال مكالمته : « يا رب ! أين أطلبك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم » ، واليائسين من صلاحهم . قال : يا الهى تعاليت ، لا قلب أكثر يأسا وانكسارا من قلبى !! فقال : فأنا حيث أنت .

فمدعى المعرفة بلا وجل وخشوع جاهل لا عارف . وحقيقة المعرفة علامة على صدق الارادة ، والارادة الصادقة صارمة للأسباب ، وقاطعة للعبد عما سوى الله عز وجل ، كقول ذى النون رضى الله عنه : « الصدق سيف الله فى أرضه ، ما وضع على شىء الا قطعه(٢) » ، والصدق رؤية المسبب لا اثبات السبب ، فاذا ثبت السبب انتفى حكم الصدق وسقط .

وقرأت فى الحكايات أن (ذا النون) كان ذات يوم راكبا سفينة مع أصحابه للنزهة فى النيل ، كعادة أهل مصر ، وكانت سفينة أخرى قادمة وبها جماعة من أهل الطرب يعبثون ، فكبر ذلك على تلاميذه ، فقالوا : أيها الشيخ ! ادع ليغرق الله هؤلاء جميعا ، وينقطع عن الخلق شؤمهم . فنهض ذو النون رحمه الله ورفع يديه وقال : يا الهى جل جلالك ! كما حبوت هؤلاء فى الدنيا عيشا طيبا ، امنحهم فى الآخرة أيضا طيب العيش ! فتعجب المريدون من قوله . ولما اقتربت السفينة ووقعت أعين ركابها على ذى النون ، بكوا ، وحطموا أعوادهم ، وتابوا وأنابوا الى الله . فقال رحمه الله لتلاميذه : ان طيب عيش الآخرة توبة الدنيا ، أما رأيتم أن المراد كله قد حصل ؟ وبلغتم أنتم واياهم مرادكما دون أن يصيب أحدا أذى ؟

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٦) .
(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٣) .

وكان ذلك من غاية شفقة الشيخ على المسلمين . وقد اقتدى فى هذا بالنبى عليه السلام ، اذ كان كلما زاد الكفار من جفائهم لا يغضب ، وكان يقول : « اللهم أهد قومى فانهم لا يعلمون » .

ويرد عنه أنه قال :كنت قادما من بيت المقدس(١) قاصدا مصر ، فرأيت فى الطريق شيخا مهيبا من بعيد ، فخطر بقلبى أن أسأله سؤالا . فلما اقترب منى ، رأيته عجوزا بيدها عكاز ، وعليها جبة من صوف . فقلت : من أين ؟ قالت : من الله ! قلت : الى أين ؟ قالت : الى الله ! وكان معى دينار فأخرجته لأعطيه لها ، فلوحت بيدها فى وجهى وقالت : ياذا النون ! ان الصورة التى تصورتها عنى من ركاكة عقلك . اننى أعمل لله ، ولا آخذ شيئا من سواه ! وكما أنى لا أعبد غيره ، فانى لا آخذ (شيئا) من غيره .

وفى هذه الحكاية رمز لطيف ، اذ قالت العجوز : أنا أعمل لله ، فهذا دليل صدق المحبة ، لأن الخلق فى المعاملة نوعان :

فريق يعملون ويخالون أنهم يعملون من أجل الله ، وهم فى الحقيقة يعملون من أجل أنفسهم ، ومهما يكن أربهم منقطعا دنيويا ، فانهم — على كل حال — يرجون ثواب الآخرة .

والفريق الاخر ، انقطعت عن معاملاتهم ارادة الثواب (وخشية) العقاب فى الآخرة ، والرياء والسمعة فى الدنيا . وكل ما يعملونه انما يعملونه من أجل تعظيم أمر الحق جل جلاله . ومحبة الحق تعالى تقتضيهم ترك نصيبهم ، فى طاعته . ويخيل لهؤلاء — وهم لا يدرون — أن كل ما يعملونه من أجل الآخرة هو أيضا لهم ، ولا يعرفون أن نصيب المطيع فى الطاعة أكثر من راحة العاصى فى المعصية ، لأن راحة العاصى فى المعصية ساعة ، وراحة المطيع فى الطاعة دائمة .

وأى فائدة لله تعالى وتقدس من مجاهدة الخلق ، وأى ضير عليه فى تركها ؟ ولو عمل كل الخلق بصدق أبى بكر ، فمرد ذلك اليهم . وان عملوا

---

(١) « بيت المقدس » أو « القدس » : مدينة على فضاء وسط الجبال ، والمسجد الأقصى فى طرفها الشرقى نحو القبلة . يقدسها المسلمون والنصارى واليهود ، فاليها كان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالقرب منها ولد المسيح ، وفيها مبكى اليهود . فتحت صلحا فى عهد عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩٠ — ٦٠٢) وقيل فتحت سنة خمس عشرة أو ستة عشرة . ولما دخل عمر ببيت المقدس كشف عن الصحراء وأمر ببناء مسجد عليها (الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ٤٠ — ٤٢) .

بكذب فرعون ، فضير ذلك عليهم ، لقوله تعالى : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم(١) » : وقوله تعالى : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه(٢) » .

والخلق انما يطلبون لأنفسهم الملك الأبدى ، ويقولون اننا نعمل من أجل الله . أما سلوك طريق محبتــــه فشىء آخر ، انهم (الأحبة) يرعون فى اطاعتهم للأمر حصول أمر الحبيب ولا يتطلعون لشىء آخر . وسوف يرد فى هذا الكتاب أمثال هذا القول فى باب الاخلاص ، ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** أمير الأمراء ، وسالك طريق اللقاء :

« أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور(٣) » رضى الله عنه . كان أوحد زمانه ، وسيد أقرانه فى عصره ، وملك ملوك الرجال . وكان مريد « الخضر » عليه السلام ، أدرك كثيرا من قدماء الشيوخ ، واختلط بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وتعلم منه العلم .

وكان فى بداية أمره . أمير بلخ(٤) ، فلمـــا أراد الحق تعالى أن يكون سلطان عالم ، خرج يوما للصيد ، وانفصل عن عسكره ، وركض خلف غزال ، فأنطقه الله عز وجل له ، فقال بلسان عربى فصيح : « ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ » . وكان هذا القول دليلا له ، فتاب(٥) وكف يده تماما عن ممالك الدنيا ، وسلك طريق الزهد والورع ، وأدرك الفضيل بن عياض وسفيان الثورى وصحبهما .

---

(١) سورة « الاسراء » آية ٧ .

(٢) سورة « العنكبوت » آية ٦ .

(٣) سبق الاشارة اليه

(٤) « بلخ » مدينة مشهورة بخراسان ، على الشاطىء الجنوبى لنهر جيحون على رافده دهلس . منها الى فرغانه ثلاثون مرحلة مشرقا ، والى الرى ثلاثون مرحلة مغربا ، والى سجستان ثلاثون مرحلة مما يلى القبلة ، والى كابل وقندهار ثلاثون مرحلة (أنظر : « البلدان » ص ٥٣) افتتح بلخ الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر فى زمن عثمان (معجم البلدان ج ١ ص ٧١٣) .

(٥) ورد فى طبقات الصوفية أن أبا عبد الله السنجارى قال له : يا أبا اسحاق ! خبرنى عن بدء أمرك كيف كان ؟ قال : كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شابا فركبت الى الصيد ، فخرجت يوما على دابة لى ومعى كلب ، فأثرت أرنبا أو ثعلبا ، فبينا أنا اطلبه اذ هتف بى هاتف لا أراه فقال : يا ابراهيم ، ألهذا خلقت أم بهذا أمرت . ففزعت ووقفت . ثم عدت فركضت ثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات . ثم هتف بى هاتف من قربوس السرج : والله ما لهــذا خلقت ولا بهــذا أمرت . قال : فصادفت راعيا لأبى يرعى الغنم فأخذت جبته الصوف فلبستها ، ودفعت اليه الفرس وما كان معى ، وتوجهت الى مكة . فبينا أنا فى البادية اذا برجل يسير . ليس معه اناء ولا زاد . فلما أمسى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، فاذا أنا باناء فيه طعام واناء فيه شراب ، فأكلت وشربت . وكنت معه على هذا أياما . وعلمنى اسم الله الأعظم ثم غاب عنى وبقيت وحدى . فبينا أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ، دعوت الله به فاذا أنا بشخص آخذ بحجزتى وقال : سل تعط . فراعنى قوله ، فقال : لاروع عليك ولا بأس عليك . أنا أخوك الخضر (أنظر : طبقات الصوفية ص ٢٩) .

ولم يأكل طيلة عمره الا من كسب يده . وله معاملات ظاهرة وكرامات مشهورة ، وفى حقائق التصوف كلمات بديعة ولطائف نفيسة . قال عنه الجنيد رحمة الله : « مفاتيح العلوم ابراهيم » .

ويروى عنه أنه قال : « اتخذ الله صاحبا وذر الناس جانبا(١) » .

والمراد من هذا القول أنه حين يصح اقبال العبد على الحق تعالى ، ويخلص فى توليه ، فان صحة اقباله على الحق تقتضى الاعراض عن الخلق ، لأنه لاشأن قط لصحبة الخلق مع حديث الحق . وصحبة الحق هى الاخلاص فى انفاذ أمره ، والاخلاص فى طاعته من خلوص محبته ، وخلوص محبة الحق يتأتى من معاداة النفس والهوى ، لأن كل من يعرف الهوى ينفصل عن الله عز وجل ، وكل من ينقطع عن الهوى يسكن الى الله . فأنت فى الحق ، كل الخلق ، فاذا أعرضت عن نفسك فقد أعرضت عن الجميع . ومن يعرض عن الخلق ويقبل على نفسه فانه يكون كما لو أن الخلق جميعا على صواب فيما هم فيه بحكم التقدير ، وقد صار لك معك شأن .

وبناء استقامة الظاهر والباطن للطالب فى شيئين : أحدهما ، ما ينبغى معرفته ، والآخر : ما ينبغى عمله .

وما ينبغى معرفته : هو رؤية تقدير الحق من خير أو شر ، لأنه فى كل الملك لا يسكن أى متحرك ولا يتحرك أى ساكن الا بالحركة التى يخلقها الله تعالى فيه ، والسكون الذى يضعه الله تعالى فيه .

وما ينبغى عمله : هو انفاذ الأمر ، وصحة المعاملة وحفظ التكليف ، فلا يصير تقديره بأى حال حجة لترك أمره .

والاعراض عن الخلق لا يستقيم مالم تعرض عن نفسك ، واذا أعرضت عن نفسك فانه يلزم كل الخلق لحصول مراد الحق ، واذا أقبلت على الحق تعالى فأنت تلزم لاقامة أمره . اذن ، فلا وجه للركون الى الخلق .

وان أردت أن تركن الى شىء بدون الحق ، فاركن الى الغير(٢) ، لأن الركون الى الغير رؤية للتوحيد ، والركون الى النفس اثبات للتعطيل ،

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٧) .
(٢) أى : الى غير نفسك .

ولهذا السبب كان شيخ الشيوخ أبو الحسن بن سالبة(١) رحمه الله يقول : لأن يكون المريد فى حكم هرة خير من أن يكون فى حكم نفسه ، لأن صحبة الغير تكون من أجل الله ، وصحبة النفس تكون من أجل تربية الهوى .

وسيأتى الكلام فى هذا المعنى فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وقرأت فى الحكايات أن ابراهيم بن أدهم قال : لما وصلت البادية ، أقبل شيخ وقال لى : يا ابراهيم ! أتعرف أى مكان هذا حتى تسير بغير زاد ولا راحلة ؟ .

قال : فعرفت انه الشيطان . وكان معى أربعة دوانق ، كنت قد بعت بها زنبيلا فى الكوفة ، فأخرجتها من جيبى وقذفت بها ، ونذرت أن أصلى بكل ميل أربعمائة ركعة . وبقيت فى البادية أربعة أعوام ، وكان الحق تعالى يبعث الى بالرزق عند الحاجة ، دون عناء . واتفق لى فى ذلك الوقت صحبة الخضر عليه السلام ، وعلمنى اسم الله الأعظم ، وعندئذ فرغ قلبى كلية من الغير .

وله مناقب كثيرة ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم** سرير المعرفة ، وتاج أهل المعاملة : ((**بشر بن الحارث الحافى(٢)**)) رضى الله عنه ، كان ذا شأن كبير فى المجاهدة ، وحظ واف فى المعاملة ، أدرك صحبة الفضيل بن عياض ، وكان مريدا لخاله على بن خشرم(٣) ، وعالما بعلم الأصول والفروع .

وكانت بداية حاله أنه كان يسير ذات يوم ثملا فى الطريق فوجد قطعة ورق فتناولها بتعظيم ، ورأى مكتوبا عليها : ((بسم الله الرحمن الرحيم(٤))) ، فعطرها ووضعها فى مكان طاهر . ورأى الله تعالى فى تلك الليلة فى النوم يقول له : يا بشر ! طيبت اسمى ، فبعزتى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة ، فلا يسمع أحد باسمك الا وتسرى فى روحه راحة . وعندئذ تاب وسلك طريق الزهد .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) عبد الرحمن بن على بن خشرم بن هلال بن ماهان بن عبد الله . وكان عبد الله يسمى « يعفور » فأسلم على يد على بن أبى طالب فسماه عبد الله . وبشر ابن الحارث وعبد الرحمن فى القرابة متساويان ، وكان الحارث وخشرم أخوين من أب وأم . (أنظر : طبقات الصوفية ص ٣٩ حاشية ١) . وورد فى الرسالة أنه ابن أخت على بن خشرم (أنظر : الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٦٨) .

(٤) سورة « الفاتحة » آية ١ .

ولم يكن — من شدة الغلبة فى مشاهدة الحق — ينتعل شيئا قط ، فسئل عن علة ذلك فقال : الأرض بساطة ، وأنا لا أجيز أن أدوس بساطه وبين قدمى والأرض واسطة . وهذا من غرائب معاملاته ، اذ غدا النعل حجابا له فى جميع همته بالحق ! .

ويرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون عزيزا فى الدنيا ، شريفا فى الآخرة ، فليجتنب ثلاثا : لا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر أحدا بسوء ، ولا يجيب أحدا الى طعامه » .

أما كل من يعرف الطريق الى الله تعالى فلا يطلب من الخلق حاجة ، اذ أن الحاجة الى الخلق دليل عدم المعرفة ؛ لأنه لو كان عارفا بقاضى الحاجات لما طلب حاجة من (مخلوق) مثله : « استعانة المخلوك بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون »(١) .

وأما كل من يسىء القول الى أحد ، فهذا تصرف فى حكم الله تعالى ، لأن ذلك الشخص وفعله من خلق الله عز وجل ، فعلى من ترده ؟ ومن يعب الفعل يكن قد عاب الفاعل ، (وذلك) بخلاف ما أمر به (الله) من ذم الكفار موافقة له .

وأما قوله : تعففوا عن طعام الخلق ، فذلك لأن الرازق هو الله جل جلاله ، فاذا جعل مخلوقا سبب رزقك ، فلا تنظره ، وأعلم أن ذلك رزقك الذى أوصله الله تعالى اليك ، وليس ملكا له . واذا خال أنه له ، وامتن به عليك ، فلا تجبه ، اذ ليس لأحد على أحد منة فى الرزق ؛ لأن الرزق عند أهل السنةوالجماعة غذاء ، وعند المعتزلة ملك ، والله هو الذى يمد الخلق بالأغذية لا المخلوق . ولمجاز هذا القول معنى آخر ، والله أعلم .

● **ومنهم** فلك المعرفة ، وملك المحبة :

« أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى(٢) » رضى الله عنه ، كان من جلة المشايخ وأكبرهم حالا وأعظمهم شأنا ، الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة » .

---

(١) ورد فى الأصل : استعانة المخلوق الى المخلوق كاستعانة المسحون الى المسجون . ورد فى طبقات الصوفية كما أثبته وهو الأصح . (أنظر طبقات الصوفية ص ١٢٦) . سبق الاشارة اليه

(٢) سبق الاشارة اليه .

وكان جده مجوسيا ، وأبوه أحد عظماء بسطام(١) ، وله فى أحاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

كان أحد الأئمة العشرة المعروفين ، ولم يكن لأحد قبله فى حقائق هذا العلم كل تلك الاستنباطات التى له . وكان فى كل الأحوال محبا للعلم ومعظما للشريعة برغم ما يقال من أن فريقا يرمونه بالالحاد .

وكان وقته فى البداية مبينا على المجاهدة وممارسة المعاملة . ويرد عنه انه قال : « عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا اشـــد على من العلم ومتابعته . ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا فى تجريد التوحيد(٢) » .

والحقيقة أن الطبع أميل الى الجهل منه الى العلم ، ويمكن عمل الكثير بالجهل دون مشقة ، ولا يمكن الخطوة واحدة بالعلم دون عناء ، وصراط الشريعة أدق وأخطر كثيرا من صراط الآخرة . فيجب عليك أن تكون فى كل الأحوال بحيث اذا تخلفت عن الأحوال الرفيعة والمقامات الخطيرة وسقطت ، أن تسقط فى ميدان الشريعة . واذا زايلك كل شىء يجب أن تبقى معك المعاملة ، لأن أعظم الآفات للمريد ترك المعاملة . وكل دعاوى المدعين تتلاشى فى ممارسة الشريعة ، ويتعرى أمامها كل أرباب اللسان .

ويرد عنه رحمه الله أنه قال : « الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة ، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم(٣) » .

اى أن الجنة ، وان تكن كبيرة ، مخلوقة . ومحبته : صفته ، وليست مخلوقة ، وكل ما يبقى للمخلوق مما هو مخلوق ، لاخطر له . والأحباب محجوبون بالمحبة ، ذلك أن وجود المحبة يقتضى الثنائية ، والثنائية لا تتأتى فى أصل التوحيد ، وطريق الأحباب من وحدانية الى وحدانية .

وفى طريق المحبة تتأتى علة المحبة ، وآفة ذلك أنه يلزم فى المحبة مريد ومراد ، فأما أن يكون المريد الحق والعبد المراد ، وأما أن يكون المراد الحق والعبد المريد . فاذا كان المريد الحق والمراد العبد ، فان وجود العبد

---

(١) « بسطام » بكسر الياء ثم الســكون : بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق الى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين . فتحت مع الرى وقومس على يد نعيم بن مقرن فى عهد عمــر بن الخطاب سنة تســع عشرة أو ثمانى عشرة (معجم البلدان ج ١ ص ٦٢٣) .

(٢،٣) وردا بنصهما فى طبقات الصوفية . (أنظر ص ٧٠) .

يثبت فى مراد الحق . واذا كان المريد العبد والمراد الحق فلا سبيل لطلب وارادة المخلوق اليه . ويبقى هنا فى كلا الحالين ، آفة وجود المحب .

اذن ففناء المحب فى بقاء المحبة أصح وأتم من قيامه ببقاء المحبة .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : صرت مرة الى مكة ، فرأيت البيت مفردا ، فقلت : حجى غير مقبول ، لأنى رأيت أحجارا كثيرة من هذا الجنس . وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد بعد . وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ، ولا بيت . فنوديت فى سرى أن : يا أبا يزيد ! اذا لم تر نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركا . واذا لم تر العالم كله ورأيت نفسك كنت مشركا . وعندئذ تبت ، وتبت أيضا عن رؤية وجودى .

وهذه حكاية لطيفة فى صحة حاله ، وعلامة طيبة لأرباب الأحوال ، والله أعلم .

● **ومنهم** أمام الفنون وجاسوس الظنون :

« **أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى**(١) » **رضى** الله عنه . كان عالما بالأصول والفروع ، وكان جميع أهل العلم فى زمانه يتولونه ويقتدون به . وقد عمل كتابا فى أصول التصوف اسمه « الرعاية(٢) » . وله تصانيف أخرى كثيرة غيره .

وكان فى كل فن عالى الحال عظيم الهمة ، وكان شيخ مشايخ بغداد فى وقته .

يروى عنه أنه قال : « العلم بحركات القلوب فى مطالعة الغيوب ، أشرف من العمل بحركات الجوارح » .

والمراد بهذا أن العلم محل الكمال ، والجهل محل الطلب . والعلم فى الرواق أفضل من الجهل فى البلاط ، لأن العلم يبلغ بالرجل درجة الكمال ، والجهل لا يتخطى به الأعتاب .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) ذكره السلمى باسم : « الرعاية لحقوق الله » (أنظر طبقات الصوفية ص٥٦). وذكر باسم : « الرعاية فى التصوف » فى كشف الظنون ج ١ عامود ٩٠٨ ، هدية العارفين ج ١ عامود ٢٦٤ . وقد نشر كتاب الرعاية لحقوق الله فى سلسلة جب التذكارية سنة ١٩٤٠ .

ومما هو جديربالذكر أن هناك كتابا باسم : «الرعاية بحقوق الله» أشار اليه الهجويرى ونسبه الى محمد بن خضرويه (أنظر : كشف المحجوب ص ٤٣٩ .

والعلم ــ فى الحقيقة ــ أعظم من العمل ، لأنه يمكن معرفة الله تعالى بالعلم ، ولا يمكن ادراكه بالعمل . ولو كان للعمل بغير العلم طريق اليه ، لكان النصارى والرهبان فى شدة اجتهاهم : فى المشـــاهدة ، ولكان عصاة المسلمين : فى المغايبـــة .

اذن ، فالعمل صفة العبد ، والعلم صفة الله تعالى .

وقد أخطأ بعض رواة هذا القول ، وهم يروون كلا ــ الكلمتين (أى العلم والعمل) : « العمل » ويقولون ــ ان المحاسبى يقول ــ « العمل بحركات القلوب أشرف من العمل بحركات الجوارح(١) » وهذا محال ، لأن عمل العبد لا يتعلق بحركات القلب . واذا كانوا يريدون بهذا ، فكرة ومراقبة أحوال الباطن ، فهذا ذاته ليس غريبا ، لأن الرسول عليه السلام قال : « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

وفى الحقيقة : أعمال السر أفضل من أعمال الجوارح ، وتأثير أعمال الباطن أتم من تأثير أعمال الظاهر ، ولذلك قيل : « نوم العالم عبادة ، وسهر الجاهل معصية » لأن سر (العالم) مغلوب فى النوم واليقظة ، وعندما يغلب السر ، يغلب الجسد أيضا ، فالسر المغلوب بغلبة الحق أفضل من النفس الغالبة بحركات الظاهر والمجاهدة .

ويرد عنه رحمة الله أنه قال يوما لدرويش : « كن لله والا فلا تكن » يعنى : أبق بالحق ، أو افن عن وجودك .

أى : كن مجتمعا بالصفوة أو مفترقا بالفقر ، وابق بالحق أو افن عن نفسك . أو : كن على تلك الصفة حيث يقول الحق تعالى: « اسجدوا لآدم(٢) » ، أو على تلك الصفة حيث يقول : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا(٣) » ، فاذا كنت لنفســـك باختيارك فقيامك بنفسك ، وان لم تكن باختيارك فقيامك بالحق . وهذا المعنى لطيف والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم** الامام المعرض عن الخلق وطلب الرياسة ، والمنقطع عن الخلق بالعزلة والقناعة : « **أبو سليمان داود بن نصير الطائى**(٤) » رضى الله

---

(١) ورد على هذا النحو فى طبقات الصوفية : أنظر ص ٥٩ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٣٤ ، سورة « الأعراف » آية ١١ ، ســورة « الكهف » آية ٥٠ ، سورة « طه » آية ١١٦ .
(٣) سورة « الانسان » آية ١ .
(٤) سبق الاشارة اليه .

عنه . كان من كبار المشايخ وسادات أهل التصوف ، منقطع النظير فى زمانه . وتلميذ الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، ومن أقران الفضيل وابراهيم بن أدهم وغيرهما ، ومريد حبيب الراعى رضى الله عنه .

وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر ، وفى درجة عليا . وفى الفقه فقيه الفقهاء . اختار العزلة ، وأعرض عن طريق الرياسة والدنيا ، وسلك طريق الزهد والتقوى ، وله مناقب كثيرة ، وفضائل مذكورة ، فقد كان عالما فى المعاملات ، وكاملا فى الحقائق .

يرد عنه أنه قال لمريد من مريديه : « ان أردت السلامة سلم على الدنيا ، وان أردت الكرامة كبر على الآخرة » .

أى أن هذين المحلين حجاب ، وكل الفراغ منوط بهما ، فكل من يريد أن يفرغ بالجسد ، قل له : أعرض عن الدنيا ، وكل من يريد أن يفرغ بالقلب قل له : انزع من قلبك ارادة العقبى .

ومشهور فى الحكايات أنه كان يخالط محمد بن الحسن ، ويقصى عنه أبا يوسف ، فقيل له : كلاهما عظيم فى العلم ، فلماذا تعز أحدهما وتقصى عنك الآخر ؟ قال : لأن محمد بن الحسن أقبل على العلم وهو صاحب دنيا ونعم كثيرة ، وصير العلم سبب عز دينه وذل دنياه ، وأبا يوسف أقبل على العلم من الذل والفقر ، وصير العلم سبب جاهه وجماله وعزه ، فمحمد ليس مثله .

ويروى عن معروف الكرخى رحمه الله أنه قال : لم أر أحدا كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى ، فلم تكن الدنيا وأهلها جميعا لديه بمقدار جناح بعوضة ، وكان ينظر الى الفقراء بعين الاحترام وان كانوا ملأى بالآفات . وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

● **ومنهم** شيخ أهل الحقائق ، والمنقطع عن جملة العلائق :
« **أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى**(1) » رحمه الله . كان خال الجنيد ، وعالما بجملة العلوم ، وذا شأن عظيم فى التصوف .

---

(1) قال عنه السلمى : انه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان امام البغداديين وشيخهم فى وقته . مات سنة احدى وخمسين ومائتين . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٨ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٤ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٩ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٧٤ ، نفحات الانس ص ٥٣) .

وكان رحمه الله أول من خاض فى ترتيب المقامات وبسط الأحوال ، وأكثر مشـــايخ العراق(١) من مريديه . رأى حبيبا الراعى وصحبه ، وكان مريد معروف الكرخى .

كان يتجر فى سوق بغداد ، وعندما احترق السوق قالوا له : احترق دكانك . فقال : فرغت من قيده . ولما نظروا ، لم يكن دكانه قد احترق واحترقت كل الدكاكين من جهاته الأربع ! فلما رأى ذلك ، وهب الفقراء كل ما يملك ، واختار طريق التصوف .

سئل : كيف كانت بداية حالك ؟ قال : مر حبيب الراعى بدكانى ذات يوم ، فأعطيته كسرة قائلا : أعطها للفقراء ؟ فقال لى : خيرك الله ! ومنذ ذلك اليوم الذى سمعت فيه دعاءه هذا ، زايلنى الفلاح الدنيوى .

ويرد عنـــه أنـــه قال : « اللهم مهمـــا عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب(٢) » ، لأنه حين لا أكون محجـــوبا عنك ، يســـهل على بذكرك ومشاهدتك العذاب والبلاء ، ومتى أكون محجوبا عنك يصبح نعيمك الأبدى هلاكا لى ، بذل حجابك .

ذلك أن البلاء الذى يكون فى مشاهدة المبلى لا يكون بلاء بل يكون نعمة ، والنعمة فى حجاب المبلى هى البلاء الحقيقى ، لأنه لا يوجد فى الجحيم بلاء أشد من الحجاب ، ولو كان أهل الجحيم فى الجحيم مكاشـــفين لله تعالى ، لما خطرت الجنة لعصاة المؤمنين ، لأن رؤية الحق عز اسمه تمنح الروح من المسرات ما ينسيها عذاب الجسد ، ويشغلها عن بلاء البدن . ولا يوجد فى الجنة نعمة أتم من الكشف ، لأنه لو كانت كل تلك النعم ومئات من أمثالها حاصلة لهم(٣) وهم محجوبون عن الله لتصاعد الهلاك من قلوبهم وأرواحهم .

اذن ، فسنة الله تعالى أنه يجعل قلوب أحبائه بصيرة به فى جميع الأحوال حتى تستطيع تحمل جميع المشقات والرياضات والبلايا بشرابه ، ويكون دعاؤهم : أن كل ألوان العذاب أحب الينا من حجابك ، لأنه حين ينكشف جمالك لقلوبنا ، لا نبالى بألوان العذاب . والله أعلم .

---

(١) « العراق » : العراق المشهور : بلاد ، والعراقان : الكوفة والبصرة . قال قطرب انما سمى العراق عراقا لانه دنا من البحر . وقال الخليل : العراق شاطىء البحر وسمى العراق عراقا لأنه على شاطىء دجلة والفرات (معجم البلدان جـ٣ ص ٤٢٨).
(٢) ورد فى طبقات الصوفية : اللهم ما عذبتنى بشىء (أنظر ص ٥١) .
(٣) أى لأهل الجنة .

● **ومنهم** قائد اهل البلوى ، واساس الزهد والتقوى :

«**أبو على شقيق بن ابراهيم الازدى**[1]» رضى الله عنه . كان عزيز القوم ومقتداهم ، وعالما بجميع علوم الشرع والمعاملات والحقائق ، وله مؤلفات كثيرة فى فنون العلم . صحب ابراهيم بن أدهم ، ورأى كثيرا من المشايخ وأدرك صحبتهم .

يرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم وأهل المعاصى أمواتا فى حياتهم[2] » .

أى أن المطيع يكون حيا وان يكن ميتا ، لأن الملائكة تثنى على طاعته الى يوم القيامة ، وثوابه مؤبد ، فهو باق فى فناء الموت ببقاء الله .

ويرد عنه أن شيخا جاءه وقال : يا شيخ ! ذنوبى كثيرة وأريد أن أتوب ؟ فقال له : تأخرت ! قال : كلا ، بل بكرت ! فقال له كيف ؟ قال : كل من يأتى — للتوبة — قبل الموت وان يكن جاء متأخرا فهو مبكر .

ويقال : كانت بداية حاله أنه كان قد حدث فى سنة من السنين قحط فى بلخ ، وكان الناس يأكلون بعضهم ، وكان المسلمون مهمومين ، فرأوا غلاما كان يضحك ويمرح فى السوق ، فقال له الناس : لم تضحك ؟ الا تخجل من أن كل الناس فى حزن وأنت تمرح الى هذا الحد ؟ فقال : لا هم لى قط ، فأنا عبد لسيد يملك قرية ، وقد أخلى قلبى من شغلى . فقال شقيق رضى الله عنه : يا الهى تعاليت ! ان هذا الغلام فرح كل هذا الفرح بسيد يملك قرية ، وأنت مالك الملك ، وقد تكفلت بأرزاقنا ، وقد وكلنا بقلوبنا كل هذاالحزن !! وانصرف عن شغل الدنيا ، وسلك طريق الحق ، ولم يهتم برزقه قط . وكان لشدة تواضعه يقول دائما : أنا تلميذ غلام ، وما أدركته أدركته به .

وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

---

(۱) كنيته « أبو على » أو « أبو موسى » . من مشاهير مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . له لسان فى التوكل ، وقيل انه أول من تكلم فى علم الأحوال بكورة خراسان .

يقول الجامى انه توفى سنة اربع وسبعين ومائة فى « الختل » وقبره بها . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٦١ ، الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٧٧ ، طبقات الشعرانى جـ ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء جـ ١ ص ١٩٦ ، نفحات الانس ص ٤٩ ، خزينة الأصفياء جـ ٢ ص ١٣٣) .

(۲) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٦٦) .

● **ومنهم** شيخ وقته ، والمجرد لطريق الحق :

« **أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى**(۱) » رضى الله عنه ، كان عزيز القوم ، وريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة ، وكان عالما بعلم الوقت ، ومعرفة آفات النفس وبصيرا بكمائنها ، وله كلام لطيف فى المعاملات وحفظ القلوب ورعاية الجوارح .

ويرد عنه أنه قال : « اذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت(۲) » ، لأن الوقت رعاية الحال ، ومادام العبد يرعى الحال لا يستولى الخوف على قلبه ، فاذا زال ذلك ، يصير تارك الرعاية ويفسد وقته ، واذا غلب الخوف على الرجاء يبطل توحيده ، لأن غلبة الخوف من اليأس ، واليأس من الحق شرك . فحفظ التوحيد فى صحة رجاء العبد ، وحفظ الوقت فى صحة خوفه ، واذا تساويا : يحفظ التوحيد والوقت ، ويكون العبد مؤمنا بحفظ التوحيد ، ومطيعا بحفظ الوقت .

وتعلق الرجاء ينصرف الى المشاهدة التى يكون فيها الاعتقاد جملة ، وتعلق الخوف ينصرف الى المجاهدة التى يكون فيها الاضطراب جملة ، والمشاهدات مواريث المجاهدات .

ومعنى هذا أن كل الآمال تتولد من اليأس : وكل من يقنط من فلاحه بعمله ، يقوده قنوطه الى النجاح والفلاح يكرم الحق تعالى وتقدس ، ويفتح عليه باب الانبساط ، وينجو قلبه من آفات الطبع ، وتنكشف له جميع الأسرار الربانية ، كما يقول أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله : كنت أؤدى الصلاة فى الخلوة ذات ليلة ، وشعرت بكثير من الراحة فى تلك الأثناء ، وفى اليوم التالى حدثت أبا سليمان بذلك ، فقال : أنت رجل ضعيف لأن الخلق لا يزالون أمامك ، فأنت فى الخلاء على حال وفى الملأ على حال آخر . وليس فى الدنيا والآخرة شىء قط له من الخطر ما يمنع العبد عن الحق ، وحين يجلون العروس على الملأ ، فانهم يفعلون ذلك ليراها الخلق ، ويكون لها مزيد من العز بمشاهدة الخلق . ولكن ينبغى أن لا ترى نفسها بغير ذلك القصد ، حتى لا يكون لها من مشاهدة الخلق مذلة . فلو رأى الخلق عز طاعة المطيع فلا ضير عليه ، وانما الضرر يكون فى رؤيته لطاعته ، فان فى ذلك هلاكه . والله أعلم .

---

(۱) عبد الرحمن بن عطية ، ويقال : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية . وهو من أهل « داريا » : قرية من قرى دمشق . مات سنة خمس عشر ومائتين . أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ۷۵ ، الرسالة القشيرية ج ۱ ص ۸٦ ، وفيات الأعيان ج ۱ ص ۲۷٦ ، طبقات الشعرانى ج ۱ ص ٦۳ ، تذكرة الأولياء ج ۱ ص ۲۲۹ ،نفحات الانس ص ۳۹ ، خزينة الأصفياء ج ۲ ص ۱۳۵) .

(۲) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ۷٦) .

● **ومنهم** المتعلق بحضرة الرضا ، وربيب على بن موسى الرضا : **« أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى(١)** رضى الله عنه ، كان من قدماء المشايخ وسادتهم ، معروفا بالفتوة ، ومذكورا بالورع والانابة .

وكان ينبغى تقديم ذكره عن هذا الترتيب ـــ ولكنى ذكرته فى هذا الموضع موافقة لشيخين : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : أولهما الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، الذى كتابه على هذا الترتيب ، والثانى : الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة ، فاثبته فى هذا الموضع ـــ لأنه كان استاذ السرى السقطى ، ومريد داود الطائى .

يرد عنه أنه قال : « للفتيان ثلاث علامات : وفاء بلا خلاف ، ومدح بلا جود ، وعطاء بلا سؤال(٢) .

أما الوفاء بلا خلاف ، فهو أن العبد فى العبودية يحرم على نفسه المخالفة والمعصية .

وأما المدح بلا جود فهو أن يثنى على شخص لم ير منه احسانا .

وأما العطاء بلا سؤال فهو أن لا يميز فى العطاء عند الميسرة ، وعندما يعرف حال أحد لا يسأله . وهذا كله يكون من الخلق للخلق .

وهذه الصفات الثلاث عارية فى الخلق جميعا ، لأنها صفات الحق جل وعلا ، وأفعال له مع عباده : لأنه فى الوفاء لا يخالف أحباءه ، فمهما خالفوه فى وفائهم ، يزيدجل جلاله لطفه بهم . وعلامة وفائه أن العبد دعاه فى الأزل بلا فعل ، وهو لا يصده عنه اليوم بمعصيته .

والمدح بلا جود لا يفعله غيره ، لأنه جل جلاله فى غير حاجة الى فعل العبد ، ويثنى على العبد على قليل من الفعل . له الحمد فى الآخرة والأولى .

---

(١) معروف بن فيروز ، ويقال معروف بن على . كان بعد اسلامه يحجب لعلى ابن موسى الرضا ، فازدحم الشيعة يوما على باب على بن موسى فكسروا أضلع معروف ، فمات ودفن ببغداد وقبره يستشفى به . يقول البغداديون : قبر معروف ترياق مجرب . توفى سنة مائتين ، وقيل سنة احدى ومائتين . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٨٣ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٠ ، (وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٦٩ ،نفحات الانس ص ٣٨) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٨٩) .

والعطاء بلا سؤال لا يستطيعه غيره ، لأنه كريم يعلم حال كل فرد ، ويحقق مقصود كل واحد دون سؤال .

واذا كرم الله عز وجل العبد وعظمه وخصه بقربه ، وفعل معه هذه الأمور الثلاثة ، وهو يجتهد بقدر امكانه أن يعامل الخلق هذه المعاملة ، فانهم عندئذ يطلقون عليه اسم الفتوة ، ويثبتون اسمه فى زمرة الفتيان .

وكانت هذه الصفات الثلاث لابراهيم عليه السلام على الحقيقة ، وسأورد هذا فى موضعه ان شاء الله عز وجل .

● **ومنهم** زين العباد وجمال الأوتاد :

« **أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم**(١) » رضى الله عنه . كان من محتشمى بلخ ، ومن قدماء مشايخ خراسان . مريد شقيق ، وأستاذ أحمد ابن خضرويه رحمه الله . ولم يخط فى كل أحواله من البداية الى النهاية خطوة بغير صدق ، حتى قال الجنيد عنه : « صديق زماننا حاتم الأصم » .

وله كلام عال فى دقائق رؤية آفات النفس ورعونات الطبع ، وتصانيف مشهورة فى علم المعاملات .

يرد عنه أنه قال : « الشهوات ثلاث : شهوة فى الأكل ، وشهوة فى الكلام ، وشهوة فى النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة(١) » .

فكل من يتوكل فى الأكل ينجو من شهوة الأكل ، وكل من يتحدث بلسان الصدق ينجو من شهوة اللسان ، وكل من يرى بعين الصواب ينجو من شهوة العين .

وحقيقة التوكل من صدق معرفته ، لأنك اذا عرفته صدقت بمنحه الرزق ، ومن ثم يتكلم (العبد) بصدق المعرفة ، وينظر بصدق المعرفة ، فلا يكون أكله وشربه غير المحبة ، ولا تكون عبارته غير الوجد ، ولا يكون نظره غير المشاهدة .

---

(١) ذكر فى الرسالة : حاتم بن علوان الأصم . ويقال حاتم بن يوسف الأصم . مات بقرية من قرى ما وراء النهر اسمها « واشجرد » سنة سبع وثلاثين ومائة . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص٩١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص٨٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٩٦) .

وعندما تصح معرفة العبد يكون أكله حلالا ، وعندما يصح كلامه يتحدث بذكره ، وعندما يصح نظره يشاهده ، لأن أكل غير ما أعطاه باذنه لايحل ، وذكر أحد سوى ذكره فى الثمانية عشر الف عالم لا يصح ، والنظر الى غير جماله وجلاله فى الموجودات لا يجوز . فاذا أخذت منه وأكلت باذنه فلا شهوة ، واذا تحدثت عنه وتكلمت باذنه فلا شهوة ، واذا رأيت فعله ورأيت باذنه فلا شهوة . وأيضا ، اذا أكلت بهواك فانه وان يكن حلالا يكن شهوة ، واذا تكلمت بهواك فانه وأن يكن ذكرا يكن كذبا وشهوة ، واذا نظرت بهواك فانه وأن يكن استدلالا يكن وبالا وشهوة .

وهو أعلم .

● ومنهم الامام المطلبى ، وابن عم النبى : ((**أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى**(١))) رضى الله عنه ، كان من كبار وقته ، واماما فى جميع العلوم ، ومعروفا بالفتوة والورع ، وله مناقب كثيرة ومشهورة ، وكلام عال .

وكان أولا تلميذ الامام مالك(٢) طالمـــا كان بالمدينة ، فلما قدم العراق اختلف الى محمد بن الحسن رضى الله عنه .

وكان فى طبعه دائما الميل الى العزلة ، ويطلب تحقيق هذه الطريقة ، حتى اجتمع عليه قوم واقتدوا به ، وكان منهم أحمد بن حنبل ، ثم انشغل بطلب الجاه ومزاولة الامامة وتخلف عنه .

وكان محمود الخصال فى جميع الأحوال ، وفى بداية حاله كان فى قلبه قسوة على المتصـــوفة ، الى أن رأى سليما الراعى وتقرب اليه . وكان بعد ذلك طالبا للحقيقة أينما ذهب .

---

(١) أحد الأئمة الأربعة . يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النسب فى عبد مناف . ولد بغزة وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وقرأ القرآن ، ورحل الى الامام مالك بالمدينة . أقام بمصر أربع ســـنوات وتوفى بها سنة أربع ومائتين . كان كثير المناقب ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة ما لم يجتمع فى غيره حتى قال أحمد بن حنبل عنه : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى . (أنظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٠٩ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٥٠) .

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر . أحد الأئمة الأربعة ، وامام دار الهجرة ، قال عنه الشافعى : « مالك حجة الله تعالى على خلقه » . وقال ابن وهب : سمعت مناديا ينادى بالمدينة : « ألا لا يفتى الناس الا مالك بن أنس وابن أبى ذئب » . ضرب سبعين ســـوطا لفتوى لم توافق السلطان . توفى سنة تســـع وسبعين ومائة وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع (أنظر ترجمته فى : المعـــارف ص ٢١٨ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٢ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٤٦) .

يرد عنه أنه قال : « اذا رأيت العالم يشتغل بالرخص فليس يجىء منه شىء » .

أى أن العلماء قبله كل أصناف الخلق ، فلا يجوز أن يتقدمهم أحد فى أى معنى ، ولا يمكنهم السير فى طريق الحق بغير الاحتياط والمبالغة فى المجاهدة ، وطلب الرخص شأن من يهرب من المجاهدة ويريد أن يخفف على نفسه ، فطلب الرخص درجة العوام حتى لا يخرجوا عن دائرة الشريعة ، وممارسة المجاهدة درجة الخواص ليجدوا ثمرة ذلك فى أسراراهم ، العلماء خواص ، وحين يرضى الخاص بدرجة العام لا يتأتى منه شىء .

وطلب الرخص أيضا تخفيف للأمر ، والعلماء أحباء الحق تعالى ، والحبيب لايخفف أمر الحبيب ولايختار أدنى درجاته ، وانما يحتاط فى ذلك .

يروى أحد المشايخ قائلا : رأيت الرسول عليه السلام فى النوم فقلت له : يا رسول الله ! روى لى عنك أن الله عز وجل أوتادا وأولياء فى الأرض . فقال : لقد أصدقك الراوى عنى هذا الخبر . قلت : يا رسول الله ! يلزمنى أن أرى واحدا منهم . فقال : محمد بن ادريس واحد منهم .

وله مناقب كثيرة غير هذا .

● ومنهم شيخ أهل السنة ، وقاهر أهل البدعة : ((**أبو عبد الله أحمد ابن حنبل**(1))) رضى الله عنه . اختص بالورع والتقوى . وكان حافظا لحديث النبى عليه السلام . وكانت هذه الطبقة بجملتها من الفريقين تتبرك به .

---

(1) الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، من بنى شيبان بن ذهل . ولد فى بغداد سنة أربع وستين ومائة . كان امام المحدثين ، صنف كتابه « المسند » وجمع فيه من الحديث ما لم يتوفر لغيره . وقيل انه كان يحفظ ألف ألف حديث . كان من أصحاب الامام الشافعى وخواصه ، ولم يزل مصاحبه الى أن ارتحل الشافعى الى مصر وقال فى حقه : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل . دعى الى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وكان ضربه فى سنة عشرين ومائتين فى عهد المعتصم ، ولم يزل يعذب الى أن مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، فاشتد الامر عليه وقال لا أسكن بلد أحد فيه . فأقام مختفيا لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه ، وكتب الى الآفاق برفع المحنة واظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق ، وخمدت المعتزلة . توفى ببغداد سنة أربعين ومائتين ودفن بمقبرة باب حرب (أنظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٦٤) .

وكان قد أدرك صحبة المشايخ الكبار مثل ذى النون المصرى ، وبشر الحافى ، وسرى السقطى ، ومعروف الكرخى وأمثالهم رضى الله عنه . كان ظاهر الكرامات وصحيح الفراسات ، وكل ما ينسبه اليه اليوم بعض المشبهة(١) انما هو محض افتراء وموضوع ، وهو برىء من كل ذلك . وله اعتقاد فى أصول الدين ومرضى من كل العلماء .

ولما غلب المعتزلة فى بغداد قالوا : يجب أن يكلف بأن يقول ان القرآن مخلوق . وكان شيخا وضعيفا ، فشدوا ذراعية على العقابين(٢) وضربوه ألف سوط وهم يقولون : قل ان القرآن مخلوق ؛ فلم يقل . وفى أثناء ذلك حل رباط أزراره وكانت يداه مغلولتين فظهرت يدان أخريان وعقدتا الأزار ، فلما رأوا هذا البرهان تركوه . وقد مات متأثرا بتلك الجراح .

وفى أواخر عهده جاء اليه قوم وقالوا له : ماذا تقول فيمن ضربوك ؟ فقال : ماذا أقول ، لقد ضربونى من أجل الله لأنهم ظنوا انى على باطل ، فان يكونوا على حق ، فاننى لن اختصمهم يوم القيامة لمجرد جرح .

وله كلام عال فى المعاملات .وكل من كان يسأله عن مسألة كان يجيبه عنها اذا كانت من المعاملات ، ويحيله على بشر الحافى اذا كانت من الحقائق ، كما حدث أن جاء اليه رجل ذات يوم وقال : « ما الاخلاص ؟ قال : الاخلاص هو الخلاص من آفات الأعمال » . قال : « ما التوكل ؟ قال : الثقة بالله » . قال : « ما الرضا ؟ قال : تسليم الأمور الى الله » . قال : « ما المحبة ؟ » قال : سل عن هذه بشرا الحافى ، فانه طالما كان حيا لا أجيب عن هذا .

وكان أحمد بن حنبل رحمه الله ممتحنا فى جميع الأحوال : فى حال حياته

---

(١) المشبهة صنفان : صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره ، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره . وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى . والمشبهة الذين ضلوا فى تشبيه ذاته بغيره منهم السبأية الذين سموا عليا الها وشبهوه بذات الله ، والبيانية أتباع بيان بن سمعان الذى زعم أن معبوده انسان من نور على صورة الانسان فى أعضائه ، وأنه يفنى كله الا وجهه . ومنهم المغيرية أتباع المغيرة بن سعيد الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضاءه على صورة حروف الهجاء . ومنهم المنصورية والخطابية والحلولية والمقنعية والبنامية والمشبهة المنسوبة الى داود الجواربى .
وأما المشبهة لصفات الله بصفات المخلوقين فأصناف : منهم الذين شبهوا ارادة الله تعالى بارادة خلقه ، ومنهم الذين شبهوا كلام الله بكلام خلقه ، ومنهم الزرارية الذين قالوا ان جميع صفات الله من جنس صفاتنا . (« الفرق بين الفرق » أبو منصور البغدادى : القاهرة ١٩٤٨ أنظر : ص ١٣٨ — ١٤١) .

(٢) آلة للتعذيب يوثق عليها المجرمون .

بطعن المعتزلة ، وفى حال مماته باتهامات المشبهة ، الى حد أن أهل السنة والجماعة الذين لم يقفوا على حالة يتهمونه ، وهو برىء من ذلك ، والله أعلم .

● **ومنهم** سراج الوقت والمشرف على آفات المقت : « **أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى**(١) » رضى الله عنه ، كان من أجلة مشايخ الشام ، وممدوح جملة المشايخ ، الى حد أن قال الجنيد : « أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشـــام » .

وله كلام عال واشارات لطيفة فى فنون علم هذه الطريقة ، وروايات صحيحة من حديث النبى عليه السلام . وكان اليه رجوع أهل وقته فى وقعاتهم .

وكان مريد أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه ، وقد صحب سفيان ابن عيينه(٢) ومروان بن معـــاوية الفزازى(٣) والنباجى(٤) وأخذ عن كل منهم أدبا وفائدة .

ويرد عنه أنه قال : « الدنيا مزبلة ومجمع للكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ، فان الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف عنها ، والمحب لها لا يزول عنها بحال(٥) » .

هكذا كان من حقارة الدنيا لدى همة ذلك الشـــهم أن شبهها بالمزبلة وشبه أهلها بأقل من الكلاب ، وعلل ذلك بأن الكلب حين يأخذ حاجته من المزبلة ينصرف عنها ، أما أهل الدنيا فقد عكفوا دائما على جمع أسبابها ولا يرجعون أبدا عن محبتها وجمعها .

وهـــذه علامة على انقطاعه عن الدنيا وأخواتها ، واعراضـــه عن أصحابها . والانقطاع عن الدنيا مجال طيب ، وروضة ناضرة .

---

(١) سبق الاشـــارة اليه .
(٢) سبق الاشـــارة اليه .
(٣) مروان بن معاوية الفزازى : كان واسع الرواية جدا ، وكان ثقة ثبتا حافظا . مات فجأة سنة ثلاث وتسعين ومائة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢١٩) .
(٤) ســـعيد بن يزيد النباجى : كنيته أبو عبد الله . من قدماء المشايخ من أقران ذى النون المصرى ومن أساتذة أحمد بن أبى الحوارى ، يحكى عنه أحمد بن أبى الحوارى وغيره حكايات وأحوالا (أنظر ترجمته فى «نفحات الانس» ص ٩١) .
(٥) ورد فى طبقات الصوفية : « والمحب لا يزايلها بحالٍ » (أنظر ص ١٠٢) .

وقد طلب العلم فى البداية ، وبلغ درجة الامامة ، ثم حمل كتبه والقى بها فى البحر وقال : « نعم الدليل أنت ، وأما الاشتغال بالدليل بعد الوصول محال » ، لأن الدليل انما يكون طالما كان المريد فى الطريق ، فاذا لاحت الحضرة فما قيمة السدة والطريق ؟

وقد قال المشايخ انما يكون هذا فى السر ، ومن قال فى هذا الطريق : « وصلت ، فقد فصل ، لأن الوصول تخلف ، فالشغل شغل ، والفراغ فراغ ، والوصول وصول .

والنسبة تكون فى الشغل والفراغ لأنهما صفتان للعبد ، أما الوصل فهو عناية الحق وارادته الأزلية لخير العبد ، وهذا لا يتأتى بشغل العبد أو فراغه ، فلا أصول لوصله ، ولا تجوز عليه — سبحانه وتعالى — الملازمة والقرب والمجاورة ، ووصلة كرامة للعبد ، وهجرة اهانة له ، ولا يجوز على صفاته التغير .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : من المحتمل أن يكون مراد ذلك الشيخ الكبير فى لفظ الوصول : الوصول الى طريق الحق ، اذ أن طريق الحق ليس فى الكتب ليعبر عنه ، لأنه حين يتضح الطريق تنقطع العبارات ، فالعبارات تكون لها القوة فى غياب المقصود ، فاذا حصلت المشاهدة تلاشت العبارات . واذا كانت الألسنة كليلة فى صحة المعرفة ، فمن الأولى أن تضيع (المعرفة) من عبارات الكتب .

وقد فعل غيره من المشايخ عين هذا ، مثل شيخ المشايخ أبى سعيد فضل الله بن محمد الميهنى وغيره ، حين ألقوا بكتبهم فى البحر(١) . وقد قلد فريق من المترسمين الأحرار فى ذلك ، لكسلهم وجهلهم . ويبدو أن أولئك الأحرار لم يكونوا يريدون بذلك غير انقطاع العلائق ، وترك الالتفات ، وفراغ القلب مما دون الحق . وهذا لا يصح الا من سكر الابتداء ، وحرارة الصبا ، لأن المتمكن لا يحجبه الكونان حتى تحجبه قطعة ورق ، فاذا ما انقطع القلب عن العلائق فما قيمة قطعة ورق .

وأما من مراده بغسل الكتب نفى العبارات عن تحقيق المعنى — كما

---

(١) ورد فى أسرار التوحيد أن الشيخ أبا سعيد عين ندما تحول عن دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية جمع كتبه ومذكراته ودفنها وشيد فوقها دكانا وزرع غصنا امتدت فروعه ونما فى وقت قصير وصار شجرة كبيرة . واعتاد أهل ميهنة عند ولادة الأطفال وغسل الموتى أن يستعملوا بعض أغصان هذه الشجرة أملا فى الحصول على البركة .
(أنظر « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٦١) .

ذكرنا — فالأولى أن تنتفى العبارات من اللسان ، لأن مافى الكتاب عبارة مكتوبة ، وما على اللسان عبارة جارية ، وليست عبارة أولى من عبارة .

ويخيل لى أن أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله ، لم يجد مستمعا فى غلبة حاله ، فشرح حاله على الورق ، ولما اجتمع له من ذلك شىء كثير ولم يجده جديرا بالنشر ، ألقى به فى الماء وقال : « نعم الدليل أنت » ، أما وقد تحقق مرادى فمن المحال أن أنشغل عنه بك .

ويحتمل أيضا أن يكون قد اجتمعت لديه كتب كثيرة ، وكانت تمنعه عن الأوراد والمعاملات وتشغله ، فأزال الشغل من أمامه ، وطلب فراغ القلب للمعنى ، وقال بترك العبارات .

● **ومنهم** قائد الفتيان وشمس خراسان : **« أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى(١) »** رضى الله عنه . كان مخصوصا بعلو الحال وشرف الوقت . وكان فى زمانه مقتدى القوم ، ومرضيا لدى الخاص والعام ، سلك طريق الملامة ، وارتدى ثياب الجنود .

وكان لفاطمة زوجه شأن عظيم فى الطريقة ، فقد كانت ابنة أمير بلخ ، ولما رغبت فى التوبة بعثت رسولا الى أحمد تقول : اطلبنى من أبى ، فلم يجبها ، فأرسلت اليه تقول : يا أحمد ! لم أكن أظنك ذلك الرجل الذى يقطع طريق الحق ، فكن دليلا هاديا لا قاطعا . فأرسل أحمد رجلا وطلبها من أبيها ، فأعطاها لأحمد بن خضرويه بحكم التبرك . وقالت فاطمة بترك الانشغال بالدنيا ، واستراحت بحكم العزلة مع أحمد ، الى أن قصد زيارة السيد بايزيد فرافقته فاطمة . ولما أقبلت على بايزيد رفعت البرقع عن وجهها ، وكانت تتحدث معه بجرأة ، فتعجب أحمد من ذلك ، واستولت الغيرة على قلبه ، فقال : يا فاطمة ! أى جرأة تلك التى كانت لك مع بايزيد ؟ فقالت : لأنك أنت محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى ، والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج الى .

وكانت دائما جريئة مع بايزيد ، حتى وقعت عينه يوما على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء ، فقال : يا فاطمة ! لم الخضاب بالحناء ؟ قالت : يا بايزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رأيت يدى وحنائى ، والآن وقد وقعت عينك على يدى فقد صارت صحبتنا حراما .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

ورجعا من عند بايزيد ، وأقاما فى نيســـابور(١) . وكانت علاقة أهل نيسـابور ومشـايخها بأحمد طيبة .

وعندما جاء يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله من الرى(٢) الى نيسابور ، وقصد بلخ ، أراد أحمد أن يدعوه ، فشاور فاطمة فيما ينبغى لدعوة يحيى ، فقالت : يـــلزم كثير من البقر والخراف والحوائج والتوابل ، وكثير من الشمع والعطر ، ومع كل هذا يلزم أيضا ذبح عشرين حمارا . فسألها أحمد : ما معنى ذبح الحمير ؟ قالت : حين يكون كريم ضيفا ببيت كريم أما يجب أن تعرف كلاب الحى ذلك ؟

وقال أبو يزيد رضى الله عنه :« من أراد أن ينظر الى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظر الى فاطمة » .

ويقول أبو حفص الحداد رحمة الله : « لولا أحمد بن خضرويه ماظهرت الفتوة » .

وكان له كلام عال ، وأنفاس مهذبة ، وتصانيف مشهورة فى كل فن من فنون المعاملات والأدب ، ونكت لا يحة فى الحقائق .

ويرد عنه أنه قال : « الطريق واضح ، والحق لا يح ، والداعى قد أسمع ، فما التحير بعدها الا من العمى(٣) » .

أى أن البحث عن الطريق خطأ ، لأن طريق الحق واضح كالشمس الساطعة ، فابحث عن نفسك أين أنت ، فان وجدتها فاسلك الطريق ، لأن الحق أظهر من أن يجىء تحت طلب الطالب .

---

(١) « نيسابور » : عاصـــمة اقليم خراسان . وهى بلد واسع كثير الكور ، فمن كور نيسابور الطبسين وقوهستان ونساوأ بيورد وأبرشهر وجام وياخرز وطوس . ومن نيسابور الى مرو عشر مراحل ، والى هرأة عشر مراحل والى جرجان عشر مراحل والى الدمغان عشر مراحـــل والى سرخس ست مراحل (البلدان ص ٤٥) .

(٢) « الرى » : على جادة طريق خراسان ، واســم مدينة الرى « المحمدية » وسميت بهذا الاسم لأن المهدى نزلها فى خلافة المنصور لما توجه الى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الآزدى ، وبناها وبها ولد الرشيد لأن المهدى أقام بها عدة سنين . افتتح الرى قرضه بن كعب الأنصارى فى خلافة عمر ابن الخطاب ســـنة ثلاث وعشرين (البلدان ص ٤٢) وورد فى معجم البلدان أن الذى نتحها زيدا الخيل الطائى فى عهد عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٩٢) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٠٥) .

ويرد عنه أنه قال : « استر عز فقرك » . أى لا تقل لأحد اننى فقير حتى لا ينكشف سرك ، لأنه كرامة عظيمة من الله تعالى .

ويرد عنه أيضا أنه قال : دعا فقير فى شهر رمضان واحدا من الأغنياء ، ولم يكن فى منزله غير رغيف يابس ، فلما عاد الغنى أرسل اليه صرة ذهب ، فلم يقبلها ، وقال : هذا جزاء من يكشف لك سره ، أو يعتبر الأغنياء أهلا لعز الفقر .

وهذا لصحة صدق فقرة ، والله أعلم .

● **ومنهم** مام المتوكلين ونخبة أهل زمانه : « **أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى(١)** » رضىالله عنه . كان من أجلة مشايخ خراسان ومن سادتهم ، ومشهورا بالفتوة والزهد والورع ، وله كرامات كثيرة وعجائب لا تحصى رآها فى البادية .

وكان من كبراء سياحى المتصوفة ، قطع بوادى كثيرة على التجرد ، وكانت وفاته فى بادية البصيرة . وبعد بضع سنوات جاء جماعة فوجدوه واقفا على قدميه ووجهه الى القبلة ، وقد أسلم الروح ، ويبس . وقد وضع ركوة أمامه وأمسك بيده عصا . ولم يحم حوله أى سبع من السباع(٢) .

يرد عنه أنه قال : « الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل(٣) » لأن التصرف فى هذه الثلاثة شغل . وقد بقى أهل العالم جميعا فى بلاء هذه الثلاثة لأنهم يتكلفون ، وهذا من وجهة المعاملة ، ولكن من وجهة التحقيق ، فغذاء الفقير الوجد ، ولباسه التقوى ، ومسكنه الغيب ، لأن الله عز من قائل قال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا(٤) » . وقال تعالى أيضا : « وريشا ولباس التقوى(٥) » . وقال الرسول عليه السلام : « الفقر وطن الغيب(٦) » . فحين يكون

---

(١) يقال له : عسكر بن محمد حصين . تفقه على مذهب الامام الشافعى ، وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل . صحب أبا حاتم العطار البصرى وحاتما الأصم البلخى . توفى سنة خمس وأربعين ومائتين (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٤٦ ، الرسالة ج ١ ص ٩٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٩٨ ، نفحات الانس ص ٥١) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية والرسالة عن وفاته أنه نهشته السباع .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية بنصه (أنظر ص ١٤٩) .

(٤) سورة « الجن » آية ١٦ .

(٥) سورة « الأعراف » آية ٢٦ .

(٦) لم أجد له سندا .

غذاؤه ومشربه من شراب القربى ، ولباسه التقوى والمجاهدة ، ووطنه الغيب وانتظار الوصل : يكون طريق الفقر واضحا ومعاملاته لا ئحة ، وهذه درجة الكمال .

● **ومنهم** لسان المحبة والوفاء ، وزين الطريقة والولاء : ((**أبو زكريا بن معاذ الرازى**(١))) رضى الله عنه ، كان عالى الحال ، حسن السيرة ، وكانت له فى حقيقة الرجاء فى الحق تعالى قدم ثابتة : حتى ليقول عنه الحصرى رحمه الله : كان لله تعالى رجلان يسميان يحيى ، أحدهما من الأنبياء والثانى من الأولياء ، فأما يحيى بن ذكريا عليه السلام فقد سلك طريق الخوف بحيث يئس كل مدعى الخوف من فلاحهم ، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طريق الرجاء على نحو مرغ أيدى أدعياء الرجاء فى التراب . قالوا : حال يحيى بن زكريا علبه السلام معروف ، فكيف كان حال يحيى هذا ؟ قال : بلغنى أنه لم تكن له جاهلية ، ولم تجر عليه كبيرة ، وكان جادا فى المعاملة والرياضة ، فلم يكن لأحد من الأصحاب طاقته .

قيل له : أيها الشيخ ، مقامك مقام الرجاء ، ومعاملتك معاملة الخائفين . قال : أعلم يابنى أن ترك العبودية ضلالة ، وأن الخوف والرجا قائمتا الايمان ، فمحال أن يقع أحد فى الضلالة بممارسة ركن من أركان الايمان . فالخائف يعبد خشية القطيعة ، والراجى أملا فى الوصل ، ومالم توجد العبادة لا يصح الخوف ولا الرجاء ، فاذا حصلت العبادة يكون الخوف والرجا جملة عبادة ، وحيثما تجب العبادة لا تفيد العبارة .

وله فى هذه المسائل تصانيف كثيرة ، ونكت واشارات بديعة . وكان أول من اعتلى المنبر بعد الخلفاء الراشدين من مشايخ هذه الطريقة . وأنا أحب كلامه جدا لأنه رقيق فى الطبع ، ولذيذ فى السمع ، ودقيق فى الأصل ، ومفيد فى العبارة .

يرد عنه أنه قال : « الدنيا دار الأشغال ، والآخرة دار الأهوال . ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال ، حتى يستقر به القرار اما الى الجنة وأما الى النار(٢) » . بخ بخ لذلك القلب الذى نجا من الاشتغال بالدنيا ، وأمن أهوال الآخرة ، وقطع همته عنهما ، واتصل بالحق .

وكان مذهبة : تفضيل الغنى على الفقر . وحين تجمعت عليه فى الرى ديون كثيرة قصد خراسان ، فلما بلغ بلخ احتجزه الناس فيها ، فتكلم هناك مدة ، ونصحهم ووعظهم . وقدم له الناس مائة ألف درهم فضة ، فلما

---

(١) سبق الاشارة اليه .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٠) .

رجع ليعود الى الرى قطع عليه اللصوص الطريق ، وأخذوا منه المال كله ، فجاء الى نيسابور مجردا ، وكانت وفاته بها .

وكان عزيزا فى كل الأحوال ، وحيدا بين الخلق .

● **ومنهم** شيخ مشايخ خراسان ، ونادرة كل الدنيا والزمان : « **أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى**(١) ، **الحداد** » رضى الله عنه . كان من كبار القوم وسادتهم ، وممدوح كل المشايخ ، صحب أبا عبد الله الأبيوردى ، ورافق أحمد بن خضروية ، وجاءه شاه بن شجاع من كرمان(٢) للزيارة ، وذهب (أبو حفص) الى بغداد لزيارة المشايخ .

ولم يكن له نصيب من العربية ، فلما جاء بغداد قال المريدون لبعضهم البعض : انه لشين أن يلزم لشيخ شيوخ خراسان ترجمان ليترجم كلامه . فلما ورد مسجد الشونيزيه ، اجتمع حوله المشايخ جملة ، وكان معهم الجنيد ، فكان يتحدث اليهم بعربية فصيحة بحيث حاروا جميعا من فصاحته ، وسألوه : ما الفتوة ؟ قال فلتبدأوا بواحد منكم ، ولتتكلموا ! فقال الجنيد : « الفتوة عندى ترك الرؤيـــة واسقاط النســبة » . فقال أبو حفص : « ما أحسن ما قال الشيخ ! ولكن الفتوة عندى أداء الانصاف وترك مطالبة الانتصاف(٣) » ، قال الجنيد رحمه الله : « قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته » ، فى الفتوة .

ويقال انه فى بداية حاله كان قد فتن بجارية ، فقيل له ان بمدينة نيسابور يهوديا ساحرا ، ولديه احتيال أمرك هذا . فذهب اليه أبو حفص ، وشرح له حاله ، فقال له اليهودى : ينبغى لك أن تكف عن الصلاة أربعين يوما وليلة ، وألا تحوم حول الحق وأعمال الخير والنية الحسنة ، لأحتال لك ، ويتحقق مرادك ، ففعل . ولما انقضت الأربعون يوما ، صنع له اليهودى الطلسم ، ولم يتحقق المراد . فقال اليهودى : لا محالة أنه قد مر عليك شىء ، ففكر جيدا جدا . فقال أبو حفص : أنا لا أعلم أنه قد جرى على ظاهرى وباطنى شىء من أعمال الخير ، ولاأذكر الا انى كنت قادما فى الطريق فأبعدت حجرا بقدمى حتى لا ترتطم به قدم انسان . فقال له اليهودى : لا نغضب ذلك الاله الذى أضعت أمره أربعين يوما ، ولم يضع هذا المقدار من تعبك ! فتاب ، وأسلم اليهودى .

---

(١) سبق الاشـــارة اليه .

(٢) « كرمان » : ولاية مشهورة ، وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراســان . فتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٦٣) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية . (أنظر ص ١١٨) .

وظل يعمل حدادا حتى صار الى باورد ، ورأى أبا عبد الله الباوردى ، وعاهده على أن يكون مريدا له . ولما عاد الى نيسابور كان هناك رجل كفيف يقرأ القرآن يوما بالسوق ، وكان قد جلس على باب دكانه ، فغلبه السماع وغاب عن نفسه ، وأدخل يده فى النار وأخرج حديدة محماة دون ملقط ، فلما رآه تلاميذه صاحوا قائلين : يا أستاذ ، يدك ! يدك ! وزايلهم صوابهم ، فلما عاد أبو حفص الى حال صحوه ، كف يده عن الكسب ، ولم يأت أيضا الى الدكان .

ويرد عنه أنه قال : « تركت العمل ثم رجعت اليه ، ثم تركنى العمل فلم أرجع اليه(١) ، لأن كل شىء يكون تركه بتكلف العبد وكسبه . تركه أولى من فعله فى صحة هذ االأصل ، اذ أن جملة الاكتساب محل الآفة ، والقيمة للمعنى الذى يأتى من الغيب بــلا تكلف ، وفى كل محل يحصل الاختيار ويتصل به العبد ، تزول عنه لطيفة الحقيقة .

اذن ، فالترك والأخذ لا يصحان أبدا على العبد ، لأن العطاء والزوال من الله تعالى وتقدس ، وبتقديره ، فاذا جاء العطاء من الحق ، جاء الأخذ ، واذا جاء الزوال ، جـــاء الترك ، واذا كان هكذا ، فالقيمة له لأن الأخذ والترك به ، لا أن العبد جالب ودافع لهما بالاجتهاد .

واذا قال المريد ألف سنة بقبول الحق ، فانه لا يكون كما يقول الحق بقبوله لمحة ، لأن الاقبال الذى لا يزال ، منعقد فى القبول الأزلى ، والسرور السرمدى فى السعادة السابقة ، ولا سبيل للعبد الى الخلاص الا بخلوص عناية الحق . والعبد الكثير العزة هو الذى يدفع المسبب الأسباب عن حاله ، والله أعلم .

⊙ ومنهم قدوة أهل الملامة ، والراضى بالبلاء من السلامة : ((**أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصـــار**(٢))) رضى الله عنه ، كان من قدماء المشايخ ومتورعيهم ، وكان على أعلى درجة فى الفقه والعلم ، وذهب مذهب الثورى .

وكان (فى الطريقة) مريد أبى تراب النخشبى ، ومن أتباع على النصرابادى وله رموز رقيقة فى المعاملات ، وكلام دقيق فى المجاهدات .

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٨) ..

(٢) « أبو صالح حمدون » : شـــيخ أهل الملامة فى نيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة . توفى سنة احدى وسبعين ومائتين ، ودفن فى مقبرة الحيرة . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقـــات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٣١ ، نفحات الانس ص٦٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

ويروى أنه لما عظم شأنه فى العلم ، جاءه أئمة وكبار نيسابور ، وقالوا له : ينبغى اعتلاء المنبر وعظة الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب . قال : لا يجوز لى الكلام . قالوا : لماذا؟ قال : لأن قلبى متعلق بالدنيا وجاهها ، فلا يفيد كلامى ولا يؤثر فى القلوب ، والكلام الذى لا يؤثر فى القلوب يكون استخفافا بالعلم أو استهزاء بالشريعة . والكلام مسلم به لمن يكون فى صمته خلل الدين ، فاذا تكلم ارتفع الخلل .

وسئل : ما بال كلام السلف أنفع للقلوب من كلامنا ؟ قال : « لأنهم تكلموا لعز الاسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق »(١) ، فمن تكلم وفق مراد الحق تعالى وينطق بالحق ، يكون فى ذلك الكلام قهر وسطوة تؤثر على الأسرار ، ومن يتكلم وفق مراد نفسه ، يكون فى كلامه من الهوان والذل مالا يكون للخلق منه فائدة ، وصمته خير من كلامه ، فخير للمرء أن يتجنب الكلام .

وأنا أعرف أن ذلك العظيم قد دفعهم عن نفسه تركا للجاه والشهرة .

● ومنهم الشيخ ذوالوقار ، والمشرف علىالخواطر والأسرار : **« أبوالسرى منصور بن عمار »**(٢) رضى الله عنه ، كان من عظماء المشايخ فى الدرجة ، ومن كبرائهم فى المرتبة ، محبوبا من العراقيين ، ومقبولا من الخرسانيين . وكان أحسن الكلام فى الموعظة كلامه ، والطف البيان بيانه ، وكان يعظ الناس بفنون العلم والروايات والدرايات والأحكام والمعاملات . وبعض المتصوفة يبالغون فى أمره مبالغة تفوق الحد .

يرد عنه أنه قال : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع »(٣) .

وفى هذا عبرة هى : أن الله تعالى أودع فى كل عضو خلقه معنى متجانسا ، كما خلق الأيدى محل البطش ، والأرجل محل المشى ، والأعين محل النظر ، والآذان محل السمع ، واللسان محل النطق ، وهى لا تختلف كثيرا فى ظهور هذه المعانى وخفائها . وأما القلوب ، فقد أودع فى كل منها معنى

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ١٢٥) .

(٢) أصله من مرو ، من قرية « داندانقان » وقيل من « ابيورد » وقيل من « بوشنج » . أقام بالبصرة ، وكان من أحسن الناس كلاما فى الموعظة ، وأسند الحديث (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٣٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٣٥ ، نفحات الانس ص ٦١) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية على هذا النحو : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا » (أنظر ص١٣٥) .

مختلفا ، وارادة مغايرة ، وهوى مختلفا : فجعل قلبا محلا للمعرفة ، وآخر موضعا للضلالة ، وثالثا موضعا للقناعة ، وهكذا . ولا شيء قط يكون فيه اعجوبة الخالق أظهر منها فى القلوب .

ويرد عنه أيضا أنه قال : « الناس رجلان : عارف بنفسه فشغله فى المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه فشغله بخدمته وعبادته ومرضاته »(١) ، فالعبادة رياضة للعارفين بأنفسهم ، ورياسة للعارفين بالحق ، فهذا يعبد لينال درجة ، وذاك يعبد وقد نال كل شيء ، وشتان ما بين المنزلتين : عبد قائم بالمجاهدة ، وآخر قائم بالمشاهدة .

ويرد عنه أنه قال : « الناس رجلان : مفتقر الى الله فهو فى أعلى الدرجات على لسان الشريعة ، وآخر لا يرى الافتقار لما علم من فراغ الله من الخلق والرزق والأجل والحياة والسعادة والشقاوة ، فهو فى افتقاره اليه واستغنائه به »(٢) ، فذاك الفريق فى افتقاره ، محجوب عن رؤية التقدير برؤية الافتقار ، وهذا الفريق فى تركه لرؤية افتقاره ، مكاشف ومستغن به ، فأحدهما مع النعمة ، والآخر مع المنعم ، فمن يكن مع النعمة فى رؤية النعمة فهو فقير وان يكن غنيا ، ومن يكن مع المنعم ومشاهدته فهو غنى وأن يكن فقيرا . والله أعلم .

● **ومنهم** ممدوح الأولياء ، وقدوة أهل الرضا : **« أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكى(٣) »** رضى الله عنه ، كان من أعيان القوم وساداتهم ، وعالما بعلوم الشريعة والأصول والفروع والمعاملات . عمر طويلا ، وصحب القدماء ، وأدرك أتباع التابعين . وكان من أقران بشر والسرى ، ومريد الحارث المحاسبى ، وكان قد رأى الفضيل وصحبه .

وكان ممدوحا بكل الألسن ، وله أقوال عالية ، ولطائف سامية فى فنون علم هؤلاء القوم .

يرد عنه — رضى الله عنه — أنه قال : « أنفع الفقر ما كنت به متجملا ، وبه راضيا(٤) » . أى أن جمال الخلق جميعا فى اثبات الأسباب ، وجمال الفقير فى نفى الأسباب واثبات المسبب ، والرجوع اليه ، والرضا بأحكامه ،

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٣٦) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية مع اختلاف يسير فى ترتيب الكلمات (أنظر ص ١٣٥) .
(٣) من الطبقة الأولى من الصوفية ، ومن أساتذة أحمد بن أبى الحوارى . وكان أبو سليمان الدارانى يسميه : جاسوس القلب لحدة فراسته (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١ ، نفحات الانس ص ٦٢) .
(٤) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٣٨) .

لأن الفقر فقد السبب ، والغنى وجود السبب . وفاقد السبب يكون مع الحق ، وصاحب السبب يكون مع نفسه . فصار السبب محل الحجاب ، وترك الأسباب محل الكشف ، وجمال الدنيا والآخرة فى الكشف والرضا ، وسخط كل العالم فى الحجاب .

وهذا بيان واضح فى تفضيل الفقر ، والله أعلم .

● **ومنهم** سـالك طريق الورع والتقوى ، وهو فى الأمة بزهـد يحيى : « **أبو محمد عبد الله بن خبيق**(١) » رضى الله عنه ، كان من زهاد القوم ومتورعيهم فى كل الأحوال ، وله روايات عالية فى الحديث .

وكان على مذهب الثورى فى الفقه والمعاملة وحقيقتها ، ورأى أصحابه وصحبهم ، وله فى معاملات هذه الطريقة أقوال لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون حيا فى حياته ، فلا يسكن الطمع فى قلبه(٢) » ليتحرر من الكل ، لأن الطماع ميت فى قيد طمعه ، فالطمع فى القلب كالطبع على القلب ، والقلب المختوم ميت لا محالة ! بخ بخ للقلب الذى يموت عما سوى الحق ويحيا بالحق ، لأن الله تعالى خلق الذل ، والطمع ذل . وخلق الذكر ، والذكر عز .

كما قال أيضا : « خلق الله تعالى القلوب مساكن الذكر فصارت مساكن الشهوات ، ولا يمحو الشـهوات الا خوف مزعج أو شوق مقلق(٣) » ، فالخوف والشوق قائمتا الايمان ، وحين يكون القلب محل الايمان يكون قرينه القناعة والذكر ، لا الطمع والغفلة . فقلب المؤمن لا يكون طماعا ولا متابعا للشهوات ، لأن الطمع والشهوة نتيجة الوحشة ، والمستوحش لا علم له بالله ولا بالايمان ، لأن الايمان أنس بالحق ووحشة من غيره ، كما قيل : « الطماع مستوحش منه كل واحد » . والله أعلم .

● **ومنهم** شيخ المشايخ فى الطريقة ، وأمام الأئمة فى الشريعة ، « **أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريرى**(٤) » رضى الله عنه ، كان مقبولا لدى

---

(١) عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكى — وفى طبقات الشعرانى : عبد الله ابن حنيف — من زهاد الصوفية . أصله من الكوفة ، ولكنه من الناقلة الى أنطاكية . وطريقته فى التصوف : طريقة النورى (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٤١ ، الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣ ، نفحات الانس ص ٦٦) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية : « من أراد أن يعيش غنيا فى حياته فو يسكن الطمع فى قلبه » (أنظر ص ١٤٤) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٤٤) .

(٤) سبق الاشارة اليه

أهل الظاهر وأرباب القلوب ، وكاملا فى فنون العلم ، ومفتيا واماما لأصحاب أبى ثور فى الأصول والفروع والوصول والمعاملات . وله أقوال عالية وأحوال كاملة ، فكل أهل الطريقة متفقون على امامته ، ولا مجال لاعتراض واعراض فيه لأى مدع أو متصرف .

وكان ابن أخت السرى السقطى ومريده . سئل السرى يوما : هل يكون لمريد درجة أعلى من درجة الشيخ ؟ قال : نعم . وبرهان هذا ظاهر ، فللجنيد درجة فوق درجتى . وكان هذا القول من ذلك الشيخ العظيم تواضعا ، وما قاله قاله بالبصيرة ، ولا رؤية لأحد لما فوقه ، فالرؤية تتعلق بما تحت ، وقوله دليل واضح ، فقد رأى الجنيد فوق درجته ، وهو وان رآه — حين رآه — فوق، فهو تحت .

ومشهور أنه فى حال حياة السرى قال المريدون للجنيد : فليكلمنا الشيخ ليكون فى ذلك راحة لقلوبنا ، فلم يجبهم ، وقال : ما دام شيخى موجودا فأنا لا أتكلم . الى أن كان نائما ذات ليلة فرأى النبى عليه السلام فى النوم يقول : ياجنيد ! كلم الخلق ، لأن كلامك سبب راحة قلوب الخلق ، وقد صير الله تعالى كلامك سبب نجاة عالم . فلما استيقظ وقر فى قلبه أن درجته جاوزت درجة السرى ، وقال لقد جاءنى من الرسول صلوات الله عليه الأمر بالدعوة . ولما كان الصباح ، أرسل السرى مريدا وقال له : حينما يسلم الجنيد من صلاته ، قل له : انك لم تتحدث الى المريدين بناء على قولهم ، ورددت شفاعة شيوخ بغداد ، وأرسلت لك رسالة أيضا فلم تتكلم . والآن قد أمرك الرسول عليه السلام فأطع أمره ! قال الجنيد رضى الله عنه : فذهب ذلك الخاطر من رأسى ، وأدركت أن السرى فى كل الأحوال مطلع على ظاهرى وباطنى ، وأن درجته فوق درجتى ، لأنه مشرف على أسرارى ، وأنا لا علم لى بأحواله . وذهبت اليه وطلبت منه المغفرة ، وسألته : كيف عرفت أنى رأيت النبى عليه السلام فى النوم ؟ قال : قد رأيت الله تعالى وتقدس فى النوم ، وقد قال لى : انى ارسلت الرسول — عليه السلام — ليقول للجنيد : عظ الخلق ، ليتحقق منه مراد أهل بغداد .

وفى هذه الحكاية دليل واضح على أن الشيوخ — بأى صفة يكونون — مشرفون على أحوال مريديهم .

وللجنيد كلام عال ، ورموز لطيفة .

يرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « كلام الأنبياء نبأ عن الحضور ، وكلام الدصيقين اشارة عن المشاهدات »(١) ، فصحة الخبر من النظر ، وصحة المشاهدة من الفكر . ولا يمكن الاخبار الا عن عين ، والاشارة لا تكون عن عين ، فكمال ونهاية الصديقين ، بداية للأنبياء . والفرق واضح بين الولى والنبى وتفضيل الأنبياء على الأولياء ، خلافا لما ينزع اليه فريقان من الملاحدة ممن يؤخرون الأنبياء فى الفضل ويقدمون الأولياء .

ويرد عنه أنه قال : تمنيت وقتا ما أن أرى ابلييس — عليه اللعنة — وذات يوم كنت واقفا بباب المسجد ، فاذا بشيخ يقبل من بعيد متجها الى ، فلما رأيته أحسست وحشة فى قلبى ، فلما اقترب منى قلت : من أنت أيها الشيخ ، اذ لا طاقة لعينى برؤية وجهك من الوحشة ، ولا طاقة لقلبى بالتفكير فيك من الهيبة ؟ قال : أنا الذى تتمنى مشاهدتى . قلت : يا ملعون ! ما منعك أن تسجد لآدم ؟ قال : يا جنيد ! كيف تصور أنى أسجد لغيره ؟ قال الجنيد : فتحيرت فىكلامه ، فنوديت فى سرى أن : « قل له : كذبت ، ولو كنت عبدا لما خرجت عن أمره ونهيه . فسمع النداء من قلبى ، فصاح وقال : أحرقتنى بالله ! وغاب » .

وفى هذه الحكاية دليل على حفظه وعصمته ، لأن الله سبحانه وتعالى يحفظ أولياءه فى كل الأحوال من كيد الشيطان .

ويرد عنه أن مريدا من مريديه مرض قلبه يوما وظن أنه بلغ درجة ، فأعرض عنه ، وجاء ذات يوم لتجربته . وكان (الجنيد) بحكم اشرافه مطلعا على مراده . وسأله (المريد) سؤالا ، فقال له الجنيد : أتريد جوابا عباريا أم معنويا ؟ قال : كلاهما : فقال الجنيد : ان أردت العبارى ، فلو أنك جربت نفسك لما احتجت الى تجربتى ولما جئت الى هنا للتجربة . وان أردت المعنوى ، فقد عزلتك من ولايتك . فأسود وجه المريد فى الحال وصاح : لقد ضاع من قلبى راحة اليقين ! وانشغل بالاستغفار ، وكف عن الفضول . وعندئذ قال له الجنيد : انك لم تعرف أن أولياء الله تعالى هم أولياء الأسرار ، ولا طاقة لك بتجربتهم . ونفخ عليه، فعاد الى مراده ، وتاب عن التصرف فى المشايخ رحمهم الله . والله أعلم .

● **ومنهم** ملك أهل التصوف ، والمبرا من آفة التكلف : « **أبو الحسن أحمد ابن محمد النورى**(٢) » رضى الله عنه ، كان له أحسن المعاملات وأبين

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « كلام الأنبياء نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين اشارات عن مشاهدات » (أنظر ص ١٦٢) .
(٢) سبق الاشارة اليه

الكلمات ، وأظرف المجاهدات . وله مذهب خاص فى التصوف ، وتوجد فرقة من المتصوفة يقال لها « النورية » يقتدون به ، ويتولونه .

وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة ، منهم فرقتان مردودتان ، وعشر مقبـــولة .

وأولى الفرق المقبولة : المحاسبية ، والثانية : القصارية ، والثالثة : الطيفورية ، والرابعة : الجنيدية ، والخامسة النورية : والسادسة : السهلية ، والسابعة : الحكيمية ، والثامنة : الخرازية ، والتاسعة : الخفيفية ، والعاشرة السيارية . وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة والجمـــاعة .

أما الفرقتان المردودتان ، فواحدة منهما : الحلولية المنسوبة الى الحلول والامتزاج ، واليهم ينتمى السالمية والمشبهة . والأخرى : الحلاجيون المردودون لتركهم الشريعة والحادهم ، واليهم ينتمى الاباحيون والفارسيون . وسوف أورد فى هذا الكتاب — فى موضعه — بابا فى الفرق بين الفرق ، وأبين اختلاف تلك الفرق العشر ، واختلاف هاتين الفرقتين ، لتتم الفائدة ان شاء الله تعالى .

أما طريق (النورى) فكان محمودا فى ترك المداهنة ، ورفع المسامحة ، ودوام المجاهدة .

ويرد عنه أنه دخل على الجنيد ورآه جالسا فى الصدر ، فقال له : « يا أبا القاسم ! غششتهم فصدروك ، ونصحتهم فرمونى بالحجارة » . لأن المداهنة توافق الهوى ، والنصيحة تخالفه ، والانسان يعادى من يخالف هواه ، ويحب من يوافقه .

وكان أبو الحسن النورى رفيقا للجنيد ومريدا للسرى ، وقد رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وأدرك صحبة أحمد بن أبى الحوارى .

وله فى طريقة التصوف اشارات لطيفة وأقاويل جميلة ، وفى فنون العلم نكت عالية .

يرد عنه أنه قال : « الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره جمع به »(١) . أى أن كل من همته مجتمعة بالحق تعالى فهو مفترق عن غيره ، وكل من هو مفترق عن غيره مجتمع به ، فجمع الهمة بالحق تعالى ، افتراق عن التفكير فى المخلوقات ، فاذا صح الأعراض عن المكونات ، صح

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٦٦) .

الاقبال بالحق ، واذا صح الاقبال بالحق ، صح الاعراض عن الخلق ، لأن الضدين لا يجتمعان .

وورد فى الحكايات أن (النورى) فى وقت ما ، ظل يصرخ لمدة ثلاثة أيام وليال فى بيته ، واقفا فى مكان واحد ! فأخبروا الجنيد ، فنهض وذهب اليه ، وقال : يا أبا الحسين ! اذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه ، فأخبرنى لأصرخ أنا أيضا ، وان كنت تعرف أنه لا يفيد ، فارض بالتسليم ليسعد قلبك . فكف النورى عن الصراخ وقال : ما أحسنك معلما لنا يا أبا القاسم !

ويرد عنه أنه قال : « أعز الأشياء فى زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة »(١) .

أى أن العلم والمعرفة كلاهما عزيزان فى هذا الزمان ، لأن العلم بلا عمل لا يكون علما ، والمعرفة بلا حقيقة لا تكون معرفة . وقد دل الشيخ بهذا الكلام على زمانه ، ولئن كان ذلك عزيزا فى كل الأوقات ، فهو اليوم أعز . وكل من ينشغل بطلب عالم وعارف تتشوش أوقاته ، ولا يجد (طلبته) ، فيجب أن ينشغل المرء بنفسه ليرى كل العالم عالما ، وأن يرجع عن نفسه الى الله ليرى كل العالم عارفا ، لأن العالم والعارف عزيزان ، والعزيز صعب المنال ، والشىء الذى يصعب ادراكه ، طلبه اضاعة للعمر . فيجب طلب العلم والمعرفة من نفسك ، والعمل والحقيقة من ذاتك .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من عقل الأشياء بالله فرجوعه فى كل شىء الى الله »(٢) ، لأن الاقامة ملك ، والملك بالمالك ، فالاستراحة تكون فى رؤية المكون لا فى رؤية الكون ، لأن (العبد) اذا اعتبر الأشياء علة للأفعال يتألم دائما ، ورجوعه الى كل شىء يكون منه شركا ، لأنه يرى أسبابا للفعل ، والسبب لا يقوم بنفسه ، بل هو قائم بالمسبب ، فاذا رجع الى مسبب الأسباب ، نجا من الانشغال .

● ومنهم مقدم السلف ، والخلف من السلف :

« **أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى** »(٣) رضى الله عنه ، كان من قدماء الصوفية وأجلتهم ، والأوحد فى زمانه ، وقدره رفيع فى كل القلوب .

(٢،١) وردا بنصهما فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٦٩) .
(٣) سعيد بن اسماعيل بن سعيد بن منصور الحيرى النيسابورى . أصله من الرى . كان فى وقته أوحد المشايخ فى سيرته ، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور ، ومات بها سنة ثمان وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص١٧٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٥٥ ، نفحات الانس ص ٨٧) .

وكان قد صحب فى البداية يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه ، ثم كان فى صحبة شاه بن شجاع الكرمانى مدة ، وذهب معه الى نيسابور لزيارة أبى حفص الحداد ، فتوقف عنده ، وقضى عمرا فى صحبته .

ويروى الثقاة عنه أنه قال : كان قلبى دائما يطلب الحقيقة فى حال الطفولة ، وينفر من أهل الظاهر . وكنت أعتقد أن للشريعة ، لا محالة ، سرا غير الظاهر الذى تجرى عليه العامة ، حتى أدركت البلوغ . وكنت يوما بمجلس يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، فأدركت ذلك السر ، وتحقق مقصودى ، فتعلقت بصحبته ، الى أن جاء جماعة من عند شاه بن شجاع وتحدثوا عنه ، فوجدت قلبى مائلا لزيارته . فقصدت كرمان من الرى . وكنت أطلب صحبة (شاه) فلم يأذن لى ، وقال : ان طبعك ربيب الرجاء . وقد صحبت يحيى ، وله مقام الرجاء ، والشخص الذى أشرب مشرب الرجاء لا يتأتى منه سلوك الطريقة ، لأن تقلد الرجاء يورث الكسل . فتضرعت اليه كثيرا وبكيت ، وأقمت عشرين يوما على أعتابه حتى أذن لى وقبلنى . ولبثت فى صحبته مدة ، وكان رجلا غيورا ، الى أن خطر له قصد نيسابور لزيارة أبى حفص ، فذهبت معه . وفى اليوم الذى دخلنا فيه على أبى حفص كان شاه يلبس قباء ، فلما رآه أبو حفص نهض على قدميه ، وتقدم اليه وقال : « وجدت فى القباء ما طلبت فى العباء » . وبقيت هناك وقد استولت صحبة أبى حفص على كل همتى ، ومنعتنى حشمة شاه بن شجاع من مداومة خدمته ، ورأى أبو حفص فى تلك الارادة . وكنت أتضرع الى الله أن ييسر لى صحبة أبى حفص دون أن يتأذى منى شاه بن شجاع ، الى أن قصد شاه العودة ، فانتعلت نعلى موافقة له ، وقلبى كله عند أبى حفص ، الى أن قال رضى الله عنه لشاه مباسطا : اترك صحبة هذا الصبى هنا ، لأنى مسرور منه . فالتفت شاه الى وقال : « أجب الشيخ » . ورحل هو ، وبقيت هنالك حتى رأيت ما رأيت من العجائب فى صحبة أبى حفص رضى الله عنه ، وكان له مقام الشفقة .

وقد أجاز الله عز وجل أبا عثمان من ثلاثة مقامات بثلاثة شيوخ ، وهذه الاشارات الثلاثة التى أشار اليها فى نفسه هى : مقام الرجاء بصحبة يحيى ابن معاذ ، ومقام الغيرة بصحبة شاه بن شجاع ، ومقام الشفقة بصحبة أبى حفص .

ويجوز ان يصل المريد الى المنزل بحدس أو بست أو بأكثر من هذه الصحبة ، ويصير كل شيخ وصحبة ، سبب كشف مقام له . ولكن الأفضل أن لا يشوب المشايخ بمقامه ولا يستهدف نهاياتهم فى ذلك المقام ، ويقول : كان هذا نصيبى من صحبتهم ، ولكنهم كانوا فوق هذا ، ولم يكن لى منهم

نصيب أكثر من هذا ، ويكون هذا أقرب الى الأدب ، لأنه لا شأن أبدا لبالغى طريق الحق بالمقامات والأحوال .

وكان (أبو عثمان) السبب فى انتشار التصوف فى نيسابور وخراسان . وقد صحب الجنيد ورويما ويوسف بن الحسين ومحمد بن الفضل رحمة الله عليهم . ولم يدرك أى من المشايخ من قلوب شيوخه ذلك الحظ الذى أدركه .

وقد وضع له أهل نيسابور منبرا ليتحدث اليهم بلسان التصوف وله كتب عالية ، وروايات متينة فى فنون علم الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « حق لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يذله بالمعصية »(١) . ويكون تعلق هذا بكسب العبد ومجاهدته على دوام رعاية أمور الحق . واذا كان هنالك رأى على هذا المعنى ، فهو : أن الله عندما يعز شخصا بالمعرفة فانه لا يذله بالمعصية ، لأن المعرفة عطاؤه ،والمعصية فعل العبد ، ومن يعز بعطاء الحق لا يذل بفعل نفسه ، مثل آدم عليه السلام الذى أعزه (الله) بالمعرفة ، ولم يذله بزلته .

● **ومنهم :** سهيل المعرفة ، وقطب المحبة :

((أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء))(٢) رضى الله عنه . كان من كبار القوم ، وسادات الوقت ، وصاحب طريق حسن وسيرة مرضية . صحب الجنيد ، ورأى أبا الحسن النورى وجماعة من كبار الصوفية رضى الله عنهم . وله كلام عال فى الحقائق ، واشارات لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « همة العارف الى مولاه فلم يعطف الى شىء سواه »(٣) لأنه لا يكون للعارف شىء قط غير معرفته ، فحين يكون رأس مال قلبه المعرفة يكون مقصود همته الرؤية ، لأنتشتت الهمم يثمر الهموم ، والهموم ترد عن حضرة الحق .

ويحكى عنه أنه قال : رأيت ذات يوم نصرانيا حسن الوجه ، فتحيرت فى جماله ، وتوقفت قبله ، فمر على الجنيد رحمه الله ، فقلت : يا أستاذ ! لن يحرق الله تعالى مثل هذا الوجه بنار الجحيم ! فقال رضى الله عنه :

---

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٧٣) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « سمت همم العارفين الى مولاهم ، فلم تعكف على شىء سواه ، وسمت همم المريدين الى طلب الطريق اليه ، فأفنوا نفوسهم فى الطلب. (أنظر : ص ١٧٩) .

يا بنى ! هذه سويقة النفس التى تحملك على هذا ، لا نظرة العبرة ، لأنك اذا نظرت بالعبرة فى كل ذرة من الموجودات ، فهذه الأعجوبة موجودة . ولكن سرعان ما تعذب بهذا الخزى ! قال : فلما انصرف عنى الجنيد نسيت القرآن فى الحال ، وظللت سنوات أطلب العون من الله تعالى ، وتبت حتى استعدت القرآن . والآن لا أجرؤ على الالتفات الى شىء أو أضيع وقتى فى النظر الى الأشياء .

● **ومنهم :** وحيد العصر وامام الدهر :

« **أبو محمد رويم بن أحمد** »(١) رضى الله عنه ، كان من جملة أجلة المشايخ وسادتهم ، ومن أصحاب سر الجنيد وأقرانه ، وعلى مذهب داود(٢) فقيه الفقهاء رضى الله عنه .

كان ذا حظ وافر فى علم التفسير والقراءات ، ولم يكن فى ذلك الزمان مثيله فى فنون العلم . وقد بلغ منزلته بعلو الحال ورفعة المقام والسفر الطويل بالتجريد ، والرياضات الشديدة فى التفريد .

وفى آخر عمره أخفى نفسه بين أصحاب الدنيا ، واعتمد عليه فى القضاء ، وكانت درجته أكمل من أن يحجب بذلك ، حتى قال عنه الجنيد : نحن الفارغين مشغولون ، ورويم المشغول فارغ .

وله تصانيف فى هذه الطريقة فى السماع ، وبخاصة الكتاب الذى أسماه « غلط الواجدين » ، وأنا مفتون به .

ويرد أن رجلا جاء اليه يوما وقال : « كيف حالك ؟ » فقال : « كيف حال من دينه هواه ، وهمته دنياه ، ليس بصالح تقى ، ولا بعارف نقى »(٣) .

وقد أشار بهذه الاشارة الى عيوب نفسه ، لأن الدين يكون لدى النفس هوى ، ومتابعو النفس قد أسموا الهوى دينا ، ومتابعة الهوى ممارسة الشريعة ، وكل من يكون على مرادهم وان يكن مبتدعا فهو لديهم دين ، وكل من يسير على خلاف هواهم وان يكن متقيا فهو لديهم لا دين له . وهذه الآفة شائعة فى زماننا ، فنعوذ بالله من صحبة من تكون هذه صفته .

أما ذلك الشيخ فقد أشار على التحقيق الى زمان السائل . ويجوز

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) داود بن على بن خلف : امام أهل الظاهر . ولد بالكوفة سنة مائتين أو اثنتين ومائتين . كان أحد أئمة المسلمين وهداتهم ، واليه انتهت رياسة العلم ببغداد . أصله اصفهان ، ومولده بالكوفة ومنشؤه بغداد وبها قبره . مات سنة سبعين ومائتين . (طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٤٢ وما بعدها) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٤) .

أيضا أنه — فى تلك الحال — قد ترك لنفسه ، حتى عبر عن وصف وجوده وأنصف صفته .

⊛ **ومنهم :** بديع العصر ، ورفيع القدر :

((**أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى**)) (١) رضى الله عنه . كان من كبار أئمة وقته ، وقدماء الشيوخ فى زمانه . عمر طويلا ، وكان مريدا لذى النون المصرى ، وصحب كثيرا من الشيوخ وخدمهم جميعا .

يرد عنه أنه قال : « أذل الناس الفقير الطموع ، والمحب لمحبوبه »(٢) . أى أن الفقراء الطماعين هم أذل الناس ، كما أن الفقراء الصادقين أشرفهم . والطمع يلقى بالفقير فى ذل الدنيا والآخرة ، لأن الفقراء أنفسهم حقراء فى نظر أهل الدنيا ، فاذا طمعوا صاروا أحقر . فالغنى بالعز أتم من الفقر بالذل . والطمع ينسب الفقير الى الكذب الصرف .

ثم ان المحب كذلك ، يكون بالنسبة لمحبوبه أذل الخلق طرا ، لأن المحب يرى نفسه فى مقابل محبوبه حقيرا ، وهو يتواضع له ، وهذا أيضا من نتائج الطمع ، وعندما ينقطع عنه الطمع يصير ذله كله عزا . وطالما كانت زليخا طامعة فى يوسف ، كانت تزداد كل لحظة ذلا ، وعندما انقطع عنها الطمع ، رد الله تعالى اليها جمالها وشبابها .

وقد جرت السنة على أن اقبال المحب يقتضى اعراض المحبوب ، فاذا كتم المحب المحبة فى صدره ، وفرغ بصرف المحبة من الحبيب ، وسكن الى المحبة ، فلا محالة أن يقبل عليه الحبيب . والمحب عزيز فى الحقيقة ما لم يطمع فى الوصل ، وعندما يطمع فيه ولا يدركه يصير عزه ذلا . وكل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب وفراقه ، تكون محبته معلولة .

⊛ **ومنهم :** شمس سماء المحبة ، وقدوة أهل المعاملة :

((**أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص**))(٣) رضى الله عنه . كان

---

(١) شيخ الرى والجبال فى وقته . كان أوحد فى طريقته فى اسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الاخلاص . وكان عالما دينا . مات سنة أربع وثلثمائة . وروى الحديث . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٨٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣١٦ ، نفحات الانس ص ٩٧) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٩) .

(٣) سمنون بن عبد الله : أبو الحسن الخواص ، ويقال كنيته أبو القاسم . سمى نفسه سمنون الكذاب لكتمه عسر البول بلا تضرر . صحب سريا السقطى ومحمد ابن على القصاب وأبا أحمد القلانسى وكان يتكلم فى المحبة بأحسن كلام . من كبار مشايخ العراق . مات بعد الجنيد ، أى بعد سنة سبع وتسعين ومائتين (أنظر ترجمنه فى طبقات الصوفية ص ١٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٢ ، طبقات =

منقطع النظير فى زمانه ، وذا شأن عظيم فى المحبة . وكان جميع المشايخ يعظمونه ويسمونه « سمنون المحب » ، وأسمى هو نفسه : « سمنون الكذاب » !

وقد عانى متاعب كثيرة من (غلام الخليل)(١) . فقد شهد عليه عند الخليفة بأشياء غير صحيحة ، وكان الشيوخ جميعا يتألمون لذلك .

وكان (غلام الخليل) هذا ، رجلا مرائيا ويدعى الزهد والتصوف . وصير نفسه — بمكره وشعوذته — معروفا عند الخليفة وأهل السلطان ، وباع — مثل الكثيرين فى عصرنا — الدين بالدنيا . وقد آلى على نفسه التشهير بالمشايخ والدراويش لدى الخليفة ، وكان مراده أنه طالما هجر المشايخ ، ولم يتبرك بهم أحد ، بقى جاهه على حاله ! بخ بخ لسمنون وغيره من المشايخ الذين لم يتصد لهم أكثر من واحد بهذه الصفة ! واليوم ، فى هذا الزمان ، يوجد لكل رجل محقق مائة الف (غلام الخليل) ! ولكن لا ضير ، فالعقبان أولى بالجيف .

ولما كبر جاه سمنون فى بغداد وتقرب كل شخص اليه ، تألم من ذلك (غلام الخليل) وأخذ فى اختلاق الأوضاع ، حتى وقعت عين امراة على جمال سمنون ، وعرضت المراة نفسها عليه ، فأبى . وذهبت هذه المراة الى الجنيد قائلة : قل لسمنون أن يتزوجنى ، فغضب منها الجنيد وزجرها . فذهبت الى (غلام الخليل) واتهمت (سمنون) بتهمة مما تتهم به النساء الرجال ، واستمع (غلام الخليل) اليها كما يسمع الأعداء ، وأخذ فى السعاية ، وغير عليه الخليفة حتى أمر بقتله . فلما أحضروا السياف ، واستؤذن الخليفة ، انعقد لسانه حين اصدار الأمر ! ولما جن الليل ، نام فرأى فى النوم من يقول له : ان زوال روح سمنون رهين بزوال ملكك ! وفى اليوم التالى اعتذر لسمنون ورده مكرما(٢) .

وله كلام عال واشارات دقيقة فى حقيقة المحبة .

واتفق أنه حين كان قادما من الحجاز ، أن قال له أهل فيد(٣) : حدثنا ، فاعتلى المنبر ، وكان يتحدث ولامستمع له ، فالتفت الى القناديل وقال : انى أتحدث اليك ! فاصطكت كل تلك القناديل وتحطمت .

=الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٣ ، نفحات الانس ص١٠٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٧٢) .

(١) أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس . ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ، لكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء (ميزان الاعتدال : ص ٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى اللمع ، وهنا بعض الاختلاف (أنظر اللمع ص ٤٩٨) .

(٣) « فيد » : هى المدينة التى ينزلها عمال طريق مكة ، وأهلها طىء ، وهى فى سفح جبلهم المعروف بسلمى (البلدان ص ٧٦) .

ويرد عنه ، رضى الله عنه ، أنه قال : « لا يعبر عن شيء الا بما هو أرق منه ، ولا شيء أرق من المحبة فبم يعبر عنها ؟ »(١) .

والمراد من هذا : أن العبارة منقطعة عن المحبة ، لأن العبارات صفة المعبر ، والمحبة صفة المحبوب ، فعبارة هذا لا تستطيع ادراك حقيقة ذاك . والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم** : سلطان الشيوخ ، ومن التغير عن عهده منسوخ :

« **أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى** »(٢) ، رضى الله عنه . كان من أبناء الملوك ، وفريدا فى عصره ، صحب أبا تراب النخشبى ، وأدرك كثيرا من المشايخ . وقد ذكر طرف من حاله فى ذكر أبى عثمان الحيرى .

وله فى التصوف رسالات مشهورة ، وعمل كتابا يسمى « مرآة الحكماء » ، وله أقوال عالية .

ويرد عنه أنه قال : « لأهل الفضل فضل مالم يروه ، فاذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولاية مالم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم(٣) » .

والمراد من هذا القول أنه حيثما يوجد الفضل والولاية تسقط عنهما الرؤية ، وعندما تحدث الرؤية يسقط معناهما ، لأن الفضل صفة لا يراها الفضل ، والولاية صفة لا تراها الولاية . فاذا قال شخص : أنا فاضل ، أو : أنا ولى ، فانه لا يكون فاضلا ولا وليا .

وورد فى آثاره انه لم ينم لأربعين عاما ، وعندما نام رأى الله سبحانه وتعالى فى النوم ، فقال : يا الهى ! كنت أطلبك بسهر الليل فرأيتك فى النوم ! فقال : يا شاه ! لقد أدركت فى النوم بغيتك بسهرك الليل ، ولو كنت نمت هنالك ، لما رأيت هنا . والله أعلم .

● **ومنهم** سرور القلوب ونور الأسرار :

« **عمرو بن عثمان المكى**(٤) » رضى الله عنه . كان من كبراء أهل الطريقة وساداتهم ، وله تصانيف مشهورة فى حقائق هذا العلم .

وكان ينتسب الى الجنيد بعد أن رأى أبا سعيد الخراز وصحب النباجى ، وكان امام الوقت فى الأصول .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٦) .
(٢) سبق الاشارة اليه .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٣)
(٤) سبق الاشارة اليه .

يرد عنه أنه قال : « لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين(١) » . وكل ما تستطيع عبارة العبد التصرف فيه لا يكون سرا للحق ، لأن كلية تكلف العبد منقطعة عن الأسرار الربانية .

ويقال انه حين جاء عمرو الى أصفهان ، اتصل بصحبته حدث ، وقد منعه أبوه من صحبة عمرو الى أن مرض . ومضت مدة ، ونهض الشيخ يوما وذهب لعيادته مع جماعة من الدراويش ، فأشار الحدث الى الشيخ ليقول للقوال أن ينشد شعرا ، فقال عمرو للقوال : أنشد . فقال :

(شعر عربى)

مالى مرضت فلم يعـــدنى عايـد   منكم ويمـــرض عبـــدكم فأعود

فلما سمع المريض ، نهض وجلس ، وقل لهب المرض وسلطانه ، وقال : زدنى . فأنشد القوال :

وأشـــد من مرضى على صدودكم   وصـــدود عبـــدكم على شديد

فنهض المريض وقد زايله المه(٢) ، وأذن له والده بصحبة عمرو ، وتاب عما كان يهجس فى قلبه ، وصار ذلك الحدث من عظماء الطريقة .

● **ومنهم** : مالك القلوب ، وماحى العيوب :

« **أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى** »(٣) رضى الله عنه . كان امام وقته ، ممدوحا بكل الألسن ، وله رياضات كثيرة ، ومعاملات طيبة ، وكلام لطيف فى الاخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول عنه علماء الظاهر : « هو جمع بين الشريعة والحقيقة » . وهذا خطأ ، لأن أحدا لا يفرق بينهما ، فالشريعة ليست سوى الحقيقة ، والحقيقة ليست سوى الشريعة . وهم يقولون هذا بحكم أن عبارات ذلك الشيخ اسهل فى الادراك ، وأيسر فى الفهم على الطبائع . وبما أن الحق تعالى قد جمع بين الحقيقة والشريعة ، فمحال أن يفرق بينهما أولياؤه .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف بسيط (أنظر ص ٢٠٢) .
(٢) وردت هذه الحكاية فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .
(٣) سهل بن عبد الله بن يونس ، صحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون المصرى سنة خروجه الى الحج بمكة . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الرسالة ج ١ ص ٨٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦١ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٥١ ، نفحات الانس ص ٦٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٤) .

واذا حصل الفرق ، فلا محالة أن يتأتى رد واحدة منهما وقبول الأخرى . ورد الشريعة الحاد ، ورد الحقيقة شرك .

وهذا الفرق الذى يفرقونه ليس لتفريق المعنى ، بل لاثبات الحد ، كقولك : « لا اله الا الله » ، فهذا حقيقة ، وقولك : « محمد رسول الله » شريعة . واذا أراد أحد — فى حال صحة الايمان — أن يفصل بينهما ، لا يستطيع ، وتكون ارادته باطلة .

وفى الجملة : الشريعة فرع الحقيقة ، كما أن المعرفة هى الحقيقة ، وقبول الأمر بالمعروف : شريعة ، وأهل الظاهر هؤلاء ينكرون مالا يتفق مع طباعهم ، والانكار لأصل من أصول طريق الحق أمر خطير . والحمد لله على الايمان .

ويرد عنه أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت على وجه أهل الأرض الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وروحه ودنياه وآخرته »(١) .

يعنى : أن كل من يعتقد أن له يدا فى نصيبه ، فذلك دليل على أنه جاهل بالله عز وجل ، لأن معرفته تقتضى ترك التدبير ، وترك التدبير تسليم ، واثبات التدبير من الجهل ، والله أعلم .

• **ومنهم** اختيار أهل الحرمين ، ولجملة المشايخ قرة العين :

« **أبو عبد الله محمد بن الفضل الباخى** »(٢) رضى الله عنه . كان من جلة الشيوخ ، ومرضيا لدى أهل العراق وخراسان ، ومريدا لأحمد ابن خضرويه . وكان لأبى عثمان الحيرى ميل عظيم اليه .

وقد أخرجه المتعصبون من بلخ لافتتان الناس بمذهبه ، فسار الى سمرقند(٣) ، وقضى هنا لك عمره .

يرد عنه أنه قال : « أعرف الناس بالله ، أشدهم مجاهدة فى أوامره ، وأتبعهم لسنة نبيه »(٤) .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته » (أنظر ص ٢٠٧) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) « سمرقند » : من أجل البلدان وأعظمها قدرا وأشدها امتناعا . انغلقت سمرقند بعد أن افتتحت عدة مرات لمنعتها وشجاعة رجالها وشدة أبطالها . افتتحها قتيبة بن مسلم الباهلى فى أيام الوليد بن عبد الملك وصالح ملوكها (البلدان ص ٥٨) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٤) .

وكل من يكون أقرب الى الحق ، يكون أحرص على اتباع أوامره ، وكل من يكون أبعد عنه يكون أبعد عن متابعة رسوله ، واشد اعراضا .

ويرد عنه أنه قال : « عجبت ممن يقطع البوادى والقفار والمفاوز حتى يصل الى بيته وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل الى قلبه لأن فيه آثار مولاه »(١) .

أى أن القلب ، وهو محل المعرفة ، أعظم من الكعبة وهى قبلة الخدمة .

والكعبة هى ما يكون اليه نظر العبد دائما ، والقلب ما يكون اليه نظر الحق دائما — حيثما يكون قلب الحبيب فأنا هنالك ، وحيثما يكون حكمه فمرادى هنالك ، وحيثما يكون اثر أنبيائى ، فقبلة أحبائى هناك — والله أعلم .

● **ومنهم :** الشيخ ذو الخطر ، والفانى عن أوصاف البشر :

« أبو عبد الله محمد بن على الترمذى »(٢) رضى الله عنه . كان كاملا واماما فى فنون العلم ، ومن الشيوخ المحتشمين ، وله تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة . مثل كتاب : « ختم الولاية » ، وكتاب « النهج » ، وكتاب « نوادر الأصول » . وقد عمل كتبا أخرى كثيرة غير هذه . وهو معظم لدى جدا لأن قلبى صيد له ، وكان شيخى يقول : « محمد در يتيم » ، اذ لا قرين لهفى العالم كله .

وله كتب فى علوم الظاهر ، واسناد عال فى الأحاديث . وكان قد بدأ تفسيرا ، فلم يف العمر باتمامه ، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عمـــله .

وكان قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة . ويسمونه فى ترمذ(٣) : محمد الحكيم ، ويقتدى به الحكيمية من المتصوفة . وله مناقب كثيرة ، منها أنه كان قد صحب الخضر عليه السلام .

ويروى مريده أبو بكر الوراق الترمذى أن الخضر كان يأتى اليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٤) .
(٢) سبق الاشـــارة اليه .
(٣) « ترمذ » : مدينة مشهورة . راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى . واشهر من اخرجتهم من العلماء أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، الترمذى الضرير ، صاحب الصحيح . أحد الائمة الذين يقتدى بهم فى الحديث (معجم البلدان ج ١ ص ٨٤٣) .

وورد عنه أنه قال : « من جهل أوصاف العبودية ، فهو بنعوت الربانية أجهل »(١) . أى : كل من لا يصل الى معرفة النفس وهى مخلوقة ، فانه لا يصل الى معرفة الحق تعالى وهو الخالق ، وكل من لا يرى آفات الصفة البشرية ، أنى له أن يرى لطائف صفات الربوبية ؟! لأن الظاهر يتعلق بالباطن ، وكل ما يتعلق بالظاهر دون الباطن ، محال . وكل ما يتعلق بالباطن دون الظاهر ، محال . فأوصاف الربوبية منعقدة فى صحة أركان العبودية ، ولا تصح بغيرها .

وهذه الكلمة أصيلة جدا ومفيدة ، وسنتمها فى موضعها ان شاء الله عز وجل .

● **ومنهم** : شرف زهاد الأمة ، ومزكى أهل الفقر والصفوة :

« **أبو بكر محمـــد بن عمر الوراق** »(٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وزهادهم ، رأى أحمد بن خضرويه ، وصحب محمد بن على ، وله كتب فى الآداب والمعاملات . وقد دعاه المشايخ رحمة الله عليهم : « مؤدب الأولياء » .

ويحكى عن محمد بن على الحكيم فيقول : أعطانى كراسة قائلا : ألقها فى جيحون(٣) ! فلم يطعنى قلبى ، واخفيتها فى منزلى ، وجئته وقلت : القيتها . فقال : ماذا رأيت ؟ قلت : لم أر شيئا . قال : لم تلقها ، عد والقها فى البحر . فرجعت وقد استحوذ وسواس ذلك البرهان على قلبى ، وألقيتها فى المـــاء ، فانشق المـــاء وظهر صندوق مفتوح ، فلما وقعت فيه أغلق الغطاء . فعدت ورويت له ما حدث ، فقال : الآن ألقيتها . وقلت : أيها الشيخ ! ما سر هذا ؟ حدثنى به . قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق ، يعجز الفهم عن ادراكه ، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام ، فأمر الله تعالى المـــاء أن يوصله اليه .

وورد عنه أنه قال : « الناس ثلاثة : العلماء والفقراء والأمراء . فاذا فسد العلماء ، فسد الطاعة ، واذا فسد الفقراء ، فسد الأخلاق ، واذا فسد الأمراء ، فسد المعاش »(٤) .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٩) .

(٢) سبق الاشـــارة اليه .

(٣) « جيحون » (نهر) : وهو اسم أعجمى . سمى بذلك لاجتياحه الارضين . وقال ابن الفقيه يجىء جيحون من موضع يقال له « ريوســاران » وهو جبـــل يتصل بناحية السند والهند وكابل ، ومنه عين تخرج من موضع يقال له « عندميس » (معجم البلدان ج ٢ ص ١٧١) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « الناس ثلاثة : العلماء والأمراء والقراء . فاذا فسد الأمراء فسد المعاش ، واذا فسد العلماء فسدت الطاعات ، واذا فسد القراء فسدت الأخلاق » (أنظر ص ٢٢٢) ، وورد فى طبقات الشعرانى باختلاف فى ترتيب الفئات (أنظر ج ١ ص ٧٣) .

ففساد الأمراء والسلاطين يكون بالجور ، وفساد العلماء يكون بالطمع ، وفساد الفقراء يكون بالرياء . وما لم يعرض الملوك عن العلماء ، لا يفسدون . وما لم يصحب العلماء الملوك ، لا يفسدون . وما لم يطلب الفقراء الرياسة — يعنى العظمة — لا يفسدون ، لأن جور الملوك من الجهل ، وطمع العلماء من عدم التدين ، ورياء الفقراء من عدم التوكل . فالأمير بلا علم ، والعالم بلا تقوى ، والفقير بلا توكل ، كلهم اقران الشيطان ، وفساد الخلائق جميعا مرتبط بفساد هذه الطوائف الثلاث .

● **ومنهم** : سفينة أهل التوكل والرضا ، وسالك طريق الفنا :

((**أبو سعيد بن عيسى الخراز**))(١) رضى الله عنه . وكان لسان أحوال المريدين ، وبرهان أوقات الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء . وله مناقب مشهورة ، ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متلألئة ، وكلام ورموز عالية . وقد صحب ذا النون المصرى وبشرا الحافى ، والسرى السقطى .

ويرد عنه أنه قال فى قول النبى عليه السلام : « جبلت القلوب على حب من أحسن اليها »(٢) : واعجبا لمن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته الى الله »(٣) . لأن الاحسان على الحقيقة هو ما يفعله مالك الأعيان . والاحسان هو عمل الخير لمن يكون فى حاجة الى ذلك الخير ، ومن يلزمه الاحسان من الغير ، كيف يستطيع الاحسان ؟

أى أن الملك والملك لله جل جلاله ، لأنه مستغن عن الغير ، وجميع أهل الدنيا والآخرة وما فى الكونين محتاجون اليه ، ولما عرف أحباء الحق هذا المعنى ، رأوا المنعم والمحسن فى الانعام والاحسان ، فصارت قلوبهم بكليتها أسيرة لمحبته ، وأعرضوا عن غيره . والله أعلم .

● **ومنهم** : شاهد المحققين ، ودليل المريدين :

((**أبو الحسن على بن محمد الأصفهانى**))(٤) رضى الله عنه . ويقال له

---

(١) من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصرى وأبا عبد الله النباجى وأبا عبيد البسرى . مات سنة تسع وسبعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٠ ، نفحات الانس ص ٧٣) .

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود : «جبلت القلوب على حب من أحسن اليها . وبغض من أساء اليها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣١) .

(٤) على بن سهل بن الأزهر . من قدماء مشايخ اصفهان . صحب محمد بن يوسف ابن معدان المعروف بالبناء المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٠ ، نفحات الانس ص ١٠٣) .

أيضا : « على بن سهل » . كان من كبار المشايخ . وللجنيد معه مكاتبات لطيفة . وقام عمرو بن عثمان بزيارته فى أصفهان .

وكان محفوظا من الفتن والآفة ، وذا لسان طيب فى الحقائق والمعاملات وبيان لطيف فى الدقائق والاشارات .

يرد عنه أنه قال : « الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات ، واليقين خطرات »(١) . لأن الحضور متوطن القلب ولا تجوز عليه الغيبة ، واليقين خاطر يرد حينا ويذهب حينا ، فالحاضرون يكونون فى الحضرة ، والموقنون على الأعتاب . وسأورد بابا فى الغيبة والحضور فى هذا الكتاب .

وقال رحمة الله عليه : « من وقت آدم الى قيام الساعة ، الناس يقولون: القلب ، القلب ، وأنا أحب أن أرى رجلا يصف ايش القلب أو كيف القلب ، فلا أرى »(٢) .

والعوام يسمون تلك القطعة من اللحم : القلب ، وتلك تكون للمجانين والصبية والأطفال والمغلوبين ، ولكنهم بلا قلب . فما هو القلب ، فاننا لا نسمع عنه الا العبارة .

اى : اذا اسمينا العقـــل القلب ، فذلك ليس القلب ، واذا كنا ندعو الروح قلبا ، فذلك ليس القلب . واذا قلنا للعلم القلب ، فهو ليس بالقلب . وقيام كل شواهد الحق بالقلب ، ولا يوجد منه سوى العبارة .

• **ومنهم :** شيخ أهل التسليم ، وفى المحبة : المستقيم :
« أبو الحسن محمد بن اسماعيل »(٣) :(خير النساج) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ فى وقته ، وذا معاملة وبيان حسن فى العظات ، وعبارة مهذبة فى الاشارات . عمر طويلا ، وتاب الشبلى وابراهيم الخواص كلاهما فى مجلسه ، وبعث بالشبلى الى الجنيد ، حفاظا على حرمة الجنيد رضى الله عنه .

وكان مريدا للسرى ، ومن أقران الجنيد ، وأبى الحسين النورى ، وكان الجنيد يحترمه كثيرا ، وقد أجازه أبو حمزة البغدادى .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣٤) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣٥) .
(٣) أصله من « سامرا » وأقام ببغداد . صحب أبا حمزة البغدادى . وكان من أقران النورى وطبقته . عمر مائة وعشرين سنة ، وتوفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٥ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١١ ، نفحات الانس ص ١٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٧) .

ويروى أن السبب فى تسميته بخير النساج ؛ انه عندما خرج من موطنه « سامرا »(١) قاصدا الحج ، مر بالكوفة ، فأمسك به مكار على باب الكوفة ، وقال له : أنت عبدى ، واسمك خير . فرأى ذلك من الحق ، ولم يخالفه . وظل سنوات طويلة يقوم له بالعمل ، وكلما كان يقول له : يا خير ! يقول : لبيك ، الى ان ندم الرجل على فعلته ، وقال له: اذهب ، لقد اخطأت ، ولست عبدى ! فذهب . وصار الى مكة ، وبلغ تلك الدرجة التى قال معها الجنيد : « خير خيرنا » .

وكان أحب اليه أن يدعى خيرا ، ويقول : لا يجوز أن اغير اسما اسمانى به رجل مسلم .

ويقال انه حين اقتربت وفاته ، حان وقت الصلاة ، فلما افاق من غشية الموت فتح عينيه ونظر نحو الباب ، وقال رضى الله عنه : « قف عافاك الله ، فانما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور . وما أمرت به لا يفوتك ، وما أمرت به فهو شىء يفوتنى ، فدعنى أمض فيما أمرت ثم امض بما أمرت »(٢) .

أى : دعنى أؤدى صلاة العشاء لأقضى أمر الحق . لأتركك أنا ايضا تؤدى أمر الحق . ثم طلب الماء وتوضأ ، وصلى صلاة العشاء ، واسلم الروح . رحمة الله عليه .

وقد رآه بعضهم فى النوم فى تلك الليلة ، فقيل له : ما فعل بك الله عز وجل ؟ قال رحمه الله : « لا تسألنى عن هذا . ولكن استرحت من دنياكم »(٣) .

ويرد عنه أنه قال فى مجلسه : « شرح الله صدور المتقين بنور اليقين وكشف بصائر الموقنين بنور حقائق الايمان »(٤) ، فحيثما يكن الايمان يكن اليقين ، وحيثما يكن اليقين تكن التقوى ، لأنهما قرينا أحدهما الآخر ، وكل واحد منهما تابع للآخر .

---

(١) « سامرا » : تخفيف « سر من رأى » وهى وبغداد مدينتا الملك ودار الخلافة . كانت صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الا دير للنصارى اشترى أرضه المعتصم العباسى سنة احدى وعشرين ومائتين وبنى المدينة وخط القطائع للقواد والكتاب والناس وخط المسجد الجامع والاسواق ، وأفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس وأفرد لكل مهنة مكانا وأخذ يزيد فى البناء حتى توفى سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الخلافة الواثق فزاد من عمرانها وسكنها من جاء بعده من الخلفاء (أنظر : البلدان ص ٢٢ — ٣٥) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف طفيف (أنظر ص ٣٢٣) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية « استرحت من دنياكم الوضرة » (انظر ص ٣٢٣) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية « شرح صدور المتقين ، وكشف بصائر المهتدين بنور حقائق الايمان » (أنظر ص ٣٢٤) .

● **ومنهم** : داعى العصر ، وفريد الدهر :

« **أبو حمزة الخراسانى** »(١) رضى الله عنه ، كان من قدماء مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب ، ورأى الخراز . وكان ذا قدم ثابتة فى التوكل .

ومن المشهور فى الحكايات أنه كان يسير يوما فى طريق ، فوقع فى بئر ، وظل بها ثلاثة أيام وليال ، فجاء جماعة من السيارة الى البئر ، فقال لنفسه ، اناديهم ، ثم قال : لا ، لا يحسن أن استعين بغير الحق ، وهذه تكون شكاية أشكوها اليهم ، فكأنى أقول : ان الله تعالى أوقعنى فى البئر فأخرجونى ! ولما اقبلوا ورأوا بئرا فى وسط الطريق بلا حائل وحاجز ، قالوا : تعالوا نغط رأس هذه البئر لكيلا يقع فيها أحد . قال : فاضطربت ويئست من حياتى . فلما احكموا فوهة البئر ومضوا ، ناجيت الحق تعالى، ووطنت قلبى على الموت ، ويئست من الخلق جميعا . فلما حل الليل ، سمعت صوتا من رأس البئر ، فلما أمعنت النظر ، نزع شخص الغطاء عن البئر ، فرأيت حيوانا ضخما ، فأمعنت النظر ، فكانت حية دلت بذيلها، فأدركت أن نجاتى فى ذلك ، وأنها رسول الحق تعالى وتقدس ، فتعلقت بذيلها حتى أخرجتنى . وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة ! ما احسنها نجاة نجاتك هذه ، فقد نجيناك من التلف بالتلف(٢) .

وسئل : من الغريب ؟ قال : « المستوحش من الالف »(٣) ، اذ لا وطن للفقير فى الدنيا والعقبى ، والالفة فى غير الوطن وحشة ، ومن تنقطع الفته من الكون مستوحش من الجميع ، ومن ثم يكن غريبا .

وهذه درجة رفيعة ، والله أعلم .

● **ومنهم** : داعى المريدين بحكم الأمر :

« **أبو العباس أحمد بن مسروق** »(٤) رضى الله عنه . كان من كبار وأجلة خراسان ، وكان باجماع أولياء الله عز وجل من أوتاد الأرض ، وقد صحب القطب المدار عليه .

---

(١) أصله من نيسابور من محلة ملقاباد . صحب مشايخ بغداد ، وهو من أقران الجنيد ، ومن أفتى المشايخ وأورعهم ، مات سنة تسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٢٦ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٣ ، نفحات الانس ص ٧٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة القشيرية مع اختلاف فى أن الذى نجاه : « سبع » (أنظر جا ص ٣٨٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٣٢٦) .

(٤) اسمه : أحمد بن محمد بن مسروق . من أهل طوس ، وسكن بغداد ، ومات بها . توفى سنة تسع وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٣١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٤ ؛ تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٥ ، نفحات الانس ص ٨٩) .

سئل : من القطب ؟ قال : لم يظهر ، ولكن يبدو من الاشارة أنه الجنيد رضى الله عنه ، فقد خدم أربعين من أصحاب التمكين وأفاد منهم ، وكان فارسا فى علوم الظاهر والباطن .

ويرد عنه أنه قال : « من كان سروره بغير الحق ، فسروره يورث الهموم ، ومن لم يكن أنسه فى خدمة ربه ، فانه يورث الوحشة(١) » .

اى أن كل ما سواه فناء ، وكل من يسر بالفناء فانه عندما يفنى الفناء يغتم . وكل ما سوى خدمته هباء ، وعندما تظهر حقارة المكونات يصير أنسه كله وحشة ، فغم كل العالم ووحشته فى رؤية الغير ، والله أعلم .

● **ومنهم** أستاذ المتوكلين ، وشيخ المحققين : « **أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربى(٢)** » رضى الله عنه . كان من كبار ومقدمى وقته ، ومقبول الأساتذة فى زمانه ، ومراعيا لمريديه .

وكان ابراهيم الخواص وابراهيم بن شيبان كلاهما من مريديه . وله كلام عال وبراهين واضحة ، وقدم راسخة فى التجريد .

ويرد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا انصف من الدنيا ، ان خدمتها خدمتك ، وأن تركتها تركتك(٣) » .

اى أنها تطلبك مادمت تطلبها ، واذا أعرضت عنها واقبلت على خدمة الله تعالى تفر منك ، ولا يتعلق فكرها بقلبك ، فكل من يعرض بصدق عن الدنيا يأمن شرها ، وينجو من آفتها ، ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** : شيخ زمانه ، وأوحد عصره وأوانه : « **أبو على الحسن بن على الجوزجانى(٤)** » رضى الله عنه . كان منقطع النظير فى وقته ، وله تصانيف زاهرة فى علم المعاملات ورؤية الآفات .

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « من لم يكن أنسه فى خدمة ربه فهو من أنسه فى وحشة » (أنظر ص ٢٤١) .

(٢) أبو عبد الله المغربى : صحب على بن رزين . وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين سنة ، ومات على جبل طور سيناء ، وقبره عليه ، مع قبر أستاذه على بن رزين . مات سنة تسع وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٤٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٦ ، نفحات الانس ص ٩٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٤٣) .

(٤) ورد فى الاصل : أبو على الحسن بن على « الجرجانى » . وورد فى طبقات الصوفية : « أبو على الجوزجانى » ، وفى نفحات الانس : « أبو العلى الجوزجانى » : من كبار مشايخ خراسان .. له التصانيف المشهورة . تكلم فى علم الافات والرياضات المجاهدات ، صحب محمد بن على الترمذى (٢٨٥ هـ) ومحمد بن الفضل (٣١٩ هـ) وهو قريب السن منهما . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص٢٤٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٨ ، نفحات الانس ص ١٢٨) .

وكان مريد محمد بن على ، ومن أقران أبى بكر الوراق . وكان ابراهيم السمرقندى مريدا له .

يرد عنه أنه قال : « الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون ، وعلى الظنون يعتمدون ، وعندهم أنهم فى الحقيقة يتقلبون ، وعن المكاشفة ينطقون(١) » .

وكانت اشارة الشيخ الى خيلاء الطبع ورعونة النفس ، لأن الشخص وان يكن جاهلا فانه يعتقد فى جهله ، وبخاصة جهال المتصوفة . وكما أن علماءهم أعز ما خلق الله ، فجهالهم أذل ما خلق الله ، فما يكون لعلمائهم حقيقة يكون لجهالهم ظنا لا حقيقة . وهم يرتعون فى ميدان الغفلة ويخالونه ميدان الولاية ، ويعتمدون على الظن ويخالونه يقينا ، ويسيرون مع الرسم ويظنونه حقيقة ، وينطقون عن الهوى ويتوهمون انه المكاشفة ، لأن الظن لا يفارق راس الآدمى الا برؤية جلال الحق وجماله ، لأنه فى اظهار جماله يرونه كل شىء فيفنى ظنهم ، وفى كشف جلاله لا يرون أنفسهم فيتبدد ظنهم ، والله أعلم .

● **ومنهم :** باسط العلوم ، وواسط الرسوم : **((أبومحمد أحمد بن الحسين الجريرى(٢)))** رضى الله عنه . كان من أصحاب سر الجنيد ، وأدرك صحبة سهل بن عبد الله . وكان خبيرا فى مختلف العلوم ، وامام الوقت فى الفقه ، وعلى علم جيد بالأصول ، وبلغ فى طريقة التصوف درجة جعلت الجنيد يطلب منه أن يؤدب مريديه ، ويشرف على رياضاتهم . وكان بعد الجنيد ولى عهده الذى خلفه .

ويرد عنه أنه قال : « دوام الايمان وقوام الأديان وصلاح الأبدان فى خلال ثلاث : الاكتفاء ، والأتقاء ، والاحتماء . فمن اكتفى بالله صلحت سريرته ، ومن اتقى ما نهى الله عنه استقامت سيرته ، ومن احتمى ما لم يوافقه ارتاضت طبيعته ، فثمرة الاكتفاء صفوة المعرفة ، وعاقبة الاتقاء حسن الخليقة ، وغاية الاحتماء اعتدال الطبيعة(٣) » .

أى أن كل من يكتفى بالله : تصفو معرفته ، وكل من يستمسك بالمعاملة : يحسن خلقه فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى عليه السلام : « من كثر

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٤٨) .
(٢) أبو محمد الجريرى : ىقال ان اسمه : أحمد بن محمد بن الحسين . مات سنة احدى عشرة وثلثمائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٥٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٢ ، نفحات الانس ص ٣٩١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٦) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « قوام الاديان ، ودوام الايمان ... الخ » (أنظر ص ٢٦٢) .

صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار(١) . و فى خبر آخر ان المتقــين يأتون يوم القيامة « ووجوههم نور على منابر من نور » . وكل من يسلك طـــريق الاحتماء : يحفظ جسده من العلة ، ونفسه من الشهوة .

وهذه أقوال جامعة وحسنة ، والله أعلم .

● **ومنهم** : شيخ الظرفاء ، وقدوة الأصفياء : **« أبو العباس أحمد بن سهل الآدمى »(٢)** رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ واكثرهم حشمة،مبجلا بين اقرانه ، وعالمــا بعلوم التفسير والقراءات ، وكان ذا بيان فى فهم القرآن ولطائفه ، اختص به .

وكان من كبار مريدى الجنيــد ، وصحب ابراهيم المارستانى . وكان أبو سعيد الخراز يجله كثيرا ، ولا يسلم لأحد غيره بالتصوف .

ويرد عنه أنه قال : « السكون الى مألوفات الطبع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق(٣) » .

اى أن كل من يسكن الى مألوفات الطبع يتخلف عن الحقيقة ، لأن الطباع أدوات النفس وآلاتها ، والنفس محل الحجاب ، والحقيقة محل الكشف ، والمريد المحجوب والساكن لا يكاشف أبدا ، فادراك الحقائق منعقد فى الأعراض عن مألوفات الطبائع . والطبع يألف اثنتين ، احداهما : الدنيا وأخواتها ، والأخرى : العقبى وأحوالها ، فهو يألف الدنيا بحكم الجنسية ، ويألف العقبى بحكم الظن . والفه يكون مع وهم العقبى لا مع عين العقبى ، لأنه لو عرفها حق المعرفة ، لانقطع عن هذه الدار الفانية ، واذا ما انقطع عن هذه (أى الدنيا) تفنى ولاية الطبع ، ومن ثم يكون كشف الحقائق، لأنه لا صلة لتلك الدار (أى العقبى) بالطبع الا بفناء الطبع ، « لأن فيها مالا خطر على قلب بشر » . وخطر العقبى فى أن طريقها مملوء بالخطر ، وكل ما يخطر فى الخواطر ليس فيه كثير خطــر . ولمــا كان الوهم عاجزا عن معرفة حقيقة العقبى ، فكيف يكون للطبع الف مع عينها ؟

أذن ، فقد صح أن الف الطبع يكون مع وهم العقبى ، والله أعلم .

● **ومنهم** : مستغرق المعنى ، ومستهلك الدعوى : **« أبو مغيث الحسين**

---

(١) رواه ابن ماجه عن جابر : « من كثرت صلاته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣١٤) .

(٢) هو أبو العباس بن عطاء : سبق الاشارة اليه .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٧٢) .

ابن منصور الحلاج(١) » رضى الله عنه ، كان من سـكارى هذه الطريقة ومشتاقيها ، وذا حال قوى وهمة عالية .

ومشايخ هذه الطريقة مختلفون فى شأنه ، فهو مردود عند طائفة ، ومقبول عند أخرى ، فقد رده فريق من أمثـال عمرو بن عثمان ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأبى يعقوب الأقطع ، وعلى بن سهل الاصفهانى وغيرهم . وقبله ابن عطاء ، ومحمـد بن خفيف ، وأبو القاسم النصر ابادى وجملة المتأخرين من الصوفية . وتوقف فى أمره فريق مثـل : الجنيد والشبلى والجريرى والحصرى وغيرهم ، ونسبة فريق آخر الى السحر وأسبابه .

أما فى أيامنا هذه ، فقد كان للشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، والشيخ أبى القاسم الجرجانى ، والشيخ أبى العباس الشقانى — رضى الله عنهم — فى حديثه سر ، وكان لديهم معظما . وأما الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه ، فيقول : اذا كان من أرباب المعانى والحقيقة فلن يصير مهجورا بهجر من رده ، وان يكن مردودا من الحق ومقبولا من الخلق ، فلن يصير مقبولا بقبول الخلق . ونحن نتركه لله بحكم التسليم ، ونجله بقدر ما وجدنا فيه من دلائل الحق(٢) . ولا ينكر كمال فضله وصفاء حاله وكثرة مجاهداته ورياضاته الا قلة من جملة الشيوخ .

وقد كان من غير الأمانة اغفال ذكره فى هذا الكتاب ، لأن بعض أهل الظاهر يكفرونه وينكرون عليه ، وينسبون أحواله الى العذر* والاحتيال والسحر ، ويظنون أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الحلاج(٣) ، ذلك الملحد البغدادى الذى كان أستاذ محمد بن زكريا ، ورفيـق سعد القومطى . ولكن الحسين هـذا الذى اختلف فى أمره كان فارسيا من بيضاورد(٤) ، ولم يكن هجر المشايخ له يعنى الطعن فى دينه ومذهبه ، بل فى حال دنياه ، فقد كان فى بداية أمره مريد سهل بن عبد الله وانصرف عنه دون استئذان ، واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق

---

(١) ارجع الى ما ورد عن الحلاج فى القسم الاول .

(٢) امتنع القشيرى عن ايراد ترجمة للحلاج ضمن تراجم الشيوخ فى القسم الخاص بالتراجم فى الرسالة . * هكذا فى الاصل (يمذر) . عذر الرجل عذرا وعذرا (لازم) كثرت ذنوبه وعيوبه : (أقرب الموارد) .

(٣) كان الهجويرى اول من طرق فكرة أنه كان هناك شخصان باسم الحلاج : أحدهما « الحسن بن منصور » الملحد المنسوب الى بغداد ، والآخر « الحسين بن منصور » الحلاج الحقيقى الفارسى المنسوب الى بيضاورد . وقد نقل « العطار » فى تذكرة الاولياء و « محمد بارسا » فى فصل الخطاب هذه الفكرة عنه .

(٤) « البيضاء » (بيضا ورد) : مدينة بفارس وهى أكبر مدينة فى كورة اصطخر . وانما سميت البيضاء لان لهاقلعة تبين من بعد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للمسلمين يقصدونها فى فتح اصطخر . وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ (معجم البلدان ج ١ ص ٧٩١) .

بالجنيد فلم يقبله ، ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل .

أما رأيت أن الشبلى قال : « انا والحلاج شىء واحد فخلصنى جنونى وأهلكه عقله » ؟ فلو كان مطعونا فى دينه لما قال الشبلى انا والحلاج شىء واحد ، وقال محمد بن خفيف : « هو عالم ربانى(١) » ومثل هذا ، فغضب شيوخ الطريقة والمشايخ — رضى الله عنهم — وعقوقهم ، أثمر الهجران والوحشة .

وله تصانيف زاهرة ورموز وكلام مهذب فى الأصول والفروع . وانا على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفا(٢) فى بغداد ونواحيها ، وبعضها فى خوزستان(٣) وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعا — كما هو الحال فى بداية أمر المريدين — أقوالا : بعضها أقوى ، وبعضها أضعف ، وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع . وحين يكون لانسان دليل وبرهان من الحق وتواتيه العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقا ، خاصة وأن المعبر يغرب فى عبارته ، وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ، وتعجز العقول عن ادراكه ، ومن ثم يقولون ان هذا الكلام عال ، فينكره فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون انكارهم كاقرارهم . ولكن حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون بالغرابة ، ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من انكاره واقراره .

ثم ان هؤلاء الذين نسبوا ذلك الرجل الى السحر باطل زعمهم ؛ لأن السحر فى أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، واظهار السحر فى حال الكمال كفر ، واظهار الكرامة فى حال الكمال معرفة ، لأن الأول يكون نتيجة سخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة رضاه . وسنزيد هذا الكلام شرحا فى باب اثبات الكرامات ان شاء الله تعالى .

وباجماع أهل البصيرة من أهل السنة والجماعة ، لا يكون المسلم ساحرا والكافر مكرما ، لأن الأضداد لا تجتمع . وكان الحسين رضى الله عنه طوال عمره فى لباس الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ،

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٣٠٨) .

(٢) ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين كتابا من كتب الحلاج (أنظر الفهرست ص ٢٧١)

(٣) « خوزستان » : (معربها « الاخواص ») وهو اسم لجميع بلاد الخوز . قال ابن الفقيه الاصمعى : الخوز هم الفعلة الذين بنوا الصرح . وقال أبو زيد : وليس بخوزستان جبال ولا رمال الا شىء يسير يتاخم نواحى تستر وجند يسابور . وأما أرض خوزستان فأشبه شىء بأرض العراق . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩٦) .

وصيامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونكات لطيفة فى التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . فصح اذن أنها كانت كرامات ، والكرامات لا تكون الا لولى محقق .

وقد رده بعض أهل الأصول ، وهم يعترضون عليه فى كلماته التى تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، وذلك مبالغة منه وتهويل فى العبارة لا فى المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته فى غلبة الحال .

ويجوز أيضا أن يكون معنى العبارة مشكلا فلا يستطيعون فهم المعنى المقصود ، ويصور لهم وهمهم صورة عنه ، فينكرونه ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى .

غير انى ريت فريقا من الملاحدة — أخزاهم الله — فى بغداد ونواحيها يدعون توليهم له ، وقد جعلوا أقواله حجة لزندقتهم ، وأسموا أنفسهم الحلاجيين . وهم يغالون فى أمره كغلو الرافضة(١) فى تولى على رضى الله عنه .

وسأورد بابا فى الفرق بين الفرق أرد فيه على كلماتهم ان شاء الله عز وجل .

وفى الجملة : أعلم أنه لا يجوز الاقتداء بكلامه لانه كان مغلوبا فى حاله لا متمكنا ، وينبغى للكلام متمكن حتى يمكن الاقتداء به . وهو عزيز على قلبى كثيرا بحمد الله ، ولكن طريقه غير مستقيمة على أى أصل ، وحاله غير مستقر على أى وجه ، وفى أحواله فتن كثيرة . وكان لى فى ابتداء حالى منه قوى فى معنى البراهين . وقد صنفت قبل هذا كتابا فى شرح كلامه ، وأثبت بالدلائل والحجج علو كلامه وصحة حاله فى ذلك الكتاب ، وذكرت بدايته ونهايته فى كتاب آخر اسمه المنهاج ، وقد أوردت هنا أيضا هذا المقدار . والطريق الذى ينبغى اثبات أصله بكثير من الاحتراز ، لماذا ينتمى الناس اليه ويقتدون به ؟ ولكن الهوى لا يتفق أبدا مع الاستقامة ، ويبحث دائما عن الطريق المعوج ليتعلق به .

---

(١) « الرافضة » : فرقة من الشيعة سمت بذلك لانه لما خرج زيد بن على بن الحسين سئل عن رأيه فى أبى بكر وعمر فأحسن القول فيهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة من أجل توليه لهما فسموا رافضة . وانقسم الشيعة اذ ذاك فريقين : رافضة وزيدية ، وكلاهما يفضل عليا على أبى بكر وعمر ، ولكن الزيدية أقل طعنا عليهما وأعدل حكما فيهما .
« ضحى الاسلام » أحمد أمين : القاهرة ١٩٥٦ ج ٣ ص ١٣٦

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « الألسنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات »(١) .

وهذه العبارة كلها آفة ، وفى حقيقة المعنى هذر . واذا حصل المعنى لا بفقد بالعبارة ، واذا فقد المعنى لا يوجد بالعبارة ، لأن الوهم يظهر فيها ويهلك الطالب ، لأنه يخال العبارة : المعنى . والله أعلم .

● **ومنهم :** قائد المتوكلين ، ورئيس المستسلمين : **« أبواسحق ابراهيم ابن أحمد الخواص(٢) »** رضى الله عنه . كان ذا شأن عظيم ومنزلة رفيعة فى التوكل ، أدرك كثيرا من الشيوخ ، وله آيات وكرامات كثيرة ، وتصانيف طيبة فى معاملات هذه الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « العلم كله فى كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت »(٣) .

والمراد من هذا هو أن لا تتكلف فى القسمة ، لأن القسمة الأزلية لا تتغير بتكلفك . ولا تقصر فى الأمر لأن ترك الأمر يثمر لك العقوبة .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت منها الكثير ، ولكن ليس فيها ما هو أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب منى أن يصحبنى فلم أجبه . قيل : لم ؟ قال : لا لأنى كنت أطلب رفيقا خيرا منه ، ولكنى خشيت أن أعتمد عليه دون الحق ، وتضر صحبته بتوكلى ، وأتخلف بالنافلة عن الفريضة .

وهذا من درجات الكمال ، والله أعلم .

● **ومنهم :** حجاب الأسرار والتمكين . وأساس اهل اليقين : **« أبوحمزة البغدادى البزاز(٤) »** رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومتكلميهم ،

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ألسنه مستنطقات تحت نطقها مستهلكات . وأنفس مستعملات تحت استعمالها مستهلكات » (أنظر ص ٣١٠) .

(٢) ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل : كان أوحد المشايخ فى وقته ، ومن أقران الجنيد والنورى . مات فى جامع الرى سنة احدى وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٨٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٤٩ ، نفحات الانس ص ١٣٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٨٥) .

(٤) اسمه : محمد بن ابراهيم . كان يتكلم ببغداد فى مسجد الرصافة قبل كلامه فى مسجد المدينة . وكان ينتمى الى حسن المسوحى . وتكلم يوما فى جامع المدينة ، فتغير عليه حاله ، وسقط عن كرسيه ، ومات فى الجمعة الثانية . كان من رفقاء أبى تراب النخشبى فى أسفاره ، ودخل البصرة مرارا . وتوفى سنة سبع ومائتين =

ومريد الحارث المحاسبى ، وصحب السرى . وكان من أقران النورى وخير النساج ، وصحب محتشمى المشايخ .

كان يعظ فى مسجد الرصافة فى بغداد ، وكان عالمـــا بالتفسير والقراءات ، وله فى أحاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

وكان رفيق النورى فى وقعته وبلائه اللذين خلصهما الله تعالى منهما، وسأذكر ذلك فى شرح مذهب النورى ان شاء الله عز وجل .

ويرد عنه أنه قال : « اذا سلمت منك نفسك فقد أديت حقها ، واذا سلم منك الخلق قضيت حقوقهم(١) » .

أى أن الحقوق اثنان : أحدهما حق نفسك عليك ، والثانى حق الخلق عليك فاذا منعت نفسك من المعصية ، وطلبت طريق سلامة أخراها ، فانك تكون قد قضيت حقهـــا ، واذا أمنت الخلق من أذاك ولم تطلب اســـاءتهم ، فانك تكون قد قضيت حقهم . فاجتهد أن لا يصيبك والخلق منك أذى ، ومن ثم انشغل بقضايا حق الحق . والله أعلم .

● **ومنهم** : الامام فى فنه ، العالى الحال ، اللطيف الكلام : « **أبوبكر محمد ابن موسى الواسطى** »(٢) رضى الله عنه . كان من محققى المشايخ ، وذا شأن عظيم ودرجة رفيعة فى الحقائق ، ومرضيا لدى جملة المشايخ .

وكان من قدماء أصحاب الجنيد ، وذا عبارات غامضة لا يفهمها أهل الظاهر . ولم يستقر ببلد قط ، فلما ورد مرو قبله أهلها للطف طبعـــه وحسن سيرته ، وسمعوا أقواله . وقضى هنالك عمره .

ويرد عنه أنه قال:« الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره(٣)» لأنه اذا ذكره الذاكر ، فلا ضير اذا نسى ذكره ، وانما الضير فى أن يذكر ذكره وينساه ، لأن الذكر غير المذكور ، فالاعراض عن المذكور مع ذكر الذكر يكون أقرب الى الغفـــلة من الاعراض بلا ذكر ، ولا يكون للناسى فى النسيان وغيبة الذكر حضور .

= ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٥٩ ، نفحات الانس ص ٧١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٦) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : اذا سلمت منك نفسك فقد أديت حقها ، واذا سلم منك الخلق فقد أديت حقوقهم (أنظر ص ٢٩٨) .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « الذاكرون فى ذكره أكثر من الناسين لذكره ، لان ذكره سواه » (أنظر ص ٣٠٥) .

وللذاكر فى الذكر والغيبة عن المذكور : ذكر الحضور ، وذكر الحضور بلا حضور أقرب الى الغفلة من الغيبة بلا ذكر ، لأن هلاك طلاب الحق فى ذكرهم ، فحيثما يكون الذكر أكثر ، يكون المعنى أقل . وحيثما يكون المعنى أقل ، يكون الذكر أكثر . وحقيقة ذكرهم من تهمة العقل ، والعقل يحصل من الهمة ، ولا اقتران للهمة قط بالنهمة والتهمة .

وأصل الذكر يكون فى الغيبة أو الحضور ، فحين يكون للذاكر غيبة عن نفسه وحضور مع الحق تعالى ، فانه لا يكون ذكرا ، بل مشاهدة . وحين يكون غائبا عن الحق وحاضرا مع نفسه ، فذلك لا يكون ذكرا ، بل غيبة ، والغيبة من الغفلة ، والله أعلم .

● **ومنهم** : سكينة الأحوال ، وسفينة المقال : ((**أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى**))(١) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومذكوريهم ، وذا حال مهذب ووقت مطيب مع الحق تعالى ، وله اشارات لطيفة ومقبولة ، « كما قال واحد من المشايخ المتأخرين : ثلاثة من عجائب الدنيا : اشارات الشبلى ، ونكات المرتعش ، وحكايات جعفر » .

وكان من كبار أهل التصوف وسادات الطريقة . وكان أولا ابن حاجب حجاب الخليفة ، وتاب فى مجلس خير النساج رحمه الله ، وصار مريدا للجنيد ، ورأى كثيرا من المشايخ .

يرد عنه أنه قال فى معنى قول الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم »(٢) أى : أبصار الرءوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سوى الله » ، فمتابعة الشهوة وملاحظة المحارم من الغفلة ، والمعصية الكبرى لأهل الغفلة هى أنهم يجهلون عيوبهم ، ومن يكن جاهلا فى الدنيا يكن أيضا جاهلا فى الأخرى ، لقوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى »(٣) .

وفى الحقيقة أنه اذا لم يطهر الله قلب انسان من ارادة الشهوة ، فانه لا يحفظ عينه من غوامضها ، واذا لم يثبت ارادته فى قلب انسان فانه لا يحفظ بصيرته من النظر الى الغير .

ويرد عنه أنه دخل السوق يوما ، فقال قوم : « هذا مجنون » ! . فقال رضى الله عنه : « أنا عندكم مجنون وأنتم عندى أصحاء ، فزاد الله فى جنونى وزاد فى صحتكم » ، فجنونى من شدة المحبة ، وصحتكم من غاية

---

(١) سبق الاشارة اليه .
(٢) سورة « النور » آية ٣٠
(٣) سورة « الاسراء » آية ٧٢

الغفلة ، فليزد الله فى جنونى لأزداد قربا على قرب ، وليزد فى صحتكم(١) لتزدادوا بعدا على بعد .

وهذا القول من الغيرة ، والا فكيف يكون فى تلك الدرجة شخص لا يميز بين المحبة والجنون ؟!

● **ومنهم** : حاكى أحوال الأولياء بألطف الأقوال والأداء :
« أبو محمد جعفر بن نصير الخلدى (٢) » رضى الله عنه ، كان من كبار أصحاب الجنيد ، ومن قدماء الصوفية ، متبحرا فى فنون هذا العلم ، وحافظ أنفاس المشايخ وراعى حقوقهم .

وله كلام عال فى كل فن ، وقد ربط كل مسألة بحكاية ونسبها الى غيره ، تجنبا للرعونة .

ويرد عنه أنه قال : « التوكل استواء القلب عند العدم والوجود »(٣) .

أى أن التوكل هو أن يكون وجود الرزق وعدمه لدى قلبك سواء ، فلا تفرح بوجود الرزق ، ولا تغتم لعدمه ، لأن الجسد ملك للمالك ، والحق تعالى أولى برعايته وهلاكه ، وهو يحفظه كما يريد فلا تتدخل بينهما ، ودع الملك للمالك ، واقطع تصرفك .

ويروى هذه الحكاية فيقول : دخلت على الجنيد فوجدته محموما ، فقلت يا استاذ ! ادع الحق تعالى أن يشفيك . فقال : لقد كنت أدعو بالأمس فنوديت فى سرى : ان جسدك ملك لنا ، فاذا شئنا جعلناه صحيحا ، واذا شئنا جعلناه عليلا ، فمن أنت حتى تتدخل بيننا وبين ما نملك ؟ فاقطع تصرفك لتكون عبدا . والله أعلم بالصواب .

---

(١) الكلمة الفارسية فى الاصل تعطى معنى « صحوكم » .

(٢) اسمه : جعفر بن محمد بن نصير . بغدادى المنشأ والمولد . صحب الجنيد وأبا الحسين النورى وغيرهم من مشايخ الوقت . وكان المرجع اليه فى علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم . كان من أفتى المشايخ وأجلتهم وأحسنهم قولا . توفى ببغداد سنة ثمان وأربعين وثلثمائة . أسند الحديث ورواه . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٣٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٣ ، نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : سئل عن التوكل فقال : استواء القلب عند العدم والوجود ، بل الطرب عند العدم والخمول عند الوجود ، بل الاستقامة مع الله تعالى على الحالين » (أنظر : ص ٤٣٧) .

ومنهم الشيخ المحمود ، ومعدن الجود :

« **أبو على بن محمد بن القاسم الروذبارى(١)** » رضى الله عنه كان من فتيان التصوفة وقادتهم ، ومن أبناء الملوك ، وذا شأن عظيم فى فنون المعاملات ، ومناقب كثيرة وأقوال لطيفة فى دقائق الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « المريد لا يريد لنفســه الا ما أراده الحق له ، والمراد لا يريد من الكونين شيئا غيره(٢) » ، فيجب أن يكون الراضى بارادة الحق تاركا لارادته ، ليكون مريدا . وليس للمحب نفسه ارادة حتى يكون له مراد ، ومن يريد الحق لا يريد الا ما يريده له . والمراد من الحق لا يريد غير الحق ،فالرضا من بداية المقامات ، والمحبة من نهاية الأحوال . والمقامات تنسب الى تحقيق العبودية ، والدرجات تنسب الى تأييد الربوبية . وما دام الأمر كذلك ، يكون المريد قائما بنفسه ، ويكون المراد قائما بالحق ، والله أعلم .

● **ومنهم** : خازن التوحيد ، وسمسار التفريد :

« **أبو العباس القاسم بن مهدى السيارى(٣)** » رضى الله عنه . كان من أئمة عصره ، عالما بعلوم الظاهر والباطن ، صحب أبا بكر الواسطى ، وأخذ الأدب عن كثير من المشايخ .

وكان أظرف القوم فى الصحبة ، وأزهدهم فى الآفة ، وله كلام عال وتصانيف محمودة .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد أن لا يخطر بقلبك ما دونه(٤) » . لأن التفكير فى الغير من اثباتهم ، واذا ثبت الغير : سقط حكم التوحيد .

وكان فى البداية من بيت علم ورئاسة ، ولم يكن أحد من أهل مرو يتقدم على أهل بيته فى الجاه ، وورث عن أبيه ميراثا كبيرا ، فدفعه كله ثمنا لشعرتين من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن الله عليه بالتوبة

---

(١) كنيته أبو على ، واسمه : أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار . من أهل بغداد . سكن مصر وصار شيخها ومات بها . صحب الجنيد والنورى ومن فى طبقتهم ، وصحب بالشام ابن الجلاء . كان عالما فقيها عارفا بعلم الطريقة ، حافظا للحديث . توفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٥٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٥١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٣).

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٥٦) .

(٣) اسمه القاسم بن القاسم بن مهدى ، كان من أهل مرو وشيخهم ، وأول من تكلم عندهم فى حقائق الاحوال . كان فقيها عالما ، كتب الحديث الكثير ورواه . توفى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٤٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٤ ، نفحات الانس ص ١٤٥ ، خزنة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « حقيقة المعرفة أن لا يخطر بالقلب مادونه » (أنظر ص٤٤٤)

ببركات ذلك ، وصحب أبا بكر الواسطى رحمه الله ، وبلغ من الدرجة أن صار امام صنف من المتصوفة . ولما أشرف على ترك الدنيا ، أوصى فوضعوا الشعرتين فى فمه .

وقبره اليوم ظاهر بمرو ، والنـــاس يذهبون اليه لطلب الحاجات ، وتحقيق الأمنيات ، وهو مجرب ، والله أعلم .

● **ومنهم :** مالك وقته فى التصوف ، والخالى طبعه من التكلف والتصرف ، **« أبو عبد الله محمد بن خفيف(١) »** رضى الله عنه . كان امام زمانه فى مختلف العلوم ، وذا شأن عظيم فى المجاهدات ، وبيان شاف فى الحقائق ، وعهد مهيأ وواضح فى التصانيف . وقـــد أدرك ابن عطاء ، والشبلى ، والحسين بن منصور والجريرى ، وصحب أبا يعقوب النهرجورى بمكة ، وقام بأسفار طيبة على التجريد .

وكان من أبناء الملوك ، فرزقه الله تعالى التوبة ، وأعرض عن الدنيا ، وشأنه عظيم عند أهل المعانى .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد : الاعراض عن الطبيعة » . لأن الطبائع كلها مكفوفة عن نعمائه ، ومحجوبة عن آلائه ، فما لم يحصل الاعراض عن الطبع ، لا يتأتى الاقبال على الحق ، وصاحب الطبع محجوب عن حقيقة التوحيد . ومتى رأيت آفة الطبع ، بلغت حقيقة التوحيد .

وله آيات وبراهين كثيرة . والله أعلم .

● **ومنهم :** سيف السياسة ، وشمس السعادة :
« أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى »(٢) رضى الله عنه . كان من كبار أهل التمكين ، ذا حظ وافر فى فنون العلم ، وصاحب رياضات وسياسات ، وله فى رؤية الآفات آيات كثيرة وبراهين طيبة .

---

(١) كان شيخ المشايخ فى وقته . وكان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٤) .

(٢) سعيد بن سلام : من ناحية « قيروان » وهى مدينة عظيمة بأفريقية ، مصرها عقبة ابن نافع بعد أن أتم فتح أفريقية . أقام بالحرم مدة وكان شيخه . كان أوحد فى طريقته فى الزهد . ورد نيسابور ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٧٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٧ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٨١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٦) .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب » .

أى قال : ان الصحبة تكون مع الأغنياء ، والمجالسة تكون مع الفقراء . فانما يعرض عن الفقراء من يكون قد جالسهم ، لا من يكون قد صحبهم — لأنه لا اعراض فى الصحبة — وحين ينصرف عن مجالستهم الى صحبة الأغنياء ، يموت قلبه بموت الاحتياج ، ويبتلى جسده بالعجب والغرور ،

واذا كان الاعراض عن المجالسة يثمر موت القلب ، فكيف يكون الاعراض عن الصحبة ؟

وقد ظهر فى هذه الكلمات الفرق بين الصحبة والمجالسة ، والله أعلم .

● **ومنهم :** المبارز فى صفوف الصوفيين ، والمعبر عن أحوال العارفين ، **« أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محمويه**(١) **النصر ابادى**(٢) » رضى الله عنه . كان فى نيسابور كالملك شابور(٣) من نشابور ، أى أنه ملك نيسابور بعلو الحال ومرتبة الرجال ، غير أن عز الملوك يكون فى الدنيا ، وعزه فى الآخرة.

وله كلمات بديعة وآيات رفيعة . وكان مريد الشبلى وأستاذا للمتأخرين من اهل خراسان . ولم يكن له مثيل فى عصره ، فقد كان أعلم وأورع أهل زمانه فى فنون العلم .

---

(١) ورد هذا الاسم فى الأصل « محمود » وفى الحاشية « حمويه » وفى طبقات الصوفية ونفحات الأنس « محمويه » .

(٢) أبو القاسم النصرابادى : نيسابورى الأصل والمنشأ والمولد . شيخ خراسان فى وقته . أقام بنيسابور ثم خرج فى آخر عمره الى مكة وحج سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وأقام بالحرم مجاورا ، مات سنة سبع وستين وثلثمائة . كتب الحديث الكثير ورواه ، وكان ثقة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٨٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٨١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١١ ، نفحات الأنس ص ٢٣٠) .

(٣) « شابور » : سابور الأول ابن أردشير بن بابك : الملك الساسانى . تولى الملك بعد أبيه سنة ٢٤١ م ، وفى أيامه ظهر « مانى» وقال بالآيتين ، وعاب مذهبه . ومال سابور اليه . وقال مانى ان مدبر العالم اثنان وهما شيئان قدمان : نور وظلمة ، خالقان : فخالق خير وخالق شر . فأجابه سابور الى هذه المقالة وأخذ بها أهل مملكته .وأقام سابور على هذه المقالة عشر سنين ثم رجع عن الثنوية الى المجوسية ، وهم بقتل مانى ، فهرب الى بلاد الهند ، وأقام بها حتى مات سابور .

وفى حروبه مع الرومان انتصر عليهم وحاصر ملكهم « فاليريان » بمدينة انطاكية ، وأسره وحمله وجماعة كثيرة معه وأسكنهم « جندى سابور » . ولكن سابور هذا الذى تغلب على الروم ، استطاع « أذينة » العربى حاكم « تدمر » أن يهزمه وعلى اثر هذه الهزيمة استولى على آسيا الصغرى والشام وجزء كبير من العراق ، واعترف به الامبراطور الرومانى « جالينوس » وخلع عليه لقب امبراطور . وخلفته زوجته « الزباء » بعد وفاته ، واستطاعت بوصفها وصية على ابنها « وهب اللات » أن تدفع اغارة الجيوش على تدمر .

يرد عنه أنه قال(١) : « أنت بين نسبتين : نسبة الى آدم ، ونسبة الى الحق . فاذا انتسبت الى آدم دخلت فى ميادين الشهوات ، ومواضع الآفات والزلات ، وهى نسبة تحقق البشرية لقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا(٢) » . فاذا انتسبت الى الحق دخلت فى ميادين الكشف والبراهين والعصمة والولاية ، وهى نسبة تحقق العبودية لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا(٣) » .

ونسبة آدم منقطعة يوم القيامة ، ونسبة عبوديته قائمة دائمة ولايتطرق اليها التغير . وعندما ينسب العبد نفسه الى نفسه أو الى آدم ، فان كمال هذه النسبة أن يقول : « انى ظلمت نفسى(٤) » . وحين ينتسب الى الحق يكون الآدمى أهلا لقول الحق تعالى : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم(٥) » . والله أعلم .

● **ومنهم** : سرور سر سالكى الطريق ، وجمال أرواح أهل التحقيق ، « **أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى(٦)** » رحمه الله ، ورضى عنه . كان من محتشمى أحرار حضرة الحق تعالى ، ومن كبراء أئمة المتصوفة ، ولم يكن له نظير فى زمانه ، وله كلام عال وعبارات حسنة فى كل المعانى .

= ويتصل بتاريخ سابور أيضا قصته مع صاحب « الحضر » — وكان يقال له : « الساطرون » أو « الضيزن » — وابنته « النضيرة » التى عشقت سابور وعشقها ، واتفقت معه على حيلة يستطيع بها أن يدخل مدينة أبيها بجيوشه ويقتله فى مقابل أن يتزوجها ، ففعل وتداعت المدينة ففتحها عنوة وقتل الضيزن وخرب المدينة وحمل معه النضيرة وتزوجها ثم لم يلبث أن قتلها . وينسب الى سابور بناء مدينة نيسابور فى خراسان ، ومدينة « جندى سابور » فى الاهواز . وملك سابور احدى وثلاثين سنة . (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٢٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٠٤ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٧ — ٥١) .

(١) ورد هذا القول فى طبقات الصوفية : « أنت بين نسبتين : نسبة الى الحق ، ونسبة الى آدم . فاذا انتسبت الى الحق دخلت فى مقامات الكشف والبراهين والعظمة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » ، وقال : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . وقال : فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . واذا انتسبت الى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

(٢) سورة « الأحزاب » آية ٧٢ .

(٣) سورة « الفرقان » آية ٣٦ .

(٤) سورة « القصص » آية ١٦ .

(٥) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

(٦) أبو الحسن الحصرى : بصرى الأصل وسكن بغداد . كان شيخ العراق ولسانها ، ومن أجل المشايخ . له لسان فى التوحيد يختص هو به ، ومقام فى التفريد والتجريد مسلم له ، لم يشاركه فيه أحد بعده .
استاذ العراقيين وبه تأدب من تأدب منهم . صحب الشبلى وغيره ، وتوفى سنة احدى وسبعين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٨٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٩٨ ، المنتظم ج ٧ ص ١١٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

يرد عنه أنه قال : « دعونى فى بلائى ، هاتوا مالكم . ألستم من أولاد آدم الذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، ثم امره بأمر فخالف ، اذا كان أول الدن درديا(۱) فكيف يكون آخره ؟(۲) » .

أى أنه اذا ترك الآدمى لنفسه يكون كله مخالفة ، أما اذا وافاه بعنايته يكون كله محبة .

فعدد حسن عناية الحق ، وقابلها بقبح معاملتك ، واقض العمر فى هذا . وبالله العون والعصمة .

هذا طرف من سيرة بعض المتقدمين من المتصوفة واهل القدوة منهم رضى الله عنهم ، ولو ذكرتهم جميعا وشرحت أحوالهم العزيزة ، واوردت حكاياتهم فى هذا الكتاب لعجزت عن المقصود ، ولطال الكتاب .

والآن : ألحق بهم فريقا من المتأخرين لتكون الفوائد والموائد أكثر ، وبالله العون والتوفيق .

---

(۱) « درد » كلمة فارسية تعنى : رواسب الخمر فى الدن .
(۲) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٤٩٠) .

الباب الثانى عشر

باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين رضوان الله عليهم اجمعين

اعلم — خيرك الله — أنه يوجد فى زماننا هذا جماعة لا قدرة لهم على تحمل الرياضة ، وهم يطلبون الرياسة بدون الرياضة ، ويظنون كل أهل التصوف مثلهم ، وعندما يسمعون أقوال السلف ، ويرون شرفهم ، ويقرأون معاملاتهم ، ينظرون فى أنفسهم فيرون أنهم بعيدون عنهم ، ولكنهم لايقصدون الى القول : اننا لسنا كذلك ، ولكن يقولون : لم يبق فى زماننا أمثال هؤلاء. وقولهم هذا محال ، لأن الله تعالى لا يترك الأرض أبدا بلا حجة ، ولا هذه الأمة بلا ولى ، كما قال النبى عليه السلام : « لا يزال طائفة من أمتى على الخير والحق حتى تقوم الساعة » ، ولقوله عليه السلام : « لا يزال من أمتى أربعون على خلق ابراهيم »(١) .

وفريق من أولئك الذين أذكرهم فى هذا الباب قد ماتوا وأسلموا الروح للراحة والروح ، وفريق أحياء ، رضى الله عنهم وعنا وعن جميع المسلمين، واشملنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

● **ومنهم** : طراز طريق الولاية ، وجمال جمع أهل الهداية :

« أبو العباس أحمد بن محمد القصاب »(٢) رضى الله عنه . وقد أدركه

---

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « لا يزال من أمتى أربعون على خلق ابراهيم عليه السلام ، اذا جاء الأمر قبضوا » (انظر ص ٢) .

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم القصاب الآملى : خليفة محمد بن عبد الله الطبرى ، ومريد أبى محمد الجريرى . شيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، لجأ اليه أبو سعيد بعد وفاة مرشده أبى الفضل محمد بن حسن السرخسى ، وسافر اليه فى آمل وظل يمارس الرياضة تحت اشرافه عاما ، ونال على يديه الخرقة الثانية . توفى فى أواخر

المتقدمون منا وصحبوه ، وهو معروف ومشهور بعلو الحال ، وصدق فراسة المقال ، وكثرة البراهين والكرامات .

ويقول أبو عبد الله الخياط امام طبرستان(١) : من أفضال الله عز وجل ان صير فينا رجلا غير متعلم نسأله اذا أشكل علينا شيء فى علوم الدين وأصوله ودقائق التوحيد ، وهو أبو العباس القصاب رضى الله عنه .

وكان أميا ، غير أن أقواله ونكاته فى علم التصوف والأصول كانت رفيعة جدا . وكان فى ابتداء حاله وانتهائه عظيما وحسن السيرة . وقد سمعت عنه حكايات كثيرة ، ولكن مذهبى فى هذا الكتاب هو الاختصار .

يقال ان صبيا كان قد أمسك بزمام بعير يحمل حملا ثقيلا ، وكان يسير به فى سوق آمل(٢) — ويوجد وحل هنالك دائما — فانزلقت رجل البعير ووقع وانكسرت رجله ، فقصـــد الناس انزال الحمل عن ظهـــر البعير ، واستغاث الصبى . ومر بهم (أبو العباس) وقال : ماذا حدث ؟ فأخبروه ، فأمسك رضى الله عنه بزمام البعير ، واتجه الى السماء قبلة الدعاء ، وقال: الهم أشف هذا البعير ، واذا لم تشأ أن تبرئه ، فلم أحرقت قلب القصاب ببكاء هذا الصبى ! وفى الحال نهض الجمل ، ومضى صحيحا معافى .

ويرد عنه أنه قال : يجب على العالم جميعا — أرادوا أو لم يريدوا — أن يأنسوا بالله ، والا فانهم يتألمون . لأنك اذا أنست به ترى المبلى فى البلاء فلا يكون البلاء بلاءا ، واذا لم تأنس به فانه عندما يحل البلاء تتأذى ، والله تعالى لا يغير تقديره برضاء أحد أو سخطه ، فرضاؤنا بحكمه راحة لنا ، وكل من يأنس بالله يرتاح قلبه ، وكل من يعرض عنه يتألم لورود القضاء . والله أعلم .

= القرن الرابع الهجرى.قبل له : ألف السلمى كتابا فى طبقات الشيوخ . فسأل : هل ذكر اسمى فيه ؟ قالوا : لا . قال : لم يفعل شيئا . (انظر ترجمته فى تذكرة الأولياء جـ٢ ص ١٨٥ ، نفحات الأنس ص ٢٨٦ ، وما ورد عنه من اشارات فى أسرار التوحيد الترجمة العربية ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩) .

(١) « طبرستان » : بلد منفرد له مملكة جليلة ولم تزل ملكه يسمى الاصبهبد . وهو بلد كثير الحصون منيع بالأودية وأهله أشراف العجم أبناء ملوكهم (البلدان ص ٤٣) غزاها سعيد بن العاص فى عهد عثمان بن عفان (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٠١) .

(٢) « آمل » : مدينة طبرستان الثانية . من الرى اليها مرحلتان . وآمل على بحـــر الديلم . (البلدان ص ٤٣) .

● **ومنهم** : بيان المريدين ، وبرهان المحققين :

((**أبو على الحسن بن محمد بن على الدقاق**))(١) رضى الله عنه . كان امام فنه ، منقطع النظير فى زمانه ، وذا بيان صريح ولسان فصيح فى كشف طريق الله تعالى . رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وكان مريد النصرابادى ، ويذكر الناس .

يرد عنه أنه قال : « من أنس بغيره ضعف فى حاله ، ومن نطق من غيره كذب فى مقاله » ، لأن الأنس بالغير غلبة فى الجهل وعدم المعرفة ، والأنس به وحشة من الغير . والمستوحش من الغير لا ينطق عن الغير .

وسمعت شيخا يقول : ذهبت يوما الى مجلسه وانا أنوى أن أسأله عن حال المتوكلين ، وكان قد لبس عمامة طبرية حسنة ، فمال اليها قلبى . وقلت له : أيها الشيخ ! ما التوكل ؟ قال : أن تقصر الطمع عن عمائم الناس . قال هذا وألقى الى بالعمامة ، رضى الله عنه .

● **ومنهم** : الامام الأوحد ، وشرف أهل الزمان :

((**أبو الحسن على بن أحمد الخرقانى**))(٢) رضى الله عنه . كان من أجلة المشايخ وقدمائهم ، وممدوحا فى وقته من جميع أولياء الله . وقد قصد الشيخ أبو سعيد زيارته ، وكانت له معه محاورات لطيفة فى كل فن . وحين كان يهم بالعودة قال له (الخرقانى) قد اخترتك لولاية عهدى .

وسمعت من حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبى سعيد أنه عندما ذهب الشيخ الى (أبى الحسن الخرقانى) لم يتحدث قط ، وكان فقط يستمع اليه، ويجيب على أسئلته . وقلت له : أيها الشيخ ! لم صمت هكذا ؟ فلم يجب بغير كلمة واحدة هى : كفى(٣) .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيرى رضى الله عنه يقول : عندما بلغت

---

(١) ابو على الدقاق الصوفى . استاذ ابى القاسم القشيرى وصهره . توفى فى نيسابور سنة خمس وأربعمائة ، ويقول آخر سنة ست وربعمائة . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٧٧ ، نفحات الأنس ص ٢٩١ ، سفينة الأولياء ص ١٥٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١٤ ، شذرات الذهب ص ١٧٨) .

(٢) أبو الحسن الخرقانى : اسمه على بن جعفر . مريد أبى العباس القصاب ، ومن معاصرى أبى على الدقاق وأبى عبد الرحمن السلمى وأبى سعيد بن أبى الخير . من الصوفية اصحاب السكر ، والمروجين لوحدة الوجود ، فقد كان يعتنق مذهب أبى بزيد البسطامى . توفى سنة خمس وعشرين وأربعمائة . (انظر ترجمته فى : تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٠١ ، نفحات الأنس ص ٢٩٨ ، رياض العارفين ص ٤٧ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥٢٢) .

(٣) انظر قصة زيارة أبى سعيد للخرقانى فى أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٦٠ وما بعدها .

خرقان(١) انتهت فصاحتى وزالت عبارتى من حشمة ذلك الشيخ ، حتى ظننت أنى عزلت عن ولايتى .

ويرد عنه انه قال : الطريق طريقان : طريق الضلالة ، وطريق الهداية ، فطريق الضلالة هو طريق العبد الى الله ، وطريق الهداية هو طريق الله الى العبد . وكل من يقول : وصلت ، لم يصل . وكل من يقول : أوصلونى ، وصل ، لأن الايصال منعقد فى الوصول ، وعدم الوصول مرتبط بالوصول ، والله أعلم .

● **ومنهم :** ملك وقته وزمانه ، والمفرد فى بيانه وعيانه :

أبو عبد الله محمد بن على المعروف بالداستانى(٢) » رضى الله عنه . كان عالما بأنواع العلوم ، وسائسا مهذبا ، ومن محتشمى حضرة الحق . وله أقوال مهذبة ، واشارات لطيفة .

وكان الشيخ السهلكى(٣) ، امام تلك الديار خلفا طيبا له . وقد سمعت من السـهلكى بعض أقواله ، وهى أقوال عالية وطيبة جـدا ، كقوله : « التوحيد عنك موجود ، وانت فى التوحيد مفقود » .

اى أن التوحيد صحيح عنك ، ولكنك غير صحيح فى التوحيـد ، لأنك لاتقوم بمقتضى حقه . وأقل درجة فى التوحيد ، نفى التصرف عنك فى الملك ، واثبات التسليم فى أمورك للحق عز وجل .

قال الشيخ السهلكى(٣) : فى وقت من الأوقات هجم الجراد على بسطام ، وقد اسودت الأشجار والمزروعات جميعا من كثرته ، فضج الناس بالدعاء . وسألنى الشيخ : ماذا حدث ؟ قلت : أقبل الجراد والناس فى عناء منه .

---

(١) « خرقان » : قرية من قرى بسطام على طريق استرآباد بها قبر أبى الحسن على ابن أحمد . له كرامات . مات سنة ٤٢٥ هـ (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٤) .

(٢) أبو عبد الله الداستانى : من أقران أبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير ، ومن أتباع مذهب أبى يزيد البسطامى . كان يلقب بشيخ المشايخ . توفى سنة سبع عشرة وأربعمائة (أنظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٩٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢١٦) .

(٣) كان شيخ الصوفية فى بسطام . أشار اليه ابن الاثير فذكر أنه عندما حمل الشيخ أبو اسحاق الشيرازى رسـالة الخليفة المقتـدى بالله الى السـلطان ملكشاه السلجوقى والوزير نظام الملك ، كان كلما وصل الى مدينة من بلاد العجم خرج أهلها لاستقباله . ولما وصل بسطام خرج اليه السهاكى شيخ الصوفية بها ، وهو شيخ كبير ، فلما سمع أبو اسحاق بوصوله خرج اليه ماشيا ، فلما رآه السهلكى ألقى نفسه من دابة كان عليها ، وقبل يد الشيخ أبى اسحاق ، فقبل أبو اسحاق رجله وأجلسه فى موضعه . (ابن الاثير : انظر حوادث سنة ٤٧٥) . وهذه القصة وردت أيضا فى المنتظم فى ترجمة أبى اسحاق الشيرازى (انظر المنتظم ج ٩ ص ٧)

فنهض الشيخ وصعد الى السطح ، ورفع وجهه نحو السماء ، فطار الجراد كله فى الحال ! وعند صلاة العصر لم تبق منه واحدة ، ولم تتلف ورقة زرع لأحد . والله أعلم .

● **ومنهم :** سلطان السلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين :

« أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهنى(١) » رضى الله عنه . كان سلطان الطريقة ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال .

كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة ، وشأن عظيم فى درجة الاشراف على الأسرار . وكان له — غير هذا — آيات وبراهين كثيرة ، كما هو ظاهر من آثاره اليوم فى العالم .

ترك فى بداية حاله « ميهنه(٢) » وذهب الى « سرخس(٣) » لطلب العلم ، واتصل بأبى على زاهر(٤) رحمه الله ، وكان يصوم يوما كل ثلاثة أيام ، ويقضى تلك الأيام الثلاثة فى العبادة ، الى أن رأى فيه ذلك الامام الرشد ، وزاد فى تعظيمه .

وكان ولى الصوفية فى سرخس فى ذلك الوقت الشيخ أبوالفضل حسن(٥) رحمة الله عليه،وذات يوم كان (أبو سعيد) يسير على شاطىء نهر سرخس، فتقدم اليه أبو الفضل حسن وقال : يا أبا سعيد ! ليس هذا طريقك الذى تسير فيه ، فاسلك طريقك . فتعلق به الشيخ ، ورجع من عنده الى موطنه ، وانشغل بالرياضة والمجاهدة ، حتى فتح الحق عليه باب الهداية ، وأوصله الى الدرجة الأعلى .

---

(١) سبق التعريف به فى القسم الأول ضمن الشخصيات التى تأثر بها الهجويرى .

(٢) « ميهنه » : من قرى خابران . وهى ناحية بين أبيورد وسرخس قد نسب اليها جماعة من أهل العلم والتصوف منهم أبو سعيد أسعد بن أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير وأبو الفتح طاهر وكانا من اهل التصوف وبيته (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢٣) .

(٣) « سرخس » من قرى خابران مثل نسا وابيورد .وقد فتحت هذه البلاد فى سنة ٣٠ فى أيام عثمان رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٧١) .

(٤) أبو على زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسى : الفقيه المقرىء . كان من كبار الشافعية ، وشيخ عصره فى خراسان . وكان يعد من تلاميذ الأشعرى فى علم الكلام . توفى سنة تسع وثمانين وثلثمائة : « طبقات الشافعية » انظر : ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٤٣ .

(٥) أبو الفضل حسن : اسمه محمد بن الحسن السرخسى : نسبة الى سرخس . كان مريدا لأبى نصر السراج الطوسى ، ومرشدا لأبى سعيد بن أبى الخير . توفى فىأواخر القرن الرابع الهجرى ، ودفن بموطنه سرخس وقبره بها . (انظر ماورد عنه فى أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٢ — ٧٢ ، ترجمته فى تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٣٧ ، نفحات الأنس ص ٢٨٤) .

سمعت الشيخ أبا مسلم الفارسى(١) يقول : كنت معه دائما فى خصومة. وذات يوم ذهبت اليه وقد ارتديت مرقعة صارت كالجلد من القذارة . ولما دخلت عليه وجدته جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية ، فقلت لنفسى : هذا الرجل يدعى الفقر مع كل هذه العلائق ، وأنا أدعى الفقر مع كل هذا التجريد ، فكيف أكون على وفاق معه ؟ فأشرف على ما يجول بفكرى ، ورفع رأسه وقال : يا أبا مسلم ! فى أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما فى مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ .

أى أن أصحاب المشاهدة أغنياء بالحق ، والفقراء هم أرباب المجاهدات . قال (أبو مسلم) فندمت على ظنى ، وطلبت منه المغفرة على سوء ظنى .

يرد عنه أنه قال : « التصوف : قيام القلب مع الله بلا واسطة » ، وهذا أيضا اشارة الى المشاهدة .

والمشاهدة تتأتى من غلبة المحبة ، واستغراق الصفة فى تحقيق الشوق والرؤية ، وفناء الصفة ببقاء صفة الحق . وسأذكر فى كتاب الحجج بابا فى المشاهدة ووجودها ، ان شاء الله عز وجل .

فى وقت من الأوقات ، خرج (أبو سعيد) من نيسابور قاصدا طوس ، وكان فيها عقبة شديدة البرودة ، وكانت قدماه تتجمدان فى نعله . قال درويش : فكرت فى أن أشق الفوطة نصفين وألقى بهما على قدميه ، ولم يطاوعنى قلبى لأنها كانت فوطة جميلة جدا . وعندما بلغنا طوس قلت فى المجلس : فليفرق لنا الشيخ بين وسواس الشيطان والهام الحق ؟ قال : الالهام هو ما قيل لك أن مزق الفوطة حتى لاتبرد أقدام « أبى سعيد » والوسواس هو ما منعك .

وقد تواتر عنه من ذلك كثير ، وليس هذا مرادنا . والله أعلم .

● **ومنهم** زين الأوتاد ، وشيخ العباد :

« أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى(٢) » رضى الله عنه ، وبه قدونى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب فى التصوف مذهب الجنيد .

---

(١) أبو مسلم الفارسى : فارس بن غالب . من شيوخ الصوفية فى فارس . أدرك أبا عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، وكان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى الفتح بن سالبه المتوفى سنة ٤٧٣ هـ . أشير اليه فى أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٥٢ ، شد الازار ص ١٨٠ حاشته ٣

(٢) ارجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن شيوخ الهجويرى ، وانظر ترجمته فى: نفحات الانس ص ٣١٥ ، خزينة الأصفياء جـ ٢ ص ٢٣١ .

كان مريد الحصرى(١) وصاحب سره ، ومن أقران أبى عمرو القزوينى(٢) ، وأبى الحسن بن سالبة(٣) . وقد ظل ستين عاما وهو يفر الى الزوايا طلبا للعزلة الصادقة ، واختفى اسمه من بين الخلق ، وكان كثيرا ما يلجأ الى جبل اللكام .

عمر طويلا ، وكانت له روايات وبراهين كثيرة ، غير أنه لم يكن يرتدى ثياب المتصوفة ويمارس رسومهم ، وكان شديدا مع أهل الرسم . ولم أر قط من هو أكثر منه مهابة .

وسمعته يقول : « الدنيا يوم ، ولنا فيها صوم » . أى أننا لا نأخذ منها شيئا ، ولا نتقيد بقيودها ، لأننا رأينا آفتها ، ووقفنا على حجبها ، فأعرضنا عنها .

وذات يوم كنت أصب الماء على يديه للوضوء ، وجال بخاطرى أنه مادامت الأعمال بالتقدير والقسمة ، فلم يجعل الأحرار انفسهم عبيدا للشيوخ ؟ فقال لى : يا بنى ! عرفت ما فكرت فيه . واعلم أن لكل حكم سببا ، وحين يريد الحق تعالى أن يتوج صبيا بتاج الكرامة ، فانه يمنحه التوبة ، ويشغله بخدمة حبيب لتصير هذه الخدمة سببا لكرامته .

وكانت تظهر لنا منه كل يوم لطائف كثيرة كهذه .

ويوم أن وافته الوفاة « ببيت الجن » — وهى قرية على رأس عقبة بين بانيار ودمشق — كانت رأسه فى حجرى ، وكان قلبى ممتعضا من أحد أصحابى ، كما هى عادة الآدميين ، فقال لى : يا بنى ! سأحدثك فى مسألة من الاعتقاد ، فاذا قومت نفسك عليها نجوت من كل الآلام ! اعلم أن الله عز وجل هو خالق الأحوال من خير وشر ، فى كل مكان ، فلا ينبغى أن تعترض على فعله أو تألم له .

ولم يوص بأكثر من هذا ، وأسلم روحه للحق . رحمة الله عليه ، ورضى الله عنه ، وسقاه صوب رضوانه .

---

(١) سبق الاشارة اليه .
(٢) أبو الحسن على بن عمرو القزوينى الزاهد . أشار اليه ابن الأثير وذكر أنه كان من الصالحين . روى الحديث والحكايات والأشعار (انظر : الكامل حوادث ٤٤٢ ، صفوة الصفوة جـ ٢ ص ٢٧٥) .
(٣) سبق الاشارة اليه :

● **ومنهم** : الاستاذ الامام ، وزين الاسلام :

« **أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى(١)** » رضى الله عنه ، البديع فى زمانه ، والرفيع فى قدره . ومنزلته كبيرة ومعلومة لأهل زمانه . وله من أحواله وأنواع فضله لطائف كثيرة فى كل فن ، وتصانيف نفيسة كلها محققة . وقد حفظ الله تعالى حاله ولسانه من الحشو .

وسمعته يقول : « مثل الصوفى كعلة البرسام : أوله هذيان ، وآخره سكوت ، فاذا تمكن خرس » .

فالصفوة لها طرفان : أحدهما الوجد ، والآخر الدليل . فالدليل يكون للمبتدئين ، والتعبير عن الدليل فى الدليل هذيان . والوجد يكون للمنتهين ، والتعبير عن الوجد فى الوجد محال .

والطالبون ماداموا فى حال الطلب ، فانهم يتحدثون فى الهمة بعلو الهمة ، والنطق يبدو لأهل المنى : هذيانا ، فاذا ما وصلوا فانهم أيضا لاتبقى لهم الى الوصول عبارة واشارة .

ومثال هذا : أن موسى ، حينما كان مبتدئا ، كانت همته كلها محصورة فى الرؤية ، فعبر عن الهمة ، كما ورد فى قوله تعالى بشأنه : « أرنى أنظر اليك »(٢) . وقد بدت هذه العبارة هذيانا لعدم ادراك المقصود .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان فى نهاية حاله ومتمكنا ، وعندما وصل شخصه الى مقام الهمة فنيت همته ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك(٣) » . وهذه منزلة رفيعة ، ومقام عال .

● **ومنهم** : الشيخ الأوحد ، وفى طريقه المفرد :

« **أبو العباس أحمد بن محمد الشقانى(٤)** » رضى الله عنه . كان اماما فى فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا فى جميع المعانى ، رأى كثيرا من المشايخ وكان من كبار أهل التصوف وأجلتهم .

---

(١) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن من تأثر بهم الهجويرى .
(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .
(٣) ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (أنظر اللمع ص ١٥٨) .
(٤) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الأول ضمن شيوخ الهجويرى .

وكان يعبر عن طريقه فى الفناء بعبارة مغلقة اختص بها . وقد رأيت طائفة من الجهلة قلدوه فى تلك العبارات ، واختاروا شطحاته . والتقليد غير محمود فى المعنى ، فكيف به فى العبارة ؟ ! .

وكان لى معه أنس عظيم ، وكان يشـــفق على شفقة صـــادقة ، وكان أستاذى فى بعض العلوم . ولم أر طيلة حياتى قط رجلا من أى صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

وقد انقطع عن كل الموجودات ، ولم يكن يفيد منه غير الامام المحقق لدقة عباراته . وكان طبعه دائما ينفر من الدنيا والعقبى ، ويصيح قائلا : « اشتهى عدما لاعود فيه » . وكان يقول بالفارسية : لكل آدمى غاية مطلوب ، ولا بد لى أيضا من غاية مطلوب ،وأنا أعلم يقينا أن ذلك لن يتحقق ، لأن غايتى هى أن يحملنى الله تعالى الى عدم ليس له وجود قط ، لأن كل ماهو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الآدمى عاشقا لحجابه ، والعدم فى المشاهدة خير من الراحة مع الحجاب . ولما كان الحق جل جلاله وجودا لا يجوز عليه العدم ، يكون هناك ضرر فى ملكه اذا جعلنى عدما ، لأن ذلك العدم ليس له وجود قط .

وهذا أصل قوى فى صحة الفناء . والله أعلم .

● **ومنهم** : قطب زمانه ، وفريد عصره وأوانه :
« **أبو القاسم على الجرجانى**(١) » رضى الله عنه وأرضاه . لا نظير له فى وقته ، ولا بديل له فى زمانه ، وكانت له بداية طيبـــــة ، وقام بأسفار شـــاقة فى المعـــاملة . وتتجـــه اليـــه فى هـــذا الوقت قـــلوب أهل الحضرة جميعـــا ، ويعتمـــد عليـــه جمـــلة الطالبين . وهـــو آية ظاهرة فى كشف وقائع المريدين ، وعالم بفنـــون العـــلم ، وكل من مريديه زينة لعالم . وســـيبقى له من بعـــده خـــلف طيب يـــكون ان شـــاء الله قدوة القوم ، وهو لســـان الوقت أبو على الفضل بن احمد الفارمدى(٢) ــ أبقاه الله ــ الذى تخلى عن نصيبه فى حق ذلك الشيخ العظيم ، وأعرض عن الكل ، وجعله الحق تعالى وتقدس ببركاته لسان حال ذلك السيد .

وذات يوم كنت جالسا فى حضرة الشيخ (أبى القاسم الجرجانى) أعدد أحوالى والرؤى التى ظهرت لى ، لأصفى عليه وقتى ، لأنه ناقد الوقت ، وكان هو رضى الله عنه يصغى الى فى احترام . وكانت نخوة الصبى وجذوة

---

(١) ارجع الى ما ورد عنه فى القسم الأول ضمن شيوخ الهجويرى .
(٢) سبق الاشارة اليه فى القسم الأول .

الشباب تجعلنى حريصا على قول ذلك ، وقد خطر لى أن : عسى الشيخ لايكون قد مر بهذا فى البداية ، فهو يبدى نحوى كل هذا الخضوع ، ويتودد الى . ورأى هو فى الحال هذا فى باطنى ، فقال : ياحبيب أبيك ! ان خضوعى ليس لك أو لحالك ، لأن محول الأحوال يجىء فى محل المحال ، فخضوعى هذا لمحول الأحوال . وهذا الذى حدث لك ، يكون عاما لكل الطالبين ، وليس خاصا بك . فلما سمعت هذا أسقط فى يدى ، فرأى ذلك فى ، وقال : يابنى ! ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهوه العبارة ، فنفيه واثباته ، وفقده ووجوده كلاهما زهو ، والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو ، ويجب عليه أن يستمسك بأعتاب العبودية ، ويدفع عن نفسه كل نسبة غير الآدمية والطاعة .

وكانت لى معه من بعد ذلك أسرار كثيرة ، ولو شغلت باظهار الآيات لعجزت عن المقصود ، والله أعلم .

● **ومنهم** : رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء :
((أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان(١))) رضى الله عنه . كان متربعا فى الرياسة ، وقد فتح الله عز وجل عليه ابواب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة . وكان له بيان حسن وعبارة عالية فى الفناء والبقاء .

قال شيخ المشايخ أبو سعيد رحمة الله عليه : لقد جىء بنا الى ساحة الحق عن طريق العبودية ، وجىء بالشيخ المظفر اليها عن طريق السيادة .

أى اننا أدركنا المشاهدة بالمجاهدة ، وجاء هو الى المجاهدة بالمشاهدة .

وقد سمعته يقول : ان ما ادركه العظماء بقطع البوادى والمفازات أدركته وأنا جالس على الحشايا فى الصدارة .

ويحمل جماعة من أصحاب الرعونة هذا القول من الشيخ على الادعاء ، وذلك لنقص كياستهم ، لأن عبارته عن صدق حاله وليست ادعاء ، وبخاصة أنه كان ذا أهل . وقد بقى لنا منه اليوم خلف طيب وعظيم ، وهو السيد « أحمد » سلمه الله .

وكنت لديه ذات يوم ، وكان عنده رجل من أدعياء نيسابور ، وكان يقول فى حديثه : أنه يفنى حينما يبقى . فقال له السيد المظفر رحمة الله عليه :

---

(١) ارجع الى ماورد عنه فى القسم الأول ضمن أساتذة الهجويرى .

كيف يتأتى البقاء على الفناء ؟ والفناء عبارة عن العدم ، والبقاء اشارة الى الوجود ، وكل واحد منهما ينفى الآخر ، أى أنه ضده .

والفناء معروف ، أما اذا فنى ، فانه ان وجد ، لا يكون عين ذاك ، وانما يكون شيئا آخر .

ولا يجوز أن تفنى الذوات ، ولكن فناء الصفة وفناء السبب جائز ، فاذا فنيت الصفة والسبب ، يبقى الموصوف والمسبب ، ولا يجوز الفناء على ذاته .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : اننى لم أذكر عين عبارة ذلك السيد ، أما معناها فهو هذا الذى ذكرته . وأوضح الآن المراد من هذه العبارة لتصير أعم .

والمراد منها : أن اختيار العبد صفة له ، والعبد محجوب باختياره عن اختيار الحق ، فصفة العبد حجاب له عن الحق .

واختيار الحق أزلى لا محالة ، واختيار العبد محدث ، ولا يجوز الفناء على الأزلى . وحين يبقى اختيار الحق فى حق العبد ، فان اختياره يفنى لا محالة ، وينقطع تصرفه ، والله أعلم .

وقد دخلت عليه يوما فى القيظ القائظ ، بثياب الطريق ، أشعث ، فقال لى : قل لى ما تريد فى الحال ؟ قلت : يلزمنى السماع . فأرسل شخصا فى الحال ، فأحضروا القوال وجماعة من أهل الطرب . وصيرتنى جذوة حداثتى ، وقوة ارادتى ، وحرقة بدايتى مضطربا فى السماع ، فلما انقضى على ذلك وقت ، وقل فى سلطان تلك الآفة وغليانها ، قال لى : كيف كان حالك فى هذا السماع ؟ قلت : أيها الشيخ ! كنت مسرورا جدا . فقال : سوف يأتى وقت يكون هذا ونعيق الغراب كلاهما لديك سواء ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع . واياك أن تتعود هذا حتى لا يصير طبيعة لك ، وتتخلف بذلك .

والله المستعان ، وعليه التكلان ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

الباب الثالث عشر

باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان

واذا ذكرنا الآن الجميع ، وشرحنا أحوالهم فى هذا الكتاب فانه يطول ، واذا أغفلنا البعض فان المقصود لا يتحقق أيضا .

والآن : أذكر فى هذا الكتاب هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون (أحياء) فى عهدى من أحاد القوم ومشايخهم من أرباب المعانى ، ممن هم غير أصحاب الرسوم ، لأكون أقرب الى حصول مرادى ان شاء الله عز وجل .

من كانوا فى الشام والعراق ، منهم :

« الشيخ زكى بن علاء » : كان من كبار المشايخ ، وسادات الزمان . وقد وجدته شعلة من شعل المحبة ، وذا آيات وبراهين ظاهرة .

والشيخ الكبير : « أبو جعفر محمد بن المصباح الصيدلانى » كان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان حسن فى التحقيق ، وميل عظيم الى الحسين ابن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه .

و « أبو القاسم السدسى » : كان شيخا صاحب مجاهدة ، طيب الحال ، وراعيا للدراويش وموضع اعتقادهم بحسن الاعتقاد .

أما أهل فارس ، فمنهم :

شيخ الشيوخ : « أبو الحسين بن سالبه(1) » : وكان لسانه فى التصوف أفصح لسان ، وبيانه فى التوحيد أوضح بيان ، وله أقوال معروفة .

---

(1) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

والشيخ المرشد : « أبو اسحاق بن شهريار(١) » : وكان من محتشمى القوم ، وذا مهابة عامة .

والشيخ الظريف : « أبو الحسن على بن بكران » : وكان من كبار المتصوفة .

والشيخ : « أبو مسلم(٢) » : وكان رجلا عزيز الوقت طيب الحال .

والشيخ : « أبو الفتح بن سالبه(٣) » : وهو خلف طيب لأبيه ، ومرجو فيه .

والشيخ : « أبو طالب » : وكان رجلا أسير كلمات الحق .

ولم أر من هؤلاء شيخ الشيوخ والشيخ أبا اسحاق .

أما أهل قهستان(٤) وآذربايجان ، وطبرستان وقومس ، فمنهم :

الشيخ « شقيق فرج » المعروف بأخى الزنجانى(٥) : كان رجلا حسن السيرة ، محمود الطريقة .

والشيخ « وندرى » : وهو من عظماء هذه الطريقة ، وتؤثر عنه خيرات كثيرة ، وكان سلطانا تائبا ، ورجلا عيارا فى طريق الحق .

والشيخ « أبو عبد الله الجنيد » : وكان شيخا رفيقا ومحترما .

والشيخ « أبو طاهر المكشوف » : وكان من أجلة وقته .

---

(١) اسمه ابراهيم بن شهريار الكازرونى . فارسى الأصل والمولد ، ونشأ فى كازرون . كان مريدا للفيروز ابادى ، وصحب كثيرا من رجال الحديث . توفى سنة ست وعشرين وأربعمائة (انظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٥٤ ، سفينة الاولياء ص ١٦١ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢٢٥) .

(٢) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٣٨٠

(٣) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

(٤) « قهستان » : مخفف : « قوهستان » تعريب « كوهستان » ومعناها : موضع الجبل . واكثر بلاد العجم لا يخلو من موضع يقال له كوهستان وأما المشهور بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحى هراة ثم يمتد فى الجبل طولا حتى ينصل بقرب نهاوند وهمدان . فتحها عبد الله بن عامر بن كريز فى أيام عثمان سنة ٢٩ هـ (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٥) آخى الزنجانى : من كبار الشيوخ فى وقته . كان مريدا للشيخ أبى العباس النهاوندى مريد جعفر الخلدى تنسب اليه كرامات وخوارق كثيرة . توفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وقبره فى زنجان (انظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ١٤٨ ، سفينة الأولياء ص ١١٢ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٨) .

والسيد « حسين السمنانى » : وهو رجل ذو بلاء ورجاء .

والشيخ « السهلكى(١) » : وكان من فحول المتصوفة وصعاليكهم .

و « أحمد(٢) » بن شيخ خرقان ، وهو لأبيه نعم الخلف .

و « أديب الكمندى(٣) » : وكان من سادات زمانه .

وأما أهل كرمان ، فمنهم :

السيد : « على بن الحسين السيركانى(٤) » ، وكان سياح الوقت ، وذا أسفار طيبة ، وابنه « حكيم » رجل عزيز .

والشيخ : «محمد بن سلمة» ، وكان من كبار وقته وقبله كان المكتومون من أولياء الله عز وجل ، ويوجد الآن شبان وأحداث ذوو رجاء .

وأما أهل خراسان(٥) ، التى يظللها اليوم اقبال الحق ، فمنهم :

الشيخ المجتهد : « أبو العباس الشرمقانى(٦) » وكان ذا عيش حسن ، ووقت طيب .

والسيد « أبو جعفر محمد بن على الجوينى(٧) » ، وكان من عظماء هذه الطائفة والمحققين منهم .

---

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) أحمد بن أبى الحسن الخرقانى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ . وردت عنه اشارة فى أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٦٠ .

(٣) أورد له الجامى ترجمة لاتتعدى الاشارة الواردة فى كشف المحجوب (انظر نفحات الأنس ص ٣١٨) .

(٤) أظن أنه : (خواجه) على بن الحسن الكرمانى : كان من شيوخ كرمان ، ومريدا للشيخ « عمو » المتوفى سنة ٤٤١ هـ . ويبدو مما ذكره مؤلف أسرار التوحيد أن الكرمانى كان معاصرا لأبى طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ، وأبى على الخباز (انظر : أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٣٩٤ ، نفحات الأنس ص ٢٦٣ ، شد الازار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٥) « هذه المجموعة من الصوفية من أهل خراسان كانوا جميعا من معاصرى أبى سعيد ابن أبى الخير ، وبعضهم كانوا من طبقة الشيوخ أقران أبى سعيد ، والبعض الآخر من تلاميذ الشيوخ وأبنائهم ، ووردت فى أسرار التوحيد اشارات بشأنهم ، وان كان هناك بعض التحريف فى الأسماء » .

(٦) الشرمقانى : نسبة الى « شرمقان » : بلدة قريبة من اسفرائين بنواحى نيسابور .

(٧) أبو محمد الجوينى : من معاصرى أبى سعيد بن أبى الخير ، وزميله فى الدراسة على أبى بكر القفال . كان اماما من الشافعية ، تفقه على أبى الطيب سهل بن محمد الصعلوكى ، ثم خرج الى أبى بكر القفال وعاد الى نيسابور . كان عالما بالادب وغيره من العلوم . توفى سنة ٤٣٨ هـ (انظر : المنتظم ج ٨ ص ١٣٠ ، الكامل : حوادث سنة ٤٣٨ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٠) .

والسيد « أبو جعفر الترشيزى(١) » ، وكان من أعزاء الوقت .

والسيد « محمود النيسابورى(٢) » ، وكان مقتدى الوقت ، وذا لسان حسن .

والشيخ « محمد المعشوق(٣) » : وكانت حياته حسنة وطيبة .

والشيخ « حمزة المحب(٤) » : وكان شيخا طيب الباطن ، وميمونا .

والسيد « المظفر(٥) » ابن الشيخ أبى سعيد : وهو ذو رجاء فى أن يصير مقتدى القوم وقبلة القلوب .

والسيد « أحمد بن حماد السرخسى(٦) » ، مبارز الوقت ، وكان رفيقى مدة طويلة ، ورأيت من أمره عجائب كثيرة ، وكان من فتيان الصوفية .

والشيخ « أحمد النجار السمرقندى(٧) » ، وكان سلطان زمانه ، يقيم بمرو .

والشيخ « أبو الحسن على بن أبى على الأسود(٨) » ، وكان خلفا طيبا لأبيه ، وفريد عصره فى علو الهمة ، وصدق الفراسة .

---

(١) أبو على الترشيزى : من معاصرى أبى سعيد وأبى القاسم القشيرى . وردت بشأنه حكاية فى أسرار التوحيد . (انظر الترجمة العربية ص ١٠٤ — ١٠٦) .

(٢) محمود النسابورى : كان يعرف بالمريد ، وبلغ من عظمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل اليه المريدين ، ويقول انه سالك طبب (اسرار التوحيد : الترجمة العربيه ص ٨١) .

(٣) المشوق الطوسى : كان من عقلاء المجانين ، وشيخا عظيما كاملا ، يقيم فى طوس . التقى به أبو سعيد بن أبى الخر فى طوس وهو فى طريقه الى نيسابور . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٧٧ ، ترجمته فى نفحات الانس ص ٣٠٩) .

(٤) حمزة التراب : من معاصرى أبى سعيد . من أهل نيسابور . كان يقال له حمزة التراب لانه كتب يوما رقعة الى أبى سعيد ووقعها ، لشدة تواضعه ، بكلمة : « تراب القدم » ، فكتب أبو سعيد بيتا من الشعر على ظهر الرقعة وأرسلها اليه . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣١) .

(٥) أبو الوفا المظفر : الابن الثانى لأبى سعيد بن أبى الخير (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٣٩٠) .

(٦) كان رفيقا للهجويرى فى ما وراء النهر ، وسافر معه الى لاهور ، وظل بها الى أن توفى ، ولا يزال قبره بها داخل ضريح الهجويرى ، ومعروفا باسمه .
انظر القسم الاول . ص : ٩٠

(٧) أحمد النجار : من أقران أبى سعيد : أشير اليه أكثر من مرة فى أسرار التوحيد (انظر الترجمة ص ٥٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩) .

(٨) هو ابن الشيخ أبى على الأسود (سياه) المتوفى سنة ٤٢٤ هـ . كان من كبار مشايخ مرو ، ومعاصرا لأبى العباس القصاب ، وأبى على الدقاق وأبى سعيد بن أبى الخير ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أبى سعيد (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ١٩٣ ، ٢٦٩ ، وترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٩٠) .

وإذا عددت جميع المتصوفة من أهل خراسان فان ذلك يصعب ، فقد رأيت ثلثمائه متصوف فى خراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، ويكفى أن يكون فى العالم واحد منهم ، لأن شمس المحبة واقبال الطريقة فى طالع خراسان .

وأما أهل ما وراء النهر ، فمنهم :

السيد الامام ، مقبول الخاص والعام ، « أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمى(1) » : وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صاف ، وشفقة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق .

والسيد الفقيه ، وبين أصحابه الوجيه : « أبو محمد الباثغرى » كان ذا وقت طيب ، ومعاملات قوية .

و « محمد الآبلاقى » وكان شيخ وقته ، وعظيم زمانه ، وتاركا للرسوم والعادات والأسباب .

والسيد « العارف » : وكان فريد وقته ، وبديع عصره .

و « على بن اسحاق » : وكان سيد زمانه ، ورجلا محتشما ، وذا لسان عذب .

هذه أسماء الجماعة الذين رأيتهم جميعا وعرفت مناقبهم فردا فردا ، وكانوا جميعا من أهل التحقيق .

أما أهل غزنين وسكانها ، فمنهم :

الشيخ العارف ، وفى زمانه المنصف ، « أبو الفضل بن أسد » : وكان شيخا عظيما ، وصاحب براهين ظاهرة وكرامات زاهرة . وكان كشعلة من نار المحبة ، وحاله مبنى على التلبيس .

والشيخ المجرد ، المفرد من العلائق ، « اسماعيل الشاشى » ، وكان شيخا محتشما ، يسلك طريق الملامة .

---

(1) على بن عمر بن محمد بن الحسين الحرمى المعروف بالقزوينى : كان من كبار الصالحين ، قال أحمد بن على بن ثابت : كان أبو الحسن القزوينى أحد الزهاد المذكورين من عباد الله الصالحين . وتوفى سنة ٤٤٢ هـ صفوة الصفوة جـ ٢ ص ٢٧٥) .

والشيخ « سالار الطبرى » ، وكان من علماء المتصوفة وصاحب حال طيب .

والشيخ العيار ومعدن الأسرار ، « أبو عبد الله محمد بن الحكيم » المعروف بالمريد ، رحمه الله ، وكان من سكارى قرب حضرة الحق ، وأوحد فنه . وبحاله مستورة عن الخلق ، وله براهين ظاهرة ، وآيات زاهرة . وكان حاله فى الصحبة أطيب منه فى الرؤية .

والشيخ المحترم والمقدم على جميع العظماء ، « سعيد بن أبى سعيد العيار » : وكان حافظا لحـــديث النبى ، وعمر طويلا ، ورأى كثيرا من المشايخ . وكان قوى الحال ، ومطاعا ، ولكنه كان يتستر ولا يظهر معناه لأحد .

والسيد العظيم ، وقاعدة الاحترام والوقار ، « أبو العلاء عبد الرحيم ابن أحمد السفرى » ، كان عزيز القوم ، وسيد الوقت ، ويميل قلبى اليه . وهو صاحب وقت مهذب وحال طيب ، وخبير بفنون العلم .

والشيخ الأوحد ، « قسورة بن محمد الجرديزى » : المشفق على أهل الطريقة تمام الشفقة ، ولكل منهم لديه حرمة ، ورأى المشايخ .

وانى ، وفقا لما يرجوه عامة الناس وعلماء تلك المدينة ، أرجو أن يظهر فيها بعد هؤلاء رجال نعتقد فيهم ، وأن تتخلص من الطائفة التى تفرقت فيها وشوهت صورة هذه الطريقة ، وأن تصير أيضا محطا للأولياء والعظماء ان شاء الله تعالى .

فهرس موضوعات القسم الأول

الصفحة

كلمة وفاء ٥

تقديم ٧

الباب الأول : التعريف بالهجويرى . . . . . . ١٢—١٠٦

الفصل الأول : عصر الهجويرى من النواحى السياسية والثقافية والدينية ١٥

الفصل الثانى : التصوف فى عصر الهجويرى ٢٧

الفصل الثالث : التعريف بالهجويرى : موطنه ، أسرته ، مولده زواجه ٣٩

الفصل الرابع : ثقافته ، أساتذته وشيوخه ، الشخصيات التى تأثر بها ٥٥

الفصل الخامس : رحلات الهجويرى ٧٣

الفصل السادس : المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى : استقراره فى لاهور ، وفاته ، قبره ٧٩

الفصل السابع : مؤلفات الهجويرى ٩٧

الباب الثانى : التعريف بكتاب كشف المحجوب . . . . ١٠٧—١٨٨

الفصل الأول : تعريف بالكتاب : اسمه ، موضوعه ، تاريخ تأليفه ١٠٩

الفصل الثانى : أقسام الكتاب ١٢٣

الفصل الثالث : مصادر الكتاب ١٤٣

الفصل الرابع : مكانة الكتاب بين كتب التصوف ١٥١

الصفحة
الفصل الخامس : مظاهر التأثير والتأثر ١٦٥
الفصل السادس : القيمة العلمية للكتاب ١٨١
الفصل السابع : مخطوطات الكتاب ، طبعاته ، الترجمة الانجليزية ١٨٥

فهرس موضوعات القسم الثانى

(ترجمة كتاب كشف المحجوب)

مقدمة المؤلف ١٩١
الباب الأول : باب اثبات العلم ٢٠٣
الباب الثانى : باب الفقر ٢١٥
الباب الثالث : باب التصوف ٢٢٧
الباب الرابع : باب لبس المرقعة ٢٤١
الباب الخامس : باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ٢٥٥
الباب السادس : باب بيان الملامة ٢٥٩
الباب السابع : باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة ٢٦٧
الباب الثامن : باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت ٢٧٥
الباب التاسع : باب فى ذكر اهل الصفة ٢٨٥
الباب العاشر : باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار . ٢٩١
الباب الحادى عشر : باب فى ذكر ائمتهم من اتباع التابعين الى يومنا هذا ٢٩٧
الباب الثانى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين ٣٧٥
الباب الثالث عشر : باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين من أهل البلدان ٣٨٧

وقعت أخطاء مطبعية بعضهـا لا يخفى على فطنة القارئ وفيما يلى بيان بالأخطاء الهـامة ، رجاء أن يقوم القارئ بتصحيحها قبل القراءة ليستقيم المعنى :

الصفحة	السطر	غلـــط	صـــواب
٥	٢١	صحيتى	صحبتى
١٧	١	تمض	يمض
١٧	٩	ادولة	الدولة
١٨	١٣	يسيتطع	يستطع
٢٢	١٠	الفردوس	الفردوسى
٢٩	١١	واتخاد	واتحاد
٣٣	٥	والأمر	والأمراء
٣٣	ح ١	المنعم	النعيم
٣٨	١٧	الجرجاوى	الجرجانى
٤٠	١	باسم « غزنه »	باسم « غزنى »
٤٠	س آخر	ومنهـا	ومنهما
٤٥	٣	يخشى	يخش
٤٦	٨	يخلش	يخش
٤٧	١٤	الفضضل	الفضل
٥٠	٤	مدينة	ميهنه
٥٠	٨	أثـار	أشـار
٦٦	١٨	نيسابورا	نيسابور مركزا
٦٧	١٨	واستخدامها	واستخدمها
٧٧	٧	اليسارية	السيارية
٨٥	١٢	تولى	توالى
٩٢	١١	الجهويرى	الهجويرى
٩٢	١٧	استطاع	استطاعت
٩٧	٧	الدارس	والدارس
١٠١	٧	تقبلا	مستقبلا
١٠١	٢١	حالة	حاله
١٠٣	س آخر	كراجى	كراتشى
١٠٤	١٢	الأشرار	الأسرار
١٠٩	١٣	كتاب فى	كتاب
١١٠	٦	وكمل	وكل
١١٠	٢٤	بشربت	بشريت
١١٣	١٢	العقوب	العقول
١١٥	١٦	معاصرة	معاصره
١١٨	ح - ٦	انظر ص	انظر ص ٨٤
١١٩	ح ، ١	انظر ص	انظر ص ٨٣

تابع (الخطأ والصواب)

الصفحة	السطر	غلط	صواب
١١٩	ح ، ٣	انظر ص	انظر ص ١٩
١٣٠	٧	العبادات	العبارات
١٣٣	٢٧	محموديه	محمويه
١٣٥	١٢	الحارس	الحارث
١٣٥	٢١	المؤلفان	المؤلف
١٣٩	١٨،١٧	الظاهرة	الظاهرية
١٤١	٦	ص ٤٧٢	ص ٤٣٢
١٥٣	١٨	السر ،ج	السراج
١٥٥	ح ١	سلمى	السلمى
١٥٩	١١	وآن الشعراء	ولأن للشعراء
١٥٩	١١	ناول	تناول
١٦٢	١٠	ألا لأنس	الأنس
١٦٢	١٢	الدشتى	الجشتى
١٦٨	٢١	ولندر	واندر
١٧٤	ح ٢	انظر ص	انظر ص ١١٧
١٧٤	ح ٣	انظر ص	أنظر ص ١٣١
١٩٣	٢	الذك	الذى
١٩٣	١٩،١٧	ظاهرة	ظاهره
١٩٤	١٢	فالحاجب	فالحجاب
١٩٦	٧	بالتفيق	بالتوفيق
١٩٦	١٨ ح ١	بخصوصهم	بخصومهم
٢١٠	١	يتيمكن	يتمكن
٢٢١	ح ٣	انظر ص	انظر ص ٦٤
٢٢٤	١	انتظارا	انتظار
٢٢٥	ح ١	خزائنه	خزانه
٢٢٥	ح ١	هذال	هذا ال«
٢٢٨	٨	الصفاء	للصفاء
٢٣٥	٢	تكوم	تكون
٢٤١	٣	وليس	ولبس
٢٤٥	٢٠	يرقدونها	يرتدونها
٢٤٥	قبل الأخير	أرجوا	أرجو
٢٤٦	٣	ولا يغنى	ولا يفى
٢٤٧	ح ٣	انظر ص	انظر ص ٥٨
٢٤٨	٦	(٥)	(١)
٢٥٠	٢١	محله	محلة
٢٥٠	ح ١	انظر ص	انظر ص ٣٩
٢٦٦	١٩	بقشرة	بقشره
٢٦٦	٤ ح ١	جيهون	جيحون

تابع (الخطأ والصواب)

الصفحة	السطر	غلط	صواب
٢٦٩	١٠	فصنعه	فصنعة
٢٧١	١٤	لا تصفوا	لا تصفو
٢٧٣	١٦ ح ١	عبادة	عبارة
٢٧٦	١٦	بفلية	بغلبة
٢٧٦	قبل الأخير	ثلحكايات	الحكايات
٢٧٧	٤	فيهـا	أيهـا
٢٨٢	١٦	بنوا	بنو
٢٩٠	ح ١	أسره	أسر
٢٩٩	٢٣	واسه	واسه فى
٣٠٢	١٧	لحق الحق	لحق
٣٠٣	١٢	جبشوتى	خبشونى
٣١١	١	سالما بن	سالم بن
٣١١	١١	يا فضل	يا فضيل
٣١٢	٩	خشوعة	خشوعه
٣١٢	٢١	كعادت	كعادة
٣١٢	الأخير	مراد كما	مراد كم
٣١٤	ح ٥ س ٦	أصرت	أمرت
٣١٧	٤	جميع	جمع
٣٢٤	١٧	يكرم	بكرم
٣٢٤	٢ ح ١	خمس عشر	خمس عشرة
٣٣١	١ ح ١	عين ندما	عندما
٣٣١	٤ ح ١	آطفال	الأطفال
٣٣٣	٢ ح ١	نساوا بيورد	نسا وابيورد
٣٣٣	٢ ح ١	يا خرز	باخرز
٣٣٤	٨	مـام	إمـام
٣٣٤	١٣	البصيرة	البصرة
٣٣٥	٨	ذكريا	زكريا
٣٣٥	٢٨	مذهبة	مذهبه
٣٣٦	٢٠	حله	حاله
٣٤٠	٧+١ح١	خيبق	خبيق
٣٤٠	١ ح ٢	فـو	فلا
٣٤٢	٢	الدصيقين	الصديقين
٣٥٧	١٣	اضى	أمضى
٣٦٢	٢١	القومطى	القرمطى
٣٦٤	١٠	ريت	رأيت
٣٦٥	٤	لا بفقد	لا يفقد
٣٧٧	٧	غلية	غاية
٣٨٠	٢٤	قدونى	قدوقى

مطابع الاهــرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/٢٦٤٨

مطابع الأهرام التجارية

Bibliotheca Alexadrina
0300121